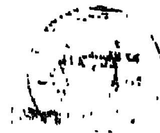
الأحوال الأجتماعية والأقتصادية
في بلاد الجزيرة الفراتية

خلال القرن السادس الهجري
الثاني عشر الميلادي

الدكتور سوادي عبد محمد



الطبعة الاولى - لسنة ١٩٨٩

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد سنة ١٩٨٩



طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة . « آفاق عربية »
رئيس مجلس الادارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان ـ بغداد ـ اعظمية
ص. ب. ٤٠٣٢ ـ تلكس ٢١٤١٣ ـ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

الاهـــداء

الى

الروحيّة العظيمة التي يتجلّى بها الانسان العراقي

زمن الحـــرب

الى هذا الانسان : المدافع

بالقلـــم والبندقيـــة عن حرية الفكر

والتعبير عن الارادة الانسانية الخيّرة

. . . . : الساعي

من أجل أن تظل شـــجرة العلم الرصين

والأدب الرفيع والفن المبـــدع وارفـــة

الظلال

في بـــلاد وادي الرافـــدين العريقـــة

. . . . الذي يكتب التأريخ العربي

من جديد

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب ، هو جهد متواضع في ميدان دراسة التأريخ الاجتماعي والاقتصادي لبلاذ الجزيرة الفراتية (العراقية) في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) لا أراه استوفى الا بعض جوانبه ، ولكن مع ما يعانيه من نقص ، فاني أطمح أن يكون باعثاً للكتّاب والباحثين لتناول دراسات في هذه الجوانب الحيوية من التأريخ العربي الاسلامي وذلك على الرغم من انها ميادين شاقة في الدراسة ولكنها ممتعة مفيدة وتخلص الى نتائج مثمرة ، كما انها تضع الاساس الذي ترتكز عليه أحداث التأريخ السياسي والعسكري .

ولعلي لا أعدو الحقيقة اذا قلت ، ان الاستنتاجات التي خلصت اليها هذه الدراسة ، كانت على جانب كبير من الأهمية ويمكن للقارىء الكريم أن يتلمسها بوضوح من خلال استيعاب البحوث التي تضمنها الكتاب بأبوابه الثلاثة وفصوله الخمسة عشر فضلا عن الفصل الخاص بالتمهيد في جغرافية الجزيرة الفراتية وأهميتها بين أقاليم الخلافة العباسية .

ويمكن القول ، ان توجيه الاهتمام الى هذه الجوانب من التأريخ العربي الاسلامي سيسهم بدون شك في صياغة جديدة له تستجيب للنداءات المخلصة في اعادة كتابة التأريخ العربي وسيقدم

خدمة جليلة لتراث أمتنا في الحضـــارة المادية والروحية التي أرسى أساسها العرب المسلمون في جميع البلاد الاسلامية ·

والكتاب الذي أضعه بين أيدي القراء الاعزاء من المتخصصين والمثقفين عموماً والساعين الى الاطلاع على تأريخنا وتراثنا ، انما هو ثمرة من ثمار التحليل التأريخي المستند على النصوص والحقائق التأريخية ، بعيداً عن المبالغة وأقرب الى الموضوعية والعقلانية في التفسير التأريخي للأحداث والوقائع ·

وقد تبين ان تأريخ الجزيرة الفراتية مرتهن أشـد الارتهان بأوضاعها الاقتصـادية والاجتماعيـة ، ولذلك جرى الاهتـداء في تفسير الأحداث السياسـية والعسكرية والادارية والفكريـة لهذه البلاد خلال القرن السادس الهجري أو الفترات السابقة أو اللاحقة له بقليل بواقعها الاقتصادي والاجتماعي ·

ان الازدهار الاقتصادي الذي شهدته هذه البلاد والمتمثل في التجارة والزراعة والصناعة ونظام الري والارواء والنظام النقدي ووفرة المعادن والمواد الاولية والخام يقدم صورة واضحة عن النظم السياسية والعسكرية والادارية والعلميـة وعن الدور المهم الذي لعبته على نطاق العالم الاسلامي · كما ان ما شهدته بلاد الجزيرة من تطورات في الحيـاة الاجتماعية وتنظيماتها وأصولهـا وتقاليدها ، يعكس كذلك الصورة الحيّة من القوة والاحكام في سياسة بلدانها وأقاليمها ووقـوف أهلها بصلابة أمـام القوى الخارجيـة المتمثلة بالصليبيين الذين تدفقوا في بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجـري على المشرق العربي بغية الاسـتيلاء على الاراضي المقدسة وفلسطين و بـلاد الشام وبلاد الجزيـرة الفراتية وبالمغـول الذين استهدفوا هذه البلاد لتكون جناحاً غربياً لامبراطوريتهم الممتدة من أواسط آسيا حتى المشرق والعراق ·

وغني عن البيان ـ ان ما تطلبه مني العمل الدؤوب على انجاز هذه الدراسة ، يفوق الجهود التي تبذل في دراسات التاريخ العام أو تأريخ العلاقات السياسية أو النزاعات العسكرية أو أحداث الحروب والمعارك وخاصة فيما يتعلق بالحصول على النصوص والحقائق التي تفسر التأريخ الاقتصادي والاجتماعي .

ولا يفوتنا القول في هذا المقام ، اننا نستهدف من عملنا هذا خدمة أمة العرب التي حملت الاسلام الى شعوب الارض قاطبة لتجعله بداية تأريخ لحضارتها وتراثها الخالد ؟

المؤلف

البصرة في ١٥/١٠/١٩٨٦

الفهـــــرس

مقدمة المؤلف	٧
الفهرس	١١
المقدمة	١٧
دراسة في المصادر والمراجع	١٩

تمهيـــــد

أ ـ جغرافية الجزيرة الفراتية	٣٣
ب ـ أهمية الجزيرة الفراتية بين أقاليم الخلافة العباسية	٤٤

الباب الأول

النظم الاجتماعيــة

الفصل الاول ـ السكان والمدن والتوزيع البشري	٥٣
ـ السكان والمدن	٥٧
ـ التوزيع الديني والثقافي للسكان	٦٤
الفصل الثاني ـ المدن والقرى ومضارب القبائل العربية في الجزيرة الفراتية	٦٩

ـ أحوال المدن والقرى في أرض الجزيرة	٧١
ـ التخصص الوظيفي للمدن	٨٢
ـ القبائل العربية	٨٨
الفصل الثالث ـ المسلمون وأهل الكتاب	٩٨
ـ المسلمون	٩٩
ـ المسيحيون	١٠٣
ـ اليهـود	١١٢
ـ المساجد والكنائس	١١٨
الفصل الرابع ـ الاحوال الصحية	١٢٣
ـ الامراض وانتشارها	١٢٥
ـ البيمارستانات	١٣٣
ـ الأطبـاء	١٣٥
ـ الأدوية والعلاج	١٣٩
الفصل الخامس ـ العادات والتقاليد	١٤٣
ـ العادات والتقاليد	١٤٥
ـ الاعياد الاسلامية	١٤٦
ـ الاعياد المسيحية	١٥١
الفصل السادس ـ الطبقات الاجتماعية	١٥٦
ـ الطبقات الاجتماعية	١٥٩
ـ طبقة الامراء والخاصة	١٦٨
ـ طبقة العامة وفئاتها	١٧٠
ـ الهاشميون وأمراء المماليك	

الباب الثـــاني

الأحوال الاقتصادية والادارية

الفصل الاول ـ نظام الري والزراعة ١٨٠

ـ نظام الري ١٨١

ـ الانهار ـ نهر الفرات ١٨٢

ـ روافد الفرات ١٨٩

ـ نهر دجلة وروافده ١٩٢

ـ الامطـــار ١٩٧

ـ القنوات والعيون والسدود ٢٠٠

ـ الفيضان ٢٠٦

ـ الزراعة

ـ المناطق الزراعية

الفصل الثاني ـ الاقطاع ٢٣٤

ـ الاقطـاع ٢٣٥

ـ الاقطاع العسكري ٢٤٠

ـ الاقطاع الوراثي ٢٤١

ـ الاقطاع السياسي ٢٤٤

ـ أقطاع المدن ٢٤٥

الفصل الثالث ـ الضرائب : أنواعها ، أسلوب جبايتها ٢٤٩

ـ الضرائب	٢٥١
ـ أنواع الضرائب	٢٥٢
ـ أسلوب جباية الضرائب	٢٦٤
الفصل الرابع ـ الصناعة	٢٧٠
ـ الصناعة	٢٧١
ـ صناعة النسيج والملابس	٢٧٢
ـ صناعة الأواني والآلات والأدوات	٢٧٧
ـ المعادن	٢٨٧
ـ صناعة الخمر والسكر	٢٩٤
الفصل الخامس ـ النشاط التجاري والنظام النقدي	٢٩٩
١ ـ النشاط التجاري	٣٠١
ـ الطرق التجارية	٣٠٣
ـ التجارة الداخلية والخارجية	٣٠٨
ـ التجار	٣١٤
ـ الأسواق	٣٢١
ـ النظام النقدي	٣٢٥
الفصل السادس ـ نظم الادارة والقضاء	٣٣٨
ـ نظم الادارة ووظائفها	٣٣٩

ـ التقسيمات الادارية العامة ٣٥٤
ـ المحتسب ٣٥٩

الباب الثــالث

العلاقات والنظم السياسية والعسكرية

الفصل الاول ـ العلاقات السياسية ٣٦٧
ـ العلاقات الأتابكية الأرتقية ٣٧٠
ـ الدور السياسي للأكراد خلال القرن السادس الهجري ٣٧٥
ـ العلاقات مع بلاد الشام ٣٧٨
ـ أمــراء الجزيــرة الفراتيــة والصليبيون ٣٨٣
ـ العلاقات بــين صــلاح الدين الأيوبي وأمراء الجزيرة ٣٩٨
ـ موقف الاراتقة من الصليبيين ٤٠٨
الفصل الثاني ـ التقاليد والنظم السياسية ٤١٢
ـ التقاليد السياسية ٤١٣
ـ النظم السياسية (الأتابكية) ٤٢١
ـ الوزارة ٤٢٤
ـ الكتابــة ٤٣١
ـ الحجابــة ٤٣٣

الفصل الثالث ـ النظم العسكرية ٤٣٨
ـ النظم العسكرية (الجيش) ٤٣٩
ـ الشرطـة ٤٤٩
ـ الوظائف العسكرية ٤٥٠
الملحق ـ نمـاذج مما ذكره ياقـوت عن بلاد الجزيرة ٤٥١
المصادر والمراجع

المقدمـــــة

تكتسب الدراسات التأريخية التي تتناول الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والادارية ، أهمية بالغة في الوقت الحاضر لدى المتخصصين وكتاب التاريخ والمتتبعين ، وخاصة اذا كانت هذه الدراسات تقوم على التفهم التحليلي لتأريخ المجتمعات لان النظم والأحوال الاجتماعية والاقتصادية تمثل جوانب حيوية من الخبرة التأريخية التي اكتسبتها تلك المجتمعات وأساساً يفضي الى فهم الكثير من آثارها .

وهذه الدراسة ، هي محاولة لتقديم خلاصة تحليلية للتأريخ الاجتماعي والاقتصادي والاداري ، ومن ثم السياسي والعسكري في منطقة الجزيرة الفراتية التي لم تحظ باهتمام في مثل هذه الدراسات خلال القرن السادس الهجري ، حيث تمثل هذه الفترة ، عصر ازدهار اقتصادي لمنطقة الجزيرة ؛ ومن الناحية السياسية ، فان هذه الفترة من أشد الفترات تحرجاً في المشرق العربي الاسلامي ، حيث كانت جحافل الصليبيين تجوس ديار بلاد الشام والجزيرة لفرض الاستيلاء على الأراضي المقدسة في فلسطين ، وتنظيم حملات صليبية مستمرة لتهديد مصر وسورية وقيام امارات صليبية في سورية وفلسطين وبلاد الجزيرة ، تحاول التوسع على حساب الدول والامارات الاسلامية المجاورة لها .

ان دراسة الأحوال والتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والادارية لبلاد الجزيرة في القرن السادس الهجري ، بنيت على أساس ان هذه البلاد ، هي وحدة متكاملة حضاريا ومتجانسة اجتماعيا واقتصاديا ولها خصائصها المميزة ، وذلك على الرغم من ان هذه البلاد مؤلفة من امارات محلية وامارات مدن وكيانات مختلفة وعديدة تخضع أحيانا الى قيادة سياسية موحدة أو يستقل بعضها عن الآخر في أحيان كثيرة ٠

ولعل الدراسة على هذا الاسلوب الذي يجمع بين الوحدة التأريخية وبين الخصائص المميزة لكل وحدة مستقلة ، هي محاولة لوضع بحوث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الاسلامي في هذه الفترة التأريخية ، يكون لها تأثيرها الواضح في مجريات التأريخ السياسي والعسكري ٠ كما أن وضع هذه الدراسة في اطارها الصحيح من حيث الفترة التأريخية لا يجعلها أسيرة القرن السادس الهجري وحده ، بل لابد أن يكون لها جذور تمتد بشكل واضح الى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، أي أن التنظيمات والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والادارية والسياسية التي تصدت لها هذه الدراسة ، انما هي استمرار لما كانت عليه تلك الظواهر الحضارية قبل هذا القرن ، وقد تبلورت واتخذت لها خصائص معينة بعد ذلك ٠

دراسة في المصادر والمراجع

تطلبت هذه الدراسة الاستناد الى مصادر أولية عديدة ، عربية وغير عربيــة ، مخطوطة ومنشــورة ، تأريخية وجغرافيــة وأدبية ومعجمات لغـــة وموسوعات اسلامية ودوائر معـــارف ودوريات وغيرها كثير من الوثائق والأسانيد ·

أ ــ ففي المصادر المخطوطة ، مادة أساسية ومعلومات مهمة لموضوع الدراسة ، وأهمها كتاب (تاريخ امد وميافارقين) لأحمد بن يوسف بن علي بن الازرق ، المعــروف بالفارقي المتــوفي سنة (٥٧٢هـ/١١٧٩م) والموجـــود في مكتبة جامعـــة اكسفورد (Oxford) تحت رقم (6, 310) فقد أودع المؤلف في كتابه هذا معلومات جيدة عن العلاقات السياسية بين الاراتقة والاتابكيين، فضلا عن تقديمه تفاصيل عن الجوانب الحضارية للاراتقة ، وخاصــة ما يتعلق بالنظــم والاحوال الادارــة والاقتصادية والاجتماعية ·

وقدم ابن شــداد ، عزالدين محمد بن علي بن ابــراهيم المتوفى سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) في كتابه الذي لايزال مخطوطاً والموسوم بـ(الاعلاق الخطيرة في ذكــر أمراء الشام والجزيرة) ــ قسم الجزيرة ــ الموجود في مكتبة جامعة أكسفورد (Oxford)

أيضا برقم (Bold. March 33) أخبارا مهمة عن مدن الجزيرة وأحوالها السياسية والعسكرية على الرغم من اعتماده على كتب المؤرخ ابن الازرق الفارقي فيما نقل عنه من روايات بهذا الشأن • كما انفرد ــ ابن شداد ــ بالقاء ضوء كاف على أحوال مدن الجزيرة وقراها ومواضعها وخاصة الاجتماعية والعمرانية ، فدعم بذلك كثيرا من الحقائق والمعلومات والآراء التي جاءت في المصادر الأخرى في هذا المجال ، مماكان له أثره في التوثيق التأريخي لهذه الدراسة • وفي الآونة الأخيرة ، حقق يحيى عبارة هذا المخطوط وكتب له مقدمة وافية وطبعه وزوده بكثير من الايضاحات والملاحق •

ونجد في المخطوط الذي وضعه مؤلف مجهول من أهل القرن السادس الهجري بعنوان (انسان العيون في مشاهير سادس القرون) ويقع في مجلد واحد في مكتبة الدراسات العليا ــ بغداد ــ تحت رقم (٤٤٨) ، معلومات قيّمة عن الحياة الاجتماعية في بعض مدن الجزيرة الفراتية وخاصة في مدينة اربل فقد وصف الاحتفالات التي كانت تقام بمناسبة عيد المولد النبوي اذ يصور لنا مدى الاهتمام بها ، مما يعطينا صورة عن الاحوال والطبقات الاجتماعية هذا فضلا عن تطرقه لسيرة عدد من المشاهير ممن لعبوا دورا في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة خلال القرن السادس الهجري ، وبذلك أتاح للبحث التوصل الى كثير من الآراء والاستنتاجات •

وهناك مخطوط ، أغنى هذه الدراسة بالمعلومات الجغرافية وهو لمؤلف مجهول من أهل القرن السادس الهجري ، وقد كتب على غلافه (قطعة من كتاب في الجغرافية) ، موجود في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب ــ بغداد تحت رقم (٣٢٤)

ويبدو انه جزء من كتاب ضخم فقد اغلبه • وكان أهم ما احتواه هذا الكتاب ذكرا للمعادن في أرض الجزيرة مثل النفط والقار والزفت والزرنيخ والذهب والفضة والنحاس والصفر والزئبق والرصاص وغيرها ، مما يقدم لنا صورة عن تجمع الثروات وتوفر المواد الخام الضرورية لقيام الصناعة •

واعتمدت الدراسة على مخطوط (كتاب عجائب البلدان والجبال والاحجار وغير ذلك) الذي كتبت عليه عبارة (نسخة وحيدة في العالم) وقد وضعه مؤلفه علي بن عيسى سنة (٨٧٣هـ /١٤٦٨م) والمودع في مكتبة الدراسات العليا ـ بكلية الآداب ـ بغداد تحت رقم (١٤) اذ كان لهذا المخطوط أثر كبير في الحصول على معلومات مفيدة عن الجبال والاحجار والمعادن التي تضمها أرض الجزيرة ، كما احتوى على وصف دقيق للحياة الاقتصادية للسكان في بعض مدن الجزيرة ومستوطناتها •

وهناك مخطوط آخر ، أفاد هذه الدراسة وهو (التأريخ الغياثي) لعبدالله بن فتح الله البغدادي (المتوفى حوالي سنة ٨٨٣هـ/١٤٧٨م) وتضمه مكتبة المتحف العراقي تحت رقم (٨٨١) وقد ألقى هذا المخطوط الضوء على الاحوال والعلاقات السياسية بين الدويلات والامارات الاتابكية والأرتقية مع بعضها من جهة ومع بلاد الشام والعراق ومصر من جهة أخرى •

ومن المخطوطات التي أمدّت الدراسة بالحقائق التأريخية المهمة مخطوط (عقد الجمان في تأريخ أهل الزمان) وهو نسخة مصورة في دار الكتب المصرية تحت رقم (١٥٨٤) لمؤلفه بدرالدين محمود ابن أحمد المعروف بالعيني المتوفي (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) ويقع في (٦٩) مجلدا ، ولكن الاجزاء التي رجعنا اليها هي الجزء الثالث والرابع والثاني عشر والثالث عشر

والجزء الواحد والعشرون (بقسميه الأول والرابع) والجزء الثالث والعشرون (بقسمه الثالث) والجزء الخامس والاربعون ، حيث جاء فيه وصف دقيق للاحوال السياسية والعلاقات العسكرية وخاصة فيما يتعلق بعلاقات صلاح الدين الايوبي مع أمراء الشام والجزيرة الفراتية وأخباره ووقائعه مع الصليبيين ونشاطه في توحيد الجبهة الاسلامية لمجابهة الخطر الصليبي والبيزنطي .

أما مخطوط ابن الدبيثي ، محمد بن سعيد الواسطي المتوفى سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) الموسوم ب (التأريخ المذيل به على تأريخ ابن السمعاني) وهو جزءان وتوجد منه نسخة مصورة غير كاملة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب — بغداد — فقد احتوى على تراجم للاعيان والكبراء والخاصة والعلماء والفقهاء والمدرسين الذين عاشوا في مدن الجزيرة ، وتلقي سيرهم ضوءا مفيدا على الاحوال والطبقات الاجتماعية وعلى طبيعة التمايز الطبقي .

كما اعتمد المؤلف على مخطوط (تأريخ الاسلام) وهو نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي — بغداد تحت رقم (٣٠٩) لمؤلفه شمس الدين أبي عبدالله أحمد بن عثمان المعروف بالذهبي المتوفى سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ويتناول في مواضع كثيرة منه الحديث عن العلاقات والاحوال السياسية والعسكرية التي سادت في منطقة الشام والجزيرة الفراتية والعراق .

أما مخطوط ابن النجار ، محب الدين أبي عبدالله بن محمود المتوفى سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) ، الموسوم ب (ذيل تأريخ بغداد مدينة السلام) ومنه جزء مصور في مكتبة كلية الآداب في جامعة بغداد ، فقد احتوى على معلومات قيمة عن

سير وتراجم الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والعلماء والفقهاء وأتاحت هذه المعلومات التعرف على الاحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في منطقة العراق والجزيرة وبلاد الشام ٠

وهناك مخطوط مهم أيضا وهو كتاب (وصف ما بين النهرين وبغداد) وتوجد نسخة مصورة منه محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني وضعه ابن سرابيون حوالي سنة (٢٨٨هـ/ ٩٠٠م) من خلال رحلته ومشاهداته لمنطقة شرق العالم الاسلامي ومنها بلاد الجزيرة الفراتية ٠ وقد ضم هذا الكتاب معلومات جغرافية واثنولوجية ثمينة كان لها أكبر الفائدة لموضوع الدراسة حيث تطرق في حديثه عن نهري دجلة والفرات وروافدهما وتفرعاتهما من حيث المنابع والمصبّات وما ترتب عليه من انشاء المدن والقرى وقيام الزراعة ومياه الري ٠

ب ـ اما المصادر المنشورة ، التي أمدت هذه الدراسة بفيض من المعلومات والحقائق التاريخية ، فيأتي في مقدمتها الكتابان اللذان وضعهما ابن الأثير ، عزالدين محمد بن عبدالكريم الجزري المتوفى سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) وهما (التأريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل) والآخر (الكامل في التأريخ) حيث تضمنا أخبارا مهمة عن الاتابكيين والاراتقة ونظمهم الاجتماعية والاقتصادية وعلاقاتهم السياسية والعسكرية ٠

وقدم الفارقي ، أحمد بن يوسف بن الازرق في تأريخه معلومات مفيدة عن العلاقات السياسية بين الاراتقة والاتابكيين والنواحي الحضارية لهما ٠

واعتمدت الدراسة على سلسلة من المصادر المتكاملة وهي ، كتاب ابن الجوزي عبدالرحمن بن علي بن محمد المتوفى سنة (٥٩٧هـ/١٢٠٠م) وعنوانه (المنتظم في تأريخ الملوك والامم)

بأجزائه الخمسة ، وكتاب سبط ابن الجوزي ، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي البغدادي المتوفي سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) وعنوانه (مرآة الزمان) وكتاب ابن الساعي أبي طالب علي بن أنجب تاج الدين المتوفى سنة (٦٧٤هـ/١٢٧٥م) بعنوان (الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير) وكتاب ابن الفوطي ـ كمال الدين عبدالرزاق المتوفى سنة (٧٢٣هـ/١٣٢٣م) وعنوانه (تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب) بأجزائه الخمسة وكتاب اليونيني ، قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد المتوفي سنة (٧٢٦هـ/١٣٢٥م) وعنوانه (ذيل مرآة الزمان) وهو أربعة أجزاء . لقد احتوت كتب هؤلاء المؤرخين على أخبار ومعلومات عامة عن بلاد الجزيرة واماراتها وأغلبها يتصل بأحوال المدن والسكان ومهنهم وكل ما يتعلق بأحوالهم ، فضلا عن تقديمها الاخبار المفصلة عن النشاط السياسي والعسكري للاتابكيين والاراتقة والجديين بالاشارة الى أن هؤلاء المؤرخين ، كان بعضهم يكمل المعلومات التي جاء بها الآخر ، مما أغنى الدراسة في جوانبها المختلفة .

ووجد المؤلف فائدة ملموسة من الكتب المنشورة التي وضعها المؤرخون الشاميون والمصريون الذين عاشوا في القرن السادس الهجري وبعده أيضا ، ومنهم المؤرخ شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة المتوفي سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) وكتابه (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) الذي حققه ونشره الدكتور محمد حلمي محمد أحمد وكتابه الآخر المذيل به (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) وكتاب القاضي بهاء الدين بن شداد المتوفي سنة (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) وعنوانه (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وكتاب أبي الوليد محمد بن الشحنة المتوفي سنة (٨٨٣هـ/١٤٧٨م) (روضة المناظر في

أخبار الأوائل والأواخر) ، وكتاب كمال الدين عمر بن أحمد ابن هبة الله بن العديم المتوفى سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م) (زبدة الحلب من تأريخ حلب) وكتاب ابن القلانسي أبي يعلى حمزة ابن أسد المتوفى سنة (٥٥٥هـ/١١٦٠م) بعنوان (ذيل تأريخ دمشق) . وكتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) بثلاثة أجزاء لابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم المتوفى سنة (٦٩٧هـ/١٢٩٧م) وكتاب (مضمار الحقائق وسر الخلائق) لمحمد تقي الدين عمر صاحب حماه المتوفى سنة (٦١٧هـ/١٢٢٠م) وكتاب ابن كثير ، اسماعيل ابن عمر الدمشقي المتوفى سنة (٧٧٤هـ/١٣٧٢م) وعنوانه (البداية والنهاية في التأريخ) فقد اشتملت كتب هؤلاء المؤرخين جميعاً على مادة على جانب كبير من الاهمية التأريخية لموضوعات الكتاب فقد عززوا الحقائق التي جاءت عند زملائهم المؤرخين في العراق وبلاد الجزيرة ، أو انفردوا بذكر معلومات عن علاقات أمراء الجزيرة بحكام بلاد الشام والبلاد المصرية وبصورة خاصة صلاح الدين الايوبي ، أو بذكر أخبار الصليبيين وحروبهم ومقاومتهم واستعداد المسلمين للتصدي لهم والوقوف ضدهم وضد اماراتهم الاربع التي أقاموها في منطقة الشام والجزيرة وزحفهم لتوسيع مناطق نفوذهم في ديار المسلمين . كما نجد في كتب هؤلاء ما يلقي بعض الضوء على الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والادارية في بلاد الجزيرة الفراتية .

أما كتاب القلقشندي ، أحمد بن أبي اليمن القاهري المتوفى سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م) (صبح الاعشى في صناعة الانشا) وكتاب المقريزي تقي الدين أحمد بن علي المتوفى سنة (٨٤٥هـ/١٤٤١م/) (السلوك لمعرفة دول الملوك) ، وكتاب ابن تغري بردي ، أبي المحاسن جمال الدين يوسف الأتابكي المتوفى سنة (٨٧٤هـ/١٤٦٩م) (النجوم الزاهرة في

ملوك مصر والقاهرة) فلم يقلّوا أهمية عن سابقيهم من المؤرخين الشاميين في تقديم المعلومات والاخبار عن بلاد الجزيرة الفراتية وهي معلومات لا يمكن أن تستغني عنها هذه الدراسة ، وخاصة ما يتعلق ببعض النواحي الحضارية للاتابكيين والاراتقة والأيوبيين من بعدهم ، هذا الى جانب اظهار التأثيرات السياسية والعسكرية التي تركها حكام الجزيرة في المنطقة خلال القرن السادس الهجري ، فضلا عما جاء في هذه المصادر من تفصيلات مهمة عن الوظائف الادارية المدنية ونظم الجيش وفرقه وقادته وجنوده والوظائف العسكرية .

وفي كتب التراجم مادة لا يستهان بها لموضوع هذه الدراسة مثل كتاب (وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان) لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان المتوفى سنة (٦٨١هـ/١٢٨٢م) وكتاب (فوات الوفيات) لمحمد بن أحمد ابن شاكر الكتبي المتوفى سنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) وكتاب : (الوافي بالوفيات) لابن ايبك الصفدي المتوفي سنة (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) وكتاب (تاج التراجم في طبقات الحنفية) لأبي العدل زين الدين قاسم بن قطلوبغا المتوفي سنة (٨٧٩هـ/١٤٧٤م) وكتاب (الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية) للقرشي ، محيي الدين أبي محمد عبدالقادر بن أبي الوفاء الحنفي المتوفى سنة (٧٧٥هـ/١٣٧٣م) وكتاب (طبقات الشافعية الكبرى) لأبي نصر عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي المتوفى سنة (٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) فقد عكست لنا هذه المؤلفات من خلال ما قدمته عن بعض الأشخاص الذين عاشوا في مدن الجزيرة في هذه الفترة ، صورة عن التمايز الاجتماعي والطبقات الاجتماعية ، كما أوضحت التقسيمات الاجتماعية القائمة على أسس دينية ، فضلاً عن احتوائها على مادة غنية لجوانب متعددة

من الدراســة في موضوعات الحياة الاقتصــادية والاقطاع والقبائل العربية ، وغيرها .

واقتضى البحث في هذا الكتاب ، دراسة المصادر المسيحية والسريانية التي اهتمت باظهار الدور السياسي والاجتماعي والثقافي لطــوائف المسيحيين واليهــود والصــابئة من سكان الجزيرة الفراتية ، ومن أهم المصــادر (التأريخ السرياني) باللغــة السريانية[1] لمؤلف مجهــول يعرف بالرهــاوي وكتاب (تأريــخ مختصر الدول) وكتــاب (تأريــخ الدول السرياني) باللغة العربية لابن العبري ، غريغوريوس أبي الفرج المالطي المتوفي ســنة (٦٨٢هـ/١٢٨٣م) وكتــاب (نزهــة الأذهان في تأريخ دير الزعفران) للأب افرام برصــوم ، وقد انفرد هذا المصدر بذكر النشاط الديني والاجتماعي للمسيحيين في بعض مدن الجزيرة مثل ماردين وحصن كيفا ونصيبين وغيرها .

أما الرحالة اليهودي الربّي بنيامين بن يونــه النباري الأندلسي التطيلي المتوفى في القرن السادس الهجري ، فقد زار معظم مدن الجزيرة خلال هذه الفترة وذكر معلومات مفصّلة عن يهود الجزيرة وأحوالهم الدينية والاجتماعية ، أودعها في كتابــه المسمى بـ (رحلة بنيامــين التطيلي) وكانت لهــذه المشاهدات أهمية كبيرة في هذه الدراسة .

والى جانب المصادر المسيحيــة واليهودية ، اهتم عدد من المؤرخين المسلمين بأحوال أهل الذمة من المسيحيين واليهود في هذه البلاد مثــل العمري شهاب‌الدين بن فضل‌الله المتــوفى سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) في كتابــه (مســالك الابصــار في ممالك الأمصار) الجــزء الأول منــه ، حيث تطرق الى ذكــر ديارات الجزيرة وأهميتهــا من الناحيتــين الاجتماعية والثقافيــة .

(١) قام بترجمة بعض النصوص الأب براهام نصوري .

ونشير بصورة خاصة الى المعلومات الثمينة التي جاءت في كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ الكناني الشيزري المتوفى سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م) حيث تطرق بشيء من التفصيل الى الأحوال والعلاقات الاجتماعية بين السكان وعاداتهم وتقاليدهم ٠

واستندت الدراسة الى كتب وضعها مؤرخو السلاجقة في اللغتين العربية والفارسية : مثل كتاب (تأريخ دولة آل سلجوق) باللغة العربية ، للفتح بن علي بن محمد البنداري المتوفى سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) والذي هو من انشاء عمادالدين محمد بن محمد بن حامد الأصبهاني المتوفي سنة (٥٩٧هـ) وكتاب (أخبار الدولة السلجوقية) باللغة العربية لمؤلفه صدرالدين أبي الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي المتوفى سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) وكتاب (تواريخ آل سلجوق) باللغة العربية للعماد الأصبهاني أبي عبدالله محمد بن محمد المتوفى سنة (٥٩٧هـ/١٢٠١م) وكتاب (تجزية الامصار وتزجية الاعصار) بالفارسية ، لشهاب‌الدين عبدالله بن فضل‌الله وصاف الحضرة والملقب بـ (الشيرازي) المتوفى (٧٣٥هـ/١٣٣٤م) وكتاب (تأريخ مبارك غازاني ، داستان غازان) بالفارسية لمؤلفه فضل‌الله بن عماد الدولة ، رشيدالدين المتوفى (٧١٨هـ/١٣١٨م) ، وعلى الرغم من أن هذه الكتب استهدفت اظهار تأريخ السلاجقة وأخبارهم الا أنها استعرضت كثيرا من الحقائق والاخبار والمعلومات التأريخية التي تتعلق بالأحوال الاقتصادية والادارية والسياسية لمعظم بلاد الجزيرة الفراتية، التي كانت في بداية القرن السادس الهجري ضمن ممتلكات سلاجقة ايران والعراق ٠

وزودت كتب ومؤلفات البلدانيين والجغرافيين المسلمين وغيرهم الدراسة في هذا الكتاب بكثير من المعلومات الجغرافية

والتأريخية ، ومنها كتاب (البلدان) لأحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م وكتاب (الاعلاق النفيسة) لأبي علي أحمد بن عمر بن رسته المتوفى حوالي (٢٩٠هـ/٩٠٢م) وكتاب (المسالك والممالك) لأبي القاسم عبيد بن عبدالله بن خرداذبة المتوفي حدود سنة (٣٠٠هـ/٩١٢م) وكتاب (نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة) المنشور مع كتاب (المسالك والممالك لابن خرداذبه ، ومؤلفه أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي المتوفى سنة (٣٣٧هـ/٩٤٨م) ٠ وكتاب (مسالك الممالك) لأبي اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المتوفي سنة (٣٤١هـ/٩٥٢م) وكتاب (صورة الارض) لأبي القاسم النصيبي المعروف بابن حوقل المتوفي سنة (٣٦٧هـ/٩٧٧م) وكتاب المقدسي البشّاري محمد بن أحمد المتوفي سنة(٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) بعنوان (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ٠ لقد كانت فائدة هذه المصادر عظيمة لموضوع الكتاب على الرغم من تقدمها على العصر الذي تناوله بالبحث اذ احتفظت المادة العلمية فيها بأهميتها حتى القرن السادس الهجري ولاسيما فيما يتعلق منها بجغرافية الجزيرة الفراتية وأهميتها الاستراتيجية والتجارية وطرق المواصلات والموارد والأحوال المالية وأمور الري والزراعة ، هذا فضلا عن فائدتها فيما يتعلق بالنواحي الاجتماعية وأحوال المدن والقرى ، وذلك على الرغم من التكرار الذي تميزت به بعض معلوماتهم ٠ ولابد من الاشارة الى كتاب (صورة الارض) لابن حوقل وكتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) للمقدسي ، اللذين كان لهما تأثيرهما الواضح في مسار البحث وخطوطه العامة ، حيث رسما صورة جليّة عن مدن وقرى الجزيرة وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية في القرن الرابع الهجري ،

وهي الصورة نفسها التي أوضحها ابن جبير وياقوت وابن سعيد المغربي في كتبهم عن الجزيرة الراتية ، مما يدل على استمرار الاوضاع فيها حتى القرن السادس الهجري • ولكن هؤلاء ذكروا معلومات عن المدن والقرى والمستوطنات خلال هذه الفترة شاهدوها واطلعوا عليها بأنفسهم ، كان لها أكبر الأثر في موضوعات الدراسة ، اذ كانت رحلة ابن جبير محمد ابن أحمد الكناني الأندلسي المتوفى سنة(٦١٤هـ/١٢١٧م)الى بلاد الجزيرة في (٥٨٠هـ/١١٨٤م) قد احتوت على الكثير والمهم من المعلومات الدقيقة المتعلقة بالأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، حيث وصف القرى والمدن وألقى ضوءا كافيا على مظاهر العمران أو الخراب فيها وأسبابه •

كما احتل كتاب (معجم البلدان) لشهاب الدين أبي عبدالله الرومي البغدادي الملقب ب (ياقوت الحموي) المتوفى سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) مكانة فريدة بين هذه المصادر ، فهو يُعَدُّ من أدق وأوسع المصادر عن مدن وقرى الجزيرة وخاصة فيما يتعلق بأحوال السكان الاجتماعية والاقتصادية أو التقسيمات الادارية التي نتلمس أثرها فيما ذكر عن المدن والقرى فاطلق عليها تسميات (الكبيرة أو الصغيرة) أو ذكرها مجردة ، كما ذكر القصبة والضياع والاعمال والرساتيق وهي اصطلاحات يمكن أن نفهم منها بما يفيد التقسيمات والأحوال الادارية ، وقد احتوى كتابه هذا على قدر وافر من المعلومات عن مواضع الجزيرة ومدنها وقراها وأنهارها ودياراتها ومؤسساتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية • ان أهمية ياقوت لهذه الدراسة تكمن في معاصرته للأحداث ومشاهداته لمعظم بلاد الجزيرة •

وأخيراً ينبغي أن نشير الى الفائدة الملموسة التي حققها للبحث ، كتاب حمدالله المستوفي القزويني الذي عاش في القرن

السابع الهجري، بعنوان (نزهة القلوب)(٢) باللغة الانجليزية، حيث قدم معلومات جغرافية ومناخية قيّمة عن مدن الجزيرة ومواضعها مما كان له تأثيره الواضح في النشاط التجاري والزراعي الذي تميزت به بلاد الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، فضلا عما جاء في هذا الكتاب من حقائق وأخبار تتعلق بالأحوال الاجتماعية والصحية لهذه المدن والمستوطنات وكذلك ما يتعلق بالصناعة والاقطاع والضرائب .

(٢) ترجمه عن الفارسية (كي لسترنج) .

بحر بنطس (نيطش)
(بحر طرابزندة)

أرمينية الكبرى

جبال أرمينية

بحيرة وان

أرمينية

ديار بكر

كردستان

ديار مضر

ديار ربيعة

إقليم الجبال

بحر الشام

طرق مواصلات

حدود منطقة الجزيرة الفراتية

الجزيرة الفراتية

في القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي

عن: المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، أبو الفداء: تقويم البلدان، ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع

جي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، د. ماجد ... (الأطلس التاريخي لأمم ... الوسطى ...)

تمهيـــد

أ ــ جغرافية الجزيرة الفراتية .

ب ــ الأحوال السياسـية في الجزيـرة الفراتية في القـرن السادس الهجري .

أ ــ جغرافية الجزيرة الفراتية :

الجزيرة الفراتية ، هي البلاد الواقعة بين دجلة والفرات ، في أعالي اقليم العراق ، والمجاورة لبلاد الشام ، في مدلولنا في الوقت الحاضر .

ويبدو ، ان اقتران كلمـــة الجزيرة(١) بنهر الفرات ، انما يرجع الى هيمنة هذا النهر ــ على الامتداد العام ، لمعظم سطحها ــ

(١) قال الهمداني المعـروف بابن الفقيه «وانما سميت الجزيـرة لانها تقطع الفرات ودجلة وقد تقطع في البر» مختصر كتاب البلدان (ليدن ، ١٣٠٢هـ) ص١٢٨ .

وقال ابن‌عبدالحق في«مراصد الاطلاع على‌أسماء الامكنة والبقاع»(الطبعة الاولى ــ تحقيق علي البجاوي) جـ١ ص٢٥٣ «انما سميت جزيرة لانها تقع بين نهري دجلة والفرات» .

فهو يتصل بعد خروجه من هضبة بلاد الروم (آسيا الصغرى) بمدن الجزيرة ، مبتدئا بأرزن الروم في الشـمال ومتفرعا الى ارزنجان شرقا ، ثم متجهـا الى الجنوب ، مـارا بملطية وسميسـاط وبالس والرافقة ، حيث يتجه ، بعد ذلك ، الى الجنوب الشرقي ، فيربط أهم مدن تلك النـواحي الواقعة في الغرب ، وهي قرقيسـياء والرحبة وعانة وهيت والحديثة(٢) ٠

لذا يرجح ان نعت الجزيرة ، بالفراتية ، يرجع الى انتشار روافد نهر الفرات في معظم مساحتها ، بحيث يشكل شبكة مترابطة من الانهار المتفرعة ، التي لا تترك الا مساحات صغيرة فيما بينها بعد دخولها أرض الجزيرة ٠ وقد جاء اسم الجزيرة الفراتية عند ابن خلكان في معرض كلامه عن مدينة (دنيسر) التي كان ينتسب اليها عدد من الاعيان ٠ قال : انها (مدينة «بالجزيرة الفراتية» بين نصيبين ورأس العين)(٣) ٠

وقد اطلـق بعض البلدانيين والمؤرخين كلمـة «العراقية» على الجزيرة(٤) ، وذلـك فيما يبدو لقربها من اقليم العـراق دون بلاد الشام أو أرمينيـة وبلاد فارس ٠ أما اطلاق اسم «بـلاد الجزيرة» فقط ، فيـأتي من تقسيم البلدانيين والجغرافيـين المسلمين(٥)

---

(٢) أنظر الخريطة لمعرفة مواقع هذه المدن ٠

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان (الطبعة الاولى ـ القاهرة ١٣٦٧هـ) جـ٤ ص٢٣٢ ٠ وقد أيد رأي ابن خلكان ، المؤرخ القلقشندي فقال «ان الجزيـرة الفراتية هي أقرب أقطار هذه المملكة ، لمملـكة الديار المصرية والشامية ، لمجاورتها بلاد الشام» صبح الاعشى في صناعة الانشاء (الطبعة الاميرية ـ دارالكتب ـ وزارة الثقافة والاعلام) جـ٤ ص٣١٤ ٠

(٤) الاصطخري : مسـالك الممالك (دي غوية ، بريل ، ليـدن ، ١٩٢٧م) ٠ ص٧٨ ، التطيلي : رحلـة بنيامين التطيلي (المطبعة الشرقيـة ـ بغداد ـ ١٩٤٥ ، ترجمة عزرا حداد عن العبرية) ص١٢٦ ، ابن الاثير : الكامل ١١/ ١٨٤ ٠

(٥) ابن خرداذبة : المسالك والممالك (باعتناء دي غوية بريل ، ليدن ، ١٨٨٩م) ص٥ ، ٢٤٥ ، أبو الفداء : تقويم البلدان (باريس ١٨٤٠م) ص١٤٠ ٠

واهتمامهم بأحوال تلك البلاد الاسلامية وما اتسمت به من معالم تميزها عن غيرهـــا ، مستهدفين بذلــك تقديم صورة متكاملــة عن طبيعتها الجغرافية والبشرية والتأريخية ٠

وهناك تسمية أخرى للجزيرة ، جاءت عند المقدسي ، تحت اسم «اقليم آقور»(٦) ويرى ياقوت الحموي ، ان «آقور هي كورة بالجزيرة أو هي الجزيـــرة التي بين الموصل والفرات»(٧) ٠ ويذكـــر «كي لسترنج» ان اطلاق كلمة آقور على الجزيرة ، انما هو ، اطلاق عام ، المقصود به ، اسم الشطر الشمالي من السهل العظيم في شمالي ما بين النهرين ، وهي تسمية استمرت فترة من الزمن(٨) ٠

أهمية بلاد الجزيرة الفراتية :

نالت الجزيـــرة الفراتية اهتمام الجغرافيـــين والمؤرخين المسلمين ، وتظهر هذه الاهمية بجلاء في ما عقدوه عنها من فصول مطولة ، ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن حوقل ، عندما نقل انطباعات علماء ومفكـــري وحساب المسلمين وغيرهم بمســالك الارض وعلم الهيئة ، وفي ما وضعوا من صفات الارض فقال «٠٠٠ انها مصورة بصورة طائر ، فالبصرة ومصر الجناحان والشام الرأس والجزيرة الجؤجؤ واليمن الذنب»(٩) وزاد قوله أيضا «٠٠٠ ومع ان الجزيرة

---

(٦) المقدسي البشاري : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (تحقيق دي غوية ، مطبعة بريل) ص١٣٦ ٠

(٧) ياقوت : معجم البلدان (ليبسك) جـ١ ص٣٤٠ ، جـ٢ ص٧٢ ، جـ٤ ص ٦٨٢-٦٨٣ ٠

(٨) كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ــ ١٩٤٥ ــ بغداد) ص١١٤ ٠

(٩) ابن حوقــل : صــورة الارض (منشــورات دار مكتبة الحيــاة ــ بيروت) ص١٩٠ ٠

قريب مما قالوه ، فهي اقليم جليل بنفسه شريف بسكانه وأهله»(١٠) «... وانها كانت معدن الابطال وعنصر الرجال وينبوع الخيل والعدة»(١١) .

ودعم المقدسي أوصاف ابن حوقل عن أرض الجزيرة قائلا : «هذا الاقليم نفيس له فضل ، وهو ثغر من ثغور المسلمين ، ومعقل من معاقلهم»(١٢) .

أما ياقوت الذي عاش في القرن السادس الهجري ، فيصف أرض الجزيرة بقوله «انها صحيحة الهواء ، جيدة الريع والنماء ، واسعة الخيرات ، بها مدن جليلة وحصون وقلاع كثيرة»(١٣) . ولذلك يمكن القول ، بان هذا الوصف الاخير دلالة على استمرار الاهمية التي نعمت بها أرض الجزيرة طوال العهد الاسلامي .

وقد عزز المؤرخون المسلمون دراسات البلدانيين عن أهمية الجزيرة الفراتية ، وجاء ذلك عندما تحدث أولئك المؤرخون عن ارتباط أرض الجزيرة الفراتية بالديار المصرية والشامية أيام حكم الظاهر بيبرس البندقداري (ط٦٥ـ٦٧٦هـ/ ١٢٥٩ـ١٢٧٧م) فقالوا ان بعض بلاد الجزيرة مثل الرها وقلعة جعبر وماوالاهما داخلة في أعمال حلب، التي كانت خاضعة آنذاك، سياسيا، الى المملكة المصرية(١٤) . ويبدو ان الجزيرة الفراتية قد نالت أهمية خاصة

---

(١٠) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص١٩٠ .
(١١) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص١٩٠ .
(١٢) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٣٦ .
(١٣) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٧٢ .
(١٤) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٤ ص٣١٩ـ٣٢٠ . ويذكر اليونيني ان الظاهر بيبرس البندقداري ملك مصر ، قد سير الامير شمس الدين اقسنقر بن عبدالله الفارقاني ، لكشف بلاد الجزيرة ، وقد استطاع اداء مهمته فاجتمع هناك بقوم موالين ونقلوا له رغبة أهلها بانضمام بلادهم الى المملكة المصرية ثم عاد شمس الدين بعد اقامته هناك أياما ، حيث أكرمه الظاهر



من جانب المملكة المصرية أيام الظاهر بيبرس ، فقد كان هناك حاكم يكاتب الابواب السلطانية بالديار المصرية ، في كل من : شمشاط وحيزان وميافارقين وجزيرة ابن عمر وسنجار وتل اعفر والحديثة وعانة وتكريت والعمادية وقلعة كشاف(١٥) وهي من مدن الجزيرة المهمة(١٦) ٠

الموقع والحدود :

تمثل الجزيرة الفراتية ، المنطقة الشمالية من اقليم العراق بين نهري دجلة والفرات ، وتصل في امتدادها ، الى أقصى الشمال عند منطقة تعرف بالدروب في سلاسل جبال طوروس ، كما يلاحظ ان امتدادها من الشرق يصل الى الجبال الفارسية ٠ ويكوّن نهر الفرات الحد الغربي للجزيرة عند مدينة الانبار ونهر دجلة الحد الشرقي عند مدينة تكريت ٠ على أن بعض البلدانيين يلحق المناطق الشرقية لنهر دجلة والمناطق الغربية لنهر الفرات ضمن أرض الجزيرة وذلك منذ القرن الرابع الهجري ، ويشير الاصطخري الى أن في غرب الفرات مدنا وقرى خارجة عن اقليم الجزيرة ، وان كانت تنسب اليها لقربها منها»(١٧) ٠

بيبرس وقدمه من أمير عشرة الى امير بطبلخانة بالديار المصرية ، وهي رتبة عالية في الجيش المصري اذ ذاك ، مما يدل على أهمية بلاد الجزيرة لدى الملك الظاهر ٠

انظر عن تبعية بلاد الجزيرة للديار المصرية والشامية أيضا اليونيني : ذيل مرآة الزمان (مطبعة مجلس دائرة المعارف ــ حيدرآباد ــ الهند) جـ٣ ص٢٩٩ ٠

(١٥) أنظر : موقعها في الخريطة ٠

(١٦) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٤ ص٣١٤ ، ٣٢٧ ٠

(١٧) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧١ـ٧٢ ٠

ويشير ابن حوقل الى أن نهر الفرات ، عندما يجتاز الانبار يخرج عن حدود الجزيرة(١٨) وهـذه حقيقة يكاد لا يخالفه فيها البلدانيون الاخرون •

وهذا يوضح ان حدود الجزيرة الفراتية كانت تمتد خلال القرن الرابع الهجري ـ حيث تبدا من الانبار على نهر الفرات الى تكريت على نهر دجله ثم الى السن والى الحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر وامد ، ثم يجتاز خط الحدود ، ارمينية وبعض بلاد الروم ثم الى الفرات عند ملطيه ، لذلك فان قسما من أرمينية وبعض بلاد الروم والشام والعراق داخل نطاق الجزيرة(١٩) ، على ان بعض البلدانيين يوسعون رقعة الجزيرة الفراتية ، فيضيفون اليها بعض المدن مثل : العمادية وميافارقين وشميشاط وارزن وخلاط قائلين انها من مدن الجزيرة • وعلى هذا يمكن القول على ضوء ما جاء عند ياقوت وابي الفداء وابن عبدالحق ، ان خط الحدود لمنطقة الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري يبدأ من جنوب مدينة «أوانا» على نهر دجلة متجها الى الشرق حتى مدينة «شهرزور» حيث يتجه شمالا الى مدينة «شقلاباذ» وخلاط وبدليس وشميشاط ثم الى ملطية على نهر الفرات ثم يتجه الى الجنوب فيمر في غرب مدينة جسر منبج حيث ينتهي عند مدينة الانبار(٢٠) •

---

(١٨) ابن حوقل : صورة الارض ص١٨٩ •

(١٩) أبو الفداء : تقويم البلدان ص٢٧٣ • وقد ذكر ، ان كثيرا من البلاد الفراتية التي في الجانب الآخر من الفرات ومن بر الشام ، قد ضمت الى الجزيرة لقربها من البلاد الجزرية مثل الرحبة وغيرها مما يحيط بالجزيرة من حدود الروم وقال بأنه طرف الحد الجنوبي الغربي للجزيرة •

(٢٠) أنظر خط حدود منطقة الجزيرة الفراتية على الخريطة خلال القرن السادس الهجري الذي استقيناه مما كتبه هؤلاء البلدانيون •

السطح والتضاريس :

يبدو ان التباين في سطح الجزيرة الفراتيه ، قد أدى الى التباين في أحوالها الطبيعيه والبشرية ، اذ يتكـون هذا السطح من السهل الرسوبي الذي يمتد في وسط وجنوب العراق والذي يحيط بدجلة والفرات ، ومن الهضبه الصحراويه في الغرب ، ومن المنطقة الجبلية في الشمال الشرقي[21] • اما السهل الرسوبي فمرتفع • ويتكون من صخور الجبس الميوسيني ، وهو على شـكل حوض ضحل له انحدار عام نحو الجنوب ، وله انحدارات جانبيه من الشرق والغرب ايضا • كما ان النطاق الجبلي الذي يقع في الشمال الغربي للجزيرة لايفصل السهل الرسوبي فصلا تاما ، بسبب وجود فجوات منخفضة تتخلل جبل اللكام (امانوس) شرقي خليج اسكندرونه مما سهل المرور من البحر المتوسط الى سهول الجزيرة عن طريق حلب[22] • والى الجنوب من منطقة الجبال[23] العالية في الشمال الشرقي ، توجد المنطقة شبه الجبلية ، وهي تمتد من جبل سنجار ، باتجاه الموصل واربل وتنتهي

---

(٢١) فتحي عثمـان : الحدود الاسـلامية البيزنطية ـ بين الاحتـكاك الحربي والاتصال الحضاري (القاهرة ـ ١٩٦٦) ص١٤٨ •

(٢٢) فيصل السامر : الحمدانيـون في الموصل وحلب ج٢ (بغـداد ـ ١٩٧٢) ص٧ •

(٢٣) ذكر البلدانيون والمؤرخون عددا من أسماء الجبال مثل جبل (حرم عباد) الذي يقع الى شمال ميافارقين (ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ـ قسم الجزيرة ، مخطوطـة اكسفورد رقم ٣٣) الورقة ٧١ أ ، وجبـل (السناسنة) نسبة الى القبيلة المعروفة بهذا الاسـم والتي تستوطن بالقرب من آمـد (الفارقي : تـاريخ الفارقي ، تحقيـق بدوي عبداللطيف عـوض ـ القاهـرة) ص٤٦ ، وجبـل (باجسمي) في الجهات الشمالية الشرقية لمنطقة دياربكر (الفارقي : نفس المرجع السابق ص٤٦) وجبل (طور عبـدين) الذي يقع الى جنـوب نصيبين في ديـار ربيعة (ابن سرابيون : عجائب الاقاليم السبعة ص١١٦) وجبل (ماردين) الواقع الى الجنوب الشرقي من ماردين (الاصطخري : مسالك الممالك ص١٧٣) وهذه الجبال تمثل في الوقت الحاضر جزءا من الجبال التركية الجنوبية •

بالقرب من خانقين ، وتوجد في منطقة الجزيرة التواءات صغيرة مكونة من أحجار الجبس ، وقد أثّرت الرياح فيها ونحتتها وجعلت حافاتها حادة دقيقة ، مما يجعل التنقل عبرها صعبا جدا • وهذا بدوره يؤثر في المسالك والطرق التي كانت تتخذها القوافل التجارية في هذه المنطقة فيعرقل بعضها أو يغيّر مسارات بعضها الآخر •

ومن هضاب الجزيرة ، هضبة الموصل التي يقسمها نهر دجلة الى قسمين متساويين ويمكن تحديد هذه الهضبة من الشرق بنهر الزاب الكبير ومن الغرب بالسلاسل الجبلية المكونة من جبل (سنجار) وجبل (ابراهيم) وجبل (العطشان) • والمعروف ان الجزء الشرقي من هضبة الموصل ، هي أراض منحدرة تدريجيا نحو الغرب ، أما القسم الغربي ، فمكون من أراض متموجة ، ذات سطح غير منتظم وتظهر عليها طبقات من صخور الرمل والطفل والصخور المكتلة وحجر الطين والجبس كما توجد صخور صلبة تسمى «مرمر الموصل» وهي ما نطلق عليها في الوقت الحاضر اسم «صخور الأنهدريت ANHA ATE »(٢٤) •

أما الوديان التي تخترق سطح الجزيرة فأهمها «وادي الثرثار»(٢٥) الذي أشار اليه ياقوت ــ وقال بانه «نهر عظيم عليه قرى وجنان وتصب فيه أودية كثيرة»(٢٦) •

ويذكر أبو الفداء في كتابه تقويم البلدان ، ان الثرثار يمر بالحضر وبرية سنجار ويصب في دجلة عند تكريت(٢٧) • ويلاحظ ،

---

(٢٤) راجع عن هذه الصخور ، جاسم الخلف : جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية (دار المعرفة ــ الطبعة الثالثة) ص٧٥ •

(٢٥) ومنها وادي (الصلب) الذي كان يصب في نهر دجلة ويمتد بين آمد وميافارقين ووادي (ساتيدما) ووادي (الرزم) ووادي(سربط) •

(٢٦) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٢٨٢ــ٢٨٣ •
وأنظر أيضا : ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع جـ٣ ص٣١٣ •

(٢٧) أبو الفداء : تقويم البلدان ص٥٥ •

أن منخفض الثرثار ، غريب في تكوينه ، حيث يتألف من واد طويل تنتهي اليه وديان كثيرة ، تنحدر من جبـــال سنجار وما جاورها من اراض في شمال المنخفض ، كما يؤدي الى ما يسمى ب «بحيرة الثرثار» التي أطلقت عليها المصادر «ملحمة الثرثار» وقد ينخفض قاعها في الوقت الحاضر الى ثلاثة آمتار تقريبا تحت سطح البحر(٢٨) ٠

وعلى الرغم من انه لم يعرف بعد ، أصل تكوين هذا المنخفض ، فان الابحاث الحديثة ترجح انه نشأ نتيجة انكسار في قشرة الارض وهبوطها(٢٩) ٠

ومما يدل على هذا الانكسار ، شكل الوادي الطويل الضيق وارتفاع حافته الشرقية ، وهذا يؤكد الحقيقة التي ذكرها ياقوت وأبو الفدا وابن عبدالحق من أن وادي الثرثار ، كان متصلا بنهر دجلة في جنوب مدينة تكريت(٣٠) ، ولكن ارتفاع الصخور في جنوب منخفض الثرثـــار بسبب انكسارها فصـــل وادي الثرثـــار عن نهر دجلة(٣١) ٠

المنـــاخ :

تقع الجزيـــرة الفراتية في المنطقة المعتدلة الشـــمالية حسب التقسيمات الجغرافية الحديثة اذ تهب عليها الرياح العكسية شتاء

---

(٢٨) جاسم الخلف : جغرافية العراق الطبيعية ص٥٥ ٠

(٢٩) جاسم الخلف : نفس المرجع السابق ص٥٦ ٠

(٣٠) ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص٢٢٦ ، ٩٢١ ، جـ٢ ص٢٨١ـ٢٨٢ ، أبو الفداء تقويم البلدان ص٥٥ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع جـ٣ ص٣١٣٠

(٣١) يرى جاسم الخلف «ان وادي الثرثار ، كان متصلا بنهر الفرات عند مدينة الانبار وليس بنهر دجلـــة ، ولكن انكسار الصخور وارتفاعهـــا في جنوب منخفض الثرثار فصـــل هذا الوادي عن الفرات وجعل تصريفـــه داخليا «جغرافية العراق الطبيعية» ص٥٦ ٠

والرياح الدائمة صيفا ، وقد تمتعت بمناخ مطير شتاء وجاف حار في بقية الفصول • وعند توزيع نسبة الامطار تنال المناطق الشمالية كمية اكثر من المناطق الجنوبية،والغربية اكثر من الشرقية وترتفع درجات الحرارة كلما اتجهنا جنوبا ، وبصورة عامة يمكننا القول ان الامطار يسقط معظمها في فصلي الشتاء والربيع ، لذلك فان الموارد المائية للجزيرة الفراتيـه ، في تلك المناطق تكون متغيرة في كميتها من موسم لاخر • اما المناطق الجبلية وشبه الجبلية فيسودها مناخ البحر المتوسط ومناخ (السهوب «استبس») •

والمناخ الاخير يمتاز بانه انتقالي بين مناخ البحر المتوسط والمناخ الصحراوي لذا يمكن القول ان مناخ البحر المتوسط يسود المناطق الجبليـة كلية • أما المنـاطق شبه الجبلية فتتمتـع بمناخ السهوب ، وترتب على ذلك ان المناطق الجبلية الشمالية الشرقية من الجزيرة تنخفض فيها درجات الحرارة • ويصف المستوفي القزويني المناخ في بعض مدن الجزيرة التي تقع في مناطق مختلفة منها فيقول «ان مناخ ديار بكر وديار ربيعة دافيء وان مدينة رأس العين تتمتع بمناخ جيد ومدينة اسعرد (سعرت) مناخها جيد والعمادية تتمتع بمناخ جيـد ونصيبين طقسها رطب وشرابها جيـد يشرب ليقاوم رطوبة الجو»(٣٢) •

ان سـقوط الامطار على أرض الجزيرة الفراتيـة في فصل الشتاء يجعل للسكان موردا مائيا ، يمكن الاعتماد عليه في الزراعة، فضلا عن انتشار غابات النباتات الطبيعية مثل اشجار البطم والحبة الخضراء وأشـجار الزعرور والسماق والكمثرى البريـة واللوز البري وأشجار العرعر(٣٣) ، وأكثرها في المنطقة الجبلية ، على حين

---

(32) Mustawfi of Qazwin, Hamd-Allah, The Geographical Part of the Nuzhat-Al-Gulub, (Translated, by G. Le Strange, Leyden, 1919). p. 102-105.

(٣٣) وهي أنواع من الاثمار الجافة •

تحرم المناطق شبه الجبلية التي يسود فيها المناخ الصحراوي من هذه الاشجار ، وقد أثر ذلك أيضا في توزيع السكان وانتشار المدن والقرى ٠

ويشير المقدسي الى طبيعة المناخ في الجزيرة فيقول : «أما هواء هذا الاقليم فمقاربة للشام» أي يسود فيها مناخ البحر المتوسط ، ثم يمضي قائلا «وبه مواضع حارة» وهو يشير بذلك ـ على الارجح ـ الى المناطق شبه الجبلية التي تتمتع بمناخ صحراوي ٠ أما المناطق الجبلية التي يقرب مناخها من مناخ الشام فهي «كورة آمد لقربها من الجبال» أي منطقة آمد التي ذكرها هذا المرجع ، وهي تقع في المنطقة الجبلية الشمالية الشرقية من الجزيرة(٣٤) ٠

ويؤكد ابن الأثير ، هذا التفاوت في سقوط الامطار في الجزيرة الفراتية ، والفروق بين المناطق المناخية فيقول «ان الامطار قد قلّت في البلاد ، فلم يجيء منها شيء الى شباط ، ثم انها كانت تجيء في الاوقات المتفرقة مجيئا قريبا ، ولا يحصل منه الري للزرع»(٣٥) ثم يقول «الدنيا مازالت قديما وحديثا ، اذا غلت الاسعار ، متى جاء المطر ، رخصت ، الا ان هذه السنة (٦٢٢هـ/١٢٢٤م) فان الامطار مازالت متتابعة من أول الشتاء الى اخر الربيع»(٣٦) وينطبق ذلك على منطقة الموصل الذي حصل فيها هذا التفاوت في سقوط الامطار بصورة أوضح ، نتيجة وقوعها في الحافات الجنوبية والغربية للمناطق شبه الجبلية ٠

---

(٣٤) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٤٠ ٠

(٣٥) ابن الاثير : الكامل في التاريخ (مطبعة السعادة القاهرة ـ ١٢٩٠هـ) جـ١٢ ص٤٢٤ ٠

(٣٦) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٤٤٧ ، ٤٧٣ ٠

اهميه الجزيرة الفراتيه بين أقاليم الخلافة العباسية :

تميزت الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، بأهمية خاصة بين أقاليم الخلافة العباسية(٣٧) ، وذلك بحكم موقعها المتوسط بين العراق وبلاد الشام وأرمينية واذربيجان وكذلك بحكم مواردها الطبيعية والزراعية وحركة مدنها الآهلة النشطة ، هذا بالاضافة الى انها تمثل جسرا أرضيا يوصل بين طرق المواصلات البحرية في جنوبي آسيا ، وكذلك في جنوبي أوروبا ، لانها تقع بين البحر المتوسط والخليج العربي ·

فالتداخل التجاري بين اقليم العراق والجزيرة وبلاد الشام ، خلال القرن السادس الهجري ، الثاني عشر الميلادي ، وقرب الجزيرة الفراتية من بلاد فارس والخليج العربي في الجنوب واتصال مصر بها عن طريق بلاد الشام أعطى أهميـة ، بالغة الخطورة ، لموقعها الاستراتيجي ، وأصبحت هناك مجالات رحبة للتجارة العالمية المارة بها · مضافا الى ذلك انها لعبت دورا حاسما بالنسبة لتجارتي الشرق والغرب ، اذ لم تكن قناة السويس قد فتحت بعد ، لذلك فهي تمثل أقصر الطرق بين غربي وجنوبي أوروبا وبين جنوب شرقي آسيا وأواسطها(٣٨) ·

وأخيرا فمن الجدير ، القول ، بأن وجود الجبال ، في الاقسام الشمالية والشمالية الشرقية من سطح الجزيرة الفراتية ، قد طبع الحياة الاقتصادية والاجتماعية هناك بطابع متميز ، حيث أصبحت السهول ووديان الجبال وسفوحها مناطق لتجمع السكان ، اذ كانت

---

(٣٧) ابن حوقل : صورة الارض ص١٨٩ـ١٩٠ ، المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٣٦ ، ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٧٢ ·

(٣٨) محمد جمال الدين سروز ، تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق (القاهرة ـ الطبعة الثانيـة ـ ١٩٦٧) ص١٤٤ ، فيصل السامر : الحمدانيـون في الموصل وحلب جـ٢ ص٢٠ ·

الزراعة حرفتهم الرئيسية ومصدر عيشهم وصارت لبلاد الجزيرة خلال القرن السادس الهجري ـ مكانة خاصة وسط أقاليم الخلافة العباسية ٠

ب ـ الاحوال السياسية في الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري :

كانت بلاد الجزيرة الفراتية، في مطلع القرن السادس الهجري ، ضمن ممتلكات سلاجقة العراق ، الذين كانت لهم السلطة الفعلية في ادارة الدولة العباسية ٠ ونتيجة لما كان يعانيه السلاجقة من ضعف ، وتفكك في ادارة البلاد الواسعة التي كانوا يحكمونها ، واحتياجهم الى الاموال ، أخذوا يقطعون دولتهم على أمرائهم وكان شمس الدولة جكرمش (وهو أحد أمراء السلاجقة) قد تولى الموصل ، وهي احدى الامارات المحلية المهمة في بلاد الجزيرة خلال الفترة الواقعة بين(٤٩٤ـ٥٠٠هـ/١١٠٠ـ١١٠٦م)[٣٩] واعقبه في حكمها الامير السلجوقي جاولي سقاو (٥٠٠ـ٥٠٢هـ/١١٠٦ـ١١٠٨)[٤٠] ومن ثم اقطعت للامير مودود بن التونتكين سنة (٥٠٢هـ/١١٠٨م) حتى سنة (٥١١هـ/١١١٧م)[٤١] حيث اقطعها السلطان السلجوقي محمد ، للامير جيوش بك[٤٢] الذي خرج عن طاعة السلاجقة ،

---

(٣٩) ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية (بالموصل) (تحقيق عبدالقادر احمد طليمات ـ دار الكتب الحديثة بالقاهرة ـ ١٩٦٣) ص١٦ ٠

(٤٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٦ـ١٧ ٠

(٤١) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٧ ٠

(٤٢) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٢٢ ٠
مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ٥٨ب ـ ٥٩ب ٠

فتسلمها آقسنقر البرسقي اقطاعا من السلطان السلجوقي نفسه سنة (٥١٤هـ/١١٢٠م)(٤٣) وظل يحكمها حتى سنة (٥٢١هـ/١١٢٧م) ، حيث تولاها عمادالدين زنكي الاتابكي(٤٤) وضم اليها أغلب امارات المدن وبعض الامارات المحلية ، فعرفت بالدولة الاتابكية(٤٥) وبدأت مرحلة جديدة في تأريخها السياسي حتى سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م) حيث انقسمت بعد هذا التأريخ الى قسمين رئيسين ، القسم الغربي ومركزه حلب ، ويحكمه نورالدين محمود ابن عمادالدين زنكي ، والقسم الشرقي ويضم الموصل وامارات المدن الاتابكية مثل جزيرة ابن عمر وسنجار ونصيبين واربل ،

---

(٤٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٢٤ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ

(٣٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٣٢ ، واتابك ، لفظ تركي وهو مكون من مقطعين (أتا) بمعنى (أب) و (بك) بمعنى (أمير) وقد كانوا يطلقونها على من يربي أولاد السلاجقة من الاتراك .

انظر : ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص١١٤ .

القلقشندي : صبح الاعشى جـ١ ص١٦٧

(٤٥) الاتابكية ، هي امارة يقطعها السلطان السلجوقي لاحد خواصه ومماليكه المقربين الذين يجلبون من بلاد القفجاق ، ويربي بعضهم في قصور السلاطين السلاجقة ، ومنهم من تولى الوظائف الحكومية ، كما يستخدمونهم في الجيش السلجوقي ، وأشهر هذه الاتابكيات ، أتابكية الموصل وأربل وسنجار ودياربكر ودمشق وحلب وارمينيا وفارس ولورستان واذربيجان وكرمان . وقد أصبح لهذه الاتابكيات نظم عسكرية واقتصادية وادارية واجتماعية خاصة بها ورثها الاتابكة عن السلاجقة أو اقتبسوها عن غيرهم .

انظر :

LANE-POOLE: The Mohammedan Dynasties p. 159.

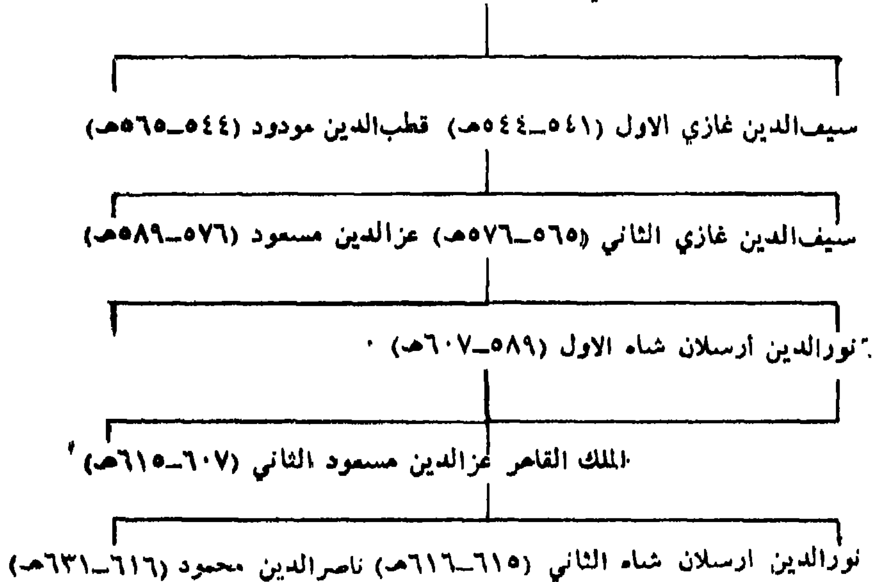
وشهرزور وغيرهـا ، وقد حكمه ثمانية ملوك اتابكيين حـتى سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م)[٤٦] ٠

وقامت الى جانب الاتابكيات في الجزيرة الفراتية ، خلال القرن السادس الهجري ، الامارات الارتقية التي كانت تحتل الجهات الشمالية الشرقية ، ففي (٤٩٥هـ/١١٠١م) اسـتولى سقمان بن

---

(٤٦) جدول باسماء اتابكة الموصل ٥٢١-٦٣١هـ/١١٢٧-١٢٣٣م :

عمادالدين زنكي بن آق سنقر الاتابكي (٥٢١-٥٤١هـ)

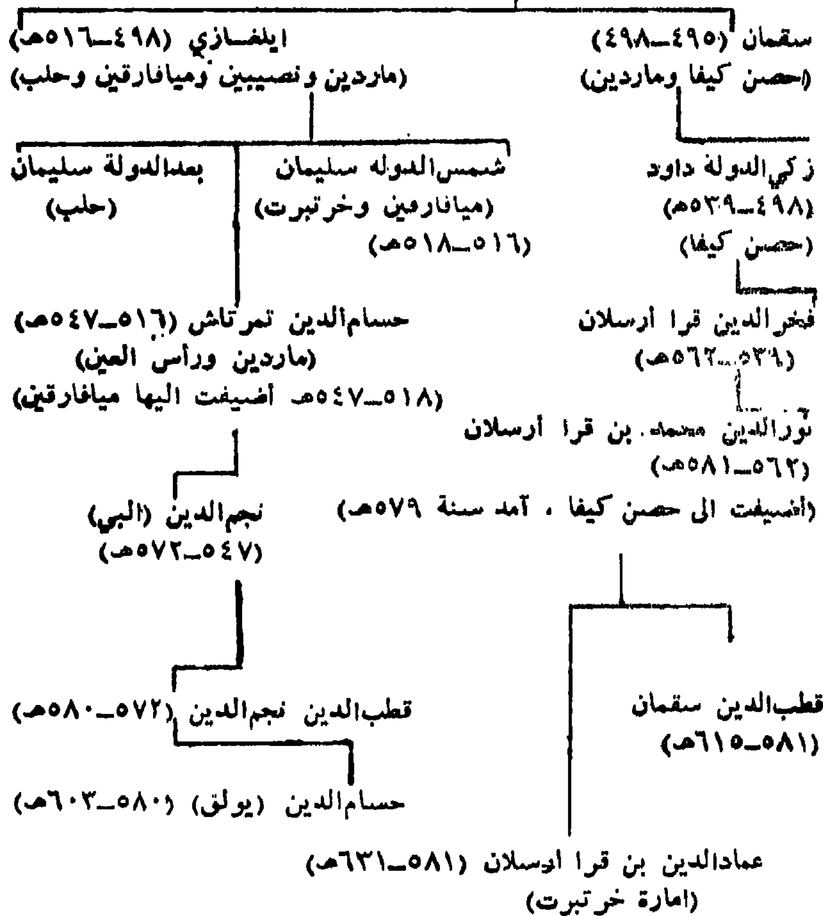


ارتق الذي ينتمي اليـــه الاراتقـة(٤٧) ، على مدينة حصـــن كيفا واتخذها قاعدة لامارته ومنطلقا لتوسيعها بضم بعض المدن والمناطق

---

(٤٧) جدول باسماء الامراء الاراتقه في الجزيرة الفراتيه ٤٩٥ـ٦٣١هـ/١١٠١ ـ ١٢٣٣م ٠

ارتق بن آكسك (احد مماليك السلاطين في العراق) ٤٦٥ـ٤٨٥هـ
(في بلاد الشام) ٤٨٥ـ٤٩٥هـ (فترة حكم الامراء السلاجقة ومنهم أرتق) ٠



المجاورة لها(٤٨) ، وفي (٤٩٦هـ/١١٠٢م) استولى ايلغازي الارتقي، على مدينة ماردين ، وبذلك أصبحت هاتان المدينتان ، عاصمتين لأمارتي حصن كيفا وماردين ، وفي ٥٠٢هـ/١١٠٨م ، نال ايلغازي مدينة حران من السلطان السلجوقي(٤٩) • واستطاع ايلغازي أن يضم مدينة حلب الى امارته سنة ٥١١هـ/١١١٧م(٥٠) ، وفي السنة التالية ، أعاد سيطرته على مدينة حران ، التي كان قد فقدها ، وكذلك على مدينة نصيبين(٥١) •

ونتيجة عقد الصلح بين السلطان السلجوقي وايلغازي سنة ٥١٥هـ/١١٢١م حصل الأخير على مدينة ميافارقين(٥٢) • وفي هذه الفترة انفصلت امارتا ماردين وحصن كيفا عن بعضهما واتسمت العلاقات بينهما بالمنافسة والعداء ، ولكن علاقة كل منهما بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية كانت طيبة حتى سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م، حيث كان الاراتقة يخطبون للخلفاء العباسيين وللسلاطين السلاجقة ويضربون السكة باسمهم ويعلنون لهم الطاعة في جميع المناسبات(٥٣) •

أما امارة خرتبرت(٥٤) الارتقية ، فقد ظهرت على المسرح السياسي في أقصى الشمال الشرقي للجزيرة الفراتية سنة ٥٨١هـ/

---

(٤٨) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ ص١٢٧ـ١٢٨ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ٤١ب •

(٤٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٧٣ ، ابن شداد : نفس المرجع السابق ، الورقة ١٧ أ •

(٥٠) ابن شداد : نفس المرجع السابق ، الورقة ١٣٠ب •

(٥١) ابن شداد : نفس المرجع السابق ، الورقة ١٧ب •

(٥٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ ص٢٢٥ •

(٥٣) الحسيني : اخبار الدولة السلجوقية (المسمى زبدة التواريخ في اخبار الامراء والملوك السلجوقية تحقيق محمد اقبال ـ لاهور ـ ١٩٧٣) ص٩٢ ـ ٩٣ ، ١١٠ـ١١١ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (تحقيق آمدروز ـ بيروت ـ ١٩٠٨) ص١٤٧ •

(٥٤) انظر الخريطة •

١١٨٥م ، وكان مؤسسها عمادالدين بن قرا آرسلان ، احد أشقاء نورالدين محمد أمير حصن كيفا وآمد . وقد استمرت هذه الامارة تحكم خرتبرت والمناطق المجاورة لها حتى سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣
وكان الأكراد يؤلفون ثالث القوى السياسية في منطقة الجزيرة الفراتية في مطلع القرن السادس الهجري ، فكانت القبائل الكردية تنتشر في المناطق الجبلية المحيطة بالموصل من جهاتها الشمالية والشمالية الشرقية .

وكانت الامارات الكردية ، هناك ، تخضع لسلطة سلاجقة العراق(٥٥) ، وأهم حصونهم واماراتهم ، هي قلعة العقر والشوش والهكارية(٥٦) التي أخضعها عمادالدين زنكي صاحب الموصل سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م(٥٧) ، أما كواشي وآشب والزوزان فهي من قلاع الاكراد ومن مراكزهم الرئيسة المهمة لانها أكبر الحصون وأكثرها مناعة، وفيها أموالهم وأهلوهم(٥٨)، فقد اكتسحها عمادالدين زنكي أيضا سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م(٥٩)، وبذلك يكون هذا الاخير قد أخضع أغلب الامارات والحصون والمدن الكردية ، ثم ظل الاكراد يخضعون للأتابكيين حينا ويستقلون حينا آخر حتى سنة ٥٦٩هـ/١٧٧٣م حيث خضعت المنطقة للناصر صلاح الدين الايوبي ، فوقف الاكراد الى جانبه وأيدوه في سياسته التي كان يتبعها لتوحيد الامارات المحلية وامارات المدن في الجزيرة الفراتية لمواجهة الخطر الصليبي الذي بات يهدد الجميع . كما أن الأكراد استمروا في تأييدهم

(55) Encyclopaedia of Is'lam, Kourd, (by. V. Minorsky)

(٥٦) وهي بلدان ونواحي وقرى فوق الموصل في بلد جزيرة ابن عمر يسكنها آكراد يقال لهم الهكارية (ياقوت : معجم البلدان جـ٤ ص٩٧٨) .

(٥٧) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص٤٨ ، الكامل جـ١١ ص٥ .

(٥٨) ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص٦٣ .
وأنظر أيضا : عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص١٠٦ .

(٥٩) ابن الاثير : الباهر ص٦٤ ، الكامل جـ١١ ص٥ .

للايوبيين حتى بعد وفاة صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م[٦٠] .

يتضح من ذلك كله أن الوحدات السياسية التي كانت قائمة في الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري هي :

أ ـ الامارات المحلية وهي[٦١] :

١ ـ الامارات الزنكية في الموصل وتدير مدن الحديثة والعمادية ومدن الخابور .

٢ ـ الامارات الارتقية في ماردين وتدير مدن نصيبين وميافارقين وآمد .

٣ ـ الامارة الارتقية في حصن كيفا وتتبعها قلعة الصور وأرزن .

٤ ـ امارة خرتبرت الارتقية في أقاصي دياربكر وتتبعها عدة مدن وقرى .

ب ـ امارات المدن وهي[٦٢] :

١ ـ امارة سنجار الى شرق الموصل .

٢ ـ امارة اربل الى الجنوب الشرقي من الموصل .

٣ ـ امارتا دقوقا وشهرزور الى الجنوب من أربل .

٤ ـ امارة جزيرة ابن عمر الى الجنوب من خلاط على نهر دجلة .

---

(٦٠) ابن الاثير : الباهر ص١٤٢ .

(٦١) راجع عن الامارات المحلية : عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي (بيروت ـ ١٩٦٧ ـ الدار العلمية) ص٨٥ـ٩٨ .

(٦٢) عن امارات المدن راجع ما كتبه عمادالدين خليل : نفس المرجع السابق ص٦٩ـ٨١ .

٥ ــ امارتا الحديثة وعانة على الفرات

٦ ــ امارة الرقة في أقصى الغرب على الفرات ٠

٧ ــ امارة حران الى شمال الرقة على نهر البليخ الذي يصب في الفرات ٠

٨ ــ امارة الرها شمال حران ٠

٩ ــ امارة تكريت على دجلة الى الشرق من الانبار ٠

جـ ــ الامارات الكردية(٦٣) التي كان عمادالدين زنكي قد اخضع بعضها وبقي بعضها قائما خلال هذه الفترة ٠

---

(٦٣) عن الامارات الكردية راجع ما جاء عند محمد امين زكي في كتابه : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (ترجمة محمد علي عوني ــ مطبعة السعادة ، القاهرة ــ ١٩٣٦م) وكتابه الآخر : تاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامي (ترجمة محمد علي عوني ، مطبعة السعادة ــ القاهرة ــ ١٩٤٨م) ٠

البـــاب الاول

النظـــم الاجتماعيـــة

الفصــل الأول

السكان والمدن والتوزيع البشري

١ ـ السكان والمدن •

٢ ـ التوزيع الديني والثقافي للسكان •

الفصل الأول

السكان والمدن والتوزيع البشـــري

السكان والمدن :

أسهم في التكوين البشري لسكان بـلاد الجزيرة الفراتية عدة عوامل ، أولها وأقدمها ، نزوح الموجات الجزرية ، التي خرجت من الجزيرة العربية في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد ، وهي موجات آشورية وآمورية وآرامية ، تدفقت الى العراق ، ومنه زحفت الى الشمال ، حيث نـزلت منطلقة ما بين النهرين · وقـد وضعت هذه الموجات الاساس البشري لغالبية السكان في تلك الفترات · وكانت اليمن وسـورية ، ينابيع بشرية تزود بلاد الجزيرة الفراتيـة قبل الفتوح الاسلامية بمستوطنين جدد · ثم جاء الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع الميلادي ، فكان أعظـم حدث في تكوين سكان هذه البلاد من الناحية المنصرية[1] ، فقد مصـّر العرب المسلمون ، مدن البصرة وبغداد والموصل وغيرها ، وأنشأوا مدنا جديدة ، وأصبحت

---

(1) البلاذري : فتوح البلدان (طبع دي غويه ، ليدن ١٨٦٦) القسم ٢.ص٢٠٥، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، الاصطخري : مسالك الممالك ، ص١٠ ·

جميع هذه المدن بمرور الزمن ، قواعد لاجتذاب عناصر عربية وغير عربية ٠ وقـد غلبت اللغة العربية والثقافة الاسـلامية على تلك العناصر ٠

وظلت غالبية السكان ، في أرض الجزيرة الفراتية ، تتكون من العنصر العربي(٢) وذلك على الرغم من أن الهجرات البشرية القديمة قد تركت أثرهـا الواضح في دخول عناصر وأقوام غير عربيـة الى جانب العنصر العربي في تركيب السكان ، وظلت تؤلف جزءا من سكان بلاد الجزيرة الفراتية ــ حتى خلال القرن السادس الهجري ــ وبدأ هذا الطابع العربي يزداد في بلاد الجزيرة الفراتية رويدا رويدا من القرن الرابع الهجري ، حتى بلغ أوجه في القرن السادس الهجري ، وذلك على نحو ماصوره الجغرافيون والبلدانيون المسلمون في هذه المرحلة الزمنية فيذكر الاصطخري «أن المنطقة الواقعة وراء القوس الممتد بـين الدسكرة وتقع على النهروان في العـراق ، الى تكريت وسامراء والعلث في أرض الجزيرة الفراتية(٣) يغلب عليها خلال القرن الرابع الهجري ، الاكراد والاعراب ، وهي مراعي لهم»(٤) ٠

كما ذكر ابن حوقل ، أن أهل الموصل ، عرب ، وأن بالقرب من سنجار بين شمالها وغربها ، يقطن قوم من العرب ، (مخفرين) أي ليسوا دائمي التنقل ، وأن الجزيرة «كان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر ، ازاحتهم منها بطون من قيس عيلان ، وملكوا أكثر من بلد واقليم منها ، والمنطقـة بين الزابين الاعلى والاسفل مصـائف لبني شيبان ، ومشاتي للاكراد الهذيانية»(٥) ٠

---

(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب (مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣م) ص١٣٣ ٠
(٣) انظر الخريطة ٠
(٤) الاصطخري : مسالك الممالك ، ص٨٥ــ٨٨ ٠ ٠
(٥) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٥ ٠

وقال المقدسي البشاري ، أن اقليم آقور «منازل العرب في الاسلام وان ديار ربيعة فيها قصبتها الموصل[6] ·

أما في القرن السادس الهجري ، فيمكن الاطلاع على ماورد عند ياقوت عن مناطق استيطان الاقوام العربية وغير العربية ، مثل الاكراد والتركمان ، فقد أشار الى ما يفيد ــ أن مناطق الجزيرة الفراتية ، كانت في هذه الفترة تتوزع بين القبائل العربية في ديارات معينة[7] وبين الاكراد في مناطق متفرقة[8] وكذلك التركمان[9] · ويلقي ابن جبير ضوءا مهما ، على تجمع السكان في المناطق الواقعة بين الموصل وتكريت ، اذ يقول «والقرى والعمائر من هذا الموضع ــ أي تكريت ــ الى الموصل متصلة»[10] ، كما يشير ياقوت ، الى كثافة السكان في منطقة الخابور التي تقع بين رأس العين والفرات من أرض الجزيرة الفراتية فيقول «بأنها ولاية واسعة وبلدان جمّة»[11] · أما ابن بطوطة فيصف الطريق بين مدينة الانبار وهيت والحديثة وعانة ، وهي من مدن الجزيرة «بأنها من أحسن البلاد واخصبها والطريق فيما بينها كثير العمارة ــ كأن الماشي في سوق من الاسواق»[12] ·

ويتضح من دراسات أولئك البلدانيين والجغرافيين المسلمين ، أن توزيع السكان ومناطق تجمعهم في أرض الجزيرة الفراتية ، قد سار أيضا من القرن الرابع الى السادس الهجري جنبا الى جنب مع موارد المياه لنهري دجلة والفرات وكذلك الانهار التي تصب فيهما

---

(٦) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٣٦،١٣٧ ·
(٧) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٦٣٦ ·
(٨) ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص٥٨ـ٦٣ـ٨٧٢ـ ج٣ ص٩٢٠ ·
(٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٤ ص٦٩٠ ·
(١٠) رحلة ابن جبير (دار صادر ، بيروت ١٩٥٩) ص٢٠٨ ·
(١١) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٣٨٣ ·
(١٢) ابن بطوطة : تحفة النظار ص٦٥٠ ·

والقنوات التي تتفــرع منهما ، فضلا عن مناطق سـقوط الامطار والينابيع والعيون والآبار ومصادر المياه الاخرى ·

يقدم لنـا ابن حوقل اشارات توضح ذلك بقولـه «وللموصل نواح عريضــة ورساتيق عظيمة وكور كثيرة ، غزيــرة الأهل والقرى»(١٣) ويعدد هذه الرساتيق فيذكر نينوى والمرج وباهدرا والخابور ومعلثايـا وفيشخابور ويصفها بما يفيـد الغنى وكثرة المدن(١٤) ، ولكنه يشير الى البلاد الواقعة بين الزابين بما يفيد تحولها الى الخــراب وخلوها من الســكان بسبب غزوات البـدو واشتداد الفتن(١٥) وعندما يصف المدن القائمة على الفرات بين مدينة عانة والانبار ، يعدد القرى والمدن القليلة العدد ويقول ان بعضها غني وبعضها على حــال متوسطة ، ويضيف الى ذلك أنها قــد تغيَّرت وانتقلت الى النقص والاستحالة(١٦) · وأشار الى تركز السكان في القرى الكثيرة والمزارع والضياع الواقعة بالقرب من منطقة رأس العين حيث كان «يسكنها العرب وبها لهم خطط ، وفيها من العيون أكثر من ثلثمائة عين ماء جارية» ويضيف قائلا بأن «هذه العيون تجتمع فتكون نهر الخابور الذي يجري الى نواحي قرقيساء من مدن الجزيرة على نهر الفرات وكان على هذا النهر لأهل رأس العين نحو عشرين فرسخا قرى ومزارع وكان لهم غير رستاق وناحية ــ كثيرة الضياع ، وأن نهر الخابور عليه مدائن كثيرة»(١٧)) ·

وظلت هذه الظاهرة البشرية ، تسود بلاد الجزيرة الفراتية حتى القرن السادس الهجري ، وذلك على نحو ما جاء عند ياقوت وما شاهده بنفسه من مدن تلك البلاد أو ما وصل الى علمه من المدن

---

(١٣) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٦ ·
(١٤) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص١٩٦ـ١٩٧ ·
(١٥) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص٢٠٥ ·
(١٦) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص٢٠٧ ·
(١٧) ابن حوقل : نفس المرجع ص٢٠٠ ·

والقرى فنجد أن مجموع ما ذكره عن مراكز التجمعات البشرية يصل الى المائة ، وقد قال عن الموصل أنها عُمِّرت ، ثم يعدد أعمالها فيذكر تسع عشرة مدينة وقرية(١٨) وعن مدينة أربل «فينضم الى ولايتها عدة قلاع»(١٩) ، ويقول عن الرافقة بأنها «بلد متصل البناء بالرقة وهما على ضفة الفرات»(٢٠) ، وعن مدينة نصيبين «ففي قراها على مايذكر أهلها أربعون ألف بستان»(٢١)، وعن خابور الحسينية من أعمال الموصل وهو نهر ينبع من الجبال القريبة «عليه عمل واسع وقرى»(٢٢) وعن شهرزور قال بأنها « مدينات وقرى فيها مدينة كبيرة وهي قصبتها»(٢٣) وعن أردمشت القريبة من جزيرة ابن عمر بأنها «ليست لها رستاق كبير وانما لها ثلاث ضياع»(٢٤) كما أنه أشار الى منطقة رحبة مالك بن طوق الواقعة بين الرقة وبغداد على نهر الفرات فقال بما يفيد اتخاذها مستوطنات للمزارعين ، فانتشرت القرى على ما يبدو في الاماكن المشرفة على الأراضي المنخفضة عن مستوى النهر ، حيث أن المياه تنساب اليها وتستمر مدة أطول فتكون «أسرع الأرض نباتا»(٢٥) وهذا يؤيد كثرة السكان في هذه المنطقة التي هي جزء مهم من بلاد الجزيرة الفراتية ٠

ويبدو من دراسة ما قدمه البلدانيون والمؤرخون المسلمون عن مدن الجزيرة الفراتية ، أن أكبر تجمع للسكان في هذه البلاد ، استمر في القرن السادس الهجري ، كما كان عليه في القرن الرابع ، حيث تركز السكان في المدن ، أما باقي المناطق كالقرى والضياع ،

---

(١٨) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص٦٨٢_٦٨٣ ٠
(١٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص١٨٦ ٠
(٢٠) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٧٣٤ ٠
(٢١) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٤ ص٧٨٧ ٠
(٢٢) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٣٨٤ ٠
(٢٣) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٣ ص٣٤٠_٣٤١ ٠
(٢٤) ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص١٩٩ ٠
(٢٥) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٧٦٤ ٠

فتظهر ، مراكز تجمع السكان فيها مشتتة وغير ثابتة ، فقد وصف الاصطخري وابن حوقل اغلب مدن الجزيرة وصفا عاما يساعدنا ، الى حد ما ، على تكوين صورة متقاربة عن سكانها في القرن الرابع الهجري وهي الصورة التي ظلت حتى القرن السادس الهجري ، فقال الاصطخري عن الموصل ودنيسر وهيت والحديثة ، بأنها مدن غناء ، نزهة ، عامرة أهلة كثيرة البيوت والعمارة(٢٦) • وذكر ابن حوقل عن الموصل ونصيبين وهيت والانبار وماردين بأنها تمتاز بفسحة الأعمال وكثرة الضياع وعظم المحل وغزر السكان ، فضلا عن انها عظيمة الشأن كأكبر البلدان فهي عامرة آهلة ومنغصة بالسكان(٢٧) مما يدل على وجود تجمعات سكنية في منطقة معينة من المدينة وهو ما يعرف بمحلات السكنى في الوقت الحاضر • ويبدو ان اشارة البلدانيين الى اتساع العمران في المدن ، انما يدل على كثافة السكان ، فقد «عـُمـّرت مدينة (سوق دنيسر) عمارة كثيرة ، واتخذ بها الحانات والفنادق والحمامات والاسواق ، فأستوطنها الناس من كل فج عميق»(٢٨) •

وقد استمرت هذه الظاهرة الخاصة بالتوزيع البشري لسكان بلاد الجزيرة حتى خلال القرن السادس الهجري فأورد لنا ابن جبير

---

(٢٦) جاء عن الموصل بأنها «مدينة عامة ابنيتها بالجص والحجارة كثيرة غناء» وعن دنيسر «مدينة كثيرةالبيوت والعمارة» وعن هيت «عامرة آهلة» والحديثة مدينة نزهة جدا ذات بساتين وأشجار وزروع ولها مباخس» •
الاصطخري : مسالك الممالك ، ص٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ •

(٢٧) وذكر ابن حوقل ان للموصل أضعاف اعمال نصيبين في فسحة الاعمال وكثرة الضياع وعظم المحل وغزر السكان وأهل الاسواق ، وبها من الفنادق والمحال والحمامات والرحاب والساحات والعمارات ما دعت اليها سكان البلاد النائية فقطنوها وجذبتهم اليها برخصها وميرها وصلاح أسعارها فسكنوها وعن هيت بانها «من أعمر المدن» وعن الانبار «مدينة عامرة آهلة» وعن ماردين بأن فيها «في ناحية الجنوب ربض عامر منغض بالسكان» صورة الارض ص١٩٤ ــ١٩٥ــ٢٠٢ــ٢٠٥ •

(٢٨) ابن حوقل : نفس المرجع ص٢٠٢ •

ما يفيد كثـرة السكان في مدن الجزيـرة الفراتية التي مـر بها في رحلته الى هـذه البلاد في ٥٨٠هـ/١١٨٤م فقـال عن تكريت بانها «مدينة واسعة الارجاء ، فسيحة الساحة ، حفيلة الاسواق غاصّة بالخلق»(٢٩) ووصف الموصل بانها «مدينة عتيقة ضخمة فخمة» وانها «تشتمل على بيـوت ومقـاصر ومطاهر وسقايـات ومدارس وبيمارستانات ومسـاجد وحمامات وحانات وأسـواق وفنادق كثيرة»(٣٠) • وان مدينة دنيصر (دنيسر) مشحونة بشرا ولها الاسواق الحفيلة والارزاق الواسعة • وقال عن حرّان بأنها «البلد الكثير الخلق واسع الرزق جم المرافق على أحفل ما يكون من المدن»(٣١) وقد فعل مثل ذلك ياقوت فقدم لنا معلومات عن السكان في مدينة الموصل، حيث وصفهم بكثرة الخلق(٣٢) كما ذكر ما يشير الى كثافة السكان في مدينة أربل فقال عنها بأنها «عريضة كبيرة طويلة وفي قلعتها أسواق ومنازل للرعية ، وهي شبيهة بقلعة حلب الا أنها أكبر وأوسع»(٣٣) وكذلك ما يتعلق بنصيبين فهي «مدينة عامرة من بلاد الجزيرة»(٣٤) • كما قال عن دنيسر بأنها بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين وأضاف الى أنه قد شهدها بنفسه وقد «صارت مصراً لا نظير لها كبرا وكثرة أهل وعظم أسواق»(٣٥) •

وأشار ابن الاثير الى مدينة الموصل في القرن السادس الهجري ، من حيث حجـم السكان وكثافته فقال بأنها كانت قبـل أن يمتلكها

---

(٢٩) رحلة ابن جبير ص٢٠٨ •

(٣٠) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص٢١٠ •

(٣١) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص٢١٦ •

(٣٢) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص٢٢٢ •

(٣٣) ياقوت : معجم البلدان جـ٤ ص٦٨٢ـ٦٨٣ •

(٣٤) ياقوت : نفس المرجع السابق جـ١ ص١٨٦ •

(٣٥) ياقوت : نفس المرجع السابق جـ٤ ص٧٨٧ •

عمادالدين زنكي خرابا «فعمرها وامتـلأت اهلا وسكانا»(٣٦) كما أشار الفارقي الى مدينة ميافارقـين والعمران الذي استحدث فيها خلال هذه الفتـرة «فقصدها الناس والتجار وجماعـة من كل الاطراف»(٣٧) ٠

ويؤكد معلق مجهول من أهل القرن السادس الهجري ، وهو ناسخ كتاب صورة الارض لابن حوقل ، ما جاء عن عمارة الموصل في هذه الفترة فقال «أما في زماننا هذا «وهو سنة ٥٦٠هـ» فقد عمرت الموصل عمـارة لم تكن قط منذ أن أسست حتى أن العمـارة قد استولت عليهـا ، ولم يبق بها موضع ، فامتدت العمـارة الى خارج السور وصـار في خراجها أسواق وحمامات وفنادق وغـير ذلك من المرافق»(٣٨) مما يؤيد ازدياد حجم السكان وكثافتهم ٠

التوزيع الديني والثقافي للسكان :

ترتب على الفتوحـات الاسلامية في القرن السابع الميـلادي ، حدوث تغيـّرات أساسية في تكوين سكان الجزيرة الفراتية ، ليس عنصريا فحسب ولكنها أدت أيضا الى تغـيرات مماثلة في الاتجاهات الدينية والثقافية للسكان ٠ فقد أصبحت اللغة العربية ، لغة الثقافة والعلم والدين وتغلبت في صراعها على اللغتين الآرامية والفارسية ، كماتغلبالدين الاسلامي فيصراعه علىالمسيحية واليهودية والمجوسية

(٣٦) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص٧٧ ، الكامل في التاريخ جا١١ ص١١١ ٠ وقد ذكر قائلا «كان جميع المحال المجاورة للسور من سائر جهاته غير معمورة ٠ فلم تزل العمارة تكثر بالموصل حتى لقد ذهب كثير من المقابر وبنيت دورا وقال بأن الانسان «يقف قرب محلة الطبالين ويرى جامع العتيق والعرصة ودار السلطان ليس بين ذلك عمارة وهو الآن وسط العمارة وليس في هذه البقاع المذكورة كلها أرض براح» ٠

(٣٧) الفارقي : التاريخ ص١٦٦ ٠

(٣٨) المعلق المجهول : كتاب صورة الارض ص١٩٥ ٠

والصابئية . ونتيجة هذا الصراع ظهرت المدن الاسلامية الكبيرة في الجزيرة الفراتية مثل الموصل ونصيبين وميافارقين وحصن كيفا والرها والرقة وآمد وماردين ودنيسر وأربل وغيرها ، وصارت مراكز ثقافية لعبت دورا كبيرا في الحياة الفكرية ، حيث ضمت المدارس والرباطات والخانقاهات والجوامع والتكايا وحلقات الدراسة ، واستوعبت عددا كبيرا من الناس الذين درسوا ، فنبغ العلماء والفقهاء في مختلف أصناف العلوم مثل علوم اللغة العربية والقرآن والحديث والعلوم العقلية مثل الرياضيات والفلك والهندسة والجبر والكيمياء والحساب .

وكانت الموصل تحتوي على خمسة وثلاثين جامعا وأربعة آلاف مسجد وثمان وعشرين مدرسة ومائة وثمانين دار للحديث وسبعة وعشرين خانقاه للصوفية(٣٩) ومن المرجح جدا ان هذه المؤسسات ترقي الى القرن السادس الهجري .

ويبدو أن عملية الاختلاط العنصري ، قد اكسبت السكان ثقافات منوعة وقد حدث ذلك في أغلب المدن في الجزيرة الفراتية ومنها مدينة خلاط حيث كان سكانها يتكلمون ثلاث لغات هي العربية والفارسية والأرمنية(٤٠) .

كما كان أهل الذمة في الموصل وهم النصارى واليهود يقرأون التوراة والانجيل علي أبي الفتح كمال الدين بن يونس (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) وهو واحد من أبرز العلماء ، فكان يشرح لهم هذين الكتابين شرحا ، يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله(٤١) .

---

(٣٩) الخطيب العمري : منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء (تحقيق سعيد الديوهجي ـ الموصل ١٩٦٧) ص٦٠ (نقلت من كتاب سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان وهو الجزء المفقود حاليا) .

(٤٠) ناصر خسرو : سفرنامه ص٦ـ٧ .

(٤١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٤ ص٣٩٧ .

وكان لتيار التعريب الذي ظل قويا ، طيلة العهد العباسي في العراق ، تأثيره الواضح في بلاد الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، فناصر خسرو وشرفخان البدليسي والمستوفي القزويني ، على الرغم من فارسيتهم ، لا يشيرون الى وجود الفرس وتأثيراتهم الثقافية عند كلامهم عن مدن الجزيرة الفراتية وأخبارها وذكر ياقوت ان أكثر أهل مدينة أربل من الاكراد قد استعربوا(٤٢) وهذه اشارة واضحة الى تيار التعريب وتغليب العنصر العربي واللغة العربية وانتشاره في هذه المنطقة •

أما عملية توحيد سكان الجزيرة الفراتية دينيا وهي الرسالة التي كان قد سعى اليها المسلمون الأوائل ، فقد سارت سيرا بطيئا ، على الرغم من مضاعفة الجزية على نصارى بني تغلب في منطقة الفرات من بلاد الجزيرة الفراتية ، في عهد عمر بن الخطاب (رض)(٤٣) ، وهذا يرجع ، بطبيعة الحال ، الى التسامح الديني ، الذي عرف به المسلمون وترك هؤلاء الذميين(٤٤) يمارسون دينهم وعاداتهم •

---

(٤٢) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص١٨٦ •

(٤٣) يقول البلاذري «كتب عمر بن سعد (القائد الاسلامي) الى الخليفة عمر ابن الخطاب ، يعلمه انه اتى شق الفرات الشامي ، ففتح عانات (مدينة عانة) وما جاورها من المدن) وسائر حصون الفرات ، وأنه أراد من هناك من بني تغلب ، فأبوه وهموا باللحاق بأرض الروم ، فكتب اليه عمر يأمره أن يضعف عليهم الصدقة ، وان أبوا حاربهم ، فقبلوا أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة» •

وقال أيضا : «حدثنا عن زرعة بن النعمان ، أنه كان كلم عمر في نصارى بني تغلب وقال : (قوم عرب نائفون من الجزية وانما هم أصحاب حروث ومواشي فاضعف عليهم الجزية من صدقاتهم في الارض والماشية) فتوح البلدان قسم ٢ ص٢٥٠-٢٥١ •

(٤٤) كان في مدينة الموصل بيع للنصارى ومحلة اليهود ، كما كانت مدينة الحديثة تحتوي على بيعتين من بيع النصارى • وذكر ابن الفقية الهمداني ، أن «أول من اختط الموصل وأسكنها العرب ومصرها ، هرثمة بن عرفجة البارقي وكان عمر عزل عتبة ، عن الموصل وأولاها هرثمة ، وكان بها



وفي القرن السادس الهجري يذكر لنا ابن جبير في رحلته الى مدن الجزيرة الفراتية ما يفيد استمرار هذا التركيب الديني المختلط للسكان هناك ، فقد اجتاز في طريقه قرية كبيرة لها حصن يعرف (بتل العقاب) هي للنصارى المعاهدين الذميين وأضاف بأنه وصل الى قرية أخرى تعرف (بالجسر) وهي لفرقة من فرق الروم[٤٥] أما مدينة حران ، فقد ذكرها أبو الفداء صاحب حماة نقلا عن الاصطخري بقوله «انها مدينة عظيمة للصابئيين ، وبها سدنتهم السبعةعشر وبهاتل عليه مصلى للصابئيين يعظمونه»[٤٦] كما يشير ياقوت الى مدينة (هاطري) في جنوب تكريت بأن أكثر أهلها من اليهود[٤٧] .

ويمكن القول ، أن ما جاء به البلدانيون والرحالة والمؤرخون العرب والمسلمون وغيرهم من أخبار ومعلومات حول ديارات النصارى واليهود وكنائسهم وعن الصابئة ومناطق تجمعهم وانتشارهم في بلاد الجزيرة الفراتية ، يعيننا على ادراك أصول التكوين الديني للسكان ، في فترة القرن السادس الهجري التي نعني بدراستها .

لقد أشار الاصطخري الى مدن الصابئة والنصارى[٤٨] والشابشتي الى ديارات النصارى ووصفها وأورد معلومات كثيرة عنها[٤٩] ، والاصطخري والشابشتي كلاهما من أهل القرن الرابع

الحصن وبيع النصارى ومنازلهم ومحلة اليهود فمصرها ، ثم بنى الحديثة ، وكانت قرية قديمة فيها بيعتان فمصرها واسكنها قوما من العرب فسميت الحديثة» مختصر كتاب البلدان ص١٢٩ .

(٤٥) رحلة ابن جبير ص٢١٧ .

(٤٦) أبو الفدا : تقويم البلدان ص٢٧٧ .

(٤٧) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص٩٤٧ .

(٤٨) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧٦ .

(٤٩) الشابشتي : الديارات ص١٠٩-١١٢-١١٣-١١٦-١٣٩-١٤٧-١٩٢-١٩٥-١٧١-١٩٧-١٩٩-٢٤١-٢٤٤ .

الهجري ، حيث استمرت هذه المؤسسات قائمة حتى القرن السادس الهجري وما بعده أيضا فقد ورد عند صاحب مسالك الابصار عن أديرة النصارى وكنائسهم في الجزيرة الفراتية ما يعزز المعلومات التي وردت عند مؤرخي القرن الرابع الهجري ويلقي ضوءا مهما على تركيب السكان الديني خلال القرن السادس الهجري فقد ذكر عددا من الاديرة والكنائس في مدن الجزيرة الفراتية وقدم معلومات واخبارا كثيرة عنها(٥٠) ٠

أما الرحالة اليهودي بنيامـــين التطيلي ، الذي بدأ رحلته الى بلاد الجزيرة الفراتية في ٥٦١هـ/١١٦٥م ، فيقدم لنا أخبارا عن مناطق تجمع اليهود وعددهم في مـــدن الجزيرة ، مثل بالس وقلعة جعبر والرقـــة وحران ورأس العـــين ونصيبين والموصـــل والرحبة وقرقيسياء والانبار والعمادية(٥١) ٠ ويذكر لنا الخطيب العمري نقلا عن كتاب مـــرآة الزمان (الجزء المفقود حاليا) للمؤرخ ســبط ابن الجوزي ، أنـــه كان في مدينة الموصل ، أيام الأمـــير بدرالدين لؤلؤ الذي حكمها في نهاية القرن الســـادس الهجري(٥٢) ثمان وخمسون بيعة للنصارى وست عشرة كنيسة لليهـــود ، وأن رؤوس النصارى للجزية أي الذين كانوا يدفعون الجزية فعلا ثلاثة وأربعون رأسا ورؤوس اليهود ستة وثلاثون ألفا(٥٣) ٠

* * *

---

(٥٠) العمري : مسالك الابصـــار جا ص٢٦١ـ٢٦٥ـ٢٧٠ـ٢٨١ـ٢٨٧ـ٢٨٩ـ٢٩٩ـ٣٠٠ـ٣٠١ـ٣٠٣ـ٣٠٧ ٠

(٥١) التطيلي : الرحلة ص١٢٢ـ١٢٣ـ١٢٤ـ١٢٥ـ١٢٦ـ١٢٧ـ١٢٨ـ١٥٤ ٠

(٥٢) راجع عن فترة حكم بدرالدين لؤلؤ للموصل : سوادي عبد محمد : امارة الموصل في عهد بدرالدين لؤلؤ (مطبعة الارشاد ـ بغداد ١٩٧١) ٠

(٥٣) الخطيب العمري : منهل الاولياء مشرب الاصفياء ص٧ ، انظر أيضا : ياسين العمـــري : منية الادبـــاء في تاريخ الموصل الحدبـــاء (تحقيق سعيد الديوهجي الموصل ١٩٥٥) ص٦٦ ٠

الفصـــل الثــاني

المدن والقرى ومضارب القبائل العربية في الجزيرة الفراتية

أ ـ أحوال المدن والقرى في أرض الجزيرة ٠

ب ـ القبائل العربية :

١ ـ القبائل القحطانية والقبائل العدنانية في أرض الجزيرة الفراتية ٠

٢ ـ تأثير القبائل العربية في أحوال الجزيرة الفراتية ٠

الفصل الثاني

المــدن والقــرى

ومضارب القبائل العربية في الجزيرة الفراتية

أ ـ أحوال المدن والقرى في أرض الجزيرة :

يقوم التصنيف الذي جاء عن المدن الاسلامية على أساس سياسي ، اذ يوضح الفروق بينهما على أساس تقسيمها الى الامصار ، التي كان يقطنها السلطان او الوالي ، وتجتمع فيها الدواوين وتقلد منها الأعمال وتضاف اليها الاقاليم(١) ، والقصبات التي هي عواصم الاقاليم أو مدنها العظمى(٢) ، وكانت تلي الامصار في الاهمية ، ومقامها منها مقام الحجاب من الملوك(٣) • ثم تليها المدن التي كانت تقوم مقام الجند • وتأتي بعد ذلك ، النواحي ، وهي من المصطلحات التي لم توضح تماماً ، ولكن يبدو انها منطقة تابعة

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص٣٥ ، وانظر : آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج٢ ص٢٢٣ •

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص١٠٤ـ١٠٥ •

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ص٤٧ ، وانظر : آدم متز : الحضارة الاسلامية ج٢ ص٢٢٣ •

(٤) المقدسي : نفس المرجع السابق ص٣٥ـ٤٧ •

للمدينة ، شأنها شأن القرى الملحقــــة بالمدن ، التي كانت تقوم مقام الرجالة(٤) ٠

ويمكن أن نميّز في بلاد الجزيرة الفراتيــة ، الى حد ما ، بين المدن والقـــرى على الرغم من الصعوبة القائمة للتوصــل الى فروق واضحة المعالم بينها وفق التصنيف ســـالف الذكر ، اذ ان هناك بعض الاشارات ، يمكن الاستفادة منها في هذا السبيل ٠

وقد انقسم اقليم الجزيـــرة الفراتية الى ثلاث كور ، كانت مناطق كبــيرة تحتوي على المدن والنــواحي والقرى ، وقــد سمي الجغرافيون والمؤرخون المسلمون هذه الكور ، في القرن السادس الهجري ، بأسماء أهم المدن فيها ، كما كان الحال منذ القرن الرابع الهجري ، وهذه الكور هي :

١ ـ الموصل :

ومن مدنها الحديثة ونصــيبين ورأس العين ، ومن نــواحيها جزيرة ابن عمر وفيشخابور وباعيناثا والمغيثة والزوزان،والموصل هو مصر اقليـــم الجزيرة الفراتيــة ، حيث يتبعه ، عــدد من المدن والقرى والنـــواحي(٦) ، كما يمثل قصبة الاقليـــم ، أي مدينته العظمى(٧) ٠

٢ ـ الرقـــة :

وأهم مدنهـــا ، المحترقة والرافقة وباجروان وحصــن مسلمة وترعوز وحران والرها ٠ ومن نواحيها ، سروج وكفرزاب ٠

---

(٥) وكان اسم الموصل «خولان» فلما وصل العرب بها عمارتهم ومصروها سميت الموصل ، المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٣٨ ٠

(٦) المقدسي : نفس المرجع السابق ص١٣٨ ٠

(٧) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص١٠٥ ٠

٣ ـ آمـــد :

ومدنها ، ميافارقين وتل فافان وحصن كيفا ٠

وهناك بالاضـــافة الى هذه الكور الثلاث ، منطقـــة الخابور وقصبتها عرايان ومن مدنهـــا ، الحصين وماكسين وسـكير العباس والتنانير ٠

وقد ظلت أكبـر مدن الفرات ، كما كانت في القـرن الرابع الهجري هي :

رحبة مالك بن طوق وقرقيسياء وعنة والداليه والحديثة(٨) ٠

وقد جاء في وصف الموصل بأنه «بلد جليل ، حسن البناء ، حسن الاسواق والفنادق وله منازه وخصائص وحمامات ودور بهية»(٩) ٠ ولعل هـذه المرافق من مزايا المدن(١٠) في بلاد الجزيـرة الفراتية ، تلك المدن التي مصّرت بعد الفتوح الاسلامية أو التي انشئت لتكون على نسق متشـابه ، فالموصل شبه طيلسان ، مثـل البصرة ، ليس بالكبير ، في ثلثه شبه حصن يسمى «المربعة» على نهر زبيدة ويعرف بسوق الاربعـاء ، ووصفت الساحة التي بداخل المدينـة ، بأنها واسعة يجتمع فيها الناس للبيع والشراء وفي كل ركن منه فندق ، وكان يمكن الصـعود من الشط (الجرف) الى المربعة بـدرج مبني

---

(٨) المقدسي : نفس المرجع السابق ص١٣٨ ٠

(٩) المقدسي : نفس المرجع السابق ص١٣٨ ٠

(١٠) قسم آدم سمث ، المدن في المملكة الاسلامية الى أربعة أنواع :

١ ـ مدن على الطراز الهليني في حوض البحر المتوسط ٠

٢ ـ المدن التي على طراز جنوب جزيرة العرب ٠

٣ ـ المدن على الطراز البابلي ٠

٤ ـ ومدن شرق المملكة الاسـلامية وتكون مدن الجزيرة الفراتية منها (الحضارة الاسلامية ج٢ ص٢٢٧) ٠

بالحجارة والآزاج ، وكذلــك من الشط الى الاسواق بدرج أخر .
وكانت أكثر الاســواق في مدينة الموصــل مغطاة . أمــا شوارعها وأزقتها ، فكثــيرة ومتشعبة وتسمى «الدروب» ومنهــا «درب دير الأعلى» و «درب باصلوت» و «درب الجصاصاين» و «درب بني ميدة» و «درب الدباغين» و «درب جميل»(١١) .

ويؤيد ابن جبير الذي كان قد مر في مدينة الموصل سنة ٥٨٠هـ /١١٨٤م ما جــاء عنها في القرن الرابع الهجري ، فيصــفها بأنها مدينة عتيقة ضخمة حصينة فخمة ، قد طالت صحبتها للزمن ، وقد كادت أبراجها تلتقي انتظاما لقرب مسافة بعضها من بعض ، وأشار الى داخلها من البيوت المستديرة التي بنيت على جدار السور المطيف بالبلد كله ، وفي أعلى المدينة قلعــــة عظيمة ، رص بناؤها رصاً ،

(١١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص١٣٩ . كما أورد وصفا لبعض مدن الجزيرة الاخرى مثل جزيرة ابن عمر التي قال بأنها كبيرة طيبة نزهة ، بناؤها من الحجارة السوداء والكلس ومدينة آمد وهو بلد حصين ، حسن عجيب وبرقعيد وصفت بانها صغيرة وفيها الحمامات الحسنة والقصور المنيفة ، وكان سوقها من الباب الى الباب وعليها حصن من حجر وكلس ، والجامع وسط البلد . أما مدينة دارا فكان لها قناة تزودهــــا بالمياه وبنيانها من الحجارة السوداء والكلس ومدينة آمد وهو بلد حصين ، حسن ع عجيب البناء ، له أبواب بنيت بالحجارة السوداء وفيه خمسة أبواب ، باب الماء ، وباب الجبل وباب الروم وباب التل وباب صغير يحتاج اليه أثناء الحرب وهو باب أنس . أما ميافارقين فمدينة مهمة (اسمها الآرامي) Mayharkath واسمها العربي تحريف له (Moufahin) وقــد أسماها اليونانيون (Martyropolis) وبلد حصن له شرف وفصيل بحجــارة فيها قلعة وربض وبناؤهــا من حجر وطين . وحصن كيفا بهــا قلعة وكنــائس كثيرة (ســـماها الروم Kiphas Cephe) والرقة سورها عريض يسير عليه فارسان ولها بابان وهي من المدن القديمة الخطة حسنة الاسواق ولها حمامات طيبة قد ظللت أسواقها وبريقت قصورها . وحران نزهة وعليها حصن . والرها وهي احدى عجائب الدنيا وهي محصنة وجامعها على طرف منها وبها كنيسة عجيبة بآزاج ملبسة بالفسيفساء ص١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ . ويبدو أن هــذه المدن قد حافظت على كثــير من معالمها العمرانيــة في القرن السادس الهجري .

ينتظمها ســـور عتيق البنية ، مشيد البروج ، وتتصل بهـــا دور السلطان • وأضاف بأن الشارع المتسع الممتد من القلعة الى شرقي المدينة ، قد فصل بين المدينـــة ودور السلطان • ويصف ربض المدينة ، أي الســاحة في وسطها ونسميها الآن «الميدان» بمـــا يفيد بأنه كبير . فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق ، وقد بنى فيها جامع يطـــل على نهر دجلة ، وبناؤه يقصر الوصف عنـــه وعن تزيينه وترتيبـــه ، وكل ذلك نقش في الآجـــر ، وكان يطيف به شبابيك من حديـــد تتصل بهـــا المصـــاطب ، التي تشرف على نهر دجلة[١٢] • وكان أمام هذا بيمارستان حفيل • وفي السوق قيسارية للتجار ، كأنها الخان العظيم ، تنغلق عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيـــوت بعضها على بعض ، وكان بناؤهـــا مزخرفا لا مثيل له[١٣] •

ويمكن القول ان ما أورده ابن جبير ، هو تفريق واضح بين المدينة التي كانت تمتاز بوجود هذه المرافق ، وغيرها وبين القرية الكبيرة ومثالها قرية «تل العقاب» ، وكان قد مر بها فقال عنها «وتحفها البســـاتين والكروم وأنـــواع الاشجار ويـــربي أهلها الماشية»[١٤] •

وكان ابن جبير يحس بمعالم الحضـــارة التي كانت تصطبغ بها المدن ، فيقول عن مدينة رأس العين «••• وأما المدينة فللبداوة بها اعتناء وللحضارة عنها استغناء»[١٥] ، ويظهر ان ابن جبير ، كان يعد الاسوار والدور الانيقة البناء والمساجد والحمامات والاسواق

---

(١٢) رحلة ابن جبير ص٢١٠ •

(١٣) نفس المرجع السابق ص٢١٠ •

(١٤) نفس المرجع الســابق ص٢١٧ وقد أوحت له هذه القرية بمـــا يشابهها في بلاد الاندلس •

(١٥) نفس المرجع السابق ص٢١٩ •

والبيمارستانات والارياض والمدارس والقيساريات من مظاهر الحضارة في المدن

أما ياقوت الحموي ، فقد أشار الى المدن والقرى حسب مساحتها وسكانها وعمراتها فسمى بعضها «مدنا كبيرة» وهي الموصل وأربل ورأس العين وشهرزور وقسطيلية[16] ، واطلق على أخرى لفظة «مدينة» فقط وهي سنجار والسن وبلد وصرعون وميافارقين[17] ، كما وصف مدنا اخرى «بالبلدة» وهي السويداء والهكارية وهيت ودنيسر[18] ثم أطلق على أخرى لفظة «بلد» مثل الرافقة وآمد وتل موزن ومجادل وبرزمهران وقرقيسياء ووصف أخرى بأنها «بليدة» مثل تل هفتون وباشزي وأوانا وأخرى وصفها «بالقرية» مثل باعشيقا وتل عبدة والمؤنسة وقرادي والقريشية وكراثا وكفر عزا والزرّاعة ووصف غيرها «بالقرية الكبيرة» مثل المراوزة ومرق والمزرفة وباصفراء وباعيناثا والجبول وجدال ودوغان والدولعية وشاقرد وصريفون وكفر توثا ٠

ويمكن أن نستنتج فروقا عامة من خلال ما أورده ياقوت عن هذه المدن والقرى ، فقد وصف مدينة أربل بأنها «مدينة كبيرة عريضة طويلة» ثم زاد قوله «ومع سعة هذه المدينة فبنيانها وطباعتها بالقرى أشبه منها بالمدن»[19] أي أنه كان يشير الى الفروق من حيث عدد النفوس وسعة البناء والعمران ٠ ووصف الفضيلية وباعيناثا بأنها قريتان كبيرتان كالمدينتين[20] وان برطلى قرية

---

(١٦) انظر مواقعها على الخارطة ٠
(١٧) انظر مواقعها على الخارطة ٠
(١٨) أنظر مواقعها على الخارطة ٠
(١٩) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص١٨٦ ٠
(٢٠) ياقوت : نفس المرجع السابق ص١٨٦ـ٤٧٢ـ٤٧٣ ٠

كالمدينة(٢١) ، ثم يبدو أكثر توضيحا لهذه الفروق في كلامه عن مدينة دنيسر التي قال عنها بانها «بلدة عظيمة مشهورة ، وقد صارت قرية ثم رأيتها بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة ، وقد صارت مصرا لا نظير لها كبرا وكثرة أهل وعظم أسواق(٢٢) ·

ويقتضي فهم الكثير عن الفروق بين المدينة والقرية في القرن السادس الهجري ، وذلك باستعراض مـا جاء به ياقوت عن مدينة الموصل والمدن الاخرى والقرى من حيث أهميتها وموقعها وبناؤها وكذلك من حيث عيوبها ، فأشار الى ما يفيد شهرة مدينة الموصل العظيمة وانها احدى قواعد بلاد الاسلام القليلة النظير كبرا وعظما وكثرة خلق وسـعة رقعة ، وأضاف بأنها باب العـراق ومفتاح خراسان ، وقـد عدها من المدن الثلاث العظام في بـلاد الدنيا بعد نيسابور ودمشق · وقال بأنها مدينة قديمة ، ابنيتها حسنة جيدة وثيقة بهية المنظر لانها مبنية بالنورة والرخام ، وكانت الدور كلها آزاج وسراديب وان سورها يشتمل على جامعين · أما عيوبها فهي قلة بساتينها وعدم جريان الماء في رساتيقها وشدة حرها في الصيف وعظم بردها في الشتاء(٢٣) ، ووصف ميافارقين بانها أشهر مدينة بديار بكر وأشار الى أبراجها الثلاثة(٢٤) وأبوابها ومرافقها والى المرآة العظيمة التي كانت موضوعة بين برج المرآة وبرج الطبالين

---

(٢١) ياقوت : نفس المرجع السابق جا ص٥٦٧ ·

(٢٢) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٦١٢ ·

(٢٣) ياقوت : نفس المرجع ج٤ ص٦٨٢ـ٦٨٣ ·

(٢٤) وهي برج الرومية وبرج الزاوية المعروف ببرج (علي بن وهب) وبرج باب البيض ، وفيها حمام النجارين ، وجعلت لها ثمانية أبواب وهي باب أرزن ويعرف بباب الخنازير وباب قولنج وباب الشهوة وباب الفرح والغم ويسمى هذا الباب باب القصر وباب الميدان ولم يذكر بقية الابواب · ياقوت : نفس المرجع السابق حـ٤ ص٧٠٣ـ٧٠٤ ·

وهي تعكس نور الشمس على ما حولها من الجبال ، ثم أشار الى زقاق اليهود قرب كنيستهم التي تحتوي على جرس من رخام أسود منزجج(٢٥) .

أما مدينة آمد فهي من أعظم مدن ديار بكر واجلّها قدرا وأشهرها ذكرا وهي بلد حصين ركين مبني بالحجارة السود وفي وسطها عيون وآبار(٢٦) .

أما وصفه للقرى فيختلف عن ذلك فيقول عن القرية الكبيرة باعيناثا أن لها نهرا كبيرا يصب في دجلة وفيها بساتين كثيرة وهي من أنزه المواضع(٢٧) .

وعن الفضيلية بأن لها نهرا جاريا وكروما وبساتين وبها سوق وقيسارية وبازار(٢٨) ، وباعشيقا لها نهر جار يسقي بساتينها(٢٩)، والمراوزة ، ذات بساتين ومياه جارية(٣٠) ويبدو أن القرية بهذا الوصف الموجز ، انما كانت تقتصر على البساتين وتوفر المياه والارض المزروعة .

ويقدم المستوفي القزويني وصفا مفيدا يساعد على التمييز بين حجم المدن الكبيرة والصغيرة والمتوسطة ، فقال أن سنجار يبلغ محيطها ثلاثة آلاف ومائتي خطوة، والانبار محيطها خمسة آلاف خطوة، وتكريت بلدة متوسطة محيطها ستة آلاف ومائة خطوة وحربي

---

(٢٥) نفس المصدر السابق ص٧٠٤ .
(٢٦) ياقوت : نفس المرجع السابق جـ٤ ص٧٠٤ .
(٢٧) ياقوت : نفس المرجع السابق جـ١ ص٦٦ .
(٢٨) ياقوت : نفس المرجع جـ٣ ص٩٠٣ .
(٢٩) ياقوت : نفس المرجع جـ١ ص٤٧٢ .
(٣٠) ياقوت : نفس المرجع جـ٤ ص٤٨٠ .

متوسطة الحجم ومثل ذلك عانة والمحول · ولكن الموصل عاصمة الجزيرة وأكبر المدن فيها محيط سورها ثمانية آلاف خطوة(٣١) ·

أما ابن شداد ، فقد وصف مدن الجزيرة الفراتية وصفا دقيقا ومفيدا في هذا السبيل ، يمكن ان يعيننا على ادراك طبيعتها من حيث حجمها وسعة البناء والمرافق والاسوار · فقال عن مدينة «حران» بانها مبنية بالحجر والكلس ، متسعة الشوارع ولها سور منيع وربض صغير ، متصل بسور المدينة ، وقلعة كانت تسمى قديما «المدور» وللمدينة سبعة أبواب(٣٢) ، وتسعة حمامات(٣٣) · ومن المدن الشبيهة بحران مدينة حصن كيفا التي وصفها هذا المرجع بأن لها قصورا ودورا وأبرجة للسلطنة وغيرها مبنية بالحجر ، وفيها ميدان أخضر وجامع وأمامها أرض منخفضة ، فيها دور ومساكن وحوانيت معطلة لا يوجد فيها مساكن ولها ربض من جهة الشمال فيه الاسواق والحوانيت والمدارس والحمامات ولها سبعة أبواب يصعد اليها · وأضاف بأن لها ربض آخر يعرف بالقرية ينتهي الى ميدان وجوسق(٣٤) ·

---

(٣١) Mustawfi of Qazwin, Hamd-Allah, The Nuzhat Al-Qulub p. 34-53. 102-104.

(٣٢) باب الرقة وهو مسدود والباب الكبير وباب النيار وباب يزيد وباب الفدان والباب الصغير وباب السرور وباب الماء وكان مسدودا · ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ـ مخطوطة قسم الجزيرة الورقة ١٣ب ـ ١٤ أ ·

(٣٣) حمام الكنيسة وحمام الدليان وحمام الولي وحمام الشيخ وحمام الرئيس وحمام السباع وحمام باب الفدان وحمام علي وحمام الزكي وفي الخارج منها أربعة حمامات على الباب الكبير وحمامان على باب يزيد ، كما أن في المدينة حماما من البلاط · ابن شداد : نفس المرجع السابق ـ الورقة ٢٠ب ـ ٢١ أ ·

(٣٤) ابن شداد : نفس المرجع الورقة ١٢٧ أ ـ ١٢٧ب ·

أما مدينة «ميافارقين» فلها أربعة أبواب(٣٥) وثلاث مدارس(٣٦) وثلاثة عشر حماما(٣٧) ، ومن المدن المدورة التي يذكرها ابن شداد مدينة «ارزن» وهي على تل ، عـدة ابراجها خمسة وثلاثون برجا وأمامها خندق عليه جسر مبني بالحجر المنحوت على قناطر ارتفاعها نحو مائتي ذراع ، وفي المدينة أسواق ومعايش ومدرسة وبيمارستان وأكثر أهل «ارزن» يصيفون على الشط(٣٨) • والمدينة الاخرى التي يحيط بها الخندق خارج أسوارها مدينة «ماردين» لها سور لا يرتفع كثيرا ، وفي الشمال منها (وادي الرحلة) تكثر فيه البساتين والجنات • وأضاف بأن مدينـة ماردين مبنية على الجبل كالدرج بعضـه دون بعض وهي مشرفة على البلد ، ولسور المدينة ستة أبواب(٣٩) ، وفي وسط المدينة ساحة مسورة أنشئت فيها الجواسق والبساتين فسمى هذا الوضع «البونة» أي : الفردوس(٤٠) •

ثم يصف مدينـة «الرها» فيقول عنها بأنها تتصـل بمدينة «حران» لها سـور من الحجر ، تحيط بها الاشجار والبسـاتين ولها

---

(٣٥) وهي باب المحدثة والباب الجديد وباب الروض وباب الهوة ، ولها بابان مسدودان • ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٦٩ أ •

(٣٦) مدرسة الحنفية ومدرسة الحنابلة ومدرسة الشافعية ، ويقول ان فيها مائتي مسجد ، انظر ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٧١ أ •

(٣٧) وهي حمامات : القاضي وسعيد والعقبة والحطابين والازج والحمام الجديد وخزيمة ، وبالمحدثة خـارج البلد حمامان وبالربض حمامان ، حنباض وجوزة •

ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٧١ أ •

(٣٨) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٨ ب •

(٣٩) باب السور وهو مفتوح والباب الجديد مفتوح أيضا وباب الزيتون مغلق وباب الخمارة مغلق ، ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٠ أ •

(٤٠) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٠ب •

ثلاثة أبواب(٤١) ولا يعني اتصال المدينتين ببعضهما من حيث امتداد حجم العمران وسعة البناء ، انما المقصود هو اتصال القرى والمناطق المزروعة بكلتا المدينتين ٠

وبعض المدن لها سوران ، مثل مدينة آمد ، كان أحدهما أكبر من الآخر وكلاهما عريضان ، بحيث تمشي عليهما خمسة أفراس ، وهو مبني بحجر أسود مانع ، أصلب من الحديد(٤٢) ، كما أن للمدينة خمسة أبواب(٤٣) وكذلك مدينة سنجار التي كان لها سوران، أحدهما أعلى من الآخر وكل منهما مبني بالحجر والجص(٤٤) ٠

أما مدينة «رأس العين» فكانت طواحينها وأرحاؤها ، قد ركبت على سورها(٢٥) وذلــك لضخامته وعلوه ، حيث ان هــذه الطواحين ينبغي نصبها في الاماكن العالية لتحركها الرياح ٠

ومن المدن الحديثة في القرن السادس الهجري ، مدينة جزيرة ابن عمر المســورة التي تحيط بها دجلة من ثلاثــة جوانب ، وفيها ثمانــون مســجدا وبيمارســتان واربعــةعشر حمامــا وثلاثــون بستانا(٤٦) ٠

---

(٤١) هي : باب حــران وباب القساس وبــاب شاع ٠ وكان أكثر ســكانها من النصارى وبها لهم ما يناهز ثلثمائة بيعة ودير ٠

أنظر ابن شداد : الاعلاق الخطــيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ــ مخطوطة ، قسم الجزيرة ــ الورقة ٢٧ أ ٠

(٤٢) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٦٦ أ ٠

(٤٣) وهي: باب أتيل وباب الماء وباب الفرح وباب الروم وباب وراء السور٠ ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٦٦ أ ٠

(٤٤) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٤٥ أ ٠

(٤٥) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٤٢ب ٠

(٤٦) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٥٧ب ٠

التخصص الوظيفي للمدن :

أشار ابن خلدون الى الاختلاف بين المدن ، من حيث اتساع العمران ، فقسمها الى أنواع ثلاثة ، المدن الصغيرة والمتوسطة والمدن الكبيرة ، وخص كلا منها ببعض الخصائص التي يفتقدها النوع الثاني من هذه المدن ، فقصر أسباب المعيشة التي كانت تقتضيها الحياة ولوازمها على المدن الصغيرة والمتوسطة(٤٧) اما عن الامصار والمدن الكبيرة ، فقد خصها بصنائع الترف وأحواله لانها «مدن مستبحرة في العمارة» و «آخذة في عوائد الترف والحضارة» وأمثال هذه الصنائع ، الزجاج والصائغ والدهان والطباخ والصفار والفراش والذباح وغيرها ، كما ذكر ان المدن اذا استكملت أسباب الحضارة والترف ، انتشرت فيها صنائع المدن الكبيرة(٤٨) .

وهذه الفروق التي يشير اليها ابن خلدون هي ، في الواقع ، اختصاص كل مدينة وتميزها بعضها عن بعض ، فاذا استعرضنا مدن الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، نلمس مثل هذا الاختلاف بينها ، ولكن لا يوجد تخصص وظيفي واحد لمعظم هذه المدن ، وذلك حسب مفهوم التخصص الحديث الذي يعني قيام المدينة بنوع من الانتاج الزراعي أو الصناعي أو تقديمها نوعا متميزا من الخدمات العامة ، سواء على النطاق التجاري أو بسبب وقوعها على طرق المواصلات ، فقد كانت الموصل وأربل وآمد وماردين ، مراكز ادارية لامارات الجزيرة التي كان يقطن فيها

(٤٧) وذكر «أن أعمال المصر يستدعي بعضها بعضا كما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الاعمال ، يختص ببعض أهل المصر ، فيقومون عليه ويستبصرون فيه ورزقهم منه ، والحاجة اليه ومالا يستدعي في المصر يكون غفلا اذ لا فائدة لمنتحله في الاحتراف به وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش ، فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والنجار وامثالها «ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج١ (طبعة بولاق) ص٣١٥ .

(٤٨) ابن خلدون : نفس المرجع السابق ص٣١٥ .

الامير وحاشيته ، ولكن حياة هذه المدن ، لم تكن تقوم على الادارة وحدها ، كما لم تكن هناك مدن صناعية بالمعنى الحديث،حيث تكون الصناعة المصـدر الاول والوحيد لحياة السكان ، ولكن عددا من المدن ، كانت تشتهر بصناعة أو باخرى ، كشهرة الموصل بالنسيج الحريري الفاخـر المسمى «موسلين» وصـناعة الاواني النحاسية المطعمة(٤٩) ، وشهرة ملطية بصناعة غزول الصوف(٥٠) ، ومدينة (معرين) بعمل البسط المعرينية(٥١) ، كما اشتهرت مدينة «وان» بصناعة البسط(٥٢) أيضـا ومدينـة (باقداري) التي تصـنع فيها الثياب القطنيـة الغليظة ، حيث كان أهل بغداد يضربـون بها المثل(٥٣) . ويشير صاحب الكتاب الموسـوم ب (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة) الى وجود محلة للعمال الجصاصين في الموصل يبدو أنها قريبة من الباب المسمى بالاسم نفسه(٥٤) ومحلة الطبالين التي يذكرها ابن الاثير(٥٥) .

والحقيقة أن أهـم سمات مدن الجزيرة الفراتيـة آنذاك التجارة ، أي أن المدن كانت مراكـز تسويق للريف المحيط بها أو لمنطقة كبيرة واسعة ، كما هو الامر بالنسبة للموصل التي قال عنها ابن حوقل أنها فرضة لاذربيجـان وأرمينية والعراق والشام(٥٦) ،

---

(٤٩) ابن سعيد المغربي : كتاب بسط الارض في الطول والعرض ص٩٠ .

(٥٠) وذكر انه كان بها اثناعشر ألف نول تعمل الصوف على عهد بني ارتق . انظر مخطوطة عجائب البلدان والجبال والاحجار وغير ذلك لمؤلفها علي بن عيسى المتوفي سنة ٨٧٣هـ (وهي نسخة وحيدة في العالم في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب في جامعة بغداد رقم (١٤) الورقة ٧٤ـ٧٥ .

(٥١) ياقوت : كتاب المشترك وضعا والمفترق صقعا ص٤٠١ـ٤٠٢ .

(٥٢) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص٨٩٥ .

(٥٣) ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص٤٧٥ ، ثم انظر فصل الصناعة .

(٥٤) الحوادث الجامعة ص ٣٤٧ .

(٥٥) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١١ ص١١١ .

(٥٦) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٥ .

و بالنسبة الى مدينة «بالس» المشهورة بالتجار الاغنياء(٥٧) ومدينة «خلاط» المشهورة بأغنياء التجار(٥٨) أيضا ٠

وكانت جميع مدن الجزيرة الفراتية مسورة ، وأسوارها مبنية من الاحجار الصلدة البيضاء أو السوداء ذات الاحجام الكبيرة، يشير ناصر خسرو الى مدينة «ميافارقين المحاطة بسور عظيم من الحجر الابيض الذي يزن الحجر منه خمسمائة مَنّ»(٥٩) ٠ كما كان للمدن قلاع خاصة بها وهذا ما كانت تقتضيه ضرورة تأمين سلامة السكان والدفاع عنهم ، في عهود تميزت بعدم الاستقرار والقلق السياسي والتعرض لغارات الامراء المتنازعين أو البدو أو الغزاة من الاجانب(٦٠) ٠

فالموصل لها سوران ، خرّب بعضها وأربل لها قلعة على تل عال داخل السور(٦١) وعانة لها قلعة حصينة و «تكريت» لها قلعة حصينة تقع على نهر دجلة ومدينتها محاطة بسور(٦٢) و «ماردين» قلعة على قمة الجبل(٦٣) و «حران» لها سور منيع وقلعة(٦٤) و «رأس العين» لها سور(٦٥) ومدينة «جزيرة ابن عمر» مسورة(٦٦) و «آمد» لها سوران

---

(٥٧) ابن سعيد المغربي : بسط الارض في الطول والعرض ص٨٩ ٠

(٥٨) ابن سعيد المغربي : نفس المرجع السابق ص١٠٤ وقال عنها أيضا «انها كثيرة الملاهي والمساخر» ٠

(٥٩) ناصر خسرو : «سفرنامه ص٨ ٠

(٦٠) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول ص١٦٦ ٠

(٦١) أبوالفداء : تقويم البلدان ص٢٨٥-٤١٣ ٠

(٦٢) ابن بطوطة : تحفة النظار جـ١ ص١١٥-١٨٤ ٠

(٦٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة - مخطوطة الورقة ١٣٠ أ ٠

(٦٤) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٣ب-١٤ أ ٠

(٦٥) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٤٢ب ٠

(٦٦) ابن شداد : نفس المرجع السابق ، الورقة ٥٧ب ٠

عريضان(٦٧) و «الرها» لها سور(٦٨) ، و «سنجار» لها قلعتان(٦٩) .

ولابد من القول أن قلب المدينة ومحورها الذي تدور عليه ضم مؤسستين مهمتين ، هما المسجد والسوق ـ شأنها في ذلك شأن سائر المدن الاسلامية خلال القرن السادس الهجري(٧٠) ، فالموصل لها ربض في وسطها ، وفيه المساجد والاسواق(٧١) .

وذكر صاحب مراصد الاطلاع «أن في داخل سور مدينة الموصل جامعين أحدهما وسط السوق ، جديد والاخر عتيق»(٧٢) وفي أربل أسواق وجامع للصلاة في قلعتها(٧٣) ، و«باعشيقا» لها سوق كبير فيه حمامات وقيسارية وجامع كبير حسن له منارة(٧٤) ، ومدينة «حران» لها أسواق حفيلة الانتظام مسقفة كلها بالخشب ويتصل بهذه الاسواق جامعها المكرم وهو عتيق مجدد قد جاء على غاية الحسن وله صحن كبير(٧٥) ، وزاد قوله «ان من حسن بناء هذا الجامع وحسن ترتيب أسواقه المتصلة به يمثل مرأى عجيبا قلما يوجد في المدن مثل انتظامه»(٧٦) .

ويكشف هذا التلازم بين المسجد والسوق عن الترابط بين الجانبين الروحي والمادي في حياة السكان ، كما يرى الدكتور جعفر خصباك ، فالمسجد ضروري لاهل السوق والسوق يزود رواد المسجد بما يحتاجونه من لوازم العبادة(٧٧) وغيرها .

---

(٦٧) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٦٦ أ .
(٦٨) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٢٧ أ .
(٦٩) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٤٥ أ .
(٧٠) أنظر جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص١٦٦ .
(٧١) رحلة ابن جبير ص٢١٠ .
(٧٢) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج٣ ص١٧٣ .
(٧٣) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص١٨٦ .
(٧٤) ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص٤٧٢ .
(٧٥) رحلة ابن جبير ص٢٢٠ـ٢٢١ .
(٧٦) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص٢٢١ .
(٧٧) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص١١٦ .

ونجد في كثير من مدن الجزيرة الفراتية ، في هذه الفترة قيسارية(٧٨) وهي سوق مغلقة مداخلها خلال الليل ، وتحفظ فيها البضائع الثمينة • فأشار ابن جبير الى قيسارية الموصل فوصفها «كأنها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت»(٧٩) • وفي مدينة السلامية قيسارية للبز وجامع ومنارة(٨٠)، وفي «باعشيقا» قيسارية يباع فيها البز(٨١) ، كما اشار ابن جبير أيضا الى وجود ما أسماه (البازار) في بعض مدن الجزيرة(٨٢) وهو سوق يجتمع فيه الناس للبيع والشراء عن طريق المزايدات العلنية لأثمان السلع والبضائع في أيام معلومة(٨٣) •

وينتظم كل أصحاب حرفة معينة في زقاق واحد ، أو في محلة واحدة أو أكثر كما تقوم دكاكين وأسواق صغيرة في المحلات البعيدة عن قلب المدينة •

ويلاحظ ذلك بصورة خاصة في المدن الكبيرة مثل الموصل وأربل وميافارقين وآمد وحصن كيفا وماردين ، ففي الموصل ربض كبير فيه المساجد والحمامات والاسواق وفي طرفها (سوق الخيل) وفي رأسه جامع • وفي شرقي المدينة ميدان وجوسق(٨٥) •

---

(٧٨) وجمعها قياسر ، مجموعة من المباني العامة وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن وفي بعضها مساجد ويعلوها رباع ذات مساكن يقيم فيها الصناع والتجار بأجر • انظر الدكتور محمد جمال‌الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ص١٦٠ (نقلا عن المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ٢/٨٦–٩١) •

(٧٩) رحلة ابن جبير ص٢١٠ •

(٨٠) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص١١٣ •

(٨١) ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص٤٧٢ •

(٨٢) رحلة ابن جبير ص٢١٧ ، ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص٩٠٣ ، ج٤ ص ٤١٨ •

(٨٣) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص٢١٧ •

(٨٤) رحلة ابن جبير ص٢١٠ •

(٨٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة الورقة ٧١ أ •

وفي قلعة مدينة أربل التي هي في طرف من المدينة ربض فيه أسواق وقيساريات(٨٦) ٠

وتكثر الاشارة الى الحمامات(٨٧) في مدن الجزيرة الفراتية ، فيذكر ابن جبير الحمامات في ربض الموصل(٨٨) ، كما يذكر ياقوت أن في مدينة السلامية عدة حمامات(٨٩) وأن في «باعشيقا» سوق كبير فيه حمامات(٩٠) ٠ ويعدد ابن شداد الحمامات في مدينة «حران»، فيذكر خمسة عشر حماما(٩١) وفي مدينة جزيرة ابن عمر أربعة عشر حماما(٩٢) وثلاثة عشر في مدينة ميافارقين(٩٣) وأربعة في مدينة حصن كيفا(٩٤) ٠

ولم تكن هناك خطة واضحة لبناء المدن في هذه الفترة ، فتبدو المدينة وكأنها مجموعة غير منتظمة من الأزقة والدروب الضيقة مثل مدينة الموصل(٩٥) وهذا يؤمن في الواقع السيطرة على مداخلها من الاخطار المتأتية من سطو اللصوص ويحمي سكانها من قساوة

---

(٨٦) ياقوت : معجم البلدان جا ص١٨٦ ٠

(٨٧) ومما جاء في وصف حمام لاحدى المدن ، انه كان حماما جميلا واسع القبب ٠ وقد كانوا يتخذون الحمام مكانا لشرب الخمر والاكل والقصف بسراويلهم الخضر وغلائلهم الحريرية ومآزرهم التي يأتزرون بها ، ويبدو ان القيان كن يقمن حفلات الغناء في داخل الحمامات ، وقال أحد الشعراء في وصفه :

كأنما قبب من سقفه صحن من البلور مكبوب

انظر : فيصل السامر : الحمدانيون في الموصل ٢/٢٧٧ ٠

(٨٨) رحلة ابن جبير ص٢١٠ ٠

(٨٩) ياقوت : معجم البلدان ٣/١١٣ ٠

(٩٠) ياقوت : نفس المرجع السابق ١/٣٧٢ ٠

(٩١) انظر ص٤٦ ٠

(٩٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة الورقة ٥٨ أ ٠

(٩٣) انظر ص٤٧ ٠

(٩٤) ابن شداد : الاعلاق الورقة ١٢٧ أ ـ ١٢٧ب ٠

(٩٥) ياقوت : معجم البلدان ٢/٤٤٨ ، ٤/٣١٥ ٠

المناخ كالبرد في الشتاء والحر في الصيف • كما أنها مناسبة في عهد كانت الدواب أهم وسائط النقل داخل المدن وخارجها •

ب ـ القبائل العربية :

أن مجموعات القبائل التي كانت تعيش في الجزيرة الفراتية أكثرها بدوي في طبيعته ، وهي دائـــم التنقل وراء الماء والكلأ ، وغالبا ما تجتذبه ثروة المدن وحضارتها ، فيسعى اليها للحصول على ما فيهـــا من الزاد والمتاع وبتوالي القرون ينـــدمج في سكانها وأحيانا يغير عليها اذا أحس بضعف الحكومات المسيطرة عليها •

ومن الجدير بالذكر ، أن الصبغة البدوية التي احتفظت بها مجموعات كبيرة من هذه القبائل ـ تجعل من الصعوبة تحديد ديار كل منها بدقة لانها قد تتغير من عهد لاخـــر ، خصوصا وأنها ظلت مرتبطة بقبـــائل جزيرة العرب وأطرافها بعلاقـــات الدم والقرابة والجوار ، فضلا عن العلاقات الاجتماعية والسياسية ، حتى يمكن اعتبار الجزء الشمالي من جزيرة العرب الممتد من الحجاز غربا الى الاحساء ، والبحرين شرقا ، ومن بادية الشام الى الجزيرة الفراتية والعراق شمالا(٩٦) ، ديارا واحدة تنتقل فيها قبائل عديدة كبيرة ، يعيش فـــرع منها في الحجاز وآخر في الجزيرة الفراتيـــة والعراق وغيره في بادية الشام ، وكانت العوامل الاقتصادية والسياسية هي التي تحركها ، كأوضاع الحكومات ومناطق الرعي أو خفارة الطرق ورعاية الحجاج •

وقد قـــدم ياقوت معلومـــات تتعلق بتوزيع القبائـــل العربية وتجمعهم وأحوالهم في أرض الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، فأوضـــح تخطيط هذه البـــلاد بحسب ديـــارات القبائل

---

(٩٦) انظر : جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص١٨٦ •

الثلاث(٩٧) ، فيقول عن دياربكر بأنها «بلاد كبيرة واسعة تنسب الى بكر بن وايـل بن قاسط بن هنب بن افصى بن جديلـة بن اسد بن ربيعة بن نـزار بن معد بن عدنان ، وأضاف الى ان حدودهـا «ما غرب من دجلـة من بلاد الجبل المطل على نصيبين» أما ديـار ربيعة فيذكر أنها بين الموصل الى رأس العين ، وزاد قوله أنه ربما «جمع بين دياربكر وديار ربيعة وسميت كلها ديار ربيعة لانهم كلهم ربيعة وهذا اسم لهذه البلاد قديم كانت العرب تحله قبل الاسلام»(٩٨) «أما ديار مضر فهي مـا كان في السهل بالقرب من شرقي الفـرات نحو منطقة حران والرقة وشمشاط وسروج»(٩٩) فيما يقول أبو الفداء ، «ان الجزيـرة تشتمل على ديار ربيعة وديـار مضر وبعض ديار بكر»(١٠٠) ٠

ومن الجدير بالاشارة ان ما ذكره ياقوت حول القبائل العربية في الجزيرة الفراتية هو تأكيد لما جاء عند البلاذري في القرن الثالث الهجري عنهـا ، وما ورد عند الهمداني والاصطخـري وابن حوقل والمقدسي في القرن الرابع الهجري عنها أيضا ٠ فأول اشارة لاسكان القبائل العربيـة في الجزيرة الفراتية في العهد الاسـلامي أوردها البلاذري (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) فقد ذكـر أن طليعة عياض بن غنم

---

(٩٧) من امراء القبائل العربية في ديار ربيعة يذكر الفارقي :
أ ــ الامير ابراهيم بن قريش بن المقلد ٠
ب ــ حسين بن نصرالدولة بن مروان ٠
ومن أمراء دياربكر :
أ ــ الامير ابراهيم صاحب آمد ٠
ب ــ سكمان بن ارتق ٠
ج ــ السبع الاحمر وهو من اسعرد ٠
د ــ الامير شاروخ ٠
هـ ــ حسام الدين (التاريخ ص٢٣٣) ٠

(٩٨) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٦٣٦ ٠

(٩٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٦٣٦ ٠

(١٠٠) أبوالفدا : تقويم البلدان ص٢٢٤ ٠

انتهت الى الرقة فاغاروا على حاضر كان حولها ، وأضاف بأن سنجار كانت في أيدي الروم ، فسار عياض من خلاط الى الجزيرة ففتحها صلحا واسكنها قوما من العرب وقال أيضا «لما ولى معاوية الجزيرة لعثمان ، أمر أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعتمال الارضين التي لا حق فيها لاحد ، فأنزل بني تميم الرابية وأنزل المازحين والمديبر اخلاطا من قيس وأسد وغيرهم وفعل ذلك مع جميع ديار مضر ورتب ربيعة في ديارهم على ذلك والزم المدن والقرى بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء»(١٠١) ٠

وتعتبر اشارات البلدانيين في القرن الرابع الهجري، الى تحديد مواطن وديارات القبائل العربية ، حيث ظلت على حالها اذ ذاك ، أساسا لمواطنها ودياراتها خلال القرن السادس الهجري ، فيشير الهمداني الى غرب الفرات من بلاد الجزيرة حيث تقيم قبيلة كلب ، وفي شرقه ، ديار مضر ، ومن مدنها ، الرافقة ويسكنها أخلاط مضر ، وحران التي استوطنها بنو تميم ، ومن يخالط من بني سليم، والرها لبني سليم ومربعا والخابور لبني عقيل وبني مالك وبني حبيب وبطون تغلب ، ومن مدن ديار مضر ، رأس العين للنمر بن قاسط(١٠٢) وأضاف قوله «ان ديار ربيعة وما خلفها أولها وآخر ديار مضر رأس العين ، ثم كفر توثا ، لجشم ثم دارين ونصيبين وهي دار آل حمدان بن حمدون موالي تغلب ٠ أما جبل سنجار ، فهو جبل شراة بني تغلب ، والشراة منها بنو زهير وبنو عمرو ، ومن رحبة مالك بن طوق وقرقيسياء ثم ترجع الى أذرمة وبرقعيد وهي ديار عبد ، من تغلب ، وأكثر أهل الموصل(١٠٣) مذحج ، وهي ربعية وان

(١٠١) البلاذري : فتوح البلدان قسم ٢ ص٢٣٧-٢٤٤-٢٤٥ ٠
(١٠٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص١٣٢ ٠
(١٠٣) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص١٢٩ (ويذكر ان استيطان العرب في الموصل ، كان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب) ٠
انظر : الفصل الاول ص١٢ هامش رقم (٣) ٠

تيامنت من الموصل تريد بغداد ، وهو أول حدود ديار بكر ، وهو لبني شيبان وذويها ولا يخالطهم الى ناحية خراسان الا الاكراد»(١٠٤) أما الاصطخري ، فيذكر ان الجزيرة ، ما بين دجلة والفرات ، تشتمل على ديار ربيعة وديار مضر(١٠٥) ولم يذكر ديار بكر • ولكن ابن حوقل يقول ديار مضر ، فهي من هذه الجزيرة ، قائمة حدودها ، وكذلك ديار بكر وديار ربيعة ، تعرف كل ناحية من المجاورة لها بأوصافها واقطارها وحدودها ومدنها(١٠٦) وقال عن الموصل «بأن أهلها عرب ولهم بها خطط وأكثرهم ناقلة الكوفة والبصرة»(١٠٧) • وأضاف قوله «بأنهم أهل مروءة ظاهرة كبني فهد وبني عمران من وجوه الازد واشراف اليمن وبني شخاج وبني أود وبني زبيد وبني الجارود وبني أبي خداش والصداميين والعمريين وبني هاشم وغيرهم»(١٠٨) وعن برقعيد ، قال : يسكنها بنو حبيب وهم قوم من تغلب ومن سنخ بني حمدان(١٠٩) ، وعن رأس العين «فيسكنها العرب ولهم بها خطط ، وهم ناقلة ، من الموصل أصلهم»(١١٠) • وقسم المقدسي اقليم الجزيرة الفراتية ، على بطون العرب «لتعرف ديارهم وغيرها وجعلها ، ثلاث كور على عدة بطونهم ، أولها من العراق ، ديار ربيعة ثم ديار مضر ثم ديار بكر أربع نواح»(١١١) •

وخلال القرن السادس الهجري ، تقدم النصوص التي جاءت عند ياقوت وأبي الفداء ، صورة فيها شيء من الوضوح عن القبائل العربية وديرة كل منها وهي تؤكد ما جاء عنها في القرن الرابع الهجري ، فقد استوطنت القبائل الرئيسة الثلاث ، وهي قبائل

---

(١٠٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص١٣٣ •
(١٠٥) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧١ •
(١٠٦) ابن حوقل : صورة الارض ص٢٠٣ •
(١٠٧) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص١٩٥ •
(١٠٨) ابن حوقل : نفس المرجع ص١٩٥ •
(١٠٩) ابن حوقل : نفس المرجع ص٢٠٠ •
(١١١) المقدسي : احسن التقاسيم ص١٣٧ •

ربيعة ومضر وبكـــر ، داخل رؤوس مثلث يضم ســـطح الجزيرة الفراتية ، فكانت ديار بكر تكون رأس هذا المثلث في أقصى الشمال الشرقي حيث نزلت في سقي دجلة من منبعه حتى منعطفه عندما يغير اتجاهه ، من اتجاه غربي شرقي الى الاتجاه الجنوبي الشرقي ، وقد افادت بطون هذه القبائل وتفرعاتهـا من روافد نهر دجلة الكثيرة وتشعباتها ، فبنت لها المستوطنات من القرى(١١٢) وانتشرت جنوبا حتى أســفل مدينة (تل فافان) وكانت عاصمتها آمـد التي تقع في الجهة الغربية لنهر الفرات في الشــمال الغربي لمدينة (ميافارقين) وتحيطها المياه من جهات ثلاث وأهم مدنها «ارزن» و «ميافارقين» و «قلعة جعبر» و «الرحبة» و «حصن كيفا»(١١٣) ٠

أما اذا اتجهنـا الى الجنوب الغربي ، فنجد قبـائل مضر حيث تتمثل في أكثر جهات الجزيرة تطرفا نحو الغرب ، وتشمل الاراضي المحاذية لنهـر الفرات شمال مدينة سميساط حتى مدينـة عانة ، وتستغل هـذه القبائل نهر البليخ الذي يـأتي من «حران» ويصب فيه قرب مدينة الرقة التي كانت تعتبر عاصمة مدنهم ٠ ومن أهم مدن هذه الديار الرها وحران وبالس والرافقة وسروج(١١٤) ٠

وتمثل قبائل ربيعة ، المناطق التي تقع في شرقي نهر الخابور الكبير الذي يغذي نهر الفرات والذي ينحدر من مدينة رأس العين والاراضي التي تقع في شرقي نهر الهرماس ، وهو النهر الذي كان يمد نهر الخابور بالمياه ٠ لقد استوطنت هذه القبائل أيضا ، المناطق

(١١٢) كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص١١٥ «وكانت دياربكر هي سقي دجلة من منبعه الى منعطفه العظيم في الجنوب ، وكانت ديار مضر الى الجنوب الغربي أو هي المناطق المحاذية للفرات من سميساط الى عانة ، أما ديار ربيعة ، فقد كانت في شرق ديار مضر ، وتتـــألف من المناطق التي تقع في شرق الخابور الكبير المنحدر من رأس العين ومن الاراضي التي في شرق الهرماس وهو النهر الذي يصب في نهر الثرثار نحو الشرق الى دجلة» ٠

(١١٣) ابوالفدا : تقويم البلدان ص٢٧٧ـ٢٧٩ ٠

(١١٤) ابوالفدا : نفس المرجع السابق ص٢٧٨ـ٢٧٩ ٠

الممتدة على ضفتي نهر دجلة من مدينة (تل فافان) وهي حدود ديارات بكر حتى مدينة تكريت ، أي الجهات التي تقع غرب دجلة ، حتى مدينة نصيبين ، وتعتبر هذه الرقعة من سطح الجزيرة الفراتية ، أكثر أقسامها أهمية ، حيث تتوسط السهل الرسوبي وتشرف على موارد مائيـــة عظيمة في دجلة والفرات وفيها العاصـــمة الموصل بالاضافة الى المدن المهمة مثل رأس العين وماردين ونصيبين وجزيرة ابن عمر وتكريت وبرقعيد(١١٥) • وكانت للقبائل العربية الثلاث المشار اليها ، فروع وبطون وعشائر تتحرك بين منطقة الجزيرة الفراتية والمناطق المجاورة أو البعيدة وقد استقر قسم منها وظل القسم الاخر متنقلا • وهذه الصورة عن استيطان القبائل العربية في أرض الجزيـرة الفراتية خـلال القرن السادس الهجـري ، هي نفسها التي رسمها لنا جغرافيو ومؤرخو القرن الرابع الهجري ، يقول الهمداني أن ديرة بكر بن وائل تمتد من اليمامة الى البحرين الى أطراف ســـواد العــراق من الأبلـــة الى هيت(١١٦) • ويخطط الاصطخري ديرة قبائل أسد بأنها ما بين القادسية ، الى الشقوق في الطول ، ومن الســماوة الى حد بادية البصرة عرضـــا ، ويضيف الى ذلك ، أن بادية الجزيرة فيها أحياء من ربيعة واليمن وأكثرهم كلب اليمن(١١٧) وقـــال أيضا : «ان من الجبل شرقا الى الخط الممتـــد بين العلث الى الدســكرة الى واسط غربا مزارع يغلب عليــها الاكراد والاعراب»(١١٨) • وذكر ابن حوقل «أن بالقرب من سنجار بين شمالها وغربها ، واديا يسكنه قوم من قشير ونمير وعقيل وكلاب(١١٩) ، وان

---

(١١٥) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٧٢ـ٢٧٨ـ٢٨٠ ، ج١ ص٥٧١ ، أبوالفدا : نفس المرجع السابق ص٢٧٩ـ٢٨٠ •

(١١٦) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص١٦٩ •

(١١٧) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧٧ •

(١١٨) الاصطخري : نفس المرجع السابق ص٧٦ •

(١١٩) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٩ •

بين الزابين الاعلى والاسفل مراعي صارت مشاتي للاكراد الهذبانية ومصائف لبني شيبان»(١٢٠) ٠

١ ــ القبائل القحطانيــة والقبــائل العدنانيــة في أرض الجزيرة الفراتية :

ان القبائل العربيــة ، أما قحطانية أو عدنانية ، فأهــم قبائل الجزيرة الفراتية القحطانية في القرن السادس الهجري ، هي آل ربيعة من طي بن كهلان وهي جماعات كثيرة أهمها ، آل فضل ولهم ديرة في مدينة قلعة جعبر ونواحيها ثم على سقي الفرات الى أطراف العراق ٠ ومن قبيلة طي من القحطانية أيضا قبيلة زبيد وديرتها ، منطقة سنجار ومن طي كذلك غزية(١٢١) وسنبس وبنولام وآل بشار من ربيعة من القحطانية ومنطقتهم بالقرب من سنجار(١٢٢) ، وبنو معروف وهم فرع من ربيعة يستوطنون غربي الفرات من الجزيرة الفراتية(١٢٣) ٠

وأهم القبائل العدنانية في هذه الفترة ، هم بنو عقيل وأسد وكان كل منهما يتكون من فروع عديدة ، فأهم فروع عقيل ، بنو عبادة وبنو خفاجــة وكانت هــذه القبائل تتنقل ما بــين دجلة والفرات(١٢٤) ، أما أسد فأهم فروعها بنو خالد ، وهم متفرقون في

---

(١٢٠) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص٢٠٥ ٠

(١٢١) وغزية ، بطون عديدة منهم قبيلة البطنين وأفخاذها آل دعيج وآل رفيع وآل سرية وآل تميم وآل شرود ٠ ومن بطونها أيضا الأجود وافخاذها آل منيع وآل سنيد وآل منال وآل ابي حزم وآل علي وآل عقيل وآل مسافر وأولاد الكافرة ومساعدة بني جميل وآل أبي مالك ٠

(١٢٢) جعفر خصباك : نفس المرجع ص١٧٠ ٠

(١٢٣) الغساني : العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك (تحقيق شاكر محمود عبدالمنعم) ص٢٨٨ ٠

(١٢٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر (الطبعة الثانية ــ بيروت ١٩٦١) ج٣ ص٢٣ ٠

الشام والحجاز وبغداد وفيما بين العراق والحجاز(١٢٥) ٠ وأشار ياقوت الى قبيلتين ، هما بنو حلوان وبنو عوف وقال بأنهما من قضاعة وقد تفرقت في سائر البلدان ومنها الى أطراف الجزيرة الفراتية «وخالطوا قراها وكثروا بها وغلبوا على طائفة منها» ، وأضاف بأنهم «هزموا أعاجم الجزيرة فأصابوا فيهم»(١٢٦) ٠

تاثير القبائل العربية في أحوال الجزيرة الفراتية :

كان تأثير القبائل العربية في الجزيرة الفراتية ، يتجلى في امداد هذه البلاد بالسكان العرب الذين ساعدوا على تعريبها وتغليب الثقافة الاسلامية فيها ، بعد أن حملت هذه القبائل الاسلام اليها ٠ ثم أنها كونت المادة الاساسية لسكان المدن كالموصل وأربل ونصيبين وميافارقين وآمد والرقة وغيرها وتغلغلت في الريف والقرى وزودت المدن والقرى ومناطق الاستيطان الاخرى بالنفوس ، فسدت بذلك جزءاً من الفراغ ، الذي كان يحصل من النقص الذي كانت تعانيه نتيجة انتشار الاوبئة والامراض أو الهجرة أو الحروب ٠

(١٢٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص٢١٥ ٠

(١٢٦) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٧٢ ٠

الفصـل الثـالث

المسـلمون وأهـل الكتاب ودور عبادتهـم

١ ـ المسلمون .
٢ ـ المسيحيون .
٣ ـ اليهـود .
٤ ـ المساجد والكنائس .

الفصل الثالث

المسلمون وأهل الكتاب

ودور عبادتهم

المسلمون :

لا شك في ان الفتوحات العربية للجزيرة الفراتية في أوائل القرن الاول الهجري، وضعت بداية لتأريخ انتشار الأسلام في هذه البلاد وأقامت أساساً متيناً له في تحدي الوثنية(١) التي ظلت على ما يبدو لفترة طويلة تطبع تلك البلاد بطابعها ، على الرغم من وجود

(١) أبو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم (ت١٩٢هـ/٨٠٧م) كتاب الخراج (مصر ـ ١٣٠٢هـ) ص٧٥ ، البلاذري ، احمد بن يحيى (ت٢٧٩هـ) فتوح البلدان (القاهرة ـ ١٩٠١) ص١٧٨ ، أما المجوسية فيذكر ماري بن سليمان ، بان ملوك الفرس كان يغلبونها على المسيحية ، مما يشير الى وجودها في هذه البلاد (اخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل) ص٣ ، ٢١ـ٢٩ انظر أيضا المطران ادى شير ، تاريخ كلدو جا ص١٦٠ ولكن المقدسي ينفي وجود المجوس في الجزيرة بقوله : «وليس به مجوس» احسن التقاسيم ص١٤٢ ٠

النصارى(٢) واليهود(٣) والصابئة من أهل الكتاب(٤) ، الذين لم يغيروا من الواقع المتمثل بالهيمنة الوثنية وذلك بالوقوف ضدها أو الحد من تأثيراتها أو انتشارها وتوسعها ٠

ويمكن القول ، ان هذه السيادة التي وضع أساسها العرب المسلمون في بلاد الجزيرة الفراتية ابان الفتوحات ، جعلت المقدسي يؤكد بعد ثلاثة قرون من ارسائها ، ان هذه البلاد هي «ثغر من ثغور المسلمين ومعقل من معاقلهم»(٥) لذلك أوجدوا لهم فيها قواعد ثابتة ومدناً وحواضر لعبت دوراً مهماً في تأريخ المشرق ٠

وعلى الرغم من ان بعض القبائل العربية كانت قد استوطنت الجزيرة الفراتية قبل ظهور الاسلام حيث هاجروا من موطنهم الجزيرة العربية واستقروا فيها(٦) ولكن معظم القبائل العربية قد تدفقت اليها بعد توطد الاسلام فيها(٧) فأصبح المسلمون يؤلفون الغالبية العظمى من سكانها في العصور التالية(٨) ، وغدا التقسيم الديني لسكان الجزيرة الفراتية بناء على ذلك يقوم على أساس وجود المسلمين الى جانب المسيحيين واليهود والصابئة ، وكانت

---

(٢) البلاذري ، المصدر السابق ص٣٢٧ ٠

(٣) المقدسي ، المصدر السابق ص١٢١-١٢٣ ، التطيلي ، الرحلة (بغداد ١٩٤٥) ص١٩٧ ٠

(٤) ان بعض صابئة الجزيرة وثنيون وخاصة صابئة حران وبعضهم أهل كتاب (انظر محمد جاسم حمادي ، الجزيرة الفراتية والموصل ، بغداد - ١٩٧٧) ص١٨٩-١٩٤ ٠

(٥) المصدر السابق ص١٣٦ ٠

(٦) انظر : محمد جاسم حمادي ، الجزيرة الفراتية والموصل (بغداد ١٩٧٧) ص١٤٧-١٥٤ «يذكر عوامل هجرتها هي خراب سد مارب والعامل الاقتصادي الذي يتلخص بالبحث عن الاراضي الزراعية والعامل الديني المتمثل بالفتوحات الاسلامية (المصدر نفسه ص١٥٥-١٥٩) ٠

(٧) البلاذري ، فتوح البلدان ص١٨٢ ويقول ابن شداد ، ان الجزيرة «فتحت على يد عياض بن غنم بن زهير» سنة ١٧هـ ، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ج٣ ق١ (تحقيق يحيى عبارة - دمشق - ١٩٧٨) ص٧-٨ ٠

مناطق توزيعهم واضحة الى حد ما في القرن السادس الهجري ، وهي الصورة نفسها التي كانت عليها خلال القرن الرابع الهجري ٠

وتذكر لنا المصادر ان الخلفاء العباسيين كانوا يؤكدون على ضرورة التسامح مع الرعايا من أهل الذمة من النصارى وغيرهم ، فقد وفق الخليفة المهدي سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م بين النصارى والمسلمين عند زيارته للموصل وأرضى الجميع(٩) ؛ وفي ولاية عبدالله ابن طاهر من قبل العباسيين رفض هذا الوالي هدم كنائس النصارى(١٠) ٠

ويورد الباحث محمد جاسم حمادي ملاحظاته عن الشواهد التأريخية التي تظهر تمتع النصارى بقسط وافر من الحرية والتسامح الديني في ظل الحكم الاسلامي في الجزيرة الفراتية(١١) ٠

على ان بعض القبائل العربية من نصارى الجزيرة ومنهم بنو تغلب أعلنوا استياءهم من الجزيرة فارتحلوا من أرض الجزيرة الفراتية وكانوا نحواً من أربعين ألفاً(١٢) ، لكن الدولة الاسلامية اتخذت على ما يبدو اجراءات من شأنها الحيلولة دون هجرة القبائل العربية التي كانت على النصرانية الى بلاد الروم أو أرمينيا الا من كان على الاسلام(١٣) ٠

---

(٨) البلاذري ، المصدر نفسه ص١٨٢ ، ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني (القاهرة ـ ١٩٥٩) ص١١ـ٢١٧ ٠

(٩) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك جـ٧ ص١٤٧ـ١٤٨ ، الأزدي تاريخ الموصل (تحقيق د٠ علي حبيبة ، القاهرة ـ ١٩٦٧) ص٣٤٣ـ٣٤٤ ٠

(١٠) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ٣ ق١ ص٢٥ ٠

(١١) الجزيرة الفراتية والموصل ص١٨٦ ٠

(١٢) البلاذري ، فتوح البلدان ص١٨٥ـ١٨٦ ، المسعودي ، التنبيه والاشراف ص١٧٦ ٠

(١٣) البلاذري ، المصدر السابق ١٨٦ ٠

ومعروف ان التأثير الذي تـركه العرب المسلمون في الجزيرة الفراتية وخاصة فيما يتعلق بنشر الاسلام فيها ، كان كبيرا لدرجة ان القبائل العربية التي كانت مستقرة هناك استجابت للدين الجديد. ودخلت في حضيرة الدولة الاسلامية ، فيذكر البلاذري «ان عياضا ومن معه من المسـلمين افتتح الجزيـرة ومدائنها صـلحاً وارضها عنوة»(١٤) ٠

وقد لعب الاكراد المسلمون دوراً مهما في الفتوحات الاسلامية. وساندوا العرب في فتح الكثير من المدن والمواقع سواء في العراق أو في سورية(١٥) حيث تجنـد اغلبهم في الجيوش الاسـلامية وأصبحوا عناصر مهمة فيها ٠

ويبدو ان اشارة المسعودي التي ترجع أصل الاكراد الى العرب حيث تنسـبهم الى قبيلة ربيعة بن نزار وبعضهم الى قبيلـة بكر بن وائل(١٦) تجعلهم أكثر استجابة للعـرب في اعتناق الدين الاسلامي الذي جـاءوا به الى بلاد الجزيرة الفراتية والانخـراط تحت لواء الدولة الاسلامية ٠

---

(١٤) فتوح البلدان ص١٧٩ ٠

(١٥) الازدي ، تاريخ الموصل ص٢٠٨ـ٢٠٩ ٠

(١٦) يقول ، ان الاكراد ينسبون الى ربيعة بن نزار ، أما الذين ينسبون الى بكر ابن وائل فانهم تفرقوا على اثر الحروب التي خاضوها مع الاعاجم فصاروا شعوبا وقبائل كثيرة ٠

كما يذكر في كتابه الاخر ، ان اجنـاس الاكراد من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان بن بكر بن وائل ، كانوا قد سكنوا الجبال والادوية وصاروا هناك أمما يقيمون في المدن والعمـائر ، ومنهم يرى انهم من ولد كرد بن مرد بن صعصعة بن هوازن أو من ربيعة ومضر استوطنوا المنطقة الجبلية لاصابة الماء والكلا لماشيتهم وتركـوا لغتهم العربية وتكلموا بلغات الامم المجاورة (مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ القاهرة ـ ١٩٥٨) جـ٢ ص١٢٢ ـ١٢٣ ٠

٣ ــ المسـيحيون :

ان السياسة التي اتبعها العرب المسلمون في البلاد التي فتحوها ومنها بلاد الجزيـرة الفراتية ، هي تـرك أهل الذمـة ومنهم المسيحيون(١٨) يمارسون طقوسهم الدينيـة وعاداتهم(١٩) ولغتهم(٢٠) والاكتفاء بأخذ الجزية منهم ، ومع ذلك ، فقد توطدت العلاقات بين المسلمين والمسيحيـين ، القائمة على التسـامح والاحتـرام ، وعقدت بين الكثير منهـم والمسلمـين عـرى الصـداقة وشـارك بعضـهم بقيـة السـكان في الادارة والوظائف فتـولى الوقف في مدينة ميافارقين رجـل نصراني (ابن شليطا) سـنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م حيث كانت له جهـود في أعمار المدينة(٢١) ، كمـا لقي محترفـو الطب منهم ترحيبا عنـد الامراء

---

(١٧) ظهرت المسيحية في بلاد الجزيرة الفراتية في القرن الاول الهجري ولكن ملوك الفرس اضطهدوها في القرون التالية وارادوا تغليب المجوسية عليها، غير انها مع ذلك صارت دين أكثرية السكان بسبب الحماس الديني الذي كان يتحلى به رؤساؤها والمجامع الكنيسـة التي كان يعقدها البطاركة (ماري بن سليمان ، اخبـار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجـدل ص٣ ، ٢١ــ٢٩ .

(١٨) أحس أساقفة الكلدان بالخطر من جـراء ظهور الدعوة الأيوسية (مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح) في أوائل القرن الرابع الميلادي وقاوموه فعقدوا مجمعا في بيت لابـاط في ٨٤٤م واعتنقوا المذهب النسطـوري (اتباع نسطوريـوس) ما عـدا تكـريت التي تمسكت بمـذهب الطبيعة الواحدة ثم تحولت في القرن السادس الميلادي الى المذهب اليعقوبي (نسبة الى يعقوب البرادعي) الذي هو فرع من فروع مذهب الطبقة الواحدة .

(١٩) ذكر ابن تغري بردي : أنه عند افتتاح زنكي بن آق سنقر الاتابكي لمدينة الرها ٥٣٩هـ كتب أمانا الى النصارى . (النجوم الزاهرة جـ٥ ص٢٧٥) .

(٢٠) كانت لغة المسيحيين هي الكلدانية ، وكان يطلق عليها الآرامية وقد دخلت في صراع مع اللغة العربية في القرن السابع الميلادي وهو عصر الفتوحات الاسلامية حيث تغلبت اللغة العربية في نهاية الامر فاصبحت بالتدريج لغة المسيحيين عموما .

(٢١) الفارقي : التاريخ ص١٦٤ــ١٦٥ ، وقال بأنه شرع بعمل القناة من رأس العين وادخلها في البلد وانتفع الناس بها كثيرا .

الاتابكيين ومن أطبائهم ابن أبي البقاء بن ابراهيم النيلي ، المعروف بأبن العطار(٢٢) الذي طلب من بغداد وأرسل الى الموصل لكي يشرف على علاج الملك نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م وقد وصف بأنه كان خبيرا بالعلاج(٢٣) ، وحسنون النصراني الرهاوي الطبيب وكان يتنقل بين الرها وآمد وميافارقين بصناعته وتوفي في الرها ٦١٥هـ/١٢١٨م(٢٤) • ومن أطباء حران المسيحيين يونس الحراني الذي دخل بلاد الاندلس(٢٥) ، وفي مدينة رأس العين ظهر الطبيب المسيحي تقي الدين الرأس عيني المعروف بابن الخطاب الذي حصل على اقطاعات جزيلة وقد خدم الملوك بزي جميل وأمر صالح وغلمان وخدم(٢٦) ، أما الطبيب الرحبى المسيحي من أهل الرحبة فكان من حذاق الاطباء(٢٧) وقد تعاطي التجارة وحصل منها على أموال كثيرة(٢٨) • والى جانب ذلك فان كثيراً من أهل الذمة من كان من أرباب الحرف من العطارين والمخلطين والكسارين ومنهم الصاغة والجهابذة والصيارفة ولبعضهم المال والجاه والمكاسب الجليلة(٢٩) •

وعلى الرغم من تناقص المسيحيين بعد الفتوح الاسلامية في بلاد الجزيرة الفراتية فقد ظل عددهم كبيرا الى أواسط القرن السادس الهجري ، بدليل كثرة أسماء المدن التي كانت تقوم فيها مراكز

---

(٢٢) انظر ترجمته عند القفطي : تاريخ الحكماء ص٣٣٢ •
(٢٣) ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب جـ٣ ص٢٠٢ •
(٢٤) القفطي : تاريخ الحكماء ص١٧٧ •
(٢٥) القفطي : نفس المرجع السابق ص٣٩٤
(٦٠) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٤ •
(٢٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ١١ ص٤٠٢ـ٤٠٣ •
(٢٨) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢١٧ •
(٢٩) ورد ذلك في رسالة كتبها أبو عبدالله محمد بن يحيى بن فضلان مدرس الطائفة الشافعية في المدرسة المستنصرية الى الخليفة الناصر لدين الله • أنظر الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص٦٣ـ٦٩ •

للمطارنة والاساقفة ، مثل الموصل والبوازيج وحزة وحلوان وتكريت والانبار وهيت وباجرمي وماذرايا(٣٠) .

وكانت أكبر مناطق تجمع للمسيحيين ، هي القرى المنتشرة في منطقة الموصل مثل باعشيقا وكرمليس وقرقوش وشقلاوة وبيت سحرايا وجدال وبرطلى ، ولكن المدن الثلاث الاخيرة كانت تشتمل على أقلية من المسلمين(٣١) .

وكانت مدينة أربل وما يحيط بها، منطقة أخرى لتجمعهم(٣٢)، كما أن أكثرية تكريت من المسيحيين(٣٣) ، وذكر ابن الاثير سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م «ان عامة أهل الرها كانوا من الأرمن»(٣٤) .

ونستدل على تجمع المسيحيين في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري في ما ورد من أخبار كثيرة عن الاديرة(٣٥) التي كانت قائمة فيها منذ القرن الرابع الهجري فهناك عدد من الاديرة منها «دير مريحنا» الى جانب تكريت ، وهو دير كبير، عامر، كثير القلايات(٣٦) و «دير قني» وفيه مائة قلاية وحول كل قلاية ، بستان فيه الثمار والنخل والزيتون وتباع غلته بمائتي دينار(٣٧)

---

(٣٠) ماري بن سليمان : اخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل ص٨٥ ـ ١٥٩ .

(٣١) ياقوت : معجم البلدان جا ص٣٢٤ـ٣٨٥ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع جا ص٣١٦ ، ابن العبري : تاريخ الدول السرياني (ترجمة اسحق ارملة السرياني) مجلة المشرق سنة ٥٠ ص١٤١ـ١٤٤ .

(٣٢) ابن العبري : تاريخ الدول السرياني ص٣٩٤ .

(٣٤) ابن الاثير : الباهر ص٨٦ ، الكامل جا١ ص١١٤ .

(٣٥) الدير ، بيت يتعبد فيه الرهبان ، ولا يكاد يكون في المصر الاعظم ، وانما يكون في الصحارى ورؤوس الجبال ، فان كان في المصر أصبح «كنيسة» أو «بيعة» .

(٣٦) القلاية = الصومعة التي ينفرد فيها الراهب (الشابشتي : الديارات ص١٠٩) .

(٣٧) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص١٧١ .

و «دير برقوما» بميافارقين «تنذر له النذور وتحمل من كل موضع»[٣٨] و «دير العجاج» بين تكريت وهيت ، وهو عامر كثير الرهبان[٣٩] و «دير عمر الزعفران» ويعده الشابشتي من أجل ديارات الجزيرة الفراتية في شرق ماردين ـ وقد صار هذا الدير كرسيا للبطاركة منذ سنة ٢٩٣م فانجب واحدا وعشرين (بطريركا) وتسعه (مطارنة) ومائة وعشرة (أساقفة)[٤٠] ٠

و(دير ما سرجيس) في مدينة عانه على الفرات وهو دير كبير حسن كثير الرهبان والناس يقصدونه من هيت وغيرها[٤١] ٠

وذكر ياقوت عددا من الديارات في مواضع كثيرة من بلاد الجزيرة الفراتية أهمها (دير ابي يوسف) فوق الموصل وهو دير كبير فيه رهبان على شاطيء دجلة[٤٢] و (دير احويشا) كبير جدا فيه أربعمائة راهب في قلال ويقع بالقرب من اسعرد ومطل على أرزن[٤٣]، و(دير برصوما) وهو قرب ملطية وفيه رهبان كثيرون[٤٤] و (دير سعيد) بغربي الموصل حسن البناء واسع الفناء وحوله قلالي كثيرة للرهبان[٤٥] و (دير العذارى) بين الموصل وباجرمى من أعمال الرقة وهو دير عظيم قديم وبه نساء عذارى قد ترهبن وأقمن فيه للعبادة[٤٦] ٠ و(دير قنسري) على نهر الفرات من الجانب الشرقي في ديار مضر وهو دير كبير فيه ثلثمائة وسبعون راهبا[٤٧] و (دير

---

(٣٨) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص١٩٧ ٠
(٣٩) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص١٩٩ ٠
(٤٠) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص١٩٩ ٠
(٤١) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص١٤٧ ٠
(٤٢) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٦٤١ ٠
(٤٤) ياقوت : نفس المرجع السابق ص٦٤٦ ٠
(٤٥) ياقوت : نفس المرجع السابق ص٦٦٩ ٠
(٤٦) ياقوت : نفس المرجع السابق ص٦٧٨ـ٦٧٩ ٠
(٤٧) ياقوت : نفس المرجع السابق ص٦٨٨ ٠

البقيارة) وهو لليعقوبية(٤٨) بالقرب من الموصل في الجانب الغربي من أعمال الحديثة(٤٩) ومن الاديرة الاخرى التي يذكرها (دير مرتوما) بالقرب من ميافارقين وهو معظم عند النصارى(٥٠) و (دير مريحنا) الى جانب تكريت على دجلة «وهو كبير عامر كثير القلايات والرهبان وله غلات ومزارع وهو للنساطرة»(٥١) ٠

ويؤكد ابن فضل الله العمري أن الاديرة هي أكبر تجمع للمسيحيين خلال فترة القرن السادس الهجري ، وأشار الى (دير الكلب) الذي يجتمع اليه خلق من النصارى نساء ورجال للاقامة فيه(٥٢) و (دير الزعفران) قرب معلثايا وهو كثير الرهبان والقلالي(٥٣) ويبدو ان قرية الصالحية ذات القصور والدور التي تقع الى جانب (دير زكي) بالقرب من نهر البليخ الذي ذكره هذا المصدر ، كانت قرية مسيحية ٠

ومن الاديرة الاخرى ، (دير باربيثا) الذي كان له عند النصارى قدر جليل و (دير مريحنا) وهو عامر بالقلايات والرهبان و (دير

---

(٤٨) ياقوت : نفس المرجع السابق ص٦٨٩ ٠

(٤٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ص٦٩٧ ٠
كان أكثرية نصارى بلاد الرافدين وبلاد الجزيرة من النساطرة مع أقلية من اليعقوبيين وكانت المدائن عاصمة البلاد المذكورة وهي قاعدة الرئيس الاعلى ، وعند انشاء بغداد انتقل اليها ولكن المدائن ظلت مركزا روحيا لهم (ماري ابن سليمان : اخبار بطاركة كرسي المشرق ص١١٩) ٠

(٥٠) ياقوت : نفس المرجع ص٧٠١ ، ان الرئيس الديني الاعلى عند الكلدان النساطرة ٠ أيام الساسانيين يسمى «الجاثليق» وهو لفظ يوناني معناه العام ، ويقابله «البطريرك»
انظر : ماري سليمان : اخبار بطاركة كرسي المشرق ص١١٩ ٠

(٥١) ابن فضل الله العمري : مسالك الابصار في ممالك الامصار جـ١ ص٢٥٤ ٠

(٥٢) ابن فضل الله العمري : نفس المرجع السابق ص٢٥٥ (القلالي جمع قلاية) ٠

(٥٣) ابن فضل الله العمري : نفس المرجع السابق ص٢٦٥ ، وقال الشاعر :

قصور الصالحية كالعذارى ... لبسن حليهن ليوم عرس
تقنعها الرياض بكل نور ... وتفضحكها مطالع كل شمس

سعيد) مطل على نهـر دجلة بالقرب من الموصل وحوله قـلال كثيرة حسنة العمـارة ظاهرة النضارة و (ديـر متي) يشرف على رستاق نينوى بالموصل وهـو حسن البناء وجيـد الحصانة واكثـر بيوته منقورة في الصخر وله عدة أبواب مترطة في الكبر وكلها من حديد مصمت و (دير القيارة) وهو فوق (دير باعربا) على جانب دجلة الغربي(٥٤) ٠

كان الجاثليق ، وهو الرئيس الديني للمسيحيين النساطرة ، يقوم بتعيين ونقل الاساقفة(٥٥) والمطارنة في جميع البلاد التابعة له التي كانت في أواخر القرن الخامس الهجري تشمل سورية وفلسطين ومصر وايـران والصين(٥٦) ، وكان يكتب له عهـد من الخليفة العباسي بجعل سلطته رسمية على رعيته ، كما يجري ذلك بالنسبة لبطريق اليعاقبة ، حيث يعين بعهد خاص من الخليفة أيضا ٠ وكان يمثل بلاد الرافـدين والجزيرة الفراتية مطران الموصـل وآثور ومطران أربـل وحزه ومطران حلوان ومطران باجـرمي ومطران البصرة ، وهم خمسة من بين سبعة يشتركون في انتخاب الجاثليق ،

---

(٥٤) ابن فضل‌الله العمري : نفس المرجع السابق ص٢٨٩ـ٢٩٩ـ٣٠٠ـ٣٠١ـ ٣٠٢ـ٣٠٥ـ٣٠٧ـ٣٠٩ ٠

(٥٥) وهم رؤساء الدين عند النصارى ومرتبتهم فوق القسس ودون المطارنة واللفظة يونانية الاصل (Episcopes)
انظر الشابشتي : الديارات ص١٥٢ ٠

(٥٦) ماري بن سليمان : اخبار بطاركة كرسي المشرق ص١٢٤ـ١٢٦ ٠

(٥٧) عمرو بن متي : اخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل ص١٢٦ ٠
انظر : أيضاً : (Marco Polo, P. 29)
وجعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ، ص١٨٦ ٠

(٥٨) ابن العبري : تاريخ الدول السرياني «مجلة المشرق مجلد ٥٠ لسنة ١٩٥٦ ص١٤١» ، تاريخ مختصر الدول ص٢٨٣ ٠

(٥٩) واصلها آرامي «مفريونو» ("Mafryoho") ويراد بها درجة كنسية بين البطريارك والاسقف ٠

وكان لكل من هؤلاء المطارنة عدد من الاساقفة يخضعون لرئاسته يتراوح عددهم بين الستة الى الاثني عشر اسقفا(٥٧) .

اما النصارى اليعقوبيون وهم الاقلية المسيحية فيمثلهم، مطران الرها ومطـران تكريت ، وهم اثنان من بـين خمسة يشـتركون في انتخاب البطـريق وكان النصارى في الموصل أو في مـدن الجزيرة الفراتية الاخرى خلال القرن السادس الهجري ـ يلعبون دورا مهما في الحياة السياسية وقـد ذكر ابن العبري ، ان نصـارى الموصل ، كانوا يمتلكـون الثروات والاموال(٥٨) . الوفـيرة ، وكان الامراء يفرضون عليهم مقادير كبيرة من الاموال مقابل ترشيح رؤسائهم الجدد لمناصبهم الدينية . فعندما عين اغناطيوس داود مفريانا(٥٩) لكنيسـة برطلي(٦٠) سنة ٦١٣هـ/١٢١٥م عارض امـير الموصل في منحه التأييـد وأوعز الى رئيس القريـة والرئيس الديني السابق شمعون بمقاومته(٦١) ، ويعزو ابن العبري سبب اقدام أمير الموصل على الايقاع بينهمـا الى قلة الامـوال التي قرر اغنـاطيوس داود تقديمها له(٦٢) ، كما أشار الى أن أمير الموصل كان قد حصل كذلك على مبلغ عشرين ألف دينار ، بذلها له اشراف تكريت المقيمون في الموصل ، بغية توسطه لدى أمير تكريت باخراج المفريان أغناطيوس داود من سجن تكريت(٦٣) .

---

(60) Assyric Chretiennc Tome 11. P. 420-421, Mossouil Chretinne, By. J. Fiey.

(٦١) ابن العبري : التاريخ الكنسي (البيعي) وهو النص السرياني «الترجمة اللاتينية» ابيلوس ولامي مجد ص ٣٩٤ .

(٦٢) ابن العبري : نفس المرجع السابق ص٣٩٤ .

(٦٣) ابن العبري : نفس المرجع ص٣٩٤ ، ذكره ابن الاثير باسم (حبس تكريت) الكامل جـ١١ ص٢١٦ .

وكان النصارى الذين يؤلفون الاغلبية الساحقة من أهل قرية «باجبارة» وهي شرقي الموصل ، يعانون هم أيضا من وطأة بدرالدين لؤلؤ وتضييقه عليهم بطلب الاموال فأخذوا يميلون الى مظفرالدين كوكبري صاحب أربل



كما تركـز المسيحيون وخاصة اليعاقبة الذين يعـدون أكبر طائفة مسيحية في منطقة ديار بكر التي كانت تنتشر فيها الامارات الارتقية . وأهـم المدن التي تركزوا فيها هي مـاردين والرها وسروج • أما المسيحيون من الارمن الكاثوليك فيتركزون في مدن أرزن وحرزم وخرتبرت(٦٤) • وكان يقطن في أرزن وحدها أثناعشر ألف مسيحي من الارمن(٦٥) • أما جبل جور وما يرتبط به من قلاع وكذلك قريتا العقاب والجسر القريبتان من دنيسر فكانت مناطق آهلة بالنصارى الارمن(٦٦) •

وكان الاراتقـة قد عاملوا رعاياهم من المسـيحيين معاملة طيبة ، وتسامحوا معهم(٦٧) ، ومن مظاهر ذلك ، الرعاية التي كان يلقاها الشاعر المسيحي خالد بن محضر النصراني المارديني الملقب بالوحيد المتـوفي ٦٠٠هـ ، الذي كان قد نشأ وترعـرع في بلاد الاراتقة ، وخاصة من الامير قطب الدين ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين(٦٨) ونتيجـة لذلك ، فقـد استطاع هـؤلاء المسيحيون ان

ويراسلونه بالانضمام الى امارته ، غير ان صاحب الموصل حرض مؤيديه على الهجوم على هذه القرية وتخريبها وقتل أكثر سكانها وتشريدهم• انظر: بولس بهنام (مقالته في مجلة لسان المشرق ـ السنة الاولى ١٩٤٩ ـ المجلد (١) وعنوانها «قرى نصرانية») • هذا ومن الجهة الاخرى فقد ذكر الفارقي، ان الامير فخر الدولة صاحب ميافارقين قد سمح للنصارى في هذه الفترة ، باقامة (دير عباد) مقابل تقديم ثلاثين ألف دينار أرمانوسية، كما أمر بتهديم أحد الاديرة واتخاذه مسجدا ، فقدم النصارى له مبلغ خمسين ألف دينار (التاريخ ص٢٢٠ـ٢٢٢) •

(٦٤) رحلة ابن جبير ص٢٢٠ـ٢٢١ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة قسم الجزيرة ـ الورقة ٦٥ب ، ٩٥ أ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ قسم ٢ ص٦٧٠ •

(٦٥) البدليسي : شرفنامه ص١٧٤ ، ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص٢٠٥ـ٢٠٦ •

(٦٦) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٢٠ •

(٦٧) ابن الساعي : الجامع المختصر جـ٩ ص١٤١ـ١٤٢ •

(٦٨) ابن الساعي : الجامع المختصر جـ٩ ص١٤١ـ١٤٢ •

يحافظوا على نشاطهم في منطقة ديار بكر الارتقية فاقاموا تنظيماتهم الدينية الكنيسة ولا سيما المسيحيين اليعاقبة منهم ، فاسسوا لهم بترياركية ، حيث غدت ماردين مقرا للابرشية وذلك في أواسط القرن السادس الهجري ، وأصبح ماريوحنا مطرانا على ماردين ، وقد استمرت هذه الابرشية حتى نهاية القرن السابع الهجري حيث نشبت الخلافات الدينية بين الطوائف المسيحية ٠

وشهد دير الزعفران في ماردين عددا من المجامع العامة التي اتخذت فيها قرارات مهمة وسنت قوانين كنسية عديدة ، وأهم تلك المجامع : المجمع الاول الذي عقدة سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م يوحنا الرابع ، مطران ماردين ، وجددت خلاله القوانين الرسولية ، ثم وضعوا أربعين قانونا في الاسرار الدينية والوعظ وتعليم السريانية(٦٩) وانشاء الملاجيء للفقراء والغرباء(٧٠) ٠ والمجمع الثاني ٥٦٢هـ/١٩٦٦م وقد استمر سنة واحدة ، وكان قد عقده البطريرك ميخائيل الاول حيث سن تسعة وعشرين قانونا ، أما المجمع الرابع فقد عقد سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م برئاسة ميخائيل الاول أيضا ووضع ستة وثلاثين قانونا دينيا(٧١) ٠

---

(٦٩) ويلاحظ اسهام المؤسسات الدينية الكنسية في ازدهار الحركة الثقافية خلال هذه الفترة في منطقة دياربكر ، حيث ألف النصارى ، الكتب واستنسخوها وجمعوها ، وأسسوا المكتبات وأنشأوا المعاهد الدينية ، التي احتوت على الكتب المقدسة وكتب الدين والمنطق واللاهوت والفلسفة والهيئة والكتب الادبية والتاريخية والعلمية ، وأهم تلك المكتبات ، مكتبة دير الزعفران ٠ هذا فضلا عن المناقشات الدينية التي كانت تقوم بين كبار العلماء واللاهوتيين ، مما أتاح تاليف الكتب الجدلية واللاهوتية وعقد المجامع الثقافية ٠ راجع عن نشاط رجال الدين المسيحيين في الحركة العلمية في دياربكر : برصوم : نزهة الاذهان في تأريخ دير الزعفران (المطبعة السريانية) ماردين : ١٩١٧ ص٤٥ـ١٦٩ ٠

(٧٠) برصوم : المصدر السابق ص١٣٠ـ١٣٣ ٠

(٧١) برصوم : نفس المرجع السابق ص١٦٤ـ١٦٩ ٠

٣ ـ اليهود(٧٢) :

هيأت الفتوحات الاسلامية لليهود ، في القرن السابع الميلادي الفرصة للعمل والثقافة والتسامح ، وقد انتفع اليهود من هذا المحيط انتفاعا كبيرا ، فازدادوا عددا وأهمية ، ليس في منطقة العراق والجزيرة الفراتية فحسب ، بل في ايران وفلسطين ومصر . وفي العهد العباسي ، كان التسامح الذي تميز به الخلفاء ، قد جعل اليهود مثل غيرهم ، يتمتعون بدرجة كبيرة من الاستقرار والطمأنينة والازدهار ، وقد استمر ذلك حتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حيث بدأت عهود عدم الاستقرار التي تخللتها الحروب والفوضى والأوبئة ، فتركت أثرها على السكان جميعا من حيث تحديد مناطق تجمعهم أو محلات سكناهم ، اذ لم يسع الحكام المسلمون الى أجبار السكان أو الفئات على التجمع في مناطق أو شوارع أو محلات معينة ، ولكن التشابه العنصري أو اللغوي أو

(٧٢) كان استيلاء الملك الآشوري ، سرجون على مدينة السامرة في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد ، وقضاؤه على مملكة اسرائيل ، بداية لتاريخ اليهود في العراق وبلاد الجزيرة الفراتية ، حيث نقل هذا الملك ، طائفة من اليهود الى أعالي الفرات والقرى القريبة من موقع مدينة الموصل . كما أن حادثة «الاسر البابلي» في الربع الاول من القرن السادس قبل الميلاد كانت أهم ما حدث في التاريخ اليهودي في هذه المنطقة ، فقد افتتح ملك الكلدانيين نبوخذ نصر مدينة القدس وخربها ونقل من أهلها حوالي الاربعين ألفا ، أسكنهم في بابل . وفي عام (٥٣٨ قبل الميلاد) بدأ عهد يهودي جديد فقد احتل كورش ملك الفرس الاخمينيين ، بلاد بابل ، حيث تمتع اليهود بالحرية والسماح لهم بالعودة الى فلسطين . وبتشجيع الملوك الساسانيين خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، ترك قسم من اليهود ، فلسطين وهاجروا الى العراق وأعالى الفرات فازداد عددهم ونمت ثروتهم .

انظر : المصدر نفسه ص١٧٠ـ١٧١ .

وأنظر أيضا : جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ١٩٧ .

الديني أو الاجتماعي كان يحمل في كثير من الاحيان بعض الفئات ومنهم اليهود على التجمع في مناطق أو في مدن أو في محلات معينة(٧٣) ٠

كان اليهــود ينتشرون في مدن وقرى عديدة من بــلاد الجزيرة الفراتية ، فقد ذكر ابن الفقيه وجود محلة لليهود في مدينة الموصل حيث مصرّت ابان الفتوح الاسلامية(٧٤) ولكن المسلمين لم يجبروا اليهود على تركها ، فمكثوا فيها خلال القرن السادس الهجري وبعده وأشار الشابشتي الى وجود اليهود في مدينة الموصل ، بدليل قيامهم بأعمال ضد الشعائر الدينية المسيحية(٧٥) ٠

ويذكر ياقوت في القرن السادس الهجري وجود اليهود في مدينة ميافارقين حيث يتجمعون في زقاق سمي باسمهم بالقرب من كنيسة اليهود «التي فيها جرس من رخام أسود فيه منطقة زجاج»(٧٦) ٠

وزار الرحالة اليهودي بنيامين بن يونة التطيلي الاندلسي ، بلاد الجزيرة الفراتية بين (٥٦١ـ٥٦٩هـ/١١٦٥ـ١١٧٣م) وقدم أحصائية عن سكانها اليهود ، يبدو ان فيها شي من المبالغة، فقال عن الموصل ، أن فيها سبعمائة يهودي(٧٧) والرحبة يقيم فيها نحو ألفي يهودي على رأسهم «الربيون»(٧٨) حزقيا واهود واسحق(٧٩) ، وان في

---

(٧٣) جعفر خصباك : نفس المرجع السابق ص١٩٨ ٠

(٧٤) ابن الفقيه الهمداني : مختصر كتاب البلدان ص١٢٩ ٠

(٧٥) الشابشتي : الديارات ص١١٦ ٠

(٧٦) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص٧٠٤ ٠

(٧٧) رحلة بنيامين التطيلي (ترجمها عن العبرية وعلق على حواشيها عزرا حداد) ص١٢٧، ذكر من اعيان اليهود فيالموصل زكاي بن سليمان وحسداي رأس مشيئة اليهود وهو فلكي في بلاط سيفالدين غازي صاحب الموصل ٠ كما ذكر ان في الموصل كنيسة (عوبدية) من بناء النبي يونة بن امتاي وكنيسة «ناحوم الألقوشي» ٠

(٧٨) ويسمى أيضا «الرابي» أو «الراب» : وهي لفظة عبرية ، تعني السيد أو الاستاذ يلقب بها اليهود علماءهم ووجهاءهم ٠ (رحلة بنيامين التطيلي) ص٤٨ هامش (٢) ٠

(٧٩) رحلة بنيامين التطيلي ص١٢٨ ٠

قرقيسياء نحو خمسمائة يهودي منهم ، الربيان ، اسحق والحنان[٨٠] . وفي مدينة الانبــار ألفا يهودي ، بينهم العلماء والفقهــاء[٨١] ، وفي العمادية يقيم نحو خمسة وعشرون ألف يهودي ـ كما قال بأنهم جماعات منتشرة في اكثــر من مائة موقع من جبال خفتيــان في كردستان ويهودها من بقايا الجالية الاولى التي كان قد اسرها الملك الآشوري شلمناصر ، وقال بأنهم يتفاهمون «بلسان الترجوم» أي اللغة الآراميــة الشرقية التي مازال يهــود منطقة شــمال العراق يتكلمون بها الى الآن • وكان بينهم عدد من كبار العلماء[٨٢] •

وهناك نحو سبعمائة يهودي في مدينة الرقة على رأسهم الربيون زكاي ونديب البصير ويوسف ، وفيها كنيسة لهم يقال أنها من بناء عزرا الكاتب «العزير»[٨٣] • وفي مدينة قلعة جعبر يقيم نحو ألفي يهودي وفي بالس عشرة يهود وفيها اطلال البرج الذي أقامه بلعم بن باعور وفي حران نحوا من عشرين يهوديا ولديهم كنيسة قديمة يقال أنها من بناء عزرا الكاتب أيضا وفي خارج المدينة موقع يقال أنه من اطلال (بيت تارح) والد ابراهيم الخليل ، وأضاف بأن المسلمين كانوا يجلون هذا المقام ويأمونه للصلاة فيه[٨٤] • أما مدينة رأس العين ففيها نحو مائتي يهودي • وقال عنها بأنها هي خابور الواردة في التوراة عند نهر الخابور[٨٥] ، وفي نصيبين نحو ألفي يهودي ، وفي جزيرة ابن عمر أربعة آلاف من اليهود ، وفيها كنيسة من بناء عزرا

(٨٠) نفس المرجع السابق ص١٢٩ •

(٨١) ومنهم الربيون «حين» و «موسى» و «الياقيم» وفيها كنيسة «ر• بستناي» رأس الجالوت (نفس المرجع السابق ص١٢٩) •

(٨٢) بنيامين التطيلي : نفس المرجع ص١٥٤ •

(٨٣) بنيامين التطيلي : نفس المرجع السابق ص١٢٣ ، وقد شيدها عند مروره بهذه المدينة قادما من بابل بطريقه الى القدس •

(٨٤) بنيامين التطيلي : نفس المرجع السابق ص١٢٢ـ١٢٣ـ١٢٤ •

(٨٥) بنيامين التطيلي : نفس المرجع السابق ص١٢٥ • الذي يأتيها من بلاد مادي بعد اختلاطه بنهر غوزان (وهو النهر المعروف اليوم باسم سفيد رود في شمال ايران) ومعناه النهر الابيض بالتركية •

الكاتب يزورونهـا في مواسم الاعياد لاقامة الصـلاة ومن علمائهم الربيون مبحر ويوسف ورحية(٨٦) ٠

ويذكر هذا الرحالة اليهودي ما كان قد حدث من الفتن قبل عشر سنوات ـ أي في ٥٥١هـ/١١٥٦م تقريبا، في مدينة العمادية بين العالم اليهودي داود بن الروحي الذي كان قد تلقى علومه في بغداد عن العالم اليهـودي حسداي رأس الجالـوت الذي تضلّع بالتوراة والفقه والتلمود وسائر العلوم وبرع بلغة المسلمين وآدابهم ونبغ بفنون السحر والشعوذة وبين السلطان السلجوقي ، فقد دخل في روع هذا العالم اليهودي أن يعلن العصيان على السلاجقة وأمرائهم ويجمع حوله اليهود القاطنين في جبال حبتون في كردستان ويقاتل النصارى المتمكنين على أورشليم والاستيلاء عليها وطردهم منها ، فشرع ينشر دعوتـه بين اليهود ويدعمها بالبراهين التي قـال عنها بأنها باطلة ٠ غير أن السلطان السلجوقي طلبه اليه «فآمنت به جماعة من بسطاء اليهود وحسبوه المسيح المنتظر»(٨٧) ٠ وتدل هذه الحادثة على تركز اليهود في منطقة الجزيرة الفراتية وعلى ما كانوا يتمتعون به من الحرية والثقافة والتسامح وعلى تأثيرهم في الحياة العامة في هذه الفترة ٠

ومن الجدير بالذكر ان المراجع العربية المعاصرة والمتوفرة لدينا ، لاتشير الى وجود مثل هذا العدد من اليهود ، ولكن هناك من الاخبار ما يؤكد كونهم منتشرين فعلا في كثير من بقاع بلاد الجزيرة الفراتية بأعداد ليست كبيرة ، يشير ابن الاثير الى استيلاء الدبيسي، وهو أحد الامراء على دار شخص يهودي في مدينة جزيرة ابن عمر «فاستغاث اليهودي بعمادالدين زنكي فنهاه عن ذلك وعنفه»(٨٨) ٠

---

(٨٦) بنيامين التطيلي : نفس المرجع السابق ص١٢٥ـ١٢٦ ٠
(٨٧) بنيامين التطيلي : نفس المرجع ص١٥٤ ٠
(٨٨) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص٧٦ ٠

ويذكر ياقوت «أن هاطـــري» وهي قرية دون تكريت وأسفل منها ، كان أكثـــر اهلها اليهود[89] ، وكان أهل الذمـــة في الموصل ، النصارى واليهود يقرأون على أبي الفتح ، كمال‌الدين بن يونس ، التوراة والانجيل ، ويشرح لهما هذين الكتابين شرحا يعترفون «انهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله»[90] .

ومما يـــدل على استمرار الوجود اليهـــودي في أرض الجزيرة الفراتية من القرن السادس الهجري حتى القرن السابع ، الاشارات التي وردت عنـــد ابن خلكان واليونيني وابن تغري بـــردي ، يشير الاول الى وصـــول الخليفة الذي كان قـــد أرسله الظاهـــر بيبرس البندقداري ملك مصر ، بجيش لاسترداد مملكة العباسيين في بغداد بعد سقوطها بيـــد المغول ، الى مدينة هيت وهي من مـــدن الجزيرة حيث اغلق أهلها الباب دونه ، فحاصرها ثم احتلها «ونهب من فيها من اليهود والنصارى[91] ، كما ذكر اليونيني ، أن الشيخ عزالدين الحسن بن محمد بن نجا الغنوي ، الاربلي ، وكان أصله من قرية «أقسا» من أعمال نصيبين ، قد أقام بأربل في عهد أميرها مظفرالدين كوكبري الذي حكم حتى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، فكان يتردد عليه «من السنة والشيعة واليهود والنصارى والسامرة وغيرهم»[92] وذكر أيضا ان «يهوديا دفن بقلعة جعبر مصاغا وذهبا وهرب بأهله الى بلاد الشام»[93] أما ابن تغري بردي ، فذكر ان في ٥٣٩هـ/١١٤٤م

---

(٨٩) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص٩٤٧ .
(٩٠) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص٣٩٧ .
(٩١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص٤٥٤ ، أنظر أيضا :
ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٧ ص١١٦ .
(٩٢) اليونيني : نفس المرجع السابق ص٥٠١ .
(٩٣) وكان هذا اليهودي قـــد سأل الملك الظاهر بيبرس ان يسير معـــه من يحفر ويأخذه ويدفع لبيت المال نصفه فوجهه مع رجلين لقضاء غرضه ، فلما وصل أخذ في الحفر ، واذا بطائفة من العرب على رأسه فسألوه عن



«حفروا أساسا عميقا في مدينة الرها ، فظهرت صخرة في هذا الاساس ، وكان مكتوبا عليها ، سطران بالسريانية ، «فجاء شيخ يهودي فحلهما الى اللغة العربية»(٩٤) ٠

كان «رأس الجالوت» أو «رأس مشيئة اليهود» رئيسا ليهود بغداد والجزيرة الفراتية واليمن وبلاد اللام وسيبيريا والتركمان وجورجيا حتى تصل سلطته الى نهر جيحون وسمرقند والتبت ، وكان يشرف على تعيين رؤساء اليهود ، وهو يستمد سلطاته على رعيته من قبل الخليفة ، حيث يوجه اليه كتابا بهذا المعنى ، وينتقل سلطاته الى ذريته بالوراثة(٩٥) ٠

وقد أصبح ذلك قاعدة متبعة ، وخاصة خلال القرن السادس الهجري ٠

أما الاسلوب الذي كان يرتب فيه رئيس هذه الطائفة في منصبه ، فهو أن يجلس بين يدي قاضي القضاة ، ويتلو عليه الكتاب ، الذي يخوله السلطات على أهل ملته ، ثم بعد تلاوة هذا الكتاب ، يلبس طرحته ، في دهليز القاضي ، ويتوجه الى بيته ومعه

حاله ، فأخبرهم فارادوا قتله ، فاخرج لهم كتاب الملك الظاهر مطلقا الى من عساه يقف عليه ، فكفوا عنه وساعدوه حتى استخلص ماله ثم توجهوا به الى حماه وسلموه الى الملك المنصور واخذوا خطة انهم سلموا اليهودي اليه سالما وما تبعه ٠ اليونيني : نفس المرجع السابق ص٢٥٣ ٠

(٩٤) وهذا السطران هما بيتان من الشعر في مدح الاتابك عمادالدين زنكي وهما :

أصبحت خلوا من بنى الاصفر اختال بالاعلام والمنبر

فظهر الرحب على انني لولا ابن سنقر لم اظهر

(ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ٥ ص٢٧٥) ٠

(٩٥) رحلة بنيامين التطيلي ص١٣١ـ١٣٨ ٠

جمع من اليهـود واتباع الديـوان(٩٦) وقد سأل عـالي ابن زخريا اليهودي الاربلي ، الخليفة الناصر لدين‌الله العباسي أن يرتبه رأسا لمشيئة اليهود ، فأجيب الى ذلك «وشافهه الوزير ، وأرسله الى قاضي القضاة وتلي عليه الكتاب»(٩٧) ٠

وأما مـوارد رأس الجالـوت ، فتتغير ، تبعـا لتقلب الاحوال السياسية ففي القرنـين الثالث والرابـع الهجـريين ، كان يتمتع بسلطة واسـعة لفـرض الضرائب على أهل دينـه(٩٨) ، ولكن خلال القرن السادس الهجري ، حددت هذه الضرائب وأخذ بنظر الاعتبار حالة الافـراد الذين يدفعونها ، وخاصـة في بـلاد الجزيرة الفراتية(٩٩) ٠

٤ ـ المساجد والكنائس :

المساجد هي دور عبادة المسلمين ، تقام فيها الصلاة ، وتمارس فيها الشعائر الدينية ، كما انها أصبحت في بعض الاحيان مؤسسات

---

(٩٦) ارسل دانيال بن شمويل من قبـل الوزير محمد بن احمد العلقمي وزير الخليفة المستعصم بـالله العباسي الى قاضي القضـاة ، عبدالرحمن بن اللغماني ، فأجلسه بين يديه وقال له : «رتبتك ، زعيما على أهل ملتك ، ومن أهل دينك المنسوخ الذي نسخته الشريعة المحمدية لتأخذهم بحدود دينهم وتأمرهم بما أمروا به في شريعتهم وتنهاهم عما نهوا عنه في شريعتهم وتفصل بينهم في وقائعهـم وخصوماتهم بموجب شريعتهم والحمـد لله على الاسلام» انظر : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص٢١٨ ٠

(٩٧) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ص٢٤٨ ٠

(٩٨) وكانت الضرائب تؤخذ كما يلي : «درهما وثلث الدرهم عن كل حيوان يذبح طبقا للطقوس الدينية ، وأربعة دراهم عن كل عقد زواج أو طلاق أو اجازة لبناء دار ورأس الجالوت كان مسؤولا عن رعاية أطفال اليهود غير الشرعيين» ٠ انظر :

Baron, History of the Jews, vol. 11, P. 12.

(99) Ibid., 111, P. 139.

تعليمية ، يتلقى فيها الناس علوم العصر ، ومراكز لالتقاء مختلف فئات المسلمين وطبقاتهم من أشدهم ، فقرا الى أعظمهم ثروة ومكانة • كما اتخذت ملاجيء ودور عجزة يأوي اليها الفقراء والمعوزون والمتطلعون والجائعون والمرضى واليتامى ، فيصيبون فيها المأوى والطعام والكساء ، فضلا عن أنها كانت دور ضيافة وفنادق ، يلجأ اليها الكثير من المسافرين والغرباء ، خصوصا من طلاب العلم والفقهاء والفقراء(١٠٠) •

وكانت المساجد ، لا تخلو منها مدينة أو قرية في بلاد الجزيرة الفراتية، يشير ياقوت الى وجود المساجد والجوامع في مدن وقرى ومواضع الجزيرة ، وأحيانا يورد معلومات مفصلة عنها • كما وصف لنا ابن جبير ، أثناء مروره في هذه المدن والقرى في منتصف القرن السادس الهجري جوامعها ، قال عن مدينة الموصل ، ان فيها «جامع كبير في صحنه قبة ، داخلها سارية رخام قائمة وفي أعلاها بركة أو حوض رخام مثمنة ، يخرج منها انبوب من الماء فيرتفع في الهواء»(١٠١) وأضاف بأنه لم ير «أحفل من الجامع الذي بناه مجاهدالدين قايماز في الموصل ، فقد كانت مقصورته ، يطيف بها شبابيك حديد، تتصل بها مصاطب ، تشرف على نهر دجلة»(١٠٢) • ووصف الجامع في مدينة نصيبين وقال ان «له سقايتين حوله»(١٠٣) • أما مدينة حران فان أسواقها المسقفة تتصل بجامعها المكرم ، وهو عتيق مجدد ، قد جاء على غاية من الحسن ، وله صحن كبير فيه ثلاث قباب

---

(١٠٠) ويرى جعفر خصباك ان هذه المؤسسات كانت تقوم بدور يشبه ما تقوم به النوادي والصالونات والمقاهي في اشباع دافع حب الاجتماع عند الناس والترفيه النفسي عنهم وتعريف بعضهم بمشاكل بعض ، وتكوين رأي عام في القضايا الدينية والسياسية وغيرها والتقليل من الفروق الطبقية بين السكان • (العراق في عهد المغول الايلخانيين ص٢٣٣) •

(١٠١) رحلة ابن جبير ص٢١٠ •

(١٠٢) نفس المرجع السابق ص٢١٠ •

(١٠٣) نفس المرجع السابق ص٢١٧ •

مرتفعة على سوار رخام وتحت كل قبة بئر عذبة وفي الصحن قبة رابعة عظيمة قد قامت على عشر سوار من الرخام طول كل سارية تسعة أشبار وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم طوله خمسة عشر شبرا(١٠٤) • وزاد قوله ان هذا الجامع المكرم قد سقف بجوائز(١٠٥) الخشب والحنايا» ، وخشبه عظام طوال بسعة البلاط وسعته خمس عشرة خطوة ، وما رأينا جامعا أوسع حنايا منه وجداره المتصل بالصحن الذي عليه المدخل له تسعة عشر بابا ، تسعة يمينا وتسعة شمالا والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الابواب يمسك قوسه من أعلى الجدار الى أسفله بهي المنظر جميل الوضع كأنه من أبواب المدن الكبرى ، وخلص الى القول بأنه شاهد من حسن بناء هذا الجامع وحسن ترتيب أسواقه المتصلة مرأى عجيبا قلما يوجد في المدن قبل انتظامه(١٠٦) •

وأشار الفارقي الى جامع مدينة ميافارقين الذي صنعت له باب من الصفر ويصف المنطقة التي يقع فيها هذا الجامع بأنها أنزه المواضع وأحسنها كما يوجد في قرية «باطري» القريبة من ميافارقين مسجد بنفس الحسن(١٠٧) •

أما المسجد في مدينة آمد فيشير اليه ناصر خسرو ، قال بأنه بني من الاعمدة على هيئة جملون ، وفي ساحة المسجد حوض كبير مستدير من الحجر ، وفي وسط الحوض أنبوبة نحاس يتفجر منها ماء صاف وفي المسجد ميضأة عظيمة جميلة الصنع بحيث لا يوجد أحسن منها(١٠٨) •

---

(١٠٤) ابن جبير : نفس المرجع ص٢٢١ •
(١٠٥) جوائز الخشب ، الاخشاب المعترضة بين حائطين •
(١٠٦) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص٢٢١ •
(١٠٧) الفارقي : التاريخ ص١٤١ •
(١٠٨) ويقول ان اكثر عمارات آمد بنيت من الحجر الاسود ، أما ميافارقين فمن الحجر الابيض لذلك سميت آمد (المدينة السوداء) وميافارقين (المدينة البيضاء) ناصر خسرو : سفرنامه ص٩ •

أما الكنائس ، فهي مؤسسات اتخذها أهل الذمة من النصارى واليهود يمارسون فيها طقوسهم وعاداتهم الدينية ، وقد أطلقت ، المراجع على كنائس المسيحيين في بلاد الجزيرة الفراتية اسم «البيع» جمع بيعة ، حيث ورد أن في «مدينة الموصل ثمان وخمسون بيعة للنصارى وست‌عشرة كنيسة لليهود»(١٠٩) •

ومن كنائس النصارى المهمة في منطقة الجزيرة الفراتية والتي كانت قائمة خلال القرن السادس الهجري ، (كنيسة الرها) «فليس في بلاد الاسلام كنيسة أعظم منها ، فقد كان لها مياه وبساتين كثيرة وزروع»(١١٠) وقد ذكرها المقدسي ، مما يدل على وجودها منذ القرن الرابع الهجري قال «انها كنيسة عجيبة بآزاج ملبسة بالفسيفساء وهي احدى عجائب الدنيا»(١١١) وقد استمرت على هذه الحالة في القرون التالية ووصفها أبو الفداء فقال بأنها «كنيسة عظيمة»(١١٢) • أما في مدينة آمد فيذكر ناصر خسرو «ان بالقرب من المسجد كنيسة عظيمة غنية بالزخارف مبنية كلها من الحجر وقد فرشت أرضها بالرخام المنقوش» ، وأضاف بأنه رأى فيها على الطارم وهو مكان العبادة عند النصارى ، «باباً من الحديد المشبك لم ير مثله في أي مكان»(١١٣) •

---

(١٠٩) ياسين خيرالله العمري : منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء ص٦٦ ، الخطيب العمري : منهل الاولياء جـ١ ص ٦٠ •

(١١٠) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧٦ •

(١١١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص١٤٠ ، وقال عنها ابن الفقيه : ومن عجائب الجزيرة «كنيسة الرها» فالروم تقول ما من بناء بالحجارة أبهى من كنيسة الرها ولا بناء بالخشب أبهى من «كنيسة منبج» لانها بطاقات من خشب العناب» مختصر كتاب البلدان ، ص١٣٤ •

(١١٢) أبوالفداء : تقويم البلدان ص٢٧٧ •

(١١٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص١٠ •

وكانت الكنائس والاديــرة والجوامع تقام أحيانــا في أماكن وعرة لم تحط «بحصون مانعة»(١١٤) . كمــــا ان هذه الكنائس قد تعددت في المدينة الواحدة فكان في مدينة الرها وحدها حوالي ثلثمائة كنيسة(١١٥) ، وكانت منطقة حصن كيفا تضم كنائس عديدة(١١٦) .

ولم يــرد في المراجع المتوفــرة لدينا ، ما يفيد ، بــأن الحكام المسلمين ، في امارات الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، كانوا يتعرضــــون الى حرية أهل الذمة فيما يتعلـــق بتشييدهم للكنائس والاديرة والصوامع والبيـــع(١١٧) او معارضتهم للطقوس والشعائر التي كانت تمارس فيها .

---

(١١٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ٦٥ب ، العمري: مسالك الابصار جـ١ ص٣٠٥ ، ٣١٠ ، ياقوت جـ٢ ص٦٩٧ .

(١١٥) ابن الوردي : خريدة العجائب وفريدة الغرائب (مطبعة عثمان عبدالرزاق) القاهرة ١٣٠٦هـ/ص٢٦ ، أبوالفداء : تقويم البلدان ص٢٧٧ .

(١١٦) المقدسي : أحسن التقاسيم ص١٤١ .

(١١٧) راجع حول الاديرة في المنطقة : برصوم : تاريخ دير الزعفران ، حيث يشير الى أسماء عدد من الاديرة والابرشيات والكنائس والبيع ، ثم راجع أيضا :

Fiey (O.P.), Assrie Chretienne, Vol. 1, 11.

وقد ذكر ان الكنيسة الموجودة في قرية برطلي بالقرب من الموصل خلال القرن السادس الهجري ، كانت كنيسة خاصة للسريان الكاثوليك وعلى نمط كنيسة «مارزيناء» في تكريت وتعتبر من الكنائس الكبرى للتكارتة :

Ibid, vol. 11, P. 421.

الفصل الرابع

الأحوال الصحية

١ ـ الأمراض وانتشارها .

٢ ـ البيمارستانات .

٣ ـ الأطباء .

٤ ـ الأدوية والعقاقير والعلاج .

الفصل الرابع

الأحوال الصحية

تعرضت بلاد الجزيرة الفراتية لهجمات من الأمراض الوبائية والمتوطنة . وكانت الأمراض المعدية تنتشر في بعض السنين ، فتتحول الى أوبئة فتاكة ، نتيجة للظروف الاقتصادية وتقلب أحوال المعيشة ، وانخفاض مستوى الطب آنذاك ، كما ان هذه البلاد شأنها شأن سائر البلدان الأخرى ، تبيح حرية تنقل الانسان والحيوان ، على نطاق واسع ، وهي مفتوحة ، وليست لها حواجز صحية تعيقها ، كما هو الحال في الوقت الحاضر . وكان المسافرون والنازحون ، متى شاءوا خرجوا من هذه البلاد ، فدخلوا غيرها ، وهو الامر الذي ساعد الى حد كبير على انتقال الامراض وسريانها .

الأمراض وانتشارها :

وكان يتسبب في انتشار الامراض عاملان رئيسان ، الأول تعرض البلاد للقحط والضيق الاقتصادي ، نتيجة لقلة الموارد

المائيـة في بعض السنين أو هجمـات الجراد وأمـراض الحيوانات والآفات الزراعيـة ، مما يؤدي الى قلة المواد الغذائيـة الضرورية للجسم الانساني ، نباتية كانت أم حيوانية ، فتنتشر المجاعات التي تضعف مقاومة الاجسام للامراض ، فتفتك بها ، أشار ابن الاثير الى انقطاع الامطار في بلاد الجزيرة الفراتيـة سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م فاشتد الغلاء وتعذرت الاقوات وأكل الناس الميتة ودام كذلك الى آخر سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م ، ثم تبعه بعد ذلك ، وباء عام شديد ، كثر فيه الموت وكان مرض الناس شيئا واحدا وهو «السرسام»(١) ، وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى(٢) كما ذكر ان في ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م كان أهل ماردين قد عدمت الأقوات عندهم وكثرت الأمراض فيهم ، حتى أن كثيرا منهم كان لا يطيق القيام(٣) •

وأضاف بأن «الغلاء قد اشتد في ديار الجزيرة ، فأكل الناس الميتة والكلاب والسـنانير ، فكثرت الامراض واشتد الوبـاء ، وما زالت الاشياء هكذا الى أول الصيف ، فكثر الموت والمرض في الناس، فكان يحمل على النعش الواحد عدة من الموتى»(٤) ــ وتبع ذلك أن انقطع المطر في بلاد الجزيرة ، «ثم خرج الجراد الكثير فازداد الناس اذى ، وكانت الاسـعار ، قد صلحت شيئا ، فعادت لكثـرة الجراد غلت»(٥) حيث قلت الاطعمة التي تحوي المواد الغذائية •

وكانت الامراض تنتشر بين الجند خاصة، فتفتك بهم، ففي ٥٩٤هـ /١١٩٧م تضعضع عسكر الموصل لكثرة الامراض واستيلاء المرض

---

(١) قال الشيخ الرئيس ابن سينا «السرسام» لفظ فارسي ، فالسر هو الرأس والسام هـو الورم ـ المرض ـ أي أن مظاهر هذا المرض وأعـراضه أورام الرأس» ـ (القانون في الطب ، القاهرة ١٢٩٤هـ) جـ٢ ص٤٤ •

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ١١ ص٤٥١ـ٤٥٢ •

(٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق جـ١٢ ص١٤٨ •

(٤) ابن الاثير : نفس المرجع ص١٨٤ •

(٥) ابن الاثير : نفس المرجع ص١٩٣ •

على كافة العسكر(٦) كما أصاب العسكر الموصلي مرض عم أكثرهم ، فكان أحدهم لا يطيق القيام(٧) ·

وفي ٥٩٤هـ/١١٩٧م أيضا حاصر نورالدين أرسلان شاه صاحب الموصل مدينة نصيبين فأصاب عسكره ، الوباء الشديد ، فمات كثير منهم ، فعادوا الى الموصل(٨) ·

ويذكر ابن خلدون «أن من أسباب موت أهل تلك العصور ، كثرة المجاعات ووقوع الوباء «وان هذه الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة»(٩) ·

أما العامل الثاني ، الذي أدى الى انتشار الامراض ، في بعض مدن الجزيرة الفراتية فهو وقوعها في مناطق الوديان المحصورة بين الجبال أو في المنخفضات ، لذلك وصف بعضها بالوخامة والوباء والرداءة ، هذا على الرغم من أنها تقع في مناطق بعيدة عن الاهوار والمستنقعات أو الى ما يعرضها الفيضان الى حدوث بقاع من المياه الآسنة ، تؤثر على صحة الناس ، بسبب كونها مصدرا للبعوض ، كما هو الحال في العراق خلال القرن السادس الهجري ·

والجدير بالاشارة ، أن الأحوال المناخية لمدن الجزيرة الفراتية خلال هذه الفترة ، هي استمرار لما كانت عليه في القرن

---

(٦) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص١٩٣ ·
(٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٩٤ ·
(٨) الغساني : العسجد السبوك ص٨٣ ·
(٩) ذكر ابن خلدون ان كثرة الموت لها اسباب «من كثرة المجاعات أو كثرة الفتن لاختلال الدولة ، فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة ، واذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني ، فيسري الفساد الى مزاجه ، فاذا كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة ، وهذه الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة . وان كان الفساد من القوى والكثير ، فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحميات في الامزجة وتمرض الابدان وتهلك» · (مقدمة ابن خلدون ، القاهرة ـ ١٩٥٨ ـ الطبعة الاولى) جـ٢ ص٧١٠ ·

الرابع الهجري ، ذكر الاصطخري بأن مدينة رأس العين كثيرة العلل والوباء ، ونصيبين مدينة «وبية كثيرة العلل والوباء» ، «وميافارقين وخمة كثيرة العلل والوباء والمياه تجري في منازلها وأسواقها»(١٠) ، وقال ابن حوقل «ان مدينة حصن كيفا وخمة الهواء وبية لاسيما في الصيف»(١١)، وعن مدينة ميافارقين «ان في هوائها وخامة ما»(١٢) . وقال ياقوت في القرن السادس الهجري في وصف تل أعفر «ماؤها فيه عذوبة ولكنه وبيء رديء»(١٣) . كما وصف القزويني مدينة الموصل بكثرة البساتين «وكون خريفها كثير الحمى تأتي سنة سليمة وسنة موبئة يموت فيها عدد كبير من الناس»(١٤) .

ومن الجهة الاخرى يصف المقدسي بعض مدن الجزيرة الفراتية في القرن الرابع الهجري بأنها طيبة نزهة وطيبة الهواء وبلد طيب وبعضها ريح الجنوب فيها مؤذية وأخرى بها مواضع حارة وغيرها باردة لقربها من الجبال ، وهذا الوصف ينطبق على القرن السادس الهجري لانها لم تغير موقعها ولم يطرأ عليها مايؤثر في مناخها ، مثل الموصل التي اعتبرها بأنها أصح بلدانه وليس فيها «ماء رديا ولا واديا وبيا ولا طعاما لا نجده مريا»(١٤) . كما ذكر سبط ابن الجوزي «ان مدينة سنجار اصح من دمشق وهي وسط البلاد»(١٦) .

أما الاشارات التي أوردها المستوفي القزويني عن بعض مدن الجزيرة الفراتية فأكثرها يتعلق بالمناخ الذي يؤثر تأثيرا كبيرا في

---

(١٠) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧٦ .
(١١) ابن حوقل : صورة الارض ص٢٠٢ .
(١٢) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص٢٠٢ .
(١٣) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٣٥ .
(١٤) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص٤٦١ .
(١٥) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٣٦ـ١٤٨ .
(١٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ قسم ٢ ص٦٦٤ .

الصحة ، فوصف بعضها بأن مناخها معتدل وأخرى طقسها رطب وأخرى مناخها دافيء غير أنه وصف مدينة «برتالا» في ديار ربيعة أنها «مدينة صحية»(١٧) ٠

وفضلا عن ذلك فان بدائية الطب من حيث عدم المقدرة على تشخيص الامراض وعلاجها وقلة عدد البيمارستانات وعدم العناية بها وانعدام المحاولات ، للقضاء على مسببات الامراض أو حصر الاوبئة ومنع الناس من مغادرة مناطق الوباء كانت هي السمة المميزة للقرن السادس الهجري الذي لا يمكن تحديد الامراض الشائعة فيه سواء أكانت أمراضا متوطنة أم وافدة ، ثم ان أغلب معلوماتنا عن الامراض وصلتنا عن طريق ما ذكره مؤرخون غير متخصصين بالطب مثل عبدالرحمن بن الجوزي المتوفى ٥٦٩هـ وابن الاثير وابن الساعي وابن الفوطي ، ممن يقدمون اوصافا غير دقيقة عن أسماء الامراض وطبائعها ومدى فتكها بالناس ولو وجدت مثل هذه المعلومات فيما كتبه اطباء مثل الرازي وعلي بن العباس المجوسي أو ابن سينا لكانت أكثر وضوحا ونفعا(١٨) ، فالاخبار التي نقرأها عن الامراض أكثرها في اطار مسميات عامة غامضة ، مثل الوباء أو الطاعون أو الحمى التي لم تكن تمثل مصطلحات دقيقة في دلالتها ، كما أن الوباء الذي ورد في أخبار المؤرخين هو انتشار أي مرض معد وبشكل واسع كالملاريا أو التيفوئيد أو الطاعون ٠

وترد هذه الاخبار عند المؤرخين أيضا وهي قليلة مختصرة، وانها لابد أن تكون في حقيقتها أوسع وأكثر انتشارا لان ظروف البلاد الاقتصادية والصحية كانت تساعد على انتشارها(١٩) ، وأهم الاخبار التي جاءتنا عن تلك الامراض ، ظهرت في القرن الرابع

---

(١٨) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص٢٠٩ ٠

(١٩) جعفر خصباك : نفس المرجع السابق ص٢١٠ ٠

الهجري ، وظلت تتكرر حتى القرن السادس الهجري وما بعده ، لعدم تغير الاحوال العامة وعدم تقدم الطب تقدما مؤثرا ، فيذكر ابن الجوزي ، وقوع بعض الامراض في العراق وبلاد الجزيرة — ففي ٣٢٦هـ/٩٣٧م وقع الوباء في البقر وظهر عند الناس جرب وبثور[٢٠] وفي ٣٢٩هـ/٩٤٠م وقع المرض في المواشي والناس وكثرت فيهم الحمى ووجع المفاصل[٢١] وفي ٣٤٣هـ/٩٥٤م انتشرت بين الناس أمراض وحميات ونزلات وأوجاع الحلق[٢٢] . وفي ٣٤٦هـ/٩٥٧م في التشرينين أي في فصل الخريف حيث يتقلب المناخ فتنخفض درجة الحرارة ، أصابت الناس أورام الحلق والماشرا وكثر بينهم الموت الفجاءة ، فمن افتصد في هذين الشهرين أما مات أو اشرف على الموت[٢٣] وفي ٣٧٦هـ/٩٨٦م كثر الموت بالحميات الحادة حتى هلك الكثير من الناس[٢٤] وأخيرا أشار الى انتشار مرض الطاعون في بغداد ونواحيها في ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وكان غالب المرض هو الصفراء «حيث يعرض للرجل شناج وبرسام وصداع» . واعقب هذا المرض موت الفجاءة ثم انتشر الجدري في الاطفال وأعقب ذلك

---

(٢٠) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم (مطبعه دائرة المعارف الاسلامية — حيدرآباد الدكن ١٩٥٩م) جـ٦ ص٢٩٣ .

(٢١) ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ص٣١٩ ، ومن المحتمل أن يكون هذا المرض نوعا من (الانفلونزة) .

(٢٢) ابن الجوزي : نفس المرجع ص٣٧٥ .

(٢٣) ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ص٣٨٤ . ذكر علي بن العباس المجوسي الطبيب «أما الامراض الحارة التي تعرض في الدماغ فمنها المعروف بالماشرا ، وهو مرض دموي يعرض للدماغ والشرايين والوجه وجميع ما فيه يسرم حتى يظن بالشؤون انها ستفرق ويعرض في ذلك وجع شديد وحمرة في الوجه ونتؤ في العينين ويتبع ذلك غثيان بسبب مشاركة الدماغ للمعدة» كامل الصناعة الطبية (المطبعة الكبرى ١٢٩٤م) جـ١ ص٣٢٧ — ٣٢٨ .

(٢٤) ابن الجوزي : المنتظم جـ٧ ص٤٣ .

موت الوحوش في البرية والدواب والمواشي ثم انتشرت بعد ذلك بين الناس الخوانق والاورام والطحال[25] .

وأشار ابن الاثير الى وفاة قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م وكان مرضه حمى حادة[26] والى وفاة نورالدين محمود ابن زنكي بعلة الخوانيق ـ وأشار الى أعراض هذا المرض فقال «حكى لي الطبيب الرحبي وهو من حذاق الاطباء، قال لقد استدعاني نورالدين محمود في مرضه مع غيري من الاطباء فلا يكاد يسمع صوته حيث تمكنت الخوانيق منه وشرعنا في علاجه واشرنا بالفصد فقال : ابن ستين لا يفتصد وامتنع منه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء»[27] .

---

(٢٥) ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ج٩ ص١٤ـ١٥ـ٢٧ ، قال ابن سينا «والبرسام هو فارسي ، البر هو الصدر والسام هو الورم» ثم قال «الحمى الصفراوية ثلاث غب دائرة وغب لازمة ومحرقة كالغب الدائرة أما خالصه وتكون عن صفراء خالصة وأما غير خالصة» . وللغب غير الخالصة نوبة واحدة وهذه «غير الخالصة» ربما طالت مدة طويلة وقريبا من نصف السنة وربما أدت الى الترهل والى عظم الطحال وأما المحرقة فانها من جنس اللازمة الا أن تفاوت اشتدادها وفتورها غير محسوس واعراضها شديدة وفي الدائمة تكون مبثوثة في عروق البدن التي تبعد عن القلب وشدة العطش والقلق والارق والهذيان والغثيان وحرارة الفم .. والصداع يكثر في الحميات الصفراوية «ولعل هذا ينطبق على مرض الملاريا ، أما الحمى المحرقة فربما تكون التايفوئيد فقد قال عنها «علاماتها اللزوم وخفاء الفترات وشدة الاعراض من خشونة اللسان ومن اصفراره أولا ومن اسوداده ثانيا ومن احتباس العرق الا عند البحران وشدة العطش . القانون في الطب ج٢ ص٤٤ ، ج٣ ص٣٣ـ٣٤ـ٣٨ .

(٢٦) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١١ ص٣٥٥ .

(٢٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٤٠٢ـ٤٠٣ . قال ابن سينا (العرض العام لجميع أصناف الخوانيق ضيق النفس وبقاء الفم مفتوحا وصعوبة الابتلاع وجحوظ العينين وخروج اللسان في الشديد منه مع ضعف حركته .. وان اشتد الوجع فربما انتفخت الرقبة كلها والوجه وتدلى اللسان) . القانون في الطب ج٢ ص٢٠٠ .

أما في ٥٧٦هـ/١١٨٠م فقد توفي سيفالدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وكان مرضه السل وطال به ثم أدركه في اخره سرسام ومات(٢٨) وفي ٥٨٩هـ/١١٩٣م وصل الاتابك عزالدين مسعود الى مدينة تل موزن ومرض بالاسهال فأقام عدة أيام فضعف عن الحركة وكثر مجيء الدم منه واستولى عليه الضعف(٢٩) وفي ٦١٥هـ/١٢١٨م توفي الاتابك عزالدين مسعود بن ارسلان شاه وكان سبب موته «أنه أخذته حمى ثمفارقته الغدوبقي يومين موعوكا ثم عاودته الحمى مع قيء كثير وكرب شديد وقلق متتابع ثم برد بدنه وعرق وبقي كذلك الى وسط الليل ثم توفي»(٣٠) .

وهناك من الامراض ما أسماها ابن الاثير «بالباردة» مثل «الفالج» وغيره فقد ذكر «ان عين القيارة بالقرب من الموصل شديدة الحرارة فكان الناس يسبحون فيها دائما في الربيع والخريف لانها تنفع من الامراض الباردة كالفالج وغيره نفعا عظيما»(٣١) .

وأشار ياسين العمري الى انتشار الطاعون العظيم بالموصل والجزيرة وامتد الى أربل والهكارية وكذلك انتشر في الموصل ، فمات فيه خلق كثير(٣٢) ، وذكر ابن العبري أنه نتيجة لوقوع الامراض في بغداد على عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسي ٥٧٥ـ٦٢٢هـ انتشر الوباء في العراق وبلاد الجزيرة وبلاد الروم(٣٣) .

---

(٢٨) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٤٦٢ .

(٢٩) نفس المرجع السابق ج١٢ ص١٠٠ .

(٣٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٣٣٣ . وقد يكون هذا المرض نوعا من الملاريا .

(٣١) ابن الاثير : نفس المرجع ص٤٦٦ .

(٣٢) ياسين العمري : منية الادباء ص١٧١ .

(٣٣) ابن العبري : تاريخ الدول السرياني (مجلة المشرق ـ ١٩٥٦) ص١٣٤ ، وانظر أيضا : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ٣٢١ .

وجاء في كتاب رسائل ضياءالدين بن الاثير، رسالة كتبها الى بعض الاخوان يهنئه ببرئه من المرض، وكان قد مرض (بالقولنج)(٣٤)، كما جاء ذكر هذا المرض على لسان ابن العديم، حيث ذكر أن الملك الصالح صاحب حلب قد مرض سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م بمرض القولنج واشتد به(٣٥).

أما أمراض «النقرس» و«التشنج» و«الاورام الجاسية» و«الرياح الغليظة» فهي أمراض تصيب العضل في جسم الانسان على ما يبدو، فكان بعضها يمكن الشفاء منه بعد الاستحمام في المياه المعدنية في «حمة القيارة» وتقع بالقرب من الموصل حيث تشفى من النقرس وتبسط التشنج وتزيل الأورام الجاسية والرياح الغليظة وتلحم الجراحات(٣٦).

البيمارستانات :

وقد خفف من وطأة تلك الامراض المتوطنة والوبائية، الاهتمام بالبيمارستانات وهي المستشفيات التي كانت تضم عددا من الاطباء والحكماء والمرضين، يقومون بمعالجة المرضى المقيمين

---

(٣٤) ضياءالدين بن الاثير : رسائل ابن الاثير (تحقيق انيس المقدسي) بيروت ١٩٥٩، ص١١٥.

(٣٥) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب (المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٨) جا ص٤٣، ويبدو ان هذا المرض هو نوع من الدوسنطاريا المعوية أو الالتهابات التي تصيب المعدة.

(٣٦) العمري : مسالك الابصار جا ص٣٠١ ـ وذكر الشابشتي ـ ان بالقرب من الموصل عين كبيرة تعرف بعين الكبريت فيها عدة معادن كبريتية ينفع المصابين فيهم ببعض أمراض الجلد أشهرها اثنان الواحد لاستحمام الرجال والآخر للنساء وهي تبرىء من الجرب والحكة وتنفع المقرعين والزمنى. (الديارات ص ١١٢).

(٣٧) بيمارستان لفظ فارسي معرب لا أصل له في لغة القرآن. وانظر أيضا : مادة «بيمارستان» في دائرة المعارف الاسلامية.

فيها . وكانت تختلف من حيث سعتها وتنظيمها وعدد أطبائها ودرجة العناية بمرضاها • وكانت تستمد بقاءها من الهبات والاوقاف التي كان يمدها بها أصحاب الثروة واليسار من الخلفاء والملوك والامراء والاغنياء ، وكان عددها ضئيلا والعناية بها ليست مستمرة ولا على مستوى واحد ، وذلك لانها لم تكن تمثل ضرورة قائمة وفعلية ، كما هي مستشفيات العصر الحالي ، بسبب انخفاض مستوى الطب الانساني من الناحيتين التشخيصية والعلاجية • ولم تحدثنا المراجع عن الاهتمام الذي كانت تثيره في نفوس الناس ، أو حتى عند المؤرخين من ناحية عناية الدولة الشديدة بها أو اهمالها وغلقها •

أن أهم بيمارستانات الجزيرة الفراتية في فترة القرن السادس الهجري كانت في مدينة الموصل ، حيث زارها ابن جبير سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م وذكر ان فيها بيمارستانين أحدهما في ربض المدينة ، وهو بيمارستان حفيل وآخر في داخل البلد(٣٨) • وذكر ابن الفوطي ان مجاهدالدين قايماز «دزدار» الموصل أي محافظ قلعتها قد عمر بظاهر الموصل بيمارستانا للمرضى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م وانفق عليه ما يزيد على مائة ألف دينار أحمر(٣٩) (أي ذهبا) ويبدو ان هذا البيمارستان هو أحد البيمارستانين اللذين أشار اليهما ابن جبير ، كما أورد ابن أبي أصيبعة ، أن الملك العادل نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي (٥١٤ـ٥٦٩هـ/١١١٦ـ١١٧٣م) قد أنشأ البيمارستان الكبير في الموصل(٤٠) •

---

(٣٨) رحلة ابن جبير ص٢١٠ ، أنظر أيضا : أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص١٧٨ـ١٨٧ •

(٣٩) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب جـ٥ (نشر محمد بن عبدالقدوس) ص١١٢ •

(٤٠) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ص٦٢٨ •

وفي مدينة اربل كتب علي بن عثمان بن علي الاربلي الى شرف الدين أبي البركات ابن المستوفي وزير أربل سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م وتحدث معه يرجوه أن يعهد اليه رئاسة البيمارستان الموجود هناك(٤١) ٠

وقدم لنا ابن أبي اصيبعة ، معلومات مفيدة عن بيمارستان مدينة نصيبين الذي بناه مطران المدينة «فنفع الناس به وأنفق عليه أموالا كثيرة ووقف له املاكا تقوم بكفايته ، وجعل فيه من الآلات وجميع ما يحتاج اليه شيئا كثيرا جدا»(٤٢) ٠ كما أشار الى بيمارستان مدينة الرقة «الذي كان يعمل فيه الحكيم بدر الدين»(٤٣) أما في مدينة جزيرة ابن عمر ، فيشير ابن شداد الى وجود بيمارستان(٤٤) وكذلك في مدينة ارزن(٤٥) في الشمال الشرقي من بلاد الجزيرة الفراتية ٠

الاطباء :

أشرف على البيمارستانات عدد من الاطباء الذين حفلت بهم بلاد الجزيرة الفراتية في فترة القرن السادس الهجري وفي مقدمتهم

---

(٤١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص٤٨١ ، ومما كتبه له قال :

يا ايها المولى الوزير	ذي الرعاية والعناية
ان العلاء أضلني	بالقول عن طرق الهداية
لأني للمارستانكم	وأقوم فيه بالكفاية
اني لمحتاج اليه	متى اجبت الى الولاية

(٤٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ج٢ ص٣٤١ ٠

(٤٣) ابن ابي أصيبعة : نفس المرجع السابق ص٧٥١ ٠

(٤٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة ـ قسم الجزيرة الورقة ٥٧ب ٠

(٤٥) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٨ ب ٠

(٤٦) لقد برع العرب في ميدان الطب وكانت لهم شهرة واسعة منذ القرون الوسطى الاسلامية خصوصا في أوربا ، وكان أشهر الاطباء العرب (الرازي

الطبيب رضي الدين الرحبي يوسف بن حيدرة بن الحسن الذي ذكره ابن ابي أصيبعة بقوله أنه «كان من أكابر الاطباء في صناعة الطب شديد الاجتهاد في مداواة المرضى رؤوفا بالخلق طاهر اللسان» وكان والده من بلد الرحبة وهي مدينة على نهر الفرات وكان له أيضا ، نظر في صناعة الطب ومزاولته الا أن صناعة الكحل (طب العيون) كانت أغلب عليه وعرف بها ، وكان قد نشأ في جزيرة ابن عمر وأقام بنصيبين وبالرحبة وسافر الى بغداد واشتغل بصناعة الطب ومهر بها ، واجتمع في ديار مضر بالشيخ الموفق المعروف بابن جميع المصري وانتفع به(٤٧) • ومن الاطباء الذين نسمع عن جهودهم في القرن السادس الهجري علي بن أحمد البغدادي المعروف بابن هبل المتوفى سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م الذي ولد ونشأ في بغداد وقرأ الطب هناك ثم استوطن بالموصل فأخذ الناس يترددون اليه أو يقرأون عليه الطب ، وقد وضع كتابا أسماه (المختار في الطب)(٤٨) وكان قد

٢٣٦ـ٣٢٠هـ/٨٥٠ـ٩٣٢م) وأهم كتبه (الحاوي) وعلي بن العباس المجوسي (ت٨٤٠هـ/١١٨٣م) وقد عرف بكتابه المسمى (الملكي) أو (كامل الصناعة الطبية) والشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٠ـ٤٢٩هـ/٩٨٠ـ١٠٣٧م) وأهم مؤلفاته (القانون في الطب) وما جاء فيه مشيرا الى عدوى مرض السل الرئوي وانتقال الامراض بالماء والهواء • كما بين الرازي لاول مرة الفرق بين الجدري والحصبة وقال بالعدوى الوراثية وقد اعتمدت هذه المؤلفات على ما توصل اليه اليونانيون وأطباء الهند والفرس وغيرهم ثم صنفت وجمعت اليها الخبرات الطبية التي نشأت في ظل المدنية الاسلامية • وقد أوجدت هذه المصنفات والمؤلفات في القرون التالية عددا من الاطباء المسلمين والمسيحيين واليهود • انظر جعفر خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين ص٢١٨ ، أحمد عيسى بك ، تاريخ البيمارستانات في الاسلام ص٤٢ •

(٤٧) ابن ابي أصيبعة : عيون الانباء ج٢ ص٦٧٢ •

(٤٨) قال الصفدي : ان هذا الطبيب اعتزل مهنته ولزم منزله لانه عمى بماء نزل في عينيه عن ضربة وانقطع للتاليف ووضع كتابا آخر اسماه (الطب الجمالي) وكان يلقبه هذا المرجع : البيع.مهذب الدين • وقال أيضا : بأن كتابه «المختار في الطب» كان يشتمل على علم وعمل •
انظر : الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان ص٢٠٥ـ٢٠٦ •

حصل على ثروة طائلة من جراء اشتغاله بالطب في الموصل(٤٩) • وذكر ابن أبي اصيبعة أنه «كان يعرف بالخلاطي نسبة الى مدينة خلاط في أقصى الشمال الشرقي من بلاد الجزيرة الفراتية وكان أوحد زمانه وعلامة زمانه في صناعة الطب ، وقد أقام بماردين ثم توجه الى الموصل وعمي في آخر أيامه ، وكان يجلس على سرير ويقصده الناس»(٥٠) • وأشار الصفدي الى أن هذا الطبيب ، دخل بلاد الروم السلاجقة ـ آسيا الصغرى ـ وصار طبيب السلطان هناك «فكثر ماله وارتفع مقداره»(٥١) •

أما الطبيب ابن أبي البقاء بن ابراهيم النيلي المعروف بابن العطار وهو مسيحي ، فقد طلبه الاتابكة من بغداد وأرسل الى الموصل لكي يشرف على علاج الملك الاتابكي نورالدين أرسلان شاه ابن عزالدين مسعود سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م وقد وصف بأنه كان

---

(٤٩) وكان هذا الطبيب قد قصد اذربيجان أيضا ليطب صاحبها • وقد أرسل من خلاط الى الموصل وديعة مقدارها بين ستة وثلاثين ألف دينار ومائة وثلاثين ألف دينار الى مجاهدالدين قايماز دزدار الموصل • انظر : ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢٤٠ـ٢٤١ ، ابن أبي أصيبعة عيون الانباء جـ٢ ص٤٠٧ ، الصفدي : نكت الهميان ص٢٠٥ •

(٥٠) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء جـ٢ ص٤٠٧ـ٤٠٨ ، وقد ذكر القفطي : «ان بعض الطشتدارية (الطشتدار لفظ فارسي مركب من مقطعين الاول «الطشت» وهو اناء يغتسل فيه والاخر «دار» ومعناه ممسك فيكون المعنى «ممسك الطشت» القلقشندي : صبح الاعشى جـ٥ ص٤٦٩») قال يوما وهو يعالج شاه أرمن صاحب خلاط ، وقد نظر الى قارورة الملك في بعض أمراضه يا حكيم لما لا تذوقها فسكت عنه ، فلما انفصل عن المجلس قال له في خلوة : قولك هذا اليوم عن أصل من قول غيرك أو هو شيء خطر لك فقال : انما خطر لي ، لانني سمعت ، ان ذوق القارورة من شروط اختبارها فقال له : الامر كذلك ولكن لا في كل الامراض ، وقد أسأت بشرط الي بهذا القول ، لان الملك اذا سمع هذا ظن انني قد اخللت بشرط واجب من شروط خدمته وقوانين الصناعة فيها» • تاريخ الحكماء ص٢٣٨ـ٢٣٩ •

(٥١) الصفدي : نكت الهميان ص٢٠٥ •

خبيرا بالعلاج قيّما بـــه ، كما عرف عنه انه كان طبيبـــا خاصة بالنساء(٥٢) ·

أما الطبيب ثابت بن قرة الحراني فقد كان من الصابئة المقيمين بمدينة حران وقد اشتغل بالصيرفة ووصف بأنه «لم يكن في زمنه من يماثله في صناعة الطب»(٥٣) ومن أطبـاء الصابئة أيضا ابن وصيف الصابئي (وكان طبيبا بعلاج أمراض العين)(٥٤) وثابت بن ابراهيم الحراني «وكان طبيبا فاضلا كثـــير الدراية وافر العلم بارعا في صناعة الطب مطلعا على أسرارها»(٥٥) ·

وفي مدينـة الموصل عـرف الطبيب محمد بن ثـواب الموصلي المشهور بأبن الثـلاج «وكان فاضلا في صناعة الطب خبيـراً بالعلم والعمل»(٥٦) وفي مدينـة بلد الطبيب أحمد بن محمد البلـدي كان خبيرا بصناعة الطب حسن العلاج والمداواة وله كتب في تدبير الحبالى والاطفال والصبيان وحفظ صحتهم(٥٧) · وأشار القفطي الى عدد من أطباء الجزيرة الفراتية في هذه الفترة من المسيحيين وأشهرهم حسنون النصراني الرهاوي الذي قرأ الطب على أطباء الرها ورحل الى ديار بكر ومنها آمد وميافارقين وتنقل في البلاد بصناعته ورجع الى الرها وتوفي سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م(٥٨) وممن اتقن صناعة الطب

---

(٥٢) القفطي : تاريخ الحكماء ص٣٣٢ ، ذكر ابن واصل انه أشار على الاتابك نورالدين أرسلان شـاه بالاستحمام في عين القيارة التي تقـع الى جنوب الموصل · مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ، جـ٣ ص٢٠٢ ، ومنهم من هو خاص بالخلفـاء والامراء وهم طبقـات وأصناف فمنهم الجـراح والفاصد والكحال والاســنائي ومن يطب النساء ، انظر : جرجي زيـدان : التمدن الاسلامي جـ٣ ص٢٠٢ـ٢٠٣ ·

(٥٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء جـ٢ ص٢٩٥ ·

(٥٤) ابن أبي أصيبعة : نفس المرجع السابق ص٣١١ ·

(٥٥) ابن أبي أصيبعة : نفس المرجع السابق ص٣٠٧ ·

(٥٦) ابن أبي أصيبعة : نفس المرجع السابق ص٣٣٢ ·

(٥٧) ابن أبي أصيبعة : نفس المرجع السابق ص٣٣٢ ·

(٥٨) القفطي : تاريخ الحكماء ص١٧٧ ·

يونس الحراني الذي صنع معجونا كانت السقية منه بخمسين دينارا لاوجاع الجوّف ، وقد اجتمع خمسة من الاطباء ولم يستطيعوا أن يتوصلوا الى صنعه(٥٩) ٠ والطبيب تقي الدين الرأس عيني المعروف بابن الخطاب ، وهو من رأس العين وطبيب مشهور متقن لصناعة الطب علمها وعملها غاية الاتقان(٦٠) ٠

وأشار الفارقي الى المنزلة الكبيرة التي كانت للطبيب أبي سالم لدى أمير ميافارقين ، وقد تقدم عنده وارتفعت منزلته ، وكان له حانوت بسوق العطارين(٦١) الذي ذكره ابن شداد باسم «سوق العديم»(٦٢) ويبدو أنه كان يتعاطى فيه بيع الادوية والعقاقير الطبية في نهاية القرن الخامس الهجري ٠

الادوية والعلاج :

كان الطب يقوم أكثره على الادوية النباتية(٦٣) ٠ ومن النباتات الطبية التي ذكرها ياقوت «حب الزنم» وهو نبات جبلي يكثر في أرض الجزيرة ويصلح لحالات المرض التناسلية والجنسية(٦٤) والنيلوفر الذي أشار اليه أبو البقاء الدمشقي وهو

---

(٥٩) القفطي : نفس المرجع السابق ص٣٩٤ ٠

(٦٠) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢٧٤ ، وقال انه خدم الملوك بزي جميل وأمر صالح وغلمان وخدم ٠

(٦١) الفارقي : التاريخ ص٢٠٦ ٠

(٦٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ـ مخطوطة ـ الورقة ٩٣ب ٠

(٦٣) ويمكن وصفها بالمسكنات ، فلم يلجأوا الى الادوية المركبة المعقدة التي يسمونها (الترياق) الا في الحالات المستعصية ٠ انظر جعفر خصباك : العراق في عهد المغول ص٢١٩ ٠

(٦٤) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص٣٤٠ـ٣٤١ ، وانظر أيضا : ابن عبدالحق مراصد الاطلاع ج١ ص٥١٦ ، القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص٣٩٧ ٠

نبات هنـــدي يسمى (حب العروس) وأكثر ما ينبت بنفســـه في مستنقعات الماء ورواكدها كما ينبت في الماء العذب الواقف من أرض طيبة وهو بـــارد رطب مسكن للصداع الحار اذا شرب منـــه درهم كشراب الخشخاش ويذهب وجع الاسنان اذا استعمل مضمضة ، وينقي السواد والبلغم وانفعه الاصفر(٦٥). وينبت هذا في مدينة نصيبين . وكان الفصد والاسهال والحجامة أكثر أساليب المعالجة شيوعا .

وجاء في احدى رسائل ضياءالدين ابن الاثير اشارة تفيد باتباع أهل ذلك العصر نوعا من العلاج يلجأ اليه الاطباء فأول ما يشرع به الطبيب هو ملاطفة المريض وتدبيره، حيث «يغني مالا يغنيه الطبيب من علاجـــه الذي يأتي فيه بملاطفة التدبير» ثم يوضح قائـــلا ، أن «صناعة الطب انما هي معالجة الاضداد بالاضداد»(٦٦) .

ويبدو أن الاطباء كانوا يعالجون مرضاهم ، بعقاقير وأدوية شبيهة بمــــا تقوم به في الوقت الحاضر على ما يســـــمى في الطب «بالمضادات» وهي عقاقير طبية مكونة من الميكروبات (الفيروسات المرضية) الميتـــة ، تعالج بها الامراض التي ســـــببتها نفس هذه الميكروبات ، كما يفهم من اشارة أخرى لـــه ، ان الطبيب يهتدي في علاجه بمعرفة الطبائع الاربع وهي الحـــرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة(٦٧) لذلك كان يجتهد في معرفة درجة حرارة المريض على ما يبدو ويشرع في علاجه ويبدو أن مداواة الجدري والحصبة ، قد اثارت اهتمـــام الاطباء والحكماء في تلـــك العصور فقـــال علي بن العباس المجوسي من أهل القرن الرابع الهجري «ينبغي أول علامات ما يظهر الجدري والحصبة من يوم الى ثلاثة أيام ان يبادر الى فصد

---

(٦٥) أبو البقاء الدمشقي : نزهة الانام في محاسن الشام (القاهرة ١٣٤١هـ). ص١٧٢ .

(٦٦) ضياءالدين بن الاثير : رسائل ابن الاثير ص١١٦ .

(٦٧) ضياءالدين بن الاثير : نفس المرجع السابق ص١١٢ .

صاحبه من الاكحل ويخرج له الـدم الى أن يغشى عليه اذا ساعدت القوة والمزاج والسن والوقت الحاضر من أوقات السنة ، وان كان العليل صبيا فليحجم من الكاهل ويخرج له من الدم مقدار ما يصلح أن يخرج لمثلـه ويعطيه بعد الفصد ماء الشعير قد طبـخ فيه عناب وسيستان وعدس مثل ثلث الشعير ويسقيه أياه بشراب الخشخاش أو شراب العنـاب ان كان هناك سعال وألم في الحلق وان لـم يكن هناك سعال فماء الرمان ٠٠٠ الخ»(٦٨) ٠

أما علاج الجروح وتطبيبها ، فلدينا اشارة أوردها ابن خلكان، تتعلق بمعـالجة المبارك ابن المستوفي وزير اربل سـنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، وذلك عندما جرح بضربة سكين من أحد مناوئيه في عضده، «فجرحته جرحة متسعة فأحضر في الحال (المزين) وخاطها ومرخها وقمطها باللفائف»(٦٩) ٠

ولعل كلمة (المزين) هنـا تعني (الحلاق) الذي كانت له هذه المهنة فيشارك بها الجراح حيث يقوم بمهمة معالجة المرضى ويخيط جراحهم ، ويضمدها ٠

وكان الاطباء يعالجون بعض حالات الامراض العصبية فقد أشار ابن شداد الى وجودهم في مدينة ميافارقين حيث كانوا يعالجون من يصاب بالجنون(٧٠) ٠

---

(٦٨) ابن العباس المجوسي : كامل الصناعة الطبية ج٢ ص١٩٣ ، انظر أيضا : ما قاله في علاج مرض ذات الرئة ، نفس المرجع السابق ص٣١٧ ، ومرض الاورام الدموية التي تسمى شوصة وبرساما وذات جنب ، نفس المرجع السابق ص٢٣٨ ٠

(٦٩) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص٣٩٦ ٠

(٧٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشـام والجزيرة ـ مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ـ ٦٧ب ـ ٦٨ أ ٠

وهناك نوع من العلاج يعرف (بالوصايا الطبية) كما هو الحال في الوقت الحاضر وهي ما يوصي بــه الاطباء مرضــاهم ، فذكر اليونيني، انالاطباء لميوافقوا علىاقدام أحد المرضى علىأكلة الارز باللبن(٧١) وان الطبيب (ابن سكره اليهودي) أشار على الملك الصالح صاحب حلب سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م بشرب الخمرة وقال «يا مولانا شفاؤك في الخمرة ..»(٧٢) .

(٧١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان جا ص٥٠٢ .

(٧٢) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٣ ص٤٠ .

الفصل الخامس

العادات والتقاليد

١ ـ الأعياد الاسلامية :

أ ـ عيد الفطر ·

ب ـ عيد الاضحى ·

ج ـ عيد المولد النبوي ·

٢ ـ الأعياد المسيحية :

أ ـ عيد الصليب ·

ب ـ عيد الفصح ·

ج ـ عيد الشعانين ·

د ـ عيد صوم العذارى ·

الفصل الخامس

العادات والتقاليد

درج الناس على عادات سيطرت على حياتهم اليومية ، فأصبحت بمرور الزمن تقاليد واعرافا . ومن الصعوبة الالمام بمجمل العادات والتقاليد المستحكمة في حياة الانسان في هذه الفترة التاريخية من القرن السادس الهجري في مجتمع المدن في بلاد الجزيرة الفراتية ، وذلك لسعة تلك الحياة وتعقدها وصعوبة التوصل الى معرفة النوازع والضوابط التي كانت تسيطر على حياة الناس اليومية .

وكانت القيم الدينية تحكم تصرفات غالبية الناس وتوجه حياتهم الدنيوية وتجعل من التفكير بالعالم الثاني ويوم الحساب أساسا لمعاملاتهم وعلاقاتهم المتبادلة من جهة ، كما ان متطلبات الحياة اليومية ، أصبحت لا تخضع لرقابة الدين أو الضمير من جهة أخرى . فالى جانب الاهتمام بانشاء المؤسسات الدينية مثل المساجد والمدارس والربط والزوايا والانفاق عليها والتي تمثل مظهرا دينيا ، نسمع كثيرا عن اخبار الحروب التي استهدفت التوسع وتحقيق المغانم الدنيوية وقطع طرق الحجاج وسلبهم وغزو المدن ونهبها وقتل الناس وتزايد اللصوص وقطاع الطرق .

ان هذا النزاع القائم في نفوس الناس والمتمثل بالقيم الدينية ومتطلبات حياتهم اليومية من جهة أخرى كان قد ولد نوعا من التقاليد والعادات أصبحت جزءا لا يتجزأ من الحياة العامة ، فالمسلمون يكونون غالبية سكان الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، ويأتي بعدهم المسيحيون ثم اليهود والصابئة وأقلية ضئيلة من المجوس • وكل هؤلاء لهم عاداتهم وتقاليدهم التي طبعتها اديانهم ، فمنها ما تكون مشتركة بين الجميع ، مثل الخضوع للحاكم والتقيد بالنظام والقانون والالتزام بمظاهر التعايش والالفة طبقا لما جاء في أديانهم وما نصت عليه بخصوص ذلك ومنها عادات وتقاليد تميز كل فئة منهم • وبلاد الجزيرة الفراتية تبدو عريقة التقاليد وهي أكثر وضوحا من البلاد الاخرى نتيجة للتوزيع الديني والثقافي والاجتماعي والاقتصادي للسكان ، فعلى الرغم من وجود المدن المشتركة بين المسلمين والمسيحيين واليهود، نرى أن هناك مدنا وقرى تغلب عليها الاكثرية من المسيحيين أو المسلمين مما يجعل ظهور عادات الاغلبية واضحة متميزة ، على أن الاقلية تبقى تحتفظ بعاداتها وتقاليدها وشعائرها الخاصة بها في مناطق الاغلبية أيضا ، فالموصل وميافارقين وأربل وآمد ونصيبين وغيرها من المدن الكبيرة يتعارف الناس فيها على عادات وتقاليد متميزة كما هو الحال بالنسبة للمدن الصغيرة والقرى القريبة منها أو البعيدة عنها • ومن المفيد أن نستعرض بعضها ومن أهمها الاعياد الدينية والمواسم •

وهذه الاعياد اسلامية ومسيحية :

ا ــ الاعياد الاسلامية :

وهما عيد الفطر والاضحى ، وكان الاحتفال بهما في القرن السادس امتدادا لما سبق ان جرى في جميع المدن الكبيرة والصغيرة •

يبدأ الاحتفال بعيد الفطر بحلول شهر رمضان حيث توزع الصدقات على الفقراء والمحتاجين وتضاء المساجد ليلا بالمصابيح ويذهب الناس اليها للصلاة واذا قارب الشهر على الانتهاء استعد الناس لاستقبال عيد الفطر(١) . ويكون عيد الفطر في اليوم الاول من شوال(٢) ويستمر ثلاثة أيام وأهم المراسيم لأعلان يوم العيد تبدأ بمشاهدة الناس لهلال شوال ثم الشهادة لدى القضاة بذلك حيث يتولون امر ايصالها الى قاضي القضاة حيث يصدر أمره بحلول العيد .

وفي اليوم الاول للعيد يخرج الناس بملابسهم الجديدة لاداء الصلاة ولاعطاء الفطرة(٣) الى الفقراء والمحتاجين(٤) ، ويذكر الفارقي من أهل القرن السادس الهجري ، خروج الناس يوم العيد للصلاة في ميافارقين ، حيث يظهر الامير انه يريد الخروج ، ثم يتاخر عن الخروج ، وقال ان ما يظهر في ركب الامير من العدة والسلاح والزينة يوم العيد ، محملة على النجائب ، ما ليس بقليل وما لم ير مثله(٥) . ويبدو أن الاحتفال بعيد الفطر ، كان يجري على الصعيدين ، الرسمي والشعبي في قصبات الامارات المحلية الاتابكية والارتقية وفي امارات المدن في هذه الفترة .

أما في شهر ذي القعدة فتبدأ احتفالات جديدة في أغلب مدن الجزيرة الفراتية ، بحلول موسم الحج ، حيث يتوافد الحجاج الى

---

(١) الكازروني : مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية ص٢٥ .

(٢) راجع القلقشندي عن تاريخ اتخاذ عيد الفطر: صبح الاعشى في صناعة الانشا جـ٢ ص٤٠٦ .

(٣) المكى : قوت القلوب (المطبعة المصرية ، القاهرة ١٣٥١هـ) جا ص١٠٦ ، الكازروني : مقامة في قواعد بغداد ص٢٦ ، وهناك من يرى وجوب اعطاء الفطرة ليلة العيد وليس في صبيحته ــ انظر ابن رشد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد (مطبعة الاستقامة القاهرة) جا ص٢٧٣ .

(٤) الحريري : (المطبعة الامبرية ــ بيروت ١٩٠٣) ص٦٨ .

(٥) الفارقي : التاريخ ٦٧ــ٦٨ .

بغداد ، فيخرج من كل مدينة أو قرية عدد من الحجاج ينتظمون في مسيرة تدق لها الطبول وتنشر الاعلام كلما مرت في طريقها بمدينة أو اخرى ، وعند وصولهم الى بغداد ، يجتمعون في الجانب الغربي منها ويضربون الخيم هناك ويقدم لهم الطعام والشراب من قبل الحكومة(٦) .

وقد اعتاد أهل الموصل الاحتفال بحجاج بلادهم في ذهابهم الى الاراضي المقدسة وعند عودتهم منها ، يخرجون مرتدين ثيابهم ، وقد امتطى بعضهم صهوات جيادهم(٧) ، فيصف ابن جبير مشهدا من مشاهد هذا الاحتفال الذي اقيم لاستقبال الحجاج ومنهم أم الاتابك عزالدين مسعود صاحب الموصل ٥٧٦ـ٥٨٩هـ / ١١٨٠ـ١١٩٣م فيقول «خرج الناس لاستقبال أم عزالدين ، فدخل الحاج صحبة خاتونهم على احتفال وأبهة قد جللوا اعناق ابلهم بالحرير الملون وقلدوها القلائد المزوقة ، وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير سعة الالف وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ومطاياها مجللة الاعناق بالذهب وكذلك زينت المطايا بالجلال المذهبة ، وارتدت الخاتونة عصابة ذهب على رأسها وأخريات عصبن رؤوسهن بالعصائب الذهبيات ومجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره»(٨) .

وفي اليوم العاشر من شهر ذي الحجة يحتفل الناس بعيد الاضحى فيخرجون مبكرين الى المساجد لاداء فريضة صلاة العيد ثم ينحرون الاضاحي ويوزعون لحومها على الفقراء والمحتاجين ، ثم يجلس الامراء في دار الامارة ليستقبلوا الناس ، ويذكر الفارقي «جلوس

---

(٦) ابن الجوزي : المنتظم جـ٨ ص٤٤ ، راجع حول اختيار امير الحجاج الذي يسمى (أمير الحاج) وتنظيم مواكبهم الى الديار المقدسة : بدري محمد فهد: العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري (بغداد ـ ١٩٦٧) ص١٩٣ـ١٩٧ .

(٧) رحلة ابن جبير ص٢٠٦ ، ٢١٢ .

(٨) الفارقي : التاريخ ص١١٠ .

الامير نصرالدولة صاحب آمد في اليوم الرابع للعيد لقبول التهاني بيوم العيـد على التخت ، فحضر الشـعراء والقـراء ، وكان يوما عظيما وعيدا مشهودا»(٩) ٠

ومن الاعياد التي كان يقام لها احتفال مهيب في مدينة اربل في هذه الفترة «المولد النبوي» فأشار سبط ابن الجوزي الى وصف من حضر بعض السنين مولد النبي الذي كان يقيمه مظفرالدين كوكبري أمير أربل(١٠) سنة ٥٨٦ـ٦٣٠هـ/ ١١٩٠ـ١٢١٢م فقال ان الاموال الطائلة كانت تنفق لاحيائه ويحضره الناس من جميع الجهات(١١) ٠

وجاء في الكـتاب الموسوم «انسـان العيون في مشـاهير سادس القرون» في معـرض الكلام عن مظفرالدين كوكبري وصـفا دقيقا ليوم المولد النبوي والايام التي تسـبقه والتي تعقبه ، فقال «أما احتفاله بمولد الرسول فكان في كل سنة يصل من البلاد القريبة من اربل مثل بغداد والموصل وجزيرة ابن عمر وسنجار وتصيبين وبلاد العجم وبتلك النواحي خلق كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء وان توافد هؤلاء على اربل يبدأ من المحرم الى

---

(١٠) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ قسم ٢ ص٦٨١ـ٦٨٢ ذكر بأنه كان ينفق على المولد في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار ثم وصف مآدب الطعام التي كانت تقام فعـد على السماط مائة قـرش قشلميش وخمسـة آلاف رأس مشوي وعشرة آلاف دجاجة ومائة ألف زبدية وثلاثين ألف صحن حلوى ٠

(١١) سبط ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ص٦٨١ـ٦٨٢ ويضيف بانه بنى دارا كان يدخلها جميع الناس وقسمها الى أربعـة أقسام ، دار للزمناء ودار للعميان ومكان لليتامى ومكان للمساكين وأجرى عليهم الجرايات والرواتب والكساوى ٠ وكان يبعث بالاموال والجواهر الى الشام فيشترى بها الاسرى من الصليبيين ويعودون الى أربل وقد خلص ستين ألف أسير ٠ ويبعث في كل سنة مالا يفرق في الحرمين وعشرة آلاف تنفق في السبيل وألف دينار برسم اجراء الماء الى البرك التي بعرفات ٠

أوائل شهر ربيع الاول ، ويتقدم مظفرالدين كوكبري بنصب قباب من الخشب كل قبة أربع أو خمس طبقات ، فيعمل مقدار عشرين قبة» . ويبـــدو ان هذه القباب تمثل المقصورات الواحـــدة فوق الاخرى ، ثم تعمل قبة له وحده ، وهذه القباب للأمراء والاعيان في دولته • وذكر ان ترتيب تلك القباب وتحضيرها يبدأ من أول صفر حيث تزود بانواع الزينة الفاخرة المتجملة • ثم تزود كل طبقة من هذه القباب بجوق من المغنيات ومن أرباب الخيالات ومن أصحاب الملاهي بحيث لا يتركون طبقة من تلك الطبقات في كل قبة بدون ان يرتبوا فيها جوقا • ثم تعطل الاعمال خلال هذه الفترة حيث ينصرف الناس الى مشاهدة وقائع الاحتفال • وكانت القباب تمتد من القلعة الى باب الخانقاه المجاورة للميـــدان ، وكان مظفرالدين كوكبري يشرف بنفســـه ويتجول في هذه الاماكن ثم يرجع الى القلعـــة وقبل يومين من بـــدء الاحتفال «يخرجون من الابل والبقـــر والغنم شيئا كثيرا فيسيرونهـــا من قرب اقامة الامـــير بمسيرة تصـــحبها الطبول والمغاني والمـــلاهي فيأتون بها الى الميـــدان ويشرعـــون في نحرها وينصبون القـــدور ويطبخون اصناف الطعام» • وفي يـــوم المولد النبوي ينزل الامـــير وبين يديه الشموع المشتعلة وفيهـــا شمعتان كبيرتان أو أربع تحمل كل واحدة على بغل ومن ورائها رجل يسندها حتى تنتهي الى الخانقاه ــ ثم ينزل مظفرالدين كوكبري من القلعة ومعه الخلـــع يحملها الصوفية في يد كل شخص منهم بقجـــة وهم متتابعون كل واحد وراء واحد باعداد كبيرة الى الخانقاه فيجتمع الاعيان والرؤساء وينصبون كراسي للوعاظ ثم ينصب لمظفرالدين كوكبري برج من الخشب له شبابيك مطلة على الميدان وعلى الناس من الجهة الثانية ، ثم يقام عرض عسكري في الميدان وبعد الانتهاء منه يقدم الطعام للناس المجتمعين • وبعد ذلك يطلب من الاعيان والرؤساء الذين وفدوا من البلاد الاخـــرى وخاصة الفقهاء منهم والوعاظ والقراء والشعراء ويخلع على كل واحد منهم ثم يعودون

الى أماكنهم ٠ وقال انه بعد الفراغ من هذا الموسم يجهز كل انسان الى بلده فيدفع لكل شخص شيئا من النفقة(١٢) ٠

٢ ـ الاعياد المسيحية :

وهي أعيـاد موروثة منذ عهد قديم ٠ ترجع الى عـادات كانت لسكان العراق القدماء(١٣) ٠ ويتفـق النصارى في الاعياد العامة ويختلفون في الفرعيـة منها خصوصا التي كانت تقـام في الاديرة والكنائس في أوقات معلومة من السنة(١٤) ٠ والاعياد العامة للنصارى أربعة هي«عيد الصليب الطيب» و«عيد الفصح» و«عيد الشعانين» والاخير هومجموعة من الاعيادتسمى «أعياد الصوم الكبير»(١٥) و«عيد صوم العذارى» كما ان هناك أعيـادا خاصة بكل دير من الاديرة المبثوثة في بلاد الجزيرة الفراتية ٠

---

(١٢) مجهول : انسان العيون في مشاهير سادس القرون ـ مخطوطة مصورة في مكتبة المتحف العراقي رقـم (٢٩٥) الورقة ٢٩٧ـ٣٠١ وذكـر انه اعطى الحافظ أبـا الخطاب بن دحية لكتابته كتاب (التنوير في مولـد السراج المنير) ألف دينار وقال ابن كثير «صنف الشيخ أبو الخطاب بن دحية مجلدا في المولد النبوي سماه (التنوير في مولد البشير النذير) » البداية والنهاية في التاريخ ج١٣ ص١٣١ ٠ وقال لقد بنى مظفرالدين كوكبري دارا للنساء الارامل ودارا للصغار الايتـام ودارا للملاقيط وكان يتفقد البيمارستان ويقف على كل مريض ويسأله عن حاله ومبيته وما يشتهيه»٠ الورقة ٢٩٦ ٠

(١٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القـرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبدالهادي أبوريدة ـ ١٩٥٧ ج٢ ص٢٧٦ ٠

(١٤) الشابشتي : الديارات ص٣ ، انظر بابو اسحق : احوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية (بغداد ـ ١٩٦٠م) ص٩٧ ٠

(١٥) يقسم حسب احاده ، وفي كل أحد يحتفلون بدير من الاديرة ٠ ويقع الصوم الكبير في ثمانية واربعين يوما اولها يوم الاثنين وفطرهم يوم الاحد التاسع والاربعين من أول صومهم يسمونه (السعانين) أو (الشعانين) ويشترط أن يقع عيد الفصح بـين الشعانين ٠ والفطر وهو آخر اسـبوع من صومهم ٠ انظر البيروني : الاثار الباقية عن القرون الخالية (لايبزك ١٩٢٣) ص٣٠٢ وقال بابو اسحق ٣: وعند الانتهاء من الصوم الكبير يهل عيد القيامة أو العيد الكبير (أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية) ص١٠٢ ٠

ان اخبار اديرة المسيحيين وأعيادهم في مدن الجزيرة الفراتية خلال القــرن السادس الهجري ، انما هي استمرار لمــا وضعه البلدانيون عنها في القرن الرابع الهجري ، لان اديرتهم بقيت قائمة، فضلا عن احتفاظهم بعاداتهم وتقاليدهم الدينية ، فيذكر الشابشتي نقلا عن الحسين بن يعقوب قوله : انه وصل الى مدينة الرها واقام فيها ليلة وعنــد مغادرته قبل عيد الصليب بيوم واحــد ، شاهد الاستعدادات الجارية للاحتفال بهذاالعيد،فوصف ذات الوجوه الحسان من النصرانيات اللائي خرجن لعيدهن وعليهن جيد الثياب وفاخر الجوهر ، وقــد تعطرن بروائح المسك والعنبر كما فــرش لهن على العجل وهن يجرين واخريات على الشهارى (وهي نوع من البراذين والخيل) الخراسانية والبغلات المصرية والحمر الفره ومشاة ٠ وقال أيضا بانــه كان معهن صبيان لم يــر احسن منهم وجوهــا وقدودا وثيابا ، وكان الجميع يسعون للوصول الى دير زكي ليعيدوا فيه(١٦) كما وصف دير زكى آنف الذكر وهو بالقرب من مدينة الرقة على نهر الفرات ، بــان «فيه عمارة نفيسة ومواضع طيبة وتقــام فيه المهرجانات والاعياد المسيحية»(١٧) ٠

أما عيد الفصح وعيد صوم العذارى ، فليست لدينا معلومات عن الاحتفال بهما لدى نصارى الجزيرة الفراتية في هذه الفترة ، ولكن ورد ما يفيد ان النصارى كانوا يقيمون اعيادهم في الاديرة باستمرار وفي أوقاتهــا المعينة ٠ واشار الشابشــتي الى احتفال النصارى بعيد الشــعانين في دير الاعلى بالقرب من الموصــل حيث

---

(١٦) الشابشتي : الديارات ص٢٤٤ ٠

(١٧) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص١٣٩ ٠ وذكر انه كان منطقة لصيد الغزلان والارانب وطير الماء والحبارى وتنصب مطارح الشباك للسمك ولا يخلو من المتطربين لطيبه ولاسيما اثناء الربيع حيث يكتسب في هذا الوقت منظرا عجيبا ٠

«يزين في ذلث باحسن زي»(١٨) ، كما كان يقام الاحتمال في دير مار مخائيل وهو على بعد ميل من الموصل بعيد الشعانين أيضا(١٩) •

ويقيم النصارى اعيادا لهم في كل دير من أديرة الجزيرة العراتية ومنها دير برقوما في مدينة ميافارقين «له عيد يجتمع الناس اليه ويقصدونه من المناطق البعيدة وتنذر له النذور وتحمل اليه من كل موضع»(٢٠) • ودير الكلب وهو قرب معلثايا «وله عيد في وقت من السنة يخرج اليه خلق من النصارى نساء ورجالا للاقامة عنده» بالاضافة الى المسلمين لمشاهدته والنزهة فيه والاستماع الى الاغاني وانواع الملاهي وتذبح فيه الذبائح وتشرب الخمور(٢١) • ودير الخنافس الذي ذكره ياقوت فقال : «وله عيد يقصده أهل الضياع في كل عام مرة(٢٢) لمدة ثلاثة أيام»(٢٣) «ودير مرتوما على فرسخين من ميافارقين على جبل عال له عيد يحضره الناس ويقصده أهل البطالة والخلاعة»(٢٤) ودير الابلق وهو بالقرب من الاهواز يخرج اليه جماعة من أربل وأهل تلك النواحي في كل عيد يقام فيه من أعياد النصارى فيمضون فيه مدة يومين أو أكثر يشاهدون

---

(١٨) الشابشتي : الديارات ص١١٢ــ١١٣ •

(١٩) العمري : مسالك الابصار في ممالك الامصار جـ١ ص٢٩٤ •

(٢٠) الشابشتي : الديارات ص١٩٧ •

(٢١) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص٢٦٢ •

(٢٢) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٦٥٨ ، انظر أيضا القزويني : اثار البلاد واخبار العباد ص٣٧٠ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع جـ١ ص٤٢٩ •

(٢٣) القزويني : آثار البلاد ص٣٧٠ •

(٢٤) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٦٩٧ ، يقول : «ان النصارى يزعمون باحتفاظهم بجثة (مارتوما) منذ ألف سنة وهو محفوظ في خزانة خشب لها أبواب تفتح أيام الاعياد فيظهر فيه نصفه الاعلى وهو ظاهر قائم وانفه وشفته مقطوعتان وذلك ان امرأة احتالت عليه حتى قطعتهما ومضت بهما فبنيت عليهما دارا في البرية في طريق تكريت» •

بالاضافة الى ما تقدم كانت بعض الاديرة ملتقي للناس على مختلف أديانهم ، حيث تقام فيها المهرجانات والاحتفالات يشترك فيها المغنون واهل الطرب وتعزف فيها الالحان ويشرب الناس فيها أصناف الشراب وتقدم أنواع الماكل وهي لا تخلو من المتطربين والمتنزهين مثل دير مريحنا الذي وصفه الشابشتي بان «له بناء الى جانبه ينزله المجتازون فيقيم لهم الضيافة»(٢٦) كما وصف دير الشياطين بأنه «من مطارح أهل البطالة ومواطن ذوي الخلاعة»(٢٧) ودير مارسرجيس بالقرب من عانة يقصده الناس من هيت وغيرها للتنزه فيه وهو يحتوي على كل ما يحتاج اليه أهل التطرب والتفرج(٢٨) ، (دير الزعفران) الذي قال عنه ياقوت انه «دير فرح نزه لاهل اللهو به مشاهد»(٢٩) ٠ و (دير صباعي) في شرقي تكريت وهو نزه مليح فيه مقصد لاهل الخلاعة(٣٠) و (دير قنسري) على شاطيء الفرات(٣١) ٠ ودير مريحنا الى جانب تكريت على نهر دجلة «مطروق مقصود وينزل به المجتازون ولهم فيه ضيافة»(٣٢) ٠ الاحتفال ويدخلون السوق التي كانت تقام فيه أيضا ثم ينصرفون بعد ذلك(٢٥) ٠

---

(٢٥) العمري : مسالك الابصار جـ١ ص٢٨٧ ٠

(٢٦) الشابشتي : الديارات ص١٠٩ ٠

(٢٧) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص١١٧ ٠

(٢٨) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص١٤٧ ٠

(٢٩) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٦٦٣ ، وهو قرب جزيرة ابن عمر تحت قلعة اردمشت في لحف جبل والقلعة مطلة عليه ولأهله ثروة ٠

(٣٠) ياقوت : نفس المرجع السابق ص٦٧٣ ، وفيه يقول بعضهم :

حن الفؤاد الى ديـر تكريت ... الى صباعي وقس الدير عفريت

(٣١) وقرأ ياقوت في هيكله :

أيا دير قنسرين كفى بك نزهة ... لمن كان بالدنيا يلذ ويطرب

فلا زلت معمورا ولازلت آهلا ... ولا زلت مخضرا تـزار وتعجب

(٣٢) ياقوت نفس المرجع ص٦٨٨ ٠

(٣٣) ياقوت : نفس المرجع السابق ص٧٠١ ٠

ومن امكنة المسلمين التي كان يجتمع اليها الناس في مواسم الاعياد والربيع (تل التوبة) مقابل مدينة الموصل الذي وصفه ابن جبير في رحلته ٥٨١هـ/١١٨٥م فقال ان في هذا التل بناء عظيما هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة يضم الجميع باب واحد وفي وسط ذلك البناء بيت ينسدل عليه ستر ينغلق دونه باب كريم مرصع كله(٣٣)، فيخرج الناس الى هذا الرباط كل ليلة جمعة ويتعبدون فيه(٣٤) وقال عنه ياقوت «انه تل فيه مشهد يزار ويتفرج فيه أهل الموصل كل ليلة جمعة» وهناك الآن مشهد محكم البناء اقامه أحد المماليك من سلاطين آل سلجوق وكان من أمراء الموصل، قال: «وتنذر له النذور الكثيرة وفي زواياه الاربع أربع شمعات تزن كل واحدة بخمسماية رطل مكتوب عليها اسم الذي عملها واهداها الى الموضع»(٣٥) . كما ذكر الفارقي حصن الهتاخ قرب ميافارقين وهو مطل على مروج وأراض مزهرة في أيام الربيع يذهب الناس اليه فيقيمون فيه ويتفرجون ويتصيدون ويلازمون الاكل والشرب والصيد أياما ويحضر المغنون(٣٦) .

---

(٣٤) رحلة ابن جبير ص٢١١، ذكر: انه كان الموضع الذي وقف فيه النبي يونس، كما قيل .

(٣٥) رحلة ابن جبير ص٢١٢ .

(٣٦) الفارقي : التاريخ ص٨٨ .

الفصـــل الســـادس

الطبقـــات الاجتماعيـــة

١ ـ معنى الخاصة والعامة ٠

٢ ـ أشهر الاسر في بــلاد الجزيرة الفراتية خلال القــرن السادس الهجري ٠

٣ ـ الطبقات الاجتماعية ٠

أ ـ طبقة الخاصة ٠

ب ـ طبقة العامة وفئاتها :

١ ـ فئة الخدم (الجواري والرقيق والخصيان) ٠

٢ ـ فئة الجند ٠

٣ ـ فئة العمال ٠

٤ ـ فئة التجار ٠

٥ ـ فئة اللصوص والسراق وقطاع الطرق ٠

الفصل السادس

الطبقات الاجتماعية

نشأ مجتمع الجزيرة الفراتية من تجمع وحدات من العشائر التي كانت تستمد جذورها من القبائل العربية التي اتجهت صوب هذه المنطقة قبل الفتوح الاسلامية وقد ضمت كل عشيرة عددا من الاسر التي ارتبطت فيما بينها بروابط الدم والجيرة والقرابة ٠ وأقامت هذه العشائر في القرى والمستوطنات التي صارت فيما بعد مدنا كبيرة مثل الموصل وأربل وآمد والرها وميافارقين وأصبحت كبوتقة حلت فيها مختلف العناصر والقوميات ، بالاضافة الى كثرة الرقيق الذي أدى الى اختلاط الدماء والثقافات وقد تغلب العرب بالتفوق على العناصر الاخرى ، وخاصة بعد التطورات التي مرت بها المجتمعات في عهد الدولة العباسية واستيلاء الاتراك على السلطة ثم تسلط البويهيين والسلاجقة على الحكم ٠

ونتيجة لذلك فقد ضعف التمييز الاجتماعي القائم على العنصر أو القومية وظهرت مصطلحات جديدة للتعبير عن التنظيم الطبقي الجديد مثل الخواص والاعيان والكبراء من جهة والعامة والعوام والسوقة من الجهة الاخرى ٠

ولابد لنا قبل دراسة الطبقات الاجتماعية في هذه الفترة التأريخية أن نستعرض المفاهيم التي تدل على التمايز الطبقي وتضع الاساس للطبقات الجديدة ، فالخاصة تعرف بأنها خلاف العامة(١) والخاصة هم أصحاب الخليفة أو الامير ومن رجالات الدولة البارزين كالوزراء والكتاب والقادة والاشراف(٢) والقضاة والشهود(٣) ، كما يضاف اليهم بعض المقربين من أهل الفن الموهوبين والعلماء والادباء والفقهاء(٤) •

ويختلف هؤلاء الخاصة من حيث النفوذ والسطوة باختلاف الامراء والملوك ، واختلاف الظروف المحيطة بهم(٥) ، أما الاعيان فهم كبراء القوم وعلية القوم هم الافاضل(٦) • وهذه العلية هم جزء من الخاصة وقد ذكر المؤرخ ابن الساعي عشرات من أعيان الفقهاء والصوفية(٧) ممن ينتمون الى مدن الجزيرة الفراتية ، كما أشار الى وجوه الناس من الولاة والفقهاء والصوفية(٨) • وجاء عند القاضي ابن خلكان في كتابه (وفيات الاعيان) سير الكثير من الاشخاص ذوي الحرف المختلفة والدرجات الاجتماعية المتباينة بينهم السلاطين والملوك والامراء والوزراء والعلماء والكتاب والشعراء والصوفية

---

(١) اسماعيل بن حماد الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، جـ٥ ص١٩٩٣، ابن منظور : لسان العرب جـ١٢ ص٤٢٦ •

(٢) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم جـ٧ ص٤٠ ، ٢٧٦ ، جـ٨ ص ١٩٠ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ١٠ ص٥٨ •

(٣) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص٤١ ، الصابي : رسوم دار الخلافة ص٢١ •

(٤) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ٥ ص٨٤ •

(٥) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي جـ٥ ص٢٧ •

(٦) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس جـ٩ ص٢٨٩ •

(٧) ابن الساعي : الجامع المختصر جـ٩ ص١١٩ •

(٨) ابن الساعي : نفس المرجع السابق ص٢٥٩ •

وغيرهم وكلهم طبقا لعنوان الكتاب من الاعيان(٩) ، وقد عاش قسم منهم في مدن الموصل وآمد ونصيبين وسنجار والرقة وميافارقين .

أما كتاب التاريخ المذيل به على تأريخ ابن السمعاني من أهل القرن السادس الهجري الذي وضعه المؤرخ ابن الدبيثي (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) فقد ذكر مئات الاشخاص بينهم الفقهاء والصوفية والمقرئون والمدرسون والموسرون من ذوي الاموال وكل هؤلاء من الاعيان(١٠) . وضم كتاب تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب الذي وضعه عبدالرزاق بن الفوطي البغدادي أشخاصا يعتبرهم المؤلف بأنهم من أعيان العصر وقادته وبينهم كثير ممن أستوطن الموصل وأربل ومدن الجزيرة الاخرى(١١) .

أما العامة فهم السواد الاعظم من الناس(١٢) ، ويختلفون عن الخاصة بكثرة عددهم وبكونهم ليسوا من أصحاب السلطة . ومن معاني العامة السوقة التي يقول عنها الجوهري (ت٣٩٢هـ/١٠٠١م «خلاف الملك . والسوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان ، الذكر والانثى في ذلك سواء ، والجمع السوق وقيل أوساطهم(١٣) «أي أنهم الرعية التي يسوقها الملوك أو التي يسوقونها فتنساق لهم»(١٤) ويميز المؤرخ سبط ابن الجوزي بين العوام والخواص بقوله : في سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م.ويسمى ابن العبري العوام التي وردت عند سبط ابن الجوزي (بالعامة) أو (عامة الموصل) فيقول

---

(٩) ابن خلكان : وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان .

(١٠) ابن الدبيثي : التاريخ المذيل به على تاريخ ابن السمعاني جـ١ الورقة ٢٢٦ ـ١٢٨ـ١٤٦ـ٢٣٥ـ ، جـ٢ الورقة ٦٧ـ١٣٤ـ١٩١ـ١٦٥ .

(١١) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب جـ٤ (تحقيق الدكتور مصطفى جواد) .

(١٢) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري فيما نسب الى الامام أبي الحسن الاشعري (نشر المقدسي دمشق ١٣٤٧هـ) ص٣٣١ .

(١٢) الجوهري : تاج اللغة وصحاح العربية ، جـ٤ ص١٤٩٩ .

(١٤) ابن منظور : لسان العرب جـ١٠ ص١٧٠ .

في هذه السنة المذكورة حاصر صلاح الدين الايوبي الموصل فبذل (العامة) نفوسهم غيظا وحنقا عليه ، وقال أيضا وكان (عامة الموصل) يعبرون دجلة ليقاتلوه(١٥) • وفي مدينة ميافارقين حصلت اضطرابات سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م فجمع الحسن أبو نصر الشاعر الفارقي تلامذته وجمهرة من السوقة والرعاع والشباب والجهال ليحفظ المدينة(١٦) •

وذكر الفارقي ، ان أبا الريحان من أهل مدينة آمد ، كانت له عصبة وجوقة واتباع ، وقد اتفق مع أبي الحسن أحمد بن وصيف البزاز من مقدمي سوق البز ، وكان له مثل هؤلاء على ما يبدو ، وشرعوا في حفظ البلد والناس والنظر في أحوالهم(١٧) • ويصف ابن جبير ، أهل مدينة دنيصر سنة ٥٨٣هـ/١١٨٥م فيقول ، فيهم السوقة والملوك والغني والصعلوك ، وأوضح بأن الصعاليك ، انما هم الفقراء من الناس(١٨) •

وجاء ان الاعيان ، قد يعارضون حكم الامراء الاتابكيين والاراتقة والايوبيين فأشار ابن العبري ، الى قتل الملك الاوحد نجم الدين أيوب سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م كثيرا من أعيان مدينة خلاط لتمردهم عليه(١٩) •

وذكر صاحب الكتاب الموسوم بـ«انسان العيون في مشاهير سادس القرون» ، طوائف من الناس في مدينة أربل في هذه الفترة ، أطلق عليهم «بياض الناس»(٢٠) والمقصود هنا خلاف ما يقال «سواد الناس» أي عامتهم على أقرب الاحتمال •

---

(١٥) ابن الغبري : تاريخ مختصر الدول ص٢١٩ •
(١٦) الفارقي : التاريخ ص٢٣٢ •
(١٧) الفارقي : نفس المرجع ص١٠٠ •
(١٨) رحلة ابن جبير ص٢١٦ •
(١٩) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢٨٨ •
(٢٠) مجهول : انسان العيون في مشاهير سادس القرون ص٣٠٠ •

وهناك عائـــلات كبيرة ظهرت شهرتها في القـــرن السادس الهجري ، على انهـــا من الاعيان والكبراء ، وقـــد استوطنت مدن الجزيرة الفراتيـــة ، وظهر من بينها الفقهاء والعلمـــاء والشعراء والكتاب والســـياسيون والتجـــار والوعاظ والمحدثـــون والقضاة والعدول • وأشهر هذه الاسر(٢١) :

١ ـ أبناء الاثير :

وقد نزحـــوا من مدينة جزيرة ابن عمـــر واستوطنوا الموصل وكان أبوهم الاثير عالمـــا وكاتبا ، وتقلد عدة منـــاصب في دواوين الانشاء واشتهر من أولاده أربعة أشار اليهم ياقوت بقوله «كل منهم امام»(٢٢) وهم مجدالدين أبو السعادات (٥٤٤ـ٦٠٦هـ) وهو فقيه ومحدث وقد صنف عدة كتب في التفسير والحديث والنحو والحساب، كما كان مستشـــارا سياسيا ، اعتمد عليه الاتابكيـــون في تقرير الامور •

والآخر هو المؤرخ عزالدين بن الاثير (٥٥٥ـ٦٣٠هـ) وهو من أعلام التأريخ وصاحب الكتاب المعروف باسم «الكامل في التاريخ» ولهذا الكتاب منزلة عظيمة لدى المؤرخين ، فقد كان ولا يزال تراثا أسلاميا خالـــدا في التاريخ امتاز بدقته وأمانته ، وكتابـــه الاخر الذي وضـــعه لاتابكة الموصل باسم «التاريخ الباهـــر في الدولة الاتابكية بالموصل» وغيرهما من المؤلفات •

ومن أبناء الاثير ، الوزيـــر ضـــياءالدين بن الاثـــير (٥٥٨ـ ٦٣٧هـ) الكاتب المشهور وصاحب كتاب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» • ومحمد بن ضياءالدين بن الاثير (٥٨٥ـ٦٢٢هـ وقد

---

(٢١) راجع عنها : سعيد الديوه‌جي : الموصل في العهد الاتابكي ص٩٦ـ١٠٨ •
(٢٢) ياقوت : معجم البلدان ٢٠/٧٩ •

وضع عدة تصانيف وأهمها «نزهة الابصار في نعت الفواكه والاثمار»(٢٣) ٠

٢ ـ أبناء يونس بن منعة :

وأصلهم من أربل ، وكان جدهم رضي الدين يونس بن محمد ابن منعة بن مالك الاربلي (٥٠٨ـ٥٧٦هـ) شاعرا وفقيها ، وظهر من آل منعة ، جماعة من الفضلاء انتفع بهم أهل البلاد وقد قصدهم المريدون من أنحاء العالم الاسلامي وأشهرهم :

عمادالدين بن يونس (٥٣٥ـ٦٠٨هـ) شغل التدريس في عدة مدارس في الموصل ، وتولى قضاء الموصل ووضع عدة مؤلفات وقصده الفقهاء والعلماء من مختلف الاقطار(٢٤) ٠ ومنهم أيضا ، كمال الدين بن يونس (٥٥١ـ٦٣٩هـ) الذي ذكره ابن خلكان ، فقال بأنه كان متضلعا بأربعة وعشرين علما(٢٥) وقد تعاظمت شهرته في نفوس علماء وفقهاء عصره مما جعل طلاب العلم يشدون الرحال اليه للانتفاع به ، وقد تخرج على يديه جمهرة كبيرة من فقهاء وعلماء بغداد وأربل ودمشق وغيرها من البلاد الاسلامية(٢٦) ٠

وكان شرف الدين بن كمال الدين بن يونس (٥٧٥ـ٦٢٢هـ) غزير المادة متفننا بالعلوم وتخرج به خلق كثير ٠ أما تاج الدين بن رضي الدين بن عمادالدين بن يونس (٥٩٨ـ٦٧١هـ) فكان فقيها وقد عين قاضيا في بغداد(٢٧) ٠

---

(٢٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص٣٤٧ـ٣٤٨ ، ج٢ ص١٥٨ـ١٦١ ٠

(٢٤) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص١٢٣ـ١٢٤ ٠

(٢٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص٣٩٦ـ٤٠٠ ، انظر ايضا : سوادي عبد محمد : امارة الموصل ص١٨٤ـ١٩٠ ٠

(٢٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ج٢ ص٣٣٨ ٠

(٢٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص٤٧٧ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٥ ص٧٢ ٠

٣ ـ أبناء بلدجي(٢٨) :

وكان جدهم من كبار امراء الدولة السلجوقية(٢٩) ، وأشتهر منهم ، أبو محمد محمود بن مودود بن محمود البلدجي الموصلي (٥٤٣ـ٦٢٣هـ) الذي كان عالما وكانت له مدرسة في الموصل تعرف باسمه • وقد تخرج على يده اناس كثيرون • وعبدالله بن محمود البلدجي أبوالفضل مجدالدين (٥٩٩ـ٦٨٣هـ) الذي كان من كبار الفقهاء وعبدالدائم بن محمود البلدجي (٦٠٤ـ٦٨٠هـ) الذي شغل وظيفة التدريس وعبدالعزيز بن محمود البلدجي الذي تقلد القضاء في الموصل وغيرها من المدن ، كما أنه كان فقيها وعالما بارعا •

٤ ـ آل الشهرزوري :

وأصلهم من شهرزور حيث كان جدهم القاسم بن المظفر بن علي بن قاسم الشهرزوري قد أنجب أسرة علمية ظهر منها عشرات الفضلاء الذين اشتهروا بمختلف العلوم والآداب • وقد أشار اليهم ابن خلكان بقوله : «وكان من أولاده وحفدته ، علماء نجباء كرماء، نالوا المراتب العلمية وتقدموا عند الملوك وتحكموا وقضوا ونفقت أسواقهم وتقلدوا القضاء في مدن الجزيرة والشام الى الان من نسله جماعات من الاعيان والقضاة بالموصل»(٣٠) • وكان أشهرهم أحمد بن القاسم الشهرزوري (٤٥٣ـ٥٣٨هـ) الذي لقب ب «قاضي الخافقين» بسبب توليه القضاء بعدة مدن من بلاد الجزيرة • والمرتضى عبدالله بن القاسم الشهرزوري (٤٦٥ـ٥١١هـ) وتولى

---

(٢٨) نسبة الى مدينة (بلد) شمال الموصل •

(٢٩) الحسيني : اخبار الدولة السلجوقية ص٣١ •

(٣٠) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص٤٢١ •

القضاء في الموصل ، وله شعر رائق[31] . وكمال الدين محمد بن عبدالله بن القاسم بن المظفر بن علي الشهرزوري (٤٩٢-٥٧٢هـ) قاضي القضاة ، وقد ولاه نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي ، قضاء الديار الشامية والنظر في أوقافها ، وكانت له عدة وقوف منها مدرسة بالموصل ونصيبين، وقد كانت له مكانة رفيعة عند السلطان صلاح الدين الايوبي[32] . ومحمد بن محمد بن عبدالله بن القاسم بن المظفر بن علي قاضي القضاة محيي الدين الشهرزوري (٥٢٤-٥٨٦هـ) تقلد قضاء الموصل وشغل وظيفة التدريس بمدرسة أبيه كمال الدين والمدرسة النظامية ، وقد قربه الاتابك عزالدين مسعود بن عمادالدين زنكي صاحب الموصل . وكان «ذا ثروة طائلة ينعم بها على الفقهاء والادباء والشعراء»[33] وعلي بن القاسم بن المظفر بن علي الشهرزوري الذي ولي قضاء واسط ثم قضاء الموصل والبلاد الجزرية والشامية .

ولكن أشهر آل الشهرزوري ، هو القاسم بن يحيى بن عبدالله ابن القاسم أبو الفضائل الشهرزوري (٥٣٤-٥٩٩هـ) الذي كان سفيرا بين صلاح الدين الايوبي والخليفة العباسي ، وقد ولي القضاء في الشام والموصل ، وقلده الخليفة قضاء القضاة فأصبح بذلك «أقضى القضاة» في الدولة العباسية وهي وظيفة كبيرة تتصل بالقضاء وتقابل وظيفة وزير العدل في الوقت الحاضر ، وفوض اليه النظر بأوقاف الشافعية والحنفية وكان فقيها فاضلا ذا ثروة عظيمة .

٥ - أبناء مهاجر :

وهي من الاسر العلمية ، وكان جدهم يشتغل بالتجارة فنشأ أولاده علماء وتجارا ، وأشهرهم ، أبو القاسم علي بن مهاجر الذي

---

(٣١) ابن خلكان : نفس المرجع السابق ج٢ ص٢٥٣ ، ٢٥٤ .
(٣٢) ابن خلكان : نفس المرجع السابق ج١ ص٤٧٢-٤٧٣ .
(٣٣) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٤ ص٩٩-١٠٠-٢٩٨ .

أسس دار الحديث المهاجرية في الموصل(٣٤) . ومحمد بن مهاجر المتوفي (٦٠١هـ) الذي كان تاجرا وشاعرا ، وقد بنى مدرسة فوق دار الحديث المذكورة(٣٥) ومحمد بن علوان بن مهاجر بن علي بن مهاجر شرف الدين أبو المظفر الموصلي (٥٤٢-٦١٥هـ) واشتغل بالتدريس في عدة مدارس بالموصل(٣٦) .

٦ - أبناء هبل :

وأصلهم من بغداد ، ولكنهم استوطنوا الموصل وأشهرهم : الطبيب ، مهذب الدين علي بن أحمد بن علي بن هبل (٥١٥-٦١٠هـ) وكان الناس يترددون اليه للانتفاع به وله كتاب اسماه «المختار في الطب» وهو يقع في أربعة مجلدات(٣٧) .

٧ - أسرة النقيب :

وهي من الاسر العريقة في الموصل ، وقد أنجبت أعلاما في العلم والدين والادب والسياسة ومنهم الشريف ضياء الدين أبو عبدالله زيد بن محمد بن عبدالله الحسيني نقيب العلويين بالموصل توفي سنة (٥٦٣هـ)(٣٨) . والمرتضى بن محمد بن زيد المتوفي (٦٠١هـ) وقد شغل وظيفة وزير الاتابكة(٣٩) وابن شداد الموصلي (٥٣٩-٦٣٢هـ) وله عدة مؤلفات تأريخية أهمها كتاب «النوادر السلطانية

---

(٣٤) ابن الساعي : الجامع المختصر جـ٩ ص١٥٢-١٥٣ .
(٣٥) السبكي : طبقات الشافعية جـ٥ ص٣٢ .
(٣٦) الذهبي : المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي (تحقيق مصطفى جواد بغداد - ١٩٥١م) ص١٠٥ .
(٣٧) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء جـ١ ص٣٠٤-٣٠٦ .
(٣٨) ابن أبي أصيبعة : نفس المرجع جـ١ ص٣٠٦ ، ابن الصابوني : تكملة اكمال الإكمال ((تحقيق مصطفى جواد - بغداد - ١٩٥٧م) ص١٥٧-١٥٨ .
(٣٩) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص٢٥٧ .

والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين الايوبي» وغيرها من الكتب[40] • والمبارك بن الشعار الموصلي (المتوفى ٦٥٤هـ) صاحب كتاب «عقود الجمان» الذي يقع في اثني عشر مجلدا[41] • وغير هؤلاء كثيرون من المقرئين والمفسرين والمحدثين والمدرسين والنحويين والشعراء واللغويين والكتاب ينتمون الى هذه الاسرة •

الطبقات الاجتماعية :

يمكن القول على ضوء النصوص والحقائق التأريخية المتوفرة لدينا ، ان المجتمع في الجزيرة الفراتية ، خلال القرن السادس الهجري ، كان مؤلفا من الطبقات الاتية :

أولا : طبقة الامراء وخاصتهم وحاشيتهم والاعيان والكبراء :

وهي أعلى طبقة اجتماعية تستمد قوتها بسبب كونها تمثل القيادة السياسية والاجتماعية ، وكان الامير على رأسها ويرعى مصالحها وأن كثيرا منهم ، يشغل مناصب كبيرة أو صغيرة في الدولة تدر عليه الاموال •

وجاء في الوصف الذي أورده صاحب كتاب (انسان العيون في مشاهير سادس القرون) بعيد المولد النبوي الذي كان يجري في مدينة أربل في هذه الفترة ، ما يميز هذه الطبقة ويحدد معالمها فقال : «وهناك الاعيان والرؤساء وطائفة كثيرة من بياض الناس – تمييزا عن سوادهم – ينصبون لها الكراسي بعيدا عن الصعاليك – الفقراء من الناس – حيث يمد لهم سماطا عاما من الطعام خاصا بهم»[42] •

---

(٤٠) ابن الصابوني : تكملة اكمال الاكمال ص٢٠٥–٢٠٦ •

(٤١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٢ ص٣٩٥–٣٩٦ ، جـ١ ص٣٤٦–٣٤٧ •

(٤٢) مجهول : انسان العيون في مشاهير سادس القرون ، الورقة ٣٠٠ •

وكانت هذه الطبقة الممثلة بالاعيان والرؤساء وعليّة القوم ، تمتلك الوسائل التي كانت تؤهلها للحكم ومقاومة الغزاة ، فتتصدر الحركات السياسية والفتن وتقود الثورات ضد الامراء وضد مناوئيهم(٤٣) ، فيشير ابن الاثير الى محاولة الملك الاشرف استبقاء بعض عسكرة في مدينة خلاط التي احتلها سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م غير أن أهلها ، اخرجوا هذه العساكر حال مغادرة الملك الاشرف لمدينتهم، ثم احتلت مرة أخرى وأسر جماعة من أعيان البلد الذين كانوا يسيرون هذه المقاومة على ما يبدو بوجه الملك الاشرف وقد سفروا الى ميافارقين وسجنوا هناك ، كما قتل أكثرهم (فذل أهل خلاط) ثم تفرقت كلمة «الفتيان»(٤٤) ، وكان الحكم اليهم وكفى الناس شرهم فانهم كانوا قد صاروا يقيمون ملكا ويقتلون اخر والسلطنة عندهم لا حكم لها وانما الحكم لهم واليهم»(٤٥) .

أما الفقهاء والوعاظ والقراء والمحدثون والصوفية ، فكانت تضفي عليهم منزلتهم الدينية ، أهمية خاصة لتجعلهم في مصاف طبقة الاعيان والخاصة ذلك لان الدين كان أهم منظم للحياة

---

(٤٣) وفي أغلب الاحيان كانت طبقة الاعيان والخاصة ، تنجد الامير وتحميه وتدافع عنه ، اذا تعرض لخطر ما .

(٤٤) جاءت هذ اللفظة من الفتوة ، وهي النظام الذي أوجده الخليفة الناصر لدين الله العباسي ٥٧٥-٦٢٢هـ ، وكان له طقوسه الخاصة ومراسيمه التي لابد من أدائها لمن أراد الدخول في فتوته ، كما كان للفتيان واجباتهم وحقوقهم تجاه السلطة والناس ولهم ملابسهم الخاصة بهم وقد سرى تاثير هذا النظام الى مدن الجزيرة ، فظهر الفتيان الذين لم يكونوا خاضعين لنظام يقيدهم (ابن الاثير) : الكامل جـ١٢ ص١٨١ ، ابن المعمار : الفتوة (تحقيق مصطفى جواد ومحمد تقي‌الدين وعبدالحليم النجار ـ بغداد ١٩٦٠) ص١٤٠-١٤٧ وانظر مصطفى جواد ، الفتوة والفتيان قديما ـ مجلة لغة العرب ص٢٤١-٢٤٩ ، الفتوة وأطوارها وأثرها في توحيد العرب والمسلمين ـ مجلة المجمع العلمي العراقي العدد ٦٤ ، مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار ص٥١-٥٤ ، تشينز : الفتوة والخليفة الناصر ـ ضمن كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين ص١٨٩ .

(٤٥) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٢٧٤-٢٧٥ .

الاجتماعية ، هــذا فضلا عن ان كثــيرا من هؤلاء كانــوا من طبقة الاعيان والخاصة(٤٦) ٠

ثانيا : طبقة العامة (العوام والسوقة والسواد والصعاليك) :

وهم أوسع الطبقات واكثرها عددا في المجتمع ، وتسمى أحيانا (طبقة الســواد) وتضــم اليها النـــاس من مختلف المهــن والحرف والصنائع وكذلــك الفلاحين و«الزناطــرة»(٤٧) و«الاحــداث»(٤٨) و«الصعاليك»(٤٩) ولم تكن لها امتيــازات معينة سوى ما يقع عليها من الواجبات ، كدفع الضرائب والخدمة العسكرية ٠

وتتكون هذه الطبقة من فئات عديدة أهمها :

١ ــ فئة الخدم (الجواري والرقيق والخصيان) :

وكانوا رقيقا واحرارا ، نساء ورجالا ، ومصدرهم الحروب ، فهم كل من يقع أسيرا ، يذكر اسامة بن منقذ ان أباه قد غنم عدة من الجواري الافرنج(٥٠) وذلك أثنــاء الحروب الصليبية ٠ كما

---

(٤٦) مجهول : انسان العيون الورقة ٣٠٠ ٠

(٤٧) وهم طبقة معينة من سكان المدن مولعة بتحريك الفتن والقلاقل ٠
أنظر : أبو شامة :كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية (تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ــ القاهرة ــ ١٩٥٦) جـ١ قسم ١ ص٨٥ حاشية رقم (٥) : وذكر : «ان نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي كان يراسلهم ويستميلهم في تسليم دمشق» ، مما يدل على تاثيرهم في الحياة الاجتماعية والسياسية ٠

(٤٨) ويسميهم ابن الاثير : ــ احداث البلد ــ التاريخ الباهر ص١٠٧ وهم رجال الشرطة المكلفون باخماد الفتن والاضطرابات وعقاب مثيري الشغب أو هم رجال الحرس الاقليمي في العصور الوسطى (أبو شامة : الروضتين ص٨٥ حاشية رقم ٤) ٠

(٤٩) وهم فقراء الناس ومن على شاكلتهم ٠ انظر : رحلة ابن جبير ص٢١٦ ، مجهول : انسان العيون ، الورقة ٣٠١ ٠

(٥٠) اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص١٣٠ ٠

كانوا يحصلون عليهم بواسطة التجارة مع مصادر الرقيق ، أشار اليونيني الى تاجر الجواري الذي كان يجلب بضاعته الى بلاد الجزيرة الفراتية في هذه الفترة(٥١) ٠

٢ ـ فئة الجند (الاجناد) :

وكان تأثيرهم الاجتماعي واضحا على الرغم من انهم كانوا يؤلفون بمجموعهم وأصنافهم المتعددة وفرقهم ورتبهم ، جيش الامارة . اذ غالبا ما يستغلون فرصة الضعف السياسي أو موت الامير لاحداث الفوضى والاعتداءات على الناس وأعراضهم وأموالهم وحياتهم ، فيذكر ابن الاثير ان بدرالدين لؤلؤ كان يحسن الى جنده ويكرمهم ، فلما سمع جند باقي في القلاع ما وصلهم من الاحسان والزيادة رغبوا كلهم في التسليم اليه ، فسير اليهم النواب واتفقت كلمة اهلها على طاعته والانقياد اليه(٥٢) ٠ وقال أيضا، انقلاع العقر والشوش وجل صورا سلمت الى نواب الملك الاشرف ، أما باقي القلاع فان جندها أظهروا الامتناع من ذلك(٥٣) ٠

٣ ـ فئة العمال :

الاحرار منهم والرقيق ، فالاحرار كانوا ذوي المهن والصنائع والمزارع للاشتغال في دكاكينهم أو مزارعهم فقد جاء ان في الموصل في نهاية القرن السادس الهجري تسعمائة وثمانون خانا للحياكة وخمس وسبعون ألف(جومة) للحياكة ومائة وعشرون بزارة (معصرة للزبوت) ومائة وعشرون قيصرية وستة وثلاثون سوقا وثمان واربعون وخمسمائة وخمس عشرة حانوتا وثمان وستون رحى

---

(٥١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص٤١٩ ٠
(٥٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٢ ص٣٤٦ ٠
(٥٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٣٤٥ ٠

على الماء ومائتان وخمسون دولاب على دجلة ومائتا حمام واربعة آلاف وعشرون مدارا للطحن (وهي طاحونة تدور بواسطة الدولاب)(٥٤) وهذه المرافق وغيرها وكلها تحتاج بطبيعة الحال الى أيد عامله لابد من توفرها وهي متوفرة فعلا ، واغلب الظن ، ان العمال الذين كانوا يشتغلون فيها احرارا ورقيقا ، يدل عليه توسع تجارة الرقيق وانتشارها ٠

٤ ـ فئة التجار على مختلف أصنافهم :

فمنهم (الخزانون والركاظون والمجهزون)(٥٥) وكانت لهم أسواق خاصة انفرد كل نوع منها بصنف معين من التجارة ومنهم أيضا الباعة مثل : البزازين والعطارين وغيرهم ، وينقسمون الى باعة ثابتين وباعة متجولين ومنهم الدلالون(٥٦) والسماسرة ، الذين كانوا على ما يبدو يشكلون فئة مؤثرة في المجتمع ومن السماسرة في مدينة ميافارقين أبي بكر محمد بن جري ، الذي قال عنه الفارقي ، بأنه كان ذا مال ويسار(٥٧) ، كما ذكره ابن شداد فقال «أنه رجل من أكابر التجار ومتقدميهم ، وكان سمسارا»(٥٨) ٠

---

(٥٤) الخطيب العمري : منهل الاولياء جـ١ ص٦٠ ، ياسين بن خيرالله العمري : منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء ص٦٦ ٠

(٥٥) الخزانون : الذين يشترون البضاعة ويخزنونها ، والركاظون : الذين يسافرون مع البضاعة ويحافظون عليها حتى وصولها ، أما المجهزون : فهم الذين يقبضون البضائع التي تصدر اليهم فيتولون بيعها ٠ انظر : (الدمشقي : الاشارة الى محاسن التجارة ص٤٠ـ٥٢) ٠

(٥٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ٢ ص٤١٩ ٠

(٥٧) الفارقي : التاريخ ص١٥٦ ٠

(٥٨) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ـ مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ٨٨ب ٠

٥ ـ فئة اللصوص والسراق وقطاع الطرق :

ومن احترف مثل ذلك حيث يوجد منهم الكثير في المدن الكبيرة وغيرها ، وقد وصفت مدينة برقعيد الواقعة الى جنوب مدينة نصيبين بأن أهلها يضرب بهم المثل في اللصوصية وقطع الطرق(٥٩) ٠

وهناك فئتان أخريتان ، ترد الاشارة اليهما ، وهم الهاشميون وأمراء المماليك ، ولكن لم تقدم المراجع معلومات مفصلة عنهما ، فقد ورد عن الهاشميين انهم كانوا أعلى طبقة اجتماعية في العراق في القرن السادس الهجري ، بسبب قرابتهم من الخليفة العباسي رئيس الدولة الاعلى ونسبهم الرفيع الذي يربطهم بالنبي كما جاء عنهم أيضا ، انهم كانوا ينتظمون في نقابتين ، نقابة العباسيين ونقابة الطالبيين(٦٠) ٠ أما في بلاد الجزيرة الفراتية ، فقد تقلد بعضهم مناصب مهمة في الامارة ، فأشار اليونيني الى محيي الدين أبو المحاسن يوسف بن سلامة المعروف بابن زبلاق الذي عينه بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل كاتبا للانشاء في ديوان الموصل وكان سيدا كبيرا وعالما واسع الاطلاع(٦١) ٠ أما أمراء المماليك فهم الرقيق المعتقون ، وكانوا طبقة حاكمة في بغداد(٦٢) وقد شغلوا في الامارات الاتابكية والارتقية مناصب ادارية ، مثل حكام الاقاليم وأمراء الحج ومحافظين للقلاع(٦٣) ٠

ونتيجة لوجود الطبقات ، وخاصة طبقة الامراء والاعيان ، فقد تركزت الامتيازات والثروات بيد الامير وخاصته من الاعيان

---

(٥٩) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٥٧١ ٠
(٦٠) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانين ص٢٥٠ـ٢٥٨ ٠
(٦١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص٥١٤ ٠
(٦٢) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول ص٢٥٢ ٠
(٦٣) ابن الساعي : الجامع المختصر ج٩ ص٤٢ ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص٢٥ ٠

والرؤساء وكبار العسكريين والموظفين • وقد وردتنا أخبار عن ثروات كبيرة كانت بأيدي اناس آخرين من غير الحكام والموظفين ، ففي مدينة ميافارقين ، أبوبكر محمد بن جري الذي عمل بالتجارة والسمسرة فربح مالا كثيرا(٦٤) وابن البهات الذي كان يكسب في التجارة في اليوم الواحد ما يقدر بخمسمائة دينار على ما ذكره الفارقي(٦٥) وفي مدينة آمد الحسن بن علي الآمدي المعروف بابن البغل ـ وكان من أكابر أهل آمد وجلتهم ، وكان له من الاملاك ، والاموال والعقار ظاهر البلد وباطنه ما ليس لغيره(٦٦) • أما في مدينة الموصل خلال القرن السادس الهجري فذكر ياقوت ، التاجر أبا المعالي عبدالسلام بن محمد ابن أحمد الذي كان تاجرا ذا ثروة ظاهرة وجاه عريض في كل بلد يقدم عليه(٦٧) • ومن مدينة تكريت يذكر اليونيني محمد بن علي بن أبي طالب بن سويد التكريتي التاجر المشهور بسعة المال والجاه وكانت متاجره لا يتعرض لها متعرض ، وكانت عنده فضة كثيرة(٦٨) •

كما جاء عن الامراء الاتابكة بأنهم كانوا يمتلكون الثروات والعقارات الكثيرة ولاقطاعات الواسعة ، وتحدثت المراجع عن هذه

---

(٦٤) الفارقي : التاريخ ص١٦٥ ، أنظر أيضا ابن شداد : الاعلاق الخطيرة الورقة ٨٨ب •

(٦٥) الفارقي : نفس المرجع السابق ص١٦٦ •

(٦٦) الفارقي : نفس المرجع السابق ص١٤٦ـ١٤٧ •

(٦٧) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٩٠٥ـ٩٠٦ ، وقال : «وكان من عادته انه يستصحب جميع أمواله أينما توجه» •

(٦٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص٤٨٧ . وجاء «وقد جعلت بيده دار الضرب ، حيث ضرب الفضة الى دراهم . كما كان يعمل من الادوية على حسابه مثل التراييق والمعاجين والاكحال وينفق عليها أموالا طائلة ويفشرقها للثواب» •

الاموال وادارتهـا والاشراف عليهـا • وكان لاتابكة الموصـل من الاموال والثروة ما جعل ابن الاثير يكثر من الكلام عنها ، وكذلك فعل الفارقي وابن شداد فيما يتعلق بالامراء المحليين في ميافارقين وآمد ومـاردين وبأمراء المدن مثل حران والرقة وسـنجار وأربل وقلعة جعبر وامتلاكهم للثروات • ويقول ابن الطقطقي ان بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل اهدى الى الخليفة المستعصم بالله كتبا وثيابا ولطائف قيمتها عشرة آلاف دينار(٦٩) •

---

(٦٩) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص٣٣٨ •

البـــاب الثـــاني

الأحوال الاقتصادية والادارية

الفصـــل الاول

نظــام الري والزراعــة

١ ـ نظــام الري :

١ ـ الأنهار :

أ : نهر الفرات ٠

ب ـ روافد نهر الفرات ٠

جـ ـ نهر دجلة وروافده ٠

٢ ـ الامطار :

٣ ـ القنوات والعيون والسدود والدواليب والآبار ٠

٤ ـ الفيضـــان ٠

٢ ـ الزراعـــة :

أ ـ المناطق الزراعية ٠

ب ـ مناطق زراعية متفرقة ٠

جـ ـ الفلاحون وأسباب هجرتهم ٠

د ـ انتشار الآفات الزراعية ٠

الفصـــل الأول

نظـــام الري والزراعـــة

ا ـ نظام الري :

ان السهل الرسوبي ، الذي يغطي معظم أرض الجزيرة الفراتية، كان على شـــكل حوض ضحل ، يمتـــاز بانحدار تدريجي عـــام نحو الجنوب ، كما ان له انحدارات جانبية من الشرق والغرب(١)، ويعتبر وادي الثرثار ، المصرف الرئيسي لمياه أرض الجزيرة ، خلال القرن السادس الهجري(٢) ٠

ومن المعتقد ، ان منطقة الجزيرة ، كانت ذات تصريف منتظم نحو الجنوب ، وربما كانت تتصل بالفرات ثم انفصلت عنه ، بسبب حركات بـــاطن الارض ، مما أدى الى كسر ورفـــع قشرة الارض في جنوب المنطقة(٣) ٠

وتمتاز منطقة الجزيرة أيضا ، بالتصريف الداخلي (المغلق) وبوجود مستنقعات ، جف بعضها فكون أحواضا ، أصبحت بمرور

---

(١) جاسم محمد الخلف : جغرافية العراق ص٥٣ ٠
(٢) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٢٨١ـ٢٨٢ ٠
(٣) جاسم محمد الخلف : جغرافية العراق ص٥٤ ٠

الزمن ذات سطح منبسط مملوء بالترسبات التي جلبتها باستمرار المياه الجارية ٠

ومن الملاحظ في الجهة الغربية من الجزيرة ، كثرة الكثبان الرملية ، وأحيانا ، تسبب الرياح الشديدة ، تغييرا ملحوظا في مجاري الوديان والانهار ، وذلك بنقلها هذه الكثبان من محلاتها ، فتؤثر بذلك في نظام التصريف العام(٤) ٠

١ ـ الأنهار :

أ ـ نهر الفرات :

يشق العراق وبلاد الجزيرة الفراتية ، كما هو عليه الآن ، نهران عظيمان ، هما دجلة والفرات ، ولولاهما لكانت منطقة السهل الرسوبي التي تشكل أهم منطقة من أرض الجزيرة ، قطعة من الهضبة الصحراوية الغربية ٠ ويجرى نهر الفرات في أرض الجزيرة الفراتية ، وذلك بعد خروجه من هضبة آسيا الصغرى (بلاد الروم) والجبال التركية ٠

ويقدم لنا ابن رسته صورة جيدة عن منابع نهر الفرات وروافده وتفرعاته في آرض الجزيرة الفراتية تزداد وضوحا اذا إضفنا اليها ما ذكره كل من قدامة ابن جعفر وابن حوقل وجميعهم من أهل القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وهذه الصورة لم تتغير خلال القرن السادس الهجري ، حيث حافظ النهر على منابعه واتجاهاته ، فقال ابن رسته «ان الفرات يخرج من بلاد الروم ، فوق موضع يقال له «ابريق» فيقبل مع الشمال حتى يمر بالجزيرة ، فيصير انهارا عظاما» وهي روافده وتفرعاته ، ثم يمضي قائلا :

---

(٤) جاسم محمد الخلف : نفس المرجع السابق ص٥٥ ٠

«ويصب نهر الفرات بعد دخوله أرض الجزيرة في البطائح»(٥)، وهي مجموعة الاهوار التي تقع في أماكن متفرقة من العراق والجزيرة ٠ أما قدامة بن جعفر ، فيبدو أكثر دقة في تعيين منبع النهر وتتبع مجراه ، فيذكر عند كلامه عن الاقليم السادس الذي هو اقليم الجزيرة الفراتية ، ان فيه من الانهار ستة وعشرين نهرا ، منها الفرات وأوله من عين في بلد الروم تخرج من منطقة تسمى (جل بروجس) وبعد جريانه يمر غربا في بلاد الروم من حافة جبل يقال له (مسفينا) وينعطف نحو أربعمائة وخمسين ميلا ، ثم يتجه جنوبا وينزل الى بلاد الاسلام فيما بين مدينة ملطية وشمشاط في أقصى الشمال الشرقي لبلاد الجزيرة الفراتية ، وعندئذ يمر بمدينة (هنزيط) ويتجه غربا فيقترب من شمشاط وقلعتها الشهيرة وهو لا يزال يمضي باتجاه الغرب حتى مدينة جسرمنبج، وبعد ذلك ينعطف جنوبا فيمر بمدينة بالس والرقة وقرقيسياء والرحبة ، ثم يحيط بمدينة عانة وبعد ذلك يغادرها الى هيت فالانبار(٦) ٠

وبينما يشير الهمداني (ت٣٣٤هـ/٩٤٥م) الى ان الفرات عندما يأتي من بلد الروم ينعطف الى العراق (ويقصد الجزيرة والعراق) في طرف الشام يذكر الاصطخري (ت٣٤١هـ/٩٥٢م) ان مخرج الفرات من داخل بلد الروم الى ملطية ثم الى شمشاط ومدينة

---

(٥) ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص٩٣ـ٩٤ (مجموعة البطائح الاولى تمتد بين واسط والبصرة ، كان فيها الكثير من المواقع العالية التي ينكشف عنها الماء وتقوم عليها قرى ومزارع يكثر حواليها القصب ويزرع فيها الرز وغيره) انظر بالاضافة الى ذلك (ابوالفداء) : تقويم البلدان ص٤٣ ٠ أما المجموعة الثانية فهي في موضع يسمى (كسكر) وهي في أرض الجزيرة بالقرب من نهر الخابور ويقول عنها ابن رستة ان هذه البطائح ثلاثون فرسخا ويحددها على الشكل الآتي : «حد منها جزيرة العرب وحد منها أرض ميسان وحد منها دجلة بغداد وحد منها مصب الفرات والنهروان» الاعلاق النفيسة ص٩٤ ٠

(٦) قدامة بن جعفر : نبذة من كتاب الخراج ص٢٣٣ ٠

جسر منبج وبالس والرقة وقرقيسياء والرحبة وهيت ثم الانبار(٧) •
ونقل ابن حوقل (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م) عبارات من سبقه في هذا الموضوع فكتب يقول : ان مخرج الفرات من داخل بلد الروم ، الى ملطيه وشمشاط التي كانت بحوزة المسلمين ، ثم يمر على سميساط ونواحي جسر منبج وبالس والرقة وقرقيسياء والرحبة وهيت ثم الانبار»(٨) •

ويعد الشريف محمد الادريسي نهر الفرات بانه من الانهار الستة الكبار التي هي النيل والدجلة والفرات (ومهران والسند وجنجز الهند) و (بغمون الصين) و (جيحون خراسان) • ثم يعقب فيقول ، ان الفرات يخرج من داخل بلاد الروم ومن (حومة نزاله)(٩) من الجبال المتصلة (بقالى قلا) ثم يمر في بلاد الروم ويمتد الى (كمخ) ويسير منها الى ملطية وشمشاط(١٠) • وهذه الاشارات وان كانت ترجع الى القرن الرابع الهجري ، ولكنها ظلت سائدة في القرنين التاليين مع حدوث تغييرات طفيفة ، فيذكر ياقوت في القرن السادس الهجري ، وقد اطلع على هذه الكتابات فأوضح «ان مخرج الفرات فيما زعموا من ارمينية ثم من قاليقلا قرب خلاط ويدور بتلك الجبال حتى يدخل أرض الروم ويجيء الى (كمخ) ويخرج الى ملطية ثم الى سميساط وتصب فيه انهار صغيرة مثل (سنجة) و (كيسوم) و(ديصان)و(البليخ) حتى ينتهي الى قلعة نجم مقابل مدينة (منبج)، ثم يسير بمحاذاة بالس ومنهـا الى دوسر والرقة ورحبة مالك بن طوق ، ثم الى عانة وهيت ، فيصير انهارا تسقى زروع السواد • واكبر هذه الانهار نهر (سورا) و (الملك) ويطلق على الاخير اسم

---

(٧) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧١ـ٧٢ •
(٨) ابن حوقل : صورة الارض ص١٨٩ •
(٩) مساقط المياه ـ الشلالات ـ •
(١٠) الشريف الادريسي : كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ـ قسم الجزيرة والعراق ـ (تحقيق ابراهيم شوكة ـ مجلة الاستاذ ـ المجلد ٥٣) ص٢٩

(صرصر) ونهـــر (عيسى) بن علي و (كوثـــا) و (ســـوق أسد) و(السراة)و(الذوفة)»(١١)،ومما يؤكد وجود معظم روافد وتفرعات نهر الفرات في أرض الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، استمرارها حتى القـــرن الثامن الهجري حيث اشار اليهـا صاحب مراصد الاطـلاع الذي عاش في هذه الفترة فذكر ان نهـر الفرات يخرج الى ملطيـة ثم الى سميسباط ، فتصب فيه انهار صــغيرة مثل (سنجة) و (كيسوم) و (مرزفـان)(١٢) و (البليخ) ثم يتجاوز بالس الى دوسر والرقة ثـم الى عانة وهيت فيصير انهارا تســقى زروع السواد منها نهر (سورا) وهو أكبرها ، ويعتبر الآن عمود الفرات ، ونهر (الملك) وعيسى) و (كوثي)(١٣) .

ومع ان هذا المرجع قد اعتمد على ياقوت في هذا المجال ، ولكن ما أورده يعزز ما ذهب اليه صاحب معجم البلدان من ان نهر الفرات قد لعب دورا كبـيرا في ري وســقي هذه المنطقة وازدهــار الزراعة فيها ، بجلبه الخصب الى أرضها ، وهو استمرار لما كان عليه خلال القرن الرابع الهجري فقد اشار الاصطخري والهمداني وابن حوقل والمقدسي الى أهمية النهر في ميدان الري ، مما يؤكده ياقوت وابن سعيد المغربي وأبــو الفداء خلال القرن السادس الهجــري ، حيث يكثرون من القــول بأن المياه واســعة أكثرها من دجلــة والفرات والخابور ممــا جعلها تعدل في الخصب ، كما كان ســكان الجزيرة واهلها رفة بخصبه ، وانها ذات اثمار وزروع ومباخس كثيرة .

ومن الرحالــة الذين زاروا المنطقة واطلعوا عليهــا اطلاعا كافيا ، ابن سرابيون ، فعلى الرغم من انـــه وضع كتابه في حوالي القرن الرابع الهجري ، ولكن المعلومات التي جاء بها تفيدنا حيث

(١١) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص٨٦٠ .
(١٢) مقابل مدينة (ديصان) في الجزيرة الفراتية ، عند ياقوت .
(١٣) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج٢ ص٣٣٨-٣٣٩ .

تلقى بعض الضوء على الفترة التي اعقبت وخاصة فترة القرن السادس الهجري ، فينطرق الى مسيرة نهر الفرات بعد ان يمر بمدينه سميساط ومنها الى جسر منبج وبالس ومدينه الرقة والمبارك وفم نهر (سعيد) وقرقيسياء والرحبة والداليه ثم يسير بين الروابي ، فيحادي (جبل القسوس) ثم الى مدينة عانه (والوسه والنووسه) وهي قرى صغيرة ومنها الى هيت ويذكر من الانهار التي تغذى نهر الفرات أي روافده ، نهر (ارسناس) ويطلق عليه احيانا نهر (شمشاط) وهو ينبع من احدى السلاسل الجبلية ويمر بمدينة (هنزيط) ونهر (لوقية) و (ابريق) وهذان النهران يصبان فيه فوق مصب نهر (ارستاس) المذكور في أسفل مدينة كمخ في الجانب الغربي(١٤) وبذلك يكون ابن سرابيون قد ذكر انهارا لم يتطرق اليها البلدانيون الآخرون ، ظلت موجودة فعلا خلال القرن السادس الهجري(١٥) ، ويمضي هذا الرحالة ليكتشف بنفسه تلك الانهار التي كانت تصب في الفرات ومنها نهر يقال له (انجا) وينبع من جبل (ابريق) ونهر (جرجانية) ٠ وقد قدر نهر (انجا) بحوالي عشرة فراسخ في الجانب الغربي ، ويصب في هذا النهر رافد آخر يقال له (قباقب) وهو نهر كبير ، تصب فيه انهار كثيرة يبدأ أولها من جوف بلاد الروم من نهر (جيبجان) ، فيمر في أقصاه بين جبال وحصون وصحارى ومروج ، فيصب في الفرات من الناحية السفلى من مصب نهر جرجانية بحوالي الثلاثة فراسخ ومن الجدير بالذكر ان على نهر قباقب قنطرة عظيمة تعرف (بقنطرة قباقب) في الجانب الغربي(١٦) من المحتمل جدا انها اقيمت لغرض الري كتنظيم مجرى المياه وتوزيعها ٠

---

(١٤) ابن سرابيون : كتاب وصف ما بين النهرين وبغداد (مخطوطة محفوظة في المتحف البريطاني ، نشرها كي لسترنج في مجلس الجمعية الآسيوية الملكية في انكلترة ـ عدد اكتوبر سنة ١٨٩٥) الورقة ٢ ، ٣ ٠

(١٥) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص٨٦٠ ٠

(١٦) ابن سرابيون : نفس المرجع السابق الورقة ٤ ٠

وبالاضافة الى ذلك فمن الانهار التي ذكرها ياقوت مما يصب في الفرات هو نهر (البليخ) الذي يقع في ارض حرّان من عين يقال لها (عين الذهبانية)[17] ويروى الضياع والرساتيق والبساتين المنتشرة هناك ثم يسير الى (باجدى)[18] وحصن مسلمة وباجروان والرقة وهي من مدن الجزيرة ، ثم يصب في الفرات أسفل مدينة الرقة السوداء[19] في الجانب الغربي ويصب في الفرات نهران يجتمعان في موضع واحد يقال لاحدهما (الخابور) والاخر (الهرماس) وينبع الاول من عين (الزاهرية) في مدينة رأس العين والثاني من موضع يقال له (طور عبدين) في أرض مدينة نصيبين . ويعرف الهرماس بنهر نصيبين أيضا ، وهو يسقى ضياع رأس العين وبساتينها وعند التقائه بنهر الخابور يصبح نهرا واحدا حيث يروى البساتين والاراضي في شمال قرقيسياء ثم يصب في الفرات في الجانب الشرقي . ويتفرع من الهرماس نهر يقال له (الثرثار) يبدأ من منطقة تفرعات نهر (سكير العباس)[20] ثم يجري في مناطق سهلية خالية بالحضر[21] ويقطع جبل (بارما)[22] . ويذكر ابن رسته والاصطخري في القرنين الثالث والرابع الهجريين معلومات يؤكدها ياقوت في القرن السادس الهجري «ان نهر نصيبين ينبع من شعب

---

(١٧) موضع قرب الرقة فيه مشهد يزار وعليه وقوف وعنده عين نهر البليخ الذي يجري في بساتين الرافقة . ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٧٢٥ .

(١٨) قرية كبيرة بين رأس العين والرقة فيها سور وبساتين تسقيها عين تنبع من وسطها يشرب منها الناس وما فضل يسقى زروعها . ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٤٥٣ .

(١٩) قرية من قرى الفرات ، تمييزا لها عن الرقة البيضاء ، وهي من مدن الفرات الكبيرة .

(٢٠) وهو اسم للسدود التي تسد بها فوهات الانهر ، وهي بليدة صغيرة بالخابور فيها منبر وسوق . ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص١٠٩ .

(٢١) اسم مدينة بازاء تكريت في البرية بينها وبين الموصل والفرات . ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٢٨١–٢٨٢ .

(٢٢) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧٣ .

جبل يعرف (ببالوسا) حتى ينبسط في بساتينها ومزارعها • ويجعلها انزه مكان ، وكلما يبتعد عن المدينه فانه يروى مباخس كثيرة» وقد ساعد ذلك على انتشار اديرة وصوامع النصارى في تلك المنطقة وان نهر الثرثار هو نهــر جار مادته من الهرماس ويــروى البساتين والضياع والمباخس الكثيرة ، ويصفه ياقوت بانه «كان نهرا عظيما، عليه قرى وجنان ومادته من الهرمــاس (نهر نصيبين) وتصب فيه أودية كثيرة ، ويقال ان السفن كانت تجرى فيه»(٢٣) •

كما يذكر بصورة أكثر وضوحا في موضع اخر من كتابه «بانه واد عظيم اذا كثرت الامطار ، فأما في الصيف ، فليس فيه الا مناقع ومياه حاميــه وعيون قليلة ملحة ، وتنصب اليه فضــلات من مياه الهرماس ، ويقال ان السفن كانت تجرى فيه ، وكانت عليه قرى كثيرة وعمارة ، فاما الان فهو كما وصفت»(٢٤) •

اما صاحب تقويم البلدان فلا يذكر سوى انه «يتشعب من الهرماس الذي يصب الى الفرات ويمر بالحضر في برية سنجار ويصب في دجلة اسفل من تكريت وقيل فوق تكريت بفرسخين»(٢٥) • ويؤكد صاحب مراصد الاطلاع ما كتبه ياقوت من آن «الثرثار واد عظيم بالجزيرة ، يمد اذا كثرت الامطار ، فأما في الصيف ، فليس فيه الا مناقع ومياه حامية وعيون قليلة ، وكانت عليه قرى كثيرة وعمارة خربت»(٢٦) •

والواقع ، ان وادي الثرثار في الوقت الحاضر ، هو واد طويل تنتهي اليه وديان كثيرة تنحدر من جبال سنجار وماجاورها ، ويبلغ طوله (٣٠٠)كم تقريبا وعرضــه (٤٥)كم وارتفاعه يتراوح بين

---

(٢٣) ياقوت : معجم البلدان ٢/٢٨١-٢٨٢ •
(٢٤) ياقوت : نفس المرجع السابق ١/٩٢١ •
(٢٥) أبوالفداء : تقويم البلدان ص٥٥ •
(٢٦) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ١/٢٢٦ •

(٢٢٥)م في الشمال الى حوالي مستوى سطح البحر ، بالقرب من بحيرة الثرثار التي ينخفض قاعها ثلاثة أمتار تقريبا ، تحت مستوى سطح البحر(٢٧) ٠

ب ـ روافد نهر الفرات :

كان لنهر الفرات روافد مهمة عديدة في بلاد الجزيرة الفراتية ، فيشكل نهر «البليخ» رافدا مهما من تلك الروافد ، وقد أقام الأمير الاموي مسلمة بن عبدالملك ، في احد مواضع هذا النهر ، سدا ارتفاعه في الهواء أكثر من خمسين ذراعا ، وكان الماء يتدفق تحت هذا السد فيشكل تفرعات تسقى بساتين وقرى منطقة الرقة ، ثم لا تلبث هذه التفرعات ان تصب في نهر الفرات تحت مدينة الرقة بميل واحد ٠

ويقدم ياقوت تفصيلا دقيقا عن هذا السد بقوله : ان مسلمة ابن عبدالملك قد بنى بالقرب منه مخزنا للمياه طوله مائتا ذراع وعرضه مائتا ذراع وعمقه عشرين ذراعا ، معقود بالحجارة ، ويجري تخزينه من احد تفرعات نهر البليخ في كل سنة مرة واحدة ، وعند ملئه ، سيكون كافيا لاغراض السكان وسقي وري بساتينهم وأراضيهم ، وتبعد مصباته عن النهر بحوالي خمسة اميال(٢٨) ٠

وعلى الرغم من ان ياقوتا لم يشر الى وجود هذا السد في القرن السادس الهجري صراحة ، ولكن المعلومات التي أوردها في كتابه عنه والتي تعتمد على المشاهدة والمعاينة ، تمكننا من القول باطمئنان ، ان هذا المشروع المهم للري كان قائما في هذه الفترة ٠

---

(٢٧) جاسم محمد الخلف : جغرافية العراق ص٥٥ ٠

(٢٨) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٢٧٨ ٠

ومن روافد النهر الاخرى ، نهر الخابور الكبير الذي يقع في منطقة من أرض الجزيرة الفراتية ، يصفها ياقوت بقوله : «انها ولاية واسعة وبلدان جمة ــ غلب عليها اسمه فنسبت اليه من بلاد قرقيسياء وماكسين والمجدل وعرابات»(٢٩) ومنبع هذا النهر من موضع يسمى رأس العين وسط بلاد الجزيرة • ومنبعه في الحقيقة من مجموعة من العيون ، ثم ينضاف اليها فاضل نهر الهرماس (نصيبين) ويكوّن مع هذا النهر نهرا كبيرا يمتد فيسقى هذه البلاد ثم ينتهي الى قرقيسياء حيث يصب في الفرات(٣٠) •

وأشهر هذه العيون التي تكون نهر الخابور هي أربعة (عين الآس وعين الصرار وعين الرباحية وعين الهاشمية) وفيها فضلا عن ذلك عين يقال لها (عين خسفة سلامة)(٣١) وتجتمع هذه العيون فتسقى المدينة ثم تصب في الخابور(٣٢) •

وشاهد ابن جبير في رحلته سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م منطقة مدينة رأس العين فكتب يقول : ان الماء يتفرع عند العين التي تقع عليها المدينة الى فرعين : فرع في الجهة اليمنى يشق خانقاه مبنية للصوفية والغرباء بازائه والفرع الآخر في الجهة اليسرى ، يسير في جداول وتفرعات الى مرافق المدينة وضواحيها ، ثم تلتقي هذه الفروع

---

(٢٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٣٨٣ •

(٣٠) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٣٨٣ •

(٣١) يذكر ياقوت «ان في هذه العين سمك كبار ينظره الناظر كان بينه وبينه شبر ، والحقيقة ان بينه عشر قامات ، وعين الصرار التي نثر فيها الخليفة المتوكل العباسي عشرة آلاف درهم ، ونزل اهل المدينة فاخذوها لصفاء الماء» • معجم البلدان ج٢ ص٧٣١ •

(٣٢) وهناك عين تسمى (الزاهرية) وكانت الزواريق الصغار تدخل اليها والى عين (الهاشمية) والناس يركبون فيها الى بساتينهم والى قرقيسياء ان شاءوا ، أما الآن فليس هناك سفينة ولا يعرفها أهل رأس العين مع ان الماء كثير وهو يحمل سفينة صغيرة • ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٧٣١ •

مع النهر الرئيسي الذي تجرى فيه مياه العين ، وقد بنيت في مكان التقائهما وعلى شاطئيه بيوت من حجارة (الارحاء)(٣٣) الصلدة(٣٤) • وعند تجواله في هـذه المنطقة شاهد العيون الاخـرى التي تحف بها اشجار وبساتين قد انتظمت حافتيها الى آخر انتهائها(٣٥) •

وهذه القنوات التي اقيمت في مدينة ميافارقين ، ظلت قائمة خلال القرن السادس الهجري وكان ابن شداد قد اشار الى انشائها في القرن الرابع الهجري فقال : ان اهل ميافارقين كانوا يشربون من الآبار ، فاجـرى سيف الدولة الحمداني من العـين التي بالربض المعروفة برأس العين ، قناة وساقها في وسط البلد ، ثم شق مجرى لها من باب الربض الى ما بين السورين واجراها في المدينة وغرس بستان القصر ، ثـم أوصل المـاء الى القصر من رأس العـين التي بالربض(٣٦) وقد عهد سيف الدولة الحمداني بانجاز هذا المشروع الى شخص يدعى (ابن شليطا) وهو رجل نصراني ، حيث شرع بشق القناة تحت المسـجد من رأس العين الى وسـط الربض من الجانب

---

(٣٣) وهي الحجارة التي كانت تستعمل لطحن الحبوب وتمتاز بصلابتها وهي موجودة في المناطق الجبلية من أرض الجزيرة الفراتية •

(٣٤) وبمقربة من ذلك مدرسة بازائها حمام يقـول عنه ابن جبير : «ما أرى في موضوعات الدنيا مثل موضوع هذه المدرسة ، لانها في جزيرة خضراء والنهر يستدير بها من ثلاثة جوانب والمدخل اليها من جانب واحد وأمامها وورائها بستان وبازائها دولاب يلقى الماء الى بساتين مرتفعة عن مصب النهر وشأن هذا الموضع عجيب جدا فغاية حسن القرى بشرقي الاندلس ، أن يكون لها مثل هذا الموضـع جملا أو تتحلى بمثل هذه العيون» • رحلـة ابن جبير ص٢١٨ •

(٣٥) واعظم هذه العيون عينان : احداهما فوق الاخرى : العليا منهما نابعة فوق الارض في صم الحجارة حيث يخرج ويسيل نهرا كبيرا ، كاكبر ما يكون من الانهار وينتهي الى العين الاخرى ويلتقي بمائها • والعين الثانية نابعة تحت الارض من الحجر الصلد بنحو أربع قامات ويتسع منبعها حتى يسيل على وجه الارض وماؤها اصفى من الزلال ويصاد فيها سمك جليل من أطيب ما يكون السمك • رحلة ابن جبير ص٢١٧ •

(٣٦) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ٦٩ آ ـ ٦٩ب •

الشرقي ثم أوصلها الى تحت البرج ، وقد انفقت على هذا العمل أموال طائلة(٣٧) ٠

كما ورد انه كان في مدينة ميافارقين تاجر يسمى أبا بكر محمد ابن جري، شرع هو الآخر فيحفر قناة الجامع من عين (حنباص) بعد استئذانه الامير نصر الدولة وأوصلها الى أطراف المدينة من الجانب الغربي ثم الى السور ومدها الى بستان الفصيل والى ما بين السورين ثم الى السور الكبير عندالينبوع ثم الىوسط المدينة وعمل لهاتسعة أنابيب وأدخل المياه الى الحمامات وغيرها ، وقد انفق عليها حوالي الخمسين ألف دينار(٣٨) ٠

جـ ـ نهر دجلة وروافده :

أما نهر دجلة فلم يختلف البلدانيون والجغرافيون العرب في تحديد منابعه الا قليلا ، وتتفق معلومات هؤلاء البلدانيين والجغرافيين من أهل القرن السادس الهجري الى حد ما مع المعلومات التي جاءت في القرن الرابع الهجري فيما يتعلق بتحديد منابع نهر دجلة وجريانه ٠ فابن خرداذبه يشير الى ان مخرجه من جبال السلسلة(٣٩) الواقعة في هضبة الاناضول ، وقدامة بن جعفر يقول «ان انبعاثها من عين تمر بين جبلين عند مدينة آمد ، ثم تسير الى مدينة بأسورين ، حتى تبلغ مدينة بلد»(٤٠) ٠ وينوه الاصطخري الى ان «مخرج دجلة فوق آمد من بلد الروم»(٤١) ، أما المقدسي فيذكر ان

(٣٧) الفارقي : تاريخ الفارقي ص١٦٤ـ١٦٥ ٠

(٣٨) الفارقي : نفس المرجع السابق ص١٦٤ـ١٦٥ ٠

(٣٩) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص١٧٤ ٠

(٤٠) قدامة بن جعفر : نبذة من كتاب الخراج ص٢٣٢ ٠

(٤١) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧٢ ٠ وقال المسعودي «ان دجلة تخرج من جبال آمد من دياربكر» مروج الذهب جا ص١١٩ ٠

«منابع دجلة تحت رباط ذي القرنـــين من كهف الظلمات»(٤٢)٠
بينما يذكـــر ياقوت ان منابع دجلة من مكان فيه عـــين اسماها «عين دجلـة» بالقرب من آمد وبالتحديد بالقرب من موقـع يعرف بـ«هلورس» من «كهف الظلمات»(٤٣) ٠

ومهما يكن من امر فان منابع دجلة بالقرب من مدينة آمد عند حدود بلاد ارمينية، وبعد اجتيازها الجبال المعروفة بجبال الجزيرة يصب فيها رافد يعرف بـ (نهر بيرني) وهو يقع على الحدود المشتركة بين أرمينية والجزيرة ، وبعد دخولها أرض الجزيرة ، يوافيها رافد آخر وينصب فيهـا وهو نهر (باعيناثا)(٤٤) وعنـد وصولها مدينة جزيرة ابن عمر، يصب فيها رافد ينبع من ارمينية يعرف بـ(البؤيار)، وبعد ان تتـوسط بين (باسورين) والجزيـرة يصب فيهـا الوادي المعروف بوادي (دوشا) الدي يخـرج من منطقة الزوزان فيما بين أرمينية واذربيجان ، ثم تسير متوغلة في أرض الجزيرة ٠ فيصب فيها نهر الخابـور ــ وبعد أن تسـتقيم في سيرها تصـل الى مدينة الموصل ، فيصب فيها من الغرب نهر الزاب الاعظم (الذي هو نهر العظيم الحالي) ، وهو ينبع من جبـال اذربيجان ويتكون في باديء الامر ، من فرعين هما (زركون) و (بابغيش) ثم بعد اجتيازها مدينة (حديثة) بفرسخ ومدينة (السن) يصب فيها نهر الزاب الاسفل وهو ينبع من أرض (شهرزور)(٤٥) ٠

---

(٤٢) يقول أيضا ان «باب الظلمات باقليم آقور فوق الموصل» المقدسي البشاري ص١٤٤ ثم أنظر القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص٤٢٠ ٠

(٤٣) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٥٥١ وانظر ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع جـ٢ ص٥١٥ ٠

(٤٤) وهي قرية كبيرة كالمدينة من انزه المواضع تشبه بدمشق ، ذكرها ابوتمام في شعره فقال :

ولا اعتمادك كنت ذا منلوحة   عن برقعيد وارض باعيناثا

ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص٤٧٢ــ٤٧٣ ٠

ومما هو جدير بالملاحظة ، ان صاحب مراصد الاطلاع يزعم ، ان نهر (الكلاب) أحد روافد دجلة ، يصب فيه أثناء اقترابه من (سميساط)(٤٦) ، وفي الواقع ان هذا النهر هو احد روافد نهر الفرات يصب فيه شمال مدينة (شميشاط) ومن الوديان التي كانت تصب في دجلة وادي (صلب)، وهو واد بين آمد وميافارقين ثم وادي (باسنافا) ثم وادي (السربط) وهو ينبع من أرمينية ، وبعد انحداره جنوب مدينة جزيرة ابن عمر ، يصب فيه واد يعرف بالبوازيج(٤٧) ٠

ويروى المنطقة الشرقية من دجلة ببساتينها وضياعها ، انهار اطلق عليها ياقوت أسم الزوابي (جمع زاب) ومنها الزاب الاعلى الذي يقع بين الموصل واربل وينبع من منطقة (مشتكهر) على الحدود بين اذربيجان وبابغيش ـ من عين في رأس جبل ـ ينحدر الى واد ويجري في جبال وأودية حتى يصل الى (باشزي)(٤٨) ثم الى كورة (المرج) وهي من كور الموصل ، يفيض في دجلة على بعد فرسخ من مدينة حديثة ويسمى هنا (بالزاب المجنون) لشدة جريه ، أما الزاب الاسفل ، فهو ينبع من جبال (السلق)(٤٩) التي تقع بين شهرزور واذربيجان ثم يمر الى مابين دقوقا واربل ويكون قد قطع مسافة بينه وبين الزاب الاعلى تقدر بمسيرة يومين أو ثلاثة وبعد امتداده يفيض في دجلة عند مدينة (السن)(٥٠) ٠ وجاء عند ياقوت ، ان بين

---

(٤٥) وهي كورة واسعة في الجبال بين اربل وهمدان ، وأهل هذه النواحي كلهم آكراد ، ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٥٥٢ ، ج٣ ص٣٤٠ ٠

(٤٦) ويقول : ان دجلة نهر عظيم مشهور ـ ويسميه (البقر الصغير) ٠ ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص٣٩١ ٠

(٤٧) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٧٥٠ ثم انظر : ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص٣٩١ ٠

(٤٩) وهو جبل عال مشرف على الزاب متصل بشهرزور يعرف (بسلق بني الحسن) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج٢ ص٤٤ـ٤٥ ٠

(٥٠) (سن بارما) ، مدينة على دجلة فوق تكريت عند مصب الزاب الاسفل ٠ والسن قلعة بالجزيرة قرب سميساط ويعرف السن ابن عطير ٠ ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج٢ ص٦٠ ٠

بغداد وواسط ، زابان آخران أيضا ويسميان الزاب الاعلى والزاب الاسفل ، الاول بالقرب من مدينة (قوسين) وهو كما يظن ياقوت ، يأخذ ماءه من الفرات ، ويصب عند قرية (زرفامية) وقصبة كورتة النعمانية على دجلة ، أما الزاب الاسفل فقصبته نهر سابس قرب مدينة واسط • وهناك زاب النعمانية أيضا ، وعلى كل واحد من هذه الزوابي عدة من القرى والبلدان(٥١) •

ويوضح أبو الفدا ان الزابين «وهما نهران كبيران ، اذا جمعا يكوّنان نحو نصف دجلة ، وأكبر الزابين هو الذي يجري بعد مدينة حديثة ، وينبع من قرب جبال اذربيجان ومن بلاد الجزيرة ، حصن مسلمة والعمادية ، ومنبعه من عين على قمة جبل» ويروى بعد تدفق مياهه وانسيابها الى أسفل الجبل ، البساتين في شمال أربل وقرية (ثامنين) في الجهة الشمالية لمدينة العمادية ، ثم يصل الى قرية (كشاف)(٥٢) حيث يسقى مروجها الكثيرة ومراعيها(٥٣) ، وما ذكره أبو الفدا هو استمرار لما كان عليه في القرن السادس الهجري • أما خابور الحسينية ، فهو واحد من روافد دجلة ، شمال الموصل وقد وصفه ياقوت «بأنه نهر من الجبال» يقوم بارواء القرى والمزارع في المنطقة الشمالية لمدينة الموصل ، ويغذيه فرع يصب فيه ، في غرب مدينة الحسينية • وينبع هذا النهر الذي يطلق عليه أحيانا (الخابوران) من أرض الزوزان ، كما جاء في ياقوت نقلا عن المسعودي «ان منبعه من أرض أرمينية» ، ويصب هذا النهر في دجلة

---

(٥١) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٩٠٢ •

(٥٢) وهي قلعة عامرة بين الزاب والشط قريبة من مصبه في الشط ، أبوالفداء : تقويم البلدان ص٢٧٥ ، وفي مراصد الاطلاع «قلعة عظيمة يسكنها النصارى» ج٢ ص٤٩٩ •

(٥٣) ابن عبدالحق : نفس المرجع السابق ص٤٩٩ •

بين بلاد (باسورين) و (قيسابور)(٥٤) من بلاد (قردى)(٥٥) من أرض الموصل(٥٦) .

وبينما نقرأ ان جميع انهار الفرات تغذيه بالمياه ، وهي روافد دائمة له نسمع ، ان هناك نهرا يتزود من دجلة بالمياه ، وهو نهر (القاطول الاعلى) الذي يروى المزارع ويسقى القرى في الجهة الغربية لدجلة ، حتى يمر بقرية يقال لها (صولى) فاذا تجاوزها سمى (بالنهروان)(٥٧) ، وهناك اشارة في تقويم البلدان يفهم منها انه كان موجودا في فترة القرن السادس الهجري ، حيث مايزال يمر بالقرى والبلدان في تلك المنطقة فيسقيها ، ثم يعود ليصب في دجلة، أسفل من مدينة (جرجرايا)(٥٨) في الجانب الشرقي(٥٩) . ولعل هذا النهر هو نفسه نهر (الغراف) الحالي الذي يأخذ مياهه من نهر دجلة ، قرب مدينة الكوت الحالية ، فيروى الاراضي الواقعة بين

---

(٥٤) بليد من نواحي الموصل ، من ناحية جزيرة ابن عمر . ابن عبدالحق ، مراصد الاطلاع جـ٢ ص٣٧٢ .

(٥٥) قرية في شرق دجلة ، ومن أعمال الجزيرة تنسب اليها ولاية كبيرة نحو مايتي قرية منها الجودي وثمانين ، ومن نواحي قردي ، فيروز ، سابور وهي قرية كبيرة فيها عمارات واسعة وآثار ، ياقوت ، معجم البلدان جـ٤ ص٥٦ .

(٥٦) ياقوت ، جـ٢ ص٣٨٤ ، ابن عبدالحق ، مراصد الاطلاع جـ١ ص٣٣٣ .

(٥٧) يقول جعفر خصباك ، ان هناك مشروعا بهذا الاسم ، وكان من أعظم مشاريع الري في عراق القرون الوسطى ، يجري مسافة طولها حوالي ثلاثمائة متر ويبلغ عرضه في بعض أقسامه مائة وعشرين مترا بعمق عشرة أمتار في بعض النقاط ، ويسير ما بين القائم ، الى موقع الكوت الحالي (شرق بغداد بحوالي ١٠٠كم) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص١٥٧ .

(٥٨) تقع على دجلة الجنوبية ، وقد كانت عظيمة وهي اليوم مختلة متقطعة العمارة .
أبو الفداء : تقويم البلدان ص١٣٢ .

(٥٩) أبوالفداء : نفس المرجع السابق ص٥٥ .

دجلة والفرات الى جنوب بغداد • والمعروف ان هذا النهر لا يصب في الفرات •

وعلى الرغـم من وجود رافد آخر لنهر دجلة هو نهـر (ديالى) الحالي الذي يصب فيه جنوب بغداد بمسافة عشرة كيلومترات وهو مايزال متدفق المياه في الوقت الحاضر ويروى اصقاعا واسعة ، فان اخبار هذه الفترة لا تشير اليه ، ويبدو انه كان جافا آنذاك •

ولدينا بعض المعلومـات القليلـة فيما يتعلق بوجـود العيون والآبار الافقية ، والاخيرة يقوم الانسان بحفرها وكان يطلق عليها اسم (الكهاريز) وكانت سائدة الاستعمال في تلك المنطقة ، ومن المرجح جدا ان نهر ديالى الذي يخترق هذه المنطقة كان من الوديان الجافة العديمة الجريان طول أيام السنة ، فيما عدا اشارة واحدة في مراصد الاطلاع(٦٠) لا يمكن الاعتماد عليها ، لانها لا تلقي ضوءا كافيا على هذا النهر ولا تقدم صورة واضحة عن دوره في مجالات ارواء المنطقة ، يؤيد ذلك عدم اشارة البلدانيين والمؤرخين اليه •

٢ ـ الامطـــار :

اعتمدت الجزيـرة الفراتية الى جـانب الانهـار وروافدها وتفرعاتها على الامطار وسيلة مهمة من وسائل الري ، وخاصة في المناطق الجبلية الشماليـة والشمالية الشرقية(٦١) وحـتى في بعض السهول والمنحدرات والمناطق الواقعة بين سلاسل الجبال ، ولذلك فان مناطق واسعة كانت تعتمد اعتمادا كليا منذ وقت متقدم وحتى خلال القرن السادس الهجري على مياه الامطار ، فيذكر البلاذري أنه

(٦٠) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع جا ص٢٥٠ ، ج٢ ص٥٤٨ •

(٦١) تتجلى أهميـة المناطق الجبلية ، في تكوينها الثلوج وذوبانهـا في فصل الجفاف مما يجعل جريان المياه في الانهار مستمرا تقريبا •

لما بلغ المسلمون الفاتحون ، الفرات كانت (بالس) والقرى المنسوبة اليها في حدها الاعلى والاوسط والاسفل اعـذاء[٦٢] عشرية[٦٣] • ويشير الاصطخري الى ان مدينة جسر منبج البعيدة عن الانهار كان يغلب على مزارعها الاعتماد على الامطار فامتازت أرضها بالخصوبة[٦٤] •

ونقرأ في معجم البلدان مايشير الى ذلك أيضا ، فقلعته الجديدة التي تقع في كورة بين النهرين على الطريق الذي يربط الموصل بنصيبين وهي قلعة قديمة أرضها خصبة جدا ومتصلة بأعمال حصن كيفا ولها قرى ومزارع وبساتين كثيرة تعتمد على الامطار[٦٥] •

ويعزو ابن الاثير سبب موجات الغلاء التي كانت تجتاح مدن الجزيرة والموصل بصورة خاصة خلال الربع الاخير من القرن السادس الهجري ، الى قلة الامطار أو انقطاعها أو تذبذبها بين وقت وآخر ويمضي هذا المؤرخ فيقول «انها كانت تجيء في الاوقات المتفرقة مجيئا قريبا لا يحصل منه الري للزرع ، فجاءت الغلات قليلة»[٦٦] كما ذكر في حوادث سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م ، ان الامطار قلت بديار الجزيرة والشام وغلت الاسعار بالبلاد ، وكذلك الحال في السنين التالية حيث ينقطع المطر فيزداد الغلاء[٦٧] •

---

(٦٢) الزروع التي يرويها المطر • البلاذري : فتوح البلدان قسم٢ ص٢٠٥ •

(٦٣) البلاذري : فتوح البلدان قسم ٢ ص٢٠٥ • ويبدو ان الامطار كانت تنقطع في فترات مما جعل أهل بالس ونويلس وقاصرين وعابدين وصفين وهي ثغور الجزيرة الفراتية مع بلاد الروم ، يطلبون من القائد الاسلامي مسلمة ابن عبدالملك الذي غزاها أبان الفتوح الاسلامية ، أن يحفر لهم نهرا من الفرات يسقى أراضيهم ، ففعل فحفر النهر المعروف بنهر مسلمة ••

(٦٤) منبج مدينة في برية ، الغالب على مزارعها الاغذاء وهي خصبة • الاصطخري مسالك الممالك ص٧٤ •

(٦٥) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٤٢ يقول «ان أكثر زروعهم العذى» •

(٦٦) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص٤٢٤ •

(٦٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٤٢٤ •

ان اشارات ابن الاثير الى العلاقة بين سقوط الامطار أو ندرتها أو انقطاعها وبين أسعار المواد الغذائية الزراعية تساعدنا على الاستنتاج بأن ذلك كان يجري في جميع الفترات السابقة لاشاراته وفي المناطق التي تعتمد في زروعها على مياه الامطار ٠

وأشار ابن خلكان الى حدوث موجة مفرطة من الغلاء سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م في الموصل ، ولم يذكر اسبابها(٦٨) ، غير ان ابن الاثير قال «اشتد الغلاء سنة ٥٧٥هـ وعم أكثر البلاد ، العراق والموصل وديار الجزيرة وديار بكر وديار الشام ، وكان السبب قلة الامطار ، وقد دام ذلك أكثر هذه السنة ، واشتد المطر فرخصت الاسعار ووجدت الاقوات بعد أن كانت معدومة»(٦٩) ٠

أما (سعرت) وهي مدينة تقع في الشمال الشرقي من دجلة بالقرب من ميافارقين، وتحيط بها الوطاة من كل جانب، فيجري ري جميع بساتينها وأراضيها بواسطة مياه الامطار ، التي كانت كما يبدو تسقط بانتظام ، وبكميات كافية(٧٠) ٠ وكذلك الحال بالنسبة لمدينة (غرسة) التي تقع في كورة بين النهرين بين الموصل ونصيبين، التي تعتمد على مياه الامطار التي تخص المنطقة(٧١) ٠

ويبدو ان هناك احتياطات كانت تتخذ في المناطق التي تعتمد في ريها على الامطار ، ضد موجات الثلوج والبرد التي تجتاح المنطقة في فصلي الشتاء والربيع ، وان هذه الاحتياطات كانت تستغرق الفصول الزراعية ، أي انها كانت دائمية ، يؤكد ذلك عدم

---

(٦٨) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٤ ص٢٢٩ ٠

(٦٩) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص١٧٨ ٠

(٧٠) أبوالفداء : تقويم البلدان ص٢٨٩ ٠

(٧١) ابن عبدالحق ، مراصد الاطلاع جـ٢ ص٣٠٧ ٠ وعلى رأس جبل (طورزيتا) بالقرب من مدينة رأس العين عند قنطرة الخابور «شجر زيتون عذي يسقيه المطر ولذلك سمي طورزيتا» أنظر ياقوت ، معجم البلدان جـ٣ ص٥٥٨ ٠

اشارة البلدانيين والرحالة والمؤرخين ، الى تعرض تلك المناطق ٠ وعلى الرغم مما كنا نسمعه في المراجع من حدوث موجات من هذا القبيل في بلاد الشام وفارس وأرمينية وبلاد الروم ، فلم نعثر سوى على اشارتين ضعيفتين لا تساعدان الباحث على الاستنتاج وتقديم صورة دقيقة ومتكاملة عن ذلك ، فيذكر ابن الاثير في حوادث ٦٢٣هـ / ١٢٢٥م وهو يتكلم عن الموصل «ونزل بها برد كثير أهلك زروع أهلها وأفسدها»(٧٢)٠ وفي (٦٢٤هـ/١٢٢٦م)«سقط الثلج بالموصل مرتين وهذا غريب جدا لم يسمع بمثله ــ فأهلك الازهار التي خرجت كزهر اللوز والمشمش والاجاص والسفرجل وغيرها»(٧٣) ٠

٣ ــ القنوات والعيون والسدود والدواليب والآبار :

عمد سكان القرى وأصحاب الزروع والبساتين في مناطق الجزيرة خلال القرن السادس الهجري ، الى اتخاذ وسائل أخرى للري تتوفر لها الامكانات اللازمة لارواء مزارعهم وحقولهم وايصال المياه اليها عند الحاجة ، فشقوا القنوات والسدود والبرك(٧٤) وخزانات المياه لهذا الغرض ٠

وتحدثنا المصادر أنه منذ القرن الرابع الهجري وحتى نهاية القرن الثامن الهجري ، كان سكان الجزيرة الفراتية في السهول

---

(٧٢) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص١٩٣ ٠

(٧٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٤١٨ ٠

(٧٤) من البحيرات والبرك التي يذكرها المؤرخون بحيرة(المنخرق)وبركة(الغدران) فالاولى بين ماكسين والفرات مساحتها أكثر من مساحة جريب مربع وهي عميقة ، وقد جرت محاولة مبسطة لمعرفة مدى عمقها وفشلت ، حيث جيء بحبل طوله مائتين ذراع وضعت في طرفه اثقال ، فظهر انها أعمق من ذلك ٠ (ابن حوقل : صورة الارض ص١٩١) ٠ والاخرى تقع في منتصف الخندق الكبير الذي يواجه مدينة ميافارقين وتصب فيها ما يناهز الستين بركة صغيرة تحيطها ، وأصل مائها من العيون المنتشرة هناك وخاصة عين حنباص : (ابن شداد الاعلاق الخطيرة ــ مخطوطة ــ الورقة ٧١ آ ٧١ب)٠

المحصورة بين المناطق الجبلية أو القاطنون على ضفاف الانهار ، أو في وسط الجزيرة ، كانوا ينشطون في ابتداع الطرق والاساليب لري أراضيهم ومزارعهم وقد كان يتم ذلك بجهودهم ومبادراتهم أو تحت اشراف وحماية سلطة الامراء والملوك الاتابكة أو الاراتقة فيذكر مجهول من أهل القرن السادس الهجري ان «ماردين حصن حصين منيع لا يرام مبنى على قلة جبل شاهق في الهواء ، وهو مشرف على تلك الجبال من جميع الجهات ، وتحته من الناحية الجنوبية ريض عامر مياههم من عيون مجرورة في قنوات ، وقد استحدثوا الآن الصهاريج والبرك ، ليجمعوا ماء المطر(٧٥) لري أشجارهم ومزارعهم» ٠

أما حصن مسلمة بن عبدالملك فيمثل مشروعا للري ، أقيم بالجزيرة الفراتية بين مدينة رأس العين والرقة ، ويبعد بمسافة ميل ونصف عن نهر البليخ وذلك بناء على طلب سكان مدينة بالس(٧٦) ، ويبدو ان هذا الاثر الاروائي بقي قائما حتى خلال القرن السادس الهجري ٠

وأشار ياقوت الى القنطرة العظيمة التي عدها من عجائب الارض والتي بنيت على نهر (صنجة) الذي يجري بين ديار مضر وديار بكر(٧٧) ، ويبدو انها كانت توزع الماء أو تحصره فيرتفع وعندئذ يمكن التحكم فيه والاستفادة منه لارواء الاراضي الواقعة بعدها ، كما جاء ذكر لوادي (خوسر) الذي يقع في شرق مدينة الموصل

---

(٧٥) الكلام هنا لمعلق من أهل القرن السادس الهجري ضمن كتاب صورة الارض لابن حوقل بملاحظاته وردوده على ما جاء به أصل الكتاب ص٢٠٢ ٠

(٧٦) انظر ص(٨) ، ١٧٢ من هذا الفصل ٠

(٧٧) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص٤١٩ ٠

ويصب في دجلة ، وقد كان مجراه من قرية (باجباره)(٧٨) المعروفة مقابل الموصل «تحت قناطر فيه الى الآن»(٧٩) ٠

ولابد لنا من الاشارة الى السدود التي كانت موضوعة على فوهة الانهار عند مدينة (سكير العباس)(٨٠) والتي تمثل مشروعا للري ينظم توزيع المياه ويتحكم فيها ، حيث ترتفع مناسيبها في هذه الانهار فوق مستوى الاراضي الزراعية التي تقع على ضفافها ، أو حتى الاراضي البعيدة عنها فتدخل في الجداول المعدة لهذا الغرض ٠ ومن الملاحظ أن فكرة بناء مشاريع الري الحديثة متشابهة مع هذه الفكرة الى حد كبير مع تطويرها ٠

ويصف ابن شداد في القرن السادس الهجري ، الابواب التي ركبت على النهرين في مدينة سنجار فالنهر الاول يعرف ب(دار العين) والآخر يخرج من «ثرة» في البلد تسمى (عين الاحتات) ، ولها أربعة أبواب ، ثلاثة منها في جنوب المدينة وهي (باب الماء) و (الباب العتيق) و (الباب الحديد) أما الباب الرابع ففي شمالها وتسمى (باب الجبل)(٨١) ، ويبدو ان هذه الابواب كانت تنظم دخول المياه وانصرافها الى خارج المدينة حيث تذهب لأرواء الاراضي والمزارع التي اشتهرت بها مدينة سنجار(٨٢) ٠

---

(٧٨) «قرية كبيرة عامرة ، وكان نهر الخوسر قديما يمر بها تحت قناطرها ، باقية الى هذه الغاية وجامعها مبني على هذه القناطر ، رأيتها غير مرة» ٠ ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص٤٥٢ ٠

(٧٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٤٩٨ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص٣٧٤ ٠

(٨٠) وهي بليدة صغيرة بالخابور فيها منبر وسوق ٠ ياقوت : نفس المرجع السابق ج٣ ص١٠٩ ٠

(٨١) ابن شداد الاعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة ــ قسم الجزيرة ــ مخطوطة الورقة ٤٥ أ ٠

(٨٢) يذكر ياقوت ان القناة هي كورة بسنجار من جهة البرية سميت بذلك لان شربهم وشرب زروعهم من القنوات المستنبطة من تحت الارض ٠ المشترك وضعا والمفترق صقعا ص٣٥٨ ٠

أما القنـاة ، التي كانت توصل المياه من عـين (رأس العين) وتقطع مدينة ميافارقين ، والقناة الاخرى من عين (حنباص) الى طرف المدينة وضواحيها وقراها ، فقد كانتا مشروعين للري يشبكلان أهمية كبيرة لا جدال فيهما ، لمنطقـة ميافارقين ، فالمشروع الاول يزود المدينة بالمياه ، اقامته سلطة الامارة ، والثاني يقوم بعملية ري الاراضي والمزارع وسقي البساتين القريبة من المنطقة أقامه أحد أعيان التجار الموسرين(٨٣) ، ويشير الفارقي ، الى ما قام به ، أمير ميافارقين وآمد في نهاية القرن الخامس الهجري ، حيث «عمل دولابا على الشط يزود المدينة بالمياه ، كما حفر البرك والسواقي ، لسقي البساتين والزروع ، وأقام «المصنع» الذي هو بئر كبير تتفرع منه ، وقنوات في بستان الرئيس علي بن منصور بن كك وحفره الى أن ظهر فيه الماء وأحسن عمارته»(٨٤) •

ويبدو أن المصنع الذي ذكره الفارقي انما هو بئر كبير، وهو يتصل بمجار، ويعمل على توفير المياه لحاجة السكان أو لاغراض الري وقد ظل قائما في القرن السادس الهجـري • وذكر ياقوت أن مدينة أربل «كانت أكثر زروعها تقوم على القنى المستنبط تحت الارض»(٨٥) وكان أهل مدينـة «الرحبة» وهي بلدة صغيرة على نحـو فرسخ من الفرات ، يسـتقون من «قناة» تتصـل بنهر سـعيد الخارج من الفرات(٨٦) • كما فعل سكان مدينة سنجار فقد أشير الى أن مياههم كثـيرة من «القنى»(٨٧) (جمـع قنـاة) وأهـل مـاردين ، وهي قلعـة مشهورة على قمـة جبل الجزيـرة ، وتشرف على دنيسر

---

(٨٣) أنظر ص١٦٧ •

(٨٤) وقال أيضا «وعمل فيها كل ما يراد ، وهي أنزه المواضع وأحسنها» • التاريخ ص١٤١ •

(٨٥) ياقوت : معجم البلدان جا ص١٨٦ •

(٨٦) أبو الفداء : تقويم البلدان ص٢٨١ •

(٨٧) أبو الفداء : نفس المرجع السابق ص٢٨٣ •

ونصيبين «اكثــر شربهم من صهاريج معدة في بيوتهــم»(٨٨) أما ري مزارعهم وبساتينهــم والتي اشتهرت بها مــاردين فكانت من مياه الامطار ٠

وفي دير (متى) بالقرب من الموصل في الجانب الشرقي يوجد «صهريج» عظيم يجتمع فيه ماء المطر ، عمقه اثناعشر ذراعا يفتح من موضعين في أعلاه وفي أسفله(٨٩) ومع ان المراجع المتوفرة لدينا لا تشير الى الاغراض التي أنشيء هذا الصهريج من أجلها ، ولكن من المحتمل جدا أن يقوم بسقي الاشجار والبساتين الملتفة حول هذا الدير بمسافات ليست متباعدة كثيرا ٠

أما دير (أبون) الذي يقع بين جزيرة ابن عمر وقرية «ثمانين» فقد انشئت بالقرب منه أنابيب من النحاس توصل المياه بين جبل الجودي وصهريج كبير لتخزينها واستعمالها لسقي «ضياعها الغناء الكثيرة البســاتين»(٩٠) ٠ كما تستعمل الصهاريج(٩١) المحفــورة بين الصخور والتي تجتمع فيها مياه الامطار لارواء بساتين دير «عمر الزعفران» وأشجار الفواكه فيه(٩٢) ٠

وفي دير (الزعفران)(٩٣) وهو بالقرب من مدينة (معلثايا) من

---

(٨٨) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع جـ٣ ص٢٩ ٠

(٨٩) ابن عبدالحق : نفس المرجـع السابق جـ١ ص٤٣٩ ، العمــــري ، مسالك الابصار في ممالك الامصار جـ١ ص٢٩٩ ٠

(٩٠) ياقوت : معجـم البلدان جـ٢ ص٦٤٠ ، العمري ، مســـــالك الابصار جـ١ ص٢٥٥ ٠

(٩١) وتجدر الاشارة الى ما ذكره ابن جبير في رحلته ، حول تجمع ماء العيون بالقرب من مدينـة رأس العين في خزان وصفه «كالصهريج العظيـم حيث يخرج ماؤه الى عين أخرى ويدخل في صهريج آخر عمقه نحو أربع قامات أو أكثر ، وعندما ترتفع المياه فيه توزع لاغراض الري» ص٢١٧ ٠

(٩٢) العمري ، مسالك الابصار جـ١ ص٢٨٩ ٠

(٩٣) ويبدو ان ياقوتا وصاحب مراصد الاطلاع الذي نقل عنه ، لم يفرقا بين دير (الزعفران) ودير (عمر الزعفران) فالاول يقع بالقرب من قرية (معلثايا)



نواحي الموصل حيث توجد المزارع والبساتين الكثيفة ، فان ريهم يتم سيحا ، فقد أشير الى أن ماء هذا الدير «سائح من ينبوع في جبله»(٩٤) ، ومن المحتمل أنه اتخذ ما يلزم لتأمين ايصال المياه في الظروف التي تتطلب ذلك ·

والظاهر أن «قنطرة خانقين العظيمة» التي ذكرها صاحب مراصد الاطلاع ، المتكونة «من أربعة وعشرين طاقا ، كل طاق يبلغ عشرين ذراعا عليها جادة خراسان الى العراق»(٩٥) ، كانت بمثابة تهيمن على توزيع المياه لأغراض الري بالاضافة الى انها كانت جسرا للعبور(٩٦) ·

يتضح من ذلك ، أن الجزيرة من حدودها الشمالية والشمالية الشرقية حتى الجنوبية والجنوبية الغربية ، تقطعها شبكة من الانهار والجداول والعيون والآبار والينابيع والقنوات والصهاريج تشكل نظاما للري لا مثيل له في تلك الفترة في بلدان العالم الاسلامي ، يضاف الى ذلك سقوط كميات من الامطار تكفي

المجاورة الى مدينة جزيرة ابن عمر من نواحي الموصل ، اما الثاني فهو بالقرب من مدينة نصيبين · ويظهر انهم كانوا يحسبونهما ديرا واحدا ، حيث اختلط عليهم الامر · مسالك الابصار جـ١ ص٣٠٥ ثم انظر الشابشتي ، الديارات ص١٢١ـ٢٤١ ، ياقوت ، معجم البلدان جـ٢ ص٦٦٣ مراصد الاطلاع جـ١ ص٤٣٠ ·

(٩٤) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٦٦٣ ، مراصد الاطلاع جـ١ ص٤٣٠ ، العمري ، مسالك الابصار جـ١ ص٢٥٥ ·

(٩٥) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ص٣٣٦ ·

(٩٦) ونشير هنا أيضا الى القنطرة العالية الحسنة البناء التي استحدثها الامير فخرالدين قرا أرسلان بن داود في سنة ٥١٠هـ على نهر دجلة بالقرب من مدينة حصن كيفا · انظر كتاب صورة الارض (المعلق المجهول) ص٢٠٢ ، وياقوت يصفها «لم أر في البلاد التي رأيتها أعظم منها وهي طاق واحد يكتنفه طاقان صغيران» معجم البلدان جـ٢ ص٢٧٧ وقنطرة نهر الخابور وهي «من أعجب قناطر بنيت في الدنيا في الارتفاع والبناء» (أنظر : شيخ الربوة : نخبة الدهر) ص١٩٠ ·

للزراعة في مناطق الجبال وعلى سفوحها الجنوبية والغربية، مما يؤكد اسهاب البلدانيين والمؤرخين العرب في الكلام عن الجزيرة ومخارج أنهارها وتفرعاتها وازدهار الزراعة في قراها وأراضيها(٩٧) ·

وقد ظلت هذه الانهار والقنوات قائمة الى عهد طويل تؤدي مهمتها ، ولم يحدث من جراء تحول مجاري الانهار ، أي سوء ، بانقطاع المياه عن المدن والقرى والمزارع القائمة عليها بسبب تنوع وسائل الري في أنحاء الجزيرة ، حيث لا تتحكم وسيلة واحدة بأمور الري هذا فضلا عن اهتمام القسم الاكبر من سكان المدن والقرى بهذه الوسائل ، حيث تكون مهنتهم الرئيسة هي الزراعة · وهذا الاهتمام في الغالب يركز وسائل الري وينوعها كالقنوات والجداول والتحكم في جريان مياه الامطار للاستفادة منها الى أبعد مدى ·

٤ ـ الفيضان :

يبدو أن أرض الجزيرة الفراتية كانت تتعرض الى فيضانات في بعض مناطقها ، وخاصة المناطق المجاورة لنهري دجلة والفرات ، وهناك اشارة أوردها ابن الاثير الى تعرض مدينة «قلعة جعبر»(٩٨) وهي احدى مدن الجزيرة الى الفيضان سنة ٥١٦هـ/١١١٨م حيث «زاد الفرات زيادة عظيمة لم يعهد مثلها ، فدخل الماء الى ربض قلعة جعبر فغرق أكثر دوره ومساكنه»(٩٩) ·

---

(٩٧) أنظر الصفحات السابقة ·

(٩٨) «على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين ، كانت قديما تسمى (دوس) فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جعبر فنسبت اليه» ابن عبدالحق: مراصد الاطلاع جـ١ ص٢٥٦ (كان الفرات يمر بها قبل القرن السادس الهجري ـ أنظر الخارطة) ·

(٩٩) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ١٠ ص٦٠٥ ·

ولكن مع ذلك ، فان حوادث الفيضانات كانت قليلة ومتباعدة، اذا قورنت بمـــا كان يحدث في اقليم العراق على جـــانبي دجلة والفرات ، كلما انحدرنا الى الجنوب ٠ والفرق بين حالتي الفيضان في العراق وبـــلاد الجزيرة يعود الى أن نهري دجلـــة والفرات وروافدهما تقطع أرض الجزيرة في مناطق جبلية أو شبه جبلية في معظمها ، وتكون ضفافهما عالية وانحدارهما شديدا ، مما يجعل فيضانهما غير ممكن ، أما بعد أن يدخل النهران في السهل الرسوبي الذي يلي المناطق شبه الجبلية ، فيكون جريانهما سريعا ووديانهما تحت مستوى الاراضي المحيطة بهمـــا ، فلا تتكون الترسبات بفعل الطمى في وســـط النهرين ، تلك الترســـبات التي تسبب حدوث الفيضانات ، هذا فضلا عن ان الانهار المتفرعة عنهما وروافدهما في أغلب المناطق ، يسهل السيطرة عليهما في أرض الجزيرة في حالات ازدياد مناسيب مياه النهرين ٠ كما أن الابار والعيون التي تزود الانهار بالمياه تكون محددة الكميات واستغلالها مستمر مما لا يساعد بأية حال على حصول فائض من مياهها يمكن أن يطغى على الضفاف٠

أما الاجـــراءات التي كانت تتخذ لدرء أخطـــار الفيضانات ، فليست لدينا عنها معلومات ، سوى اشارة واحدة فقط ، ترجع الى فترة سابقة للقـــرن السادس الهجـــري زودنا بها صـــاحب مراصد الاطلاع ، ومفادها ان نهر الهرماس (نهـــر نصيبين) كان مسدودا بالحجارة والرصاص وما يخرج منـــه من المياه الى نصيبين كان قليلا «لأن الروم بنت هذه الحجارة عليها لئلا تغرق هذه المدينة»(١٠٠) ويبدو ان هذا النهر كان يتعرض للفيضان فيغرق ما يجاوره ٠

٢ ـ الزراعـــة :

يكتسب النشـــاط الزراعي في الجزيرة الفراتية خـــلال القرن السادس الهجـــري الثاني عشر الميلادي ، أهمية كبـــيرة ، حيث كان

---

(١٠٠) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع جـ١ ص٣٢٩ ٠

يمثل المنطلق الاساسي للتطور الاقتصادي بفروعه المختلفة • وشهد ازدهار الزراعة وانتشارها استغلال مساحات غير قليلة من الاراضي الخصبة والعنايـــة بنظام الري واستغلال مؤسســـاته واصلاحها والسيطرة على الفيضانات التي تضر بالزراعة •

وعلى الرغـم من عدم توفر الاحصائيات الدقيقــة عن مساحة الاراضي المســتغلة في الزراعة في بـلاد الجزيرة الفراتيــة في هذه الفترة ، وعن القوة الانتاجية للوحدات الزراعية فيها ، ولكن يمكن القول أن أغلب المنـــاطق في أحواض الانهار ، دجلـــة والفرات وروافدهما وتفرعاتهمـــا ، ومناطق العيون والآبـــار والقنوات ، والمناطق الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية والوديان والسهول المحصورة بين المناطق الجبلية والتي تسقط فيها الامطار ، باستثناء أراضي الهضبة الصحراوية الغربية أن جميـــع هذه المناطق كانت تستغل في الانتـــاج الزراعي فتشكل بمجموعها أراضي واســـعة • ونتيجة لذلـــك فقد ازدادت القوة الانتاجية للوحـــدات الزراعية ، وذلك مقارنـــة مع القوة الانتاجيـــة للوحدة الزراعيـــة في اقليم العراق(١٠١) •

وكان لأحوال المناخ التي سادت الجزيـــرة الفراتية تأثير كبير على قيام الزراعة بنطـــاق واسع ، اذ تهب على تلك المنطقـــة الرياح العكسية الدائمية التي غالبا ما تسبب سقوط الامطار التي يذهب أكثرها للاســـتغلال الزراعي • كما ان الفصول الزراعيـــة تتمتع بوفرة في الانتاج نظرا للمناخ المعتدل في الصيف والممطر في الشتاء•

---

(١٠١) كانت الاراضي المزروعة في العراق في القرن السادس الهجري قليلة ، لا تتناسب مع مساحة الاراضي الصالحة للزراعة حيث اقتصرت على حوضي النهرين دجلـــة والفرات مما أدى الى انخفاض القوة الانتاجيـــة للوحدة الزراعية •

انظر : جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين (الطبعة الاولى ـ بغداد ـ ١٩٦٨) ص٩٥ •

وكان الانتقـــال من فصـــل زراعي الى آخر يتم بـــدون فواصل زمنية ، أي أنه لا يستغرق حلول فصل جديد فترة من الزمن ، بل كان هذا الوقت يدخل ضمن الفصول ، فيؤثر في رفع كمية الانتاج الزراعي ·

وتتميز الفصول الزراعية بالتنوع الزراعي ، فالى جانب زراعة الحبوب مثلا الحنطـــة والشعير ، كانت هنـــاك أشجـــار الفاكهة المختلفة وزراعة الخضر بالاضافة الى حقول المراعي ·

ان معرفة المساحة الكلية للاراضي المزروعة ، تتيح لنا تحديد الارض المســـتغلة فعلا لكل منطقـــة زراعية من ســـطح الجزيرة الفراتية ولكن مثل ذلك يواجه صعوبات غير قليلة ، فالمعلومات الواردة في المصادر المتوفرة لدينا قليلة ومشتتة لا يمكن الاعتماد عليها في معرفـــة أرقام دقيقة ومحـــدودة بهذا الشـــأن ، ولذلك فلا بد من ان نلجأ الى مقارنة مفيدة في الايرادات التي تدرها احدى أهم منطقتين رئيسيتين في اقليم العراق خلال القرن السادس الهجري ، وهي ما مجموعهـــا ٥٠٥ر٩٢٦ دينار (١٠٢) كواردات للخزينـــة عن منطقتي نهر عيسى ونهر الملك ، فيما تبلـــغ ايرادات احدى مناطق الجزيرة الفراتيـــة ٠٣٠ر٩٥٣ر١ دينـــارا(١٠٣) · وعلى ضـــوء الاستنتاج العام ، فان مساحات الاراضي المزروعة في اقليم الجزيرة تبلغ أكثر من ضعفي مثيلتها في العراق تقريبا ·

وعلى ضوء دراســـة النصوص والحقائق التاريخيـــة وتحليلها ومقارنتها يمكن القـــول ان الجزيـــرة الفراتيـــة ، كانت مخزنا احتياطيا يمكن الاعتمـــاد عليه للمنتجات والغـــلات الزراعية في

---

(102) Mustawfi of Qazwin, Hamd-Allah, The Geographical Part of the Nazhat-Al-Qulub, Transated by G. LeS Strange, (Leyden, 1919) P. 52.

(103) Mustawfi of Qazwin, Ibid, P. 13 103-105.

العالم الاسلامي منذ القرن الرابع وحتى نهاية القرن السادس الهجري ، فيشير ابن حوقل والمقدسي وكلاهما من أهل القرن الرابع الى آن اقليم الجزيرة «رفه بخصبه»(١٠٤) وان «هذا الاقليم منه ميرة أكثر العراق»(١٢٥) وقد استمرت الاحوال فيه على هذا المنوال خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين ، فصاحب معجم البلدان وصف الجزيرة بأنها «جيدة الريع والنماء ، واسعة الخيرات»(١٠٦) كما جاء في هذا الكتاب الاكثار من ذكر المدن والقرى الجذرية ، التي تتعدد فيها أنواع المحاصيل الزراعية والاشجار والفواكه(١٠٧) ونجد مثل ذلك في مراصد الاطلاع(١٠٨) أيضا ٠ أما في تقويم البلدان ، فان هناك تفصيلات أكثر أهمية فيما يتعلق بذلك(١٠٩) ٠

وقد أورد ابن شداد ، في كتابه الذي ضمنه تاريخ الجزيرة الفراتية ، تفصيلات دقيقة ومهمة عن مواردها فيقول «لما ملكها السلطان الملك الناصر صلاح الدين الايوبي (خلال القرن السادس الهجري) بعثني اليها لاكشفها ، فكان ارتفاعها ألفي ألف درهم ـ (أي بمقدار مليوني درهم) ـ وبلغني انه كان في زمن الملك الاشرف صاحب دمشق وديار الجزيرة ، ثلاثة آلاف ألف درهم ـ (أي بمقدار ثلاثة ملايين درهم(١١٠) ـ ويضيفه هذا المؤرخ قوله «وكان في عملها ، من القرى ، ثمانمائة قرية منها

---

(١٠٤) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٠ ٠

(١٠٥) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٣٦ ٠

(١٠٦) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٧٢ ٠

(١٠٧) راجع الملحق «ما ذكره ياقوت عن بلاد الجزيرة الفراتية» ٠

(١٠٨) وقد نقل ابن عبدالحق في كتابه مراصد الاطلاع معظم ما جاء عند ياقوت عن بلاد الجزيرة الفراتية ٠

(١٠٩) أبوالفداء : تقويم البلدان : راجع فصل «ذكر الجزيرة بين دجلة والفرات» ٠

(١١٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ٢١ أ ـ ٢١ب ٠

عامر خمسمائــة قرية ، يصرف من فعلها في ألف فــارس ، والباقي خملا لبيت المال»(١١١) ٠

وكانت المناطق التي تكونت منها ثروة اقليم الجزيرة الزراعية كما يأتي :ــ

أولا : منطقة ما بين النهرين دجلة والفرات :

وهي المنطقة الواقعة بين مدينة الانبار على الجانب الشرقي من نهر الفرات ومدينة تكريت على الجانب الغربي من دجلة ٠

وهذه كما يبــدو هي أكبر البقاع وأغناها وأكثرهــا انتاجا للثروة الزراعيـــة ، لانها تضم مدنــا عديدة(١١٢) تحـــدث عنها الجغرافيون والرحالــة والمؤرخون كثــيرا ، وخاصة فيمــا يتعلق بثرواتها الزراعية ، وقد وصنها ابن جبير عند مروره بها في رحلته سنة ٥٨٠هـ فقــال «والقرى والعمائر من هذا الموضــع الى الموصل متصلة»(١١٣) ويشير بذلك الى رحلته التي بدأت من مدينة تكريت ، حيث تتصل المزارع والبساتين والحقول فيفيد «وانسابت جداول في مروج خضر ، فكأنها سبائك اللجين ، تحف بها أشجار وبساتين ، قد انتظمت على حافتيها الى آخر انتهائها»(١١٤) ، كما يذكر كذلك «أنها في بسيط من الارض فسيح وحولها بساتين الرياحين والخضر تسقى بالسواقي»(١١٥) ٠

ويدخل ضمن هذه المنطقة الزراعية ، منطقة الموصل التي ظلت منذ القرن الــرابع الهجري ، تحتفظ بأهميتها في القـــرن السادس

---

(١١١) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٢١ أ ــ ٢١ب ٠
(١١٢) أنظر الملحق في نهاية البحث ٠
(١١٣) رحلة ابن جبير ص٢٠٨ ٠
(١١٤) نفس المرجع السابق ص٢١٧ ٠
(١١٥) نفس المرجع السابق ص٢١٦ ٠

الهجري ، فهي تمتاز بوجود الشجر والزروع الكثيرة(١١٦) ، كما أن القطن كان يجلب منها (١١٧) ، وهناك جبل بالقرب منها يطلق عليه اسم «شعران» لكثرة أشجاره ، وهو جبل (قنديل) الحالي ، حيث تكثر فيه أشجار الكمثري والعنب ، وفيه أنواع الطيور وكانت اشجاره الكبيرة تقطع وتحمل أخشابها الى العراق(١١٨) .

كما وصفت هذه المنطقة بأن لها نواحي عريضة ورساتيق(١١٩) عظيمة(١٢٠) وهي كثيرة المواشي والسائمة من الاغنام والكراع ، وكان ارتفاعها من الحاصل دون قسمة المزارعين وصل الى ستة آلاف كر حنطة وشعيرا ، وقيمتها تبلغ ثلاثة آلاف ألف درهم أما الحبوب والقطاني ثلاثمائة كر تبلغ قيمتها عشرة آلاف دينار(١٢١) وقد بلغت

---

(١١٦) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧٣ .

(١١٧) الاصطخري : نفس المرجع السابق ص٤١ .

(١١٨) الهمداني : مختصر كتاب البلدان ص١٣١-١٣٢ .

(١١٩) رساتيق ، جمع رستاق ، وهو لفظ فارسي ، معناه القرية أو محلة العسكر أو البلد التجاري (محيط المحيط - مادة رستاق) ومن رساتيقها ، نينوى ، وهو قائم على آثار المدينة القديمة ، عاصمة الدولة الآشورية ، ثم رستاق المرج ، وهو فسيح وواسع ، كثير الضياع والماشية والكراع والمرج ، مدينة كثيرة الخير والخصب ، تحدها الجبال وتجاورها أراضي مدينة حزة ورساتيقها التي وصلت وارداتها ٦٠٠٠٠ر٦كر من الحنطة والشعير بلغت قيمتها ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ درهم . وهناك رستاقان عظيمان متجاوران ، وهما قردي وبازيدي ، وفيهما ضياع عظيمة يدر كل منها ألف كر من الحنطة والشعير في كل سنة . ورستاق باهدرا وهو كثير الضياع والدخل . ورستاق الخابور وفيه مدن كثيرة وأعمال واسعة . ورستاق معلثايا وفيشابور وهما رستاقان معدودان بكثرة الغلات والخيرة ولجميع هذه الرساتيق مدخولات كثيرة عن سائر وجوه الغلات والفواكه اليابسة والرطبة (ابن حوقل صورة الارض ص١٩٦) .

(١٢٠) ابن حوقل : نفس المرجع ص١٩٦ .

(١٢١) الكر يساوي (٦٠) قفيزا ويساوي (٤٠) أردبا .
الاردب يساوي (٢٤) صاعا .
الكر يساوي ٩٦٠ صاعا .
انظر عباس العزاوي : تاريخ النقود العراقية (المكاييل) ص١٠٢ .

واردات ضواحي الموصل القريبة وهي المنطقة الممتدة بين قرية (باعيناثا) الى (سريا) بفرسخ طولا وعرضا و(بازيدى) و(باهدرى) و(برقعيد) ١٦٠٠٠ر١٦ كر من الحنطة والشعير ، بلغت اقيامها حوالي ٢٠١٧٠٠٠٠ر٢٠١٧٠ درهم[١٢٢] ٠

اما قصبة مدينة الموصل فلم يكن بها شجر ولا بساتين الا التافه اليسير قبل القرن السادس الهجري ، حيث غرست الاشجار وكثرت الكروم وغرزت الفواكه وغرس النخيل والخضر[١٢٣] ٠ ويؤكد المقدسي البشاري كثرة المزارع والبساتين والمياه وغزارة الدخل في رساتيق الموصل مثل نينوى ومعلثايا وباعيناثا[١٢٤] ، التي استمرت كذلك في أيام ياقوت الحموي في القرن السادس الهجري حيث أشار الى أن ولايتها ورساتيقها[١٢٥] التي كان يبلغ خراجها ٤٠٠٠٠٠ر٤ درهم ، قد تضاعفت وكثر دخلها بعد أن عمرت ٠ ويعزو ياقوت النقص الذي كانت تعانيه المدينة من قلة البساتين الى عدم جريان الماء في رساتيقها[١٢٦] ، وسبب هذا على ما يبدو هو ارتفاع المدينة عن مستوى نهر دجلة ٠

ويقدم لنا ابن الاثير الذي عاش بالموصل حتى الربع الاول من القرن السادس الهجري معلومات مفصلة عن مدينته ، فقد كانت قليلة الفاكهة[١٢٧] ، فلما عمرت البلاد أنشئت البساتين بظاهرها

---

(١٢٢) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٦ ٠

(١٢٣) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص١٩٤ ٠

(١٢٤) المقدسي لبشاري : أحسن لتقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٣٧ ٠

(١٢٥) ذكر ياقوت من أعمال الموصل «الطبرهان والسن والحديثة والمرج وجهينة والمحلبية ونينوى وبارطلي وباهذرا وباعذرا وحبتون وكرمليس والمعلة ورامين وباجرمي ودقوقا وخانيجار والموصلان وجزيرة ابن عمر» معجم البلدان ج٤ ص٦٨٣ ٠

(١٢٦) ياقوت : نفس المرجع السابق ، ص٦٨٣ ٠

(١٢٧) ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ص٢٨ ، وانظر ابن سعيد المغربي : كتاب بسط الارض ص٩٠ ٠

في ولايتها ، فهي اليوم أكثر البلاد فاكهة فالرمان يبقى الى أن يدرك الفتيق الجديد ، وكذلك الكمثرى والعنب ، أما التفاح ، فيجمع العتيق والجديد»(١٢٨) ٠

ويكثر النخيل في سنجار(١٢٩) وهيت والانبار(١٣٠) يضاف الى أن في سنجار كذلك يزرع السماق والجوز واللوز والزيتون والسمسم والرمان الكبير المجفف(١٣١) ، ويرجع سبب غرس أشجار النخيل في هذه المدينة الى أنها تقع في بقعة منبسطة ومكشوفة من الارض وتتوفر فيها المياه(١٣٢) حيث يجرى في وسطها نهر تحف به الاشجار والنخيل والاترج(١٣٣) وامتازت نصيبين ببساتينها ومزارعها وحقولها الممتدة(١٣٤) في أرض منبسطة ، حيث الضياع والمباخس الغزيرة السائمة والكراع ، وكان انتاجها من الغلات المتنوعة وفيرا(١٣٥) وخاصة الحبوب والقمح والشعير والكروم الرائعة ، كما عرفت بكثرة الثمار(١٣٦) أيضا ٠

وقد حافظت مدينة نصيبين على شهرتها الزراعية حتى القرن السادس الهجري حيث وصف ابن جبير سنة ٥٨٠هـ أطراف المدينة ومداخلها قائلا «يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الاشجار يانعة الثمار ، ينساب

---

(١٢٨) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٧٨ ٠
(١٢٩) الاصطخري : مسالك الممالك ص٤١ ٠
(١٣٠) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٩ ٠
(١٣١) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص١٩٩ ٠
(١٣٢) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٣٨ ٠
(١٣٣) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص١٥٨ ٠
(١٣٤) الاصطخري : المسالك والممالك ص٤٠ ٠
(١٣٥) ابن حوقل : صورة لارض ص١٩١ ، المقدسي : أحسن التقاسيم ص١٣٧ ٠
(١٣٦) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص١٩٢ ٠

بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار والحدائق ، تنتظم بحافتيه وتفي ظلالها الوارفة عليه»(١٣٧) .

والمعروف عن نصيبين شهرتها بزراعة الورد الابيض(١٣٨) الذي يصنع منه ماء الورد(١٣٩) المفضل على سائر الانواع ، وكان يصدر الى البلاد الاخرى .

وعلى مقربة من الموصل بثلاثين فرسخا ، جزيرة ابن عمر ، وهي مدينة صغيرة لها أشجار وثمار ومياه ومرافق وخصب ومن أشجارها الجوز واللوز والبندق والتين والكروم(١٤٠) ، ويشير ياقوت الى ذلك بقوله «انها بلدة فوق الموصل ولها رستاق مخصب واسع الخيرات»(١٤١) . كما وصف ابن شداد جزيرة ابن عمر بقوله «ان في داخلها تحت السور ما يناهز الثلاثين بستانا ولها من القلاع الخراجية(١٤٢) ، قلعة فرج وبرجه وفنك والجديدة والقصر وأروخ وكنكور»(١٤٣) . أما المستوفى القزويني فيقول عنها «انها تشمل على

---

(١٣٧) رحلة ابن جبير : ص٢١٤ .

(١٣٨) ويبدو ان هذا النوع من الورد الذي كان يطلق عليه اسم «اللينوفر» قد شاعت زراعته دون الاصناف الاخرى ، وأورد ابن شاكر الكتبي قول الشاعر علي بن المظفر ابن ابراهيم الوداعي ليدل على ذلك :

واذا هم أن يقبل خد الورود ... شوقا ثغر الاقاح الشنيب
خال ان اللينوفر الغض والنرجس اذن الواشي وعين الرقيب

(فوات الوفيات ج٢ ص١٧٦) .

(١٣٩) ابن سعيد المغربي : بسط الارض ص٩٠ ، وتكثر زراعة هذه الورود في قرية «الزراعة» شرقي الموصل ، حيث توجد فيها عين كثيرة المياه .
(ياقوت : المشترك وضعا والمفترق صقعا ص٢٣٢) .

(١٤٠) ابن حوقل : صورة الارض ص٢٠٢-٢٠٣ .

(١٤١) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٧٩ .

(١٤٢) الاراضي المزروعة التي تركها المسلمون بيد أصحابها تزرع عن طريق الصلح .

(١٤٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ــ مخطوطة قسم الجزيرة ــ الورقة ٥٨ أ ، ثم انظر : ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص٢٥٤ .

مائة قرية وفيها مساحات كثيرة مزروعة بالكروم وقد بلغ دخلها ٢٠٠ر١٧٠ دينار »(١٤٤) • وفي قرية القريشية التي لا تبعد عنها كثيرا و هي من نواحيها يكثر التفاح المسمى «التفاح القريشي»(١٤٥) •

واشتهرت من مدن هذه المنطقة الزراعية أيضا «الرحبة» التي تزرع فيها أنواع الفواكه ، وفيها تسعة وعشرون نوعا من الأعناب(١٤٦) كما عرفت «بالكمثري الرحبي» بالاضافة الى نخيلها ، حيث أشار المؤرخ الدمشقي أبو شامة الى أن الرحبة وعانة والكبيسات والمعمر والعين وشفاثا قرى فيها عيون جارية ونخل كثير ومنها يجلب التمر الى الشام(١٤٧) •

ثانيا : المنطقة التي تقع بين شهرزور وارزن الى جنوب ميافارقين :

وهي تمتد في شرق دجلة ، وأهم مدنها شهرزور(١٤٨) وأربل والعمادية وارزن وقد ألقى ياقوت على أحوالها الزراعية بعض الضوء من خلال استعراضه لاحوال البلدان في تلك الجهات ، فقد جاء عن الاكراد الجلالية والباسيان والحكمية والسولية ، الذين كانوا يستوطنون شهرزور بأن لهم مزارع كثيرة في تلك الديار ، وقد اشتهرت مدينة «منصورة» القريبة من خانقين ب (العنب

---

(144) Mustawfi of Qazwuin, The Nuzhat-AL-Qulub, P. 103.

(١٤٥) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص٧٩ •

(١٤٦) جمال‌الدين أبوالحسن القفطي : تاريخ الحكماء (ليبسك ١٩٠٣) ص ٢٩٥ •

(١٤٧) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع (الطبعة الاولى ١٩٤٧) ص١٥١ •

(١٤٨) الواقعة بين أربل وهمدان ، أهلها أكراد «بها نوع من الكروم يأتي سنة بالعنب وسنة بثمرة شبيهة «بالجزر» شديدة الحمرة» زكريا القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص٣٩٧ •

السونايا)(١٤٩) المنسوب الى منطقة سونايا في هذه المدينة ، كما أن أكثر زروع مدينة أربل ورساتيقها من ميـاه الابار ، حيث عملت القنوات لريهـا ، وان الجبال القريبـة منها قد اشـتهرت بأشجار الفواكه المختلفة والتي كانت «فواكهها تجلب الى أربل»(١٥٠) •

وفي الطرف الغربي من اذربيجان ، تقع قرية «أشنه» القريبة من اربل ، حيث توجد بساتين الكمثري الذي كان يفضل على غيره ويحمل الى جميع مـا يجاورها من البـلاد(١٥١) • ويـزرع في قرية «شاقرد» الواقعـة بين داقوقا واربل شجر التـين الذي لا يوجد مثله في غيرهـا(١٥٢) • ويحدثنا صاحب مراصد الاطـلاع عن أثمار التين التي كانت تغلب على أشجار مدينة «حلوان»(١٥٣) التي تقع في أقصى الشرق على حدود العراق العجمي ويطلق عليها اسم «حلوان العراق» أيضا كما كانت فيها الى جانب ذلك ، أشجار «الرمان الذي ليس في الدنيا مثله»(١٥٤) وكانت محاصيل أربل الحبوب والقطن الجيد ، حيث تزرع في رساتيقها المنتشرة من حدودها الجنوبية حتى شمال مدينة شهرزور ، بما فيها حوض نهر الزاب الصغير «الاسفل».

---

(١٤٩) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص٣٤٠ـ٣٤١ •

(١٥٠) ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص١٨٦ ، وجاء في مراصد الاطلاع ان مدينة «شقلاباذ» ولعلها «شقلاوة» الحالية ، قرية كبيرة في لحف الجبل المطل على أربل ، ذات كروم كثيرة وبساتين وافرة ، ينقل عنبها الى أربل السنة بطولها • ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج٢ ص١١٩ •

(١٥١) زكريا القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص٢٨٤ •

(١٥٢) زكريا القزويني : نفس المرجع السابق ص٢٣٧ •

(٥١٣) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص٣١٤ ، (وذكر ان تينها يسمى «باه الخير» لجودته •

(١٥٤) ابن عبدالحق : نفس المرجع السابق ص٣١٤ ، وذكر ياقوت ان في مدينة («قسطيلية» من أرض الزاب الكبير يوجد التمر) معجم البلدان ج٤ ص٩٧ •

وقد بلغ دخلها مع مدينة ارزن(١٥٥) من هذه المحاصيل ٥٠٠ر٢٩٧ دينار (١٥٦) أما مدينة «العمادية» التي يسود فيها مناخ جيد يساعد على انبات الغلات الزراعية والمحاصيل المختلفة ، فقد بلغت مواردها ٠٠٠ر٦٨ دينار(١٥٧) .

واذا رجعنا الى ما كتبه المؤرخون والرحالة والبلدانيون العرب والمسلمون يبدو ان هذه المنطقة كانت على جانب كبير من الاهمية الاقتصادية وخاصة في الانتاج الزراعي والنشاط التجاري في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، مما جعل الخلفاء العباسيين الاربعة المتاخرين ، ابتداء من الخليفة الناصر لدين الله ٥٧٥ـ٦٢٢هـ حتى آخر خليفة عباسي وهو المستعصم بالله ينشطون في أية فرصة مواتية لبسط سيطرتهم على مدينة أربل ونواحيها التي كانت تمثل أهم مركز اقتصادي في هذه المنطقة ، كما فعل ذلك بقية الامراء والملوك وأصحاب الاطراف الآخرون، فكانوا يسعون لتكوين الاحلاف وتسيير العساكر ضد مظفرالدين كوكبري صاحب أربل لاسقاط امارته(١٥٨) .

ثالثا : المنطقة الجبلية وشبه الجبلية :

وتمتد في الشمال والشمال الشرقي من أرض الجزيرة الفراتية وتشمل بعض السهول والمنحدرات والفواصل والوديان التي

---

(١٥٥) وتزرع في أرزن الكروم الكثيرة وأشجار الفواكه .
انظر ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة قسم الجزيرة ـ الورقة ١٢٨ ب .

(156) Mustawfi of Quzwin, The Nuzhat-AL-Qulub, P. 102-103.

(157) Mustawfi of Qazwin, Ibid. P. 104.

(١٥٨) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص١٣٨ـ١٤٧ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ قسم ٢ ص٦٨٠ ، وانظر : سوادي عبد محمد : امارة الموصل في عهد بدرالدين لؤلؤ ص١٤٣ـ١٤٨ .

تحصرها الهضاب أو السلاسل الجبلية • ويمكن تحديدها بالطريق الموصلة بين مدينــة رأس العين وماردين وحصن كيفـا وميافارقين وآمد ومدينــة «خرتبرت» في اقصى الشـمال الشرقي حيث الحدود الارمينية ، وهي تقابــل جزءامن كردستان العــراق في الوقت الحاضر •

وهذه المنطقـــة هي منطقة ري مســتديم وان الفصول الزراعية فيهـا متداخلة لاعتمادها المشترك على مياه الامطـار من جهة ، وعلى مياه الانهار وتفرعاتها أو العيون والآبار والينابيع من جهة أخرى • وقد نتج عن ذلك ازديـاد في مواردها الزراعية ، اذا قورنت بالمناطق الاخرى من حيث المعدل الانتاجي العام • ولدينا احصائية عن أربع مدن من مدنها المهمة ، وهي ماردين وميافارقين وآمد وحصـــن كيفا حيث يبلغ مجموع مواردهـــا ٥٧٢ر٧٠٠ دينار(١٥٩) في السنة الواحدة حسبما جــاء عند المستوفي القزويني خلال الربع الاخير من القرن السادس الهجري ، بينما أشار الفارقي الى ان هذه الديار قد ضمنت في هذه الفترة بمبلغ ١ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار وهو مـــا يستحصل ويدخل من البساتين والكـــروم ومن الضياع من الفاكهة والخضر والبقول وكذلك الفحم والحطب(١٦٠) • ومن المحتمل جـدا ان مواردها هي أكثـر من الرقم المذكـور ، لان المتحصل منها فعــلا ، أي انتاجها السنوي ، لا يطـابق الرقم الذي كانت تضمن فيه •

وأشهر ما تنتجه هذه المنطقة هو «القطن» ويبدو ان زراعته قد وجدت في تلك المنطقـة منذ وقت متقدم عن فترة القــرن السادس الهجري فعلى الرغم من أن (ايرنست باركر) لا يذكر انتقال زراعة

---

(159) Mustawfi of Qazwin, Ibid P. 102-105.

(١٦٠) الفارقي : التاريخ ص٢٢٤ ، ثم انظر ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ــ مخطوطة قسم الجزيرة ــ الورقة ١٩٦ أ •

نبات القطن من شرق بحر الروم (البحر المتوسط) الى غربيه ، من ضمن النباتات والحاصلات التي انتقلت في هذه الفترة الى بلاد الشام والعراق(١٦١) مما يدل على وجود زراعته ، غير أن الدكتور محمد جمال الدين سرور يذهب الى ان القطن لم يكن يزرع في العراق والجزيرة ، وانما نقل اليها من شمال بلاد فارس ومن بلاد ما بين النهرين ، حيث ادخل الحمدانيون هذه الزراعة الى بلاد الجزيرة الفراتية ، وأصبحت مدن ، مجدل ورأس العين وحران ، مراكز مهمة لزراعته(١٦٢) ، كما تتركز زراعة القطن في الطريق الممتد بين المجدل وعرابان على جانبي الخابور ، حيث يرتفع قطن كثير ، وكذلك من طابان والمطرية والسحيمية وتنينير ، حيث يحمل الى خلاط والموصل(١٦٣) .

وقد ظلت مدن رأس العين وماردين وبرتالا وحصن كيفا وسابدا(١٦٤) تحتفظ بزراعة القطن(١٦٥) ، حتى في أيام المستوفي القزويني ، فقد اشار الى الظروف المناخية الملائمة لزراعته ، اذ كان يأتي في مقدمة محاصيل هذه الاصقاع(١٦٦) . وتشير المصادر الى أن القطن لكثرته في بلاد الجزيرة الفراتية «كان يحمل الى خلاط وبلاد الشام وغيرها من البلاد»(١٦٧) .

---

(١٦١) ومن هذ النباتات والحاصلات ، السمسم والخروب والذرة والارز والليمون والبطيخ والمشمش والثوم المعروف باسم "Sha'lots" (وهو البصل العسقلاني) ايرنست باركر : تراث الاسلام جـ١ (الحروب الصليبية ترجمة علي أحمد عيسى) ص١١٦ .

(١٦٢) الدكتور محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ص١٣٥ .

(١٦٣) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧٣ .

(١٦٤) انظر الخريطة .

(١٦٥) يذكر الاصطخري ، (ان هناك أراضي فسيحة وواسعة في مدينة رأس العين، يغلب على زراعتها القطن) ص٧٤ .

(166) Mustawfi of Qazwin, Ibid P. 102, 103.

(١٦٧) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧١ ، ابن حوقل : صورة الارض ص٢٠٠ .

ويقدم لنا المستوفي القزويني معلومات مفيدة عن مساحة الاراضي المزروعة في ماردين ، فيشير الى المزارع الكثيرة التي تسقى من نهر (سور) وهي تشكل حوالي (١٠) فراسخ أي ثلاثة أميال طولا (و١٠) فراسخ عرضا تزرع فيها الحبوب والقطن والفاكهة ، وتبلغ مدخولات محاصيلها ٢٠٠ر٢٣٦ دينار، كما هوشأن ميافارقين فيسود فيها المناخ الجيد وتزرع فيها كثيرا ـ ورأس العين ذات المناخ الجيد والفاكهة الجيدة مثل الاعناب والحبوب والقطن وهي تنمو جيدا وايرتالا المدينة الصحية النزهة ، تنتج الفاكهة ، وكذلك الحبوب والقطن الجيد وتصل مدخولاتها الى ٢٠٠ر١٣ دينار(١٦٨) ٠

وبما ان هذه المنطقة جبلية في بعض اقسامها وسهلية في الاقسام الاخرى لذلك فان محاصيلها كانت تختلف من منطقة لاخرى ، فبينما نجد المناطق الجبلية ، كثيرة الشجر الدائم والمثمر كشجر البندق والجوز واللوز والفستق والبلوط ، نرى زراعة الحبوب كالقمح والشعير والذرة وكذلك الرز ، فضلا عن أشجار الفواكه والاثمار مثل الكروم والتين والسفرجل وزراعة الخضر وحقول الرعي الطبيعية ، تسود المناطق السهلية ، ففي «حيزان» القريبة من آمد ، وهي منطقة جبلية ، تكثر الاشجار وخصوصا شجر البندق(١٦٩) ٠ وفي الجبال المطلة على طور عبدين وقردى يكثر شجر البندق والفستق واللوز الفرك والزيتون والبطم(١٧٠) وانتشرت المزارع والبساتين في السهول المحيطة بمدينة رأس العين ، التي ترويها أكثر من ثلثمائة عين(١٧١) ، كما أن جميع الضياع التي كانت

---

(168) Mustawfi of Qazwin, The Ibid P. 102, 103.

(١٦٩) ابوالفداء : تقويم البلدان ص٢٨٣ ، مراصد الاطلاع ج١ ص٢٣٢ ٠

(١٧٠) العمري : مسالك الابصار ج١ ص٣٠٢ ٠

(١٧١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، الورقة ٤٢ب ٠

تحيط بميافارقين قد زرعت بالكـــروم وأنواع الفاكهة الاخرى والخضر والبقول(١٧٢) ٠

ويبدو ان زراعة ما يبدو في الوقت الحاضر «بالمدرجات»(١٧٣) كانت سائدة في بعض جهات هذه المنطقة الجبلية ، حيث ورد ان في شمال مدينـــة ماردين واد يقال لـــه «وادي الرحلة» وهـــو معمور بالبساتين والجنات على حد قول ابن شداد ، والجبل الذي تقع عليه المدينة «كالدرج بعضه دون بعض بحيث ان الدور تشرف بعضها على بعض والماء ينزل من أعلى الى أسفل»(١٧٤) ٠

وفي الميدان الذي يقابل مدينة حصن كيفا ، تمتد مزارع القمح والشعير والحبوب الاخرى ، ما يكفي أهلها سنة كاملة ويجري ريها بطريقة المدرجات أيضا ، حيث تنساب اليها مياه العيون والابار ومياه الامطار من أعلى الجبال المحيطة بها من جهات ثلاث عدا الجهة الشمالية(١٧٥) ٠

ويمكن القول بان الانتاج الحيواني في هذه المنطقة هو جزء متمم للانتاج الزراعي ، فقد اتجهت العناية الى تربية النحل الذي ينتج العسل وقد ذكر ناصر خسرو في كتابه ما يفيد ، ان في مدينة «بطليس» التي تقع على مقربة من خلاط التابعة الى ميافارقين من يجني في السنة الواحدة من العسل ثلثمائة وأحيانا أربعمائة جرة

---

(١٧٢) الفارقي : التـاريخ ص٢٢٤ ، وهناك قرية تقع الى الغـرب من ميافارقين تعرف بقرية (العطشا) يصل انتاجها من الحنطة ٣٦٠ جريبا ٠
(الفارقي : نفس المرجع السابق ص١١٤) ٠

(١٧٣) الزراعـة التي تسود بعض المنـاطق الجبلية في الوقت الحـاضر في شمال العراق حيث تستغل سفوح الجبال المنحدرة انحدارا تدريجيا بالزراعة ، بعد التحـــكم في مياه الامطار أو العيـــون للاستفادة منهـــا في ري هذه المدرجات ٠

(١٧٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة قسم الجزيرة ـ الورقة ١٣٠ أ ٠

(١٧٥) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٧ أ ٠

عسل ، وكان كل مَنّ منه يبـــاع بدينار(١٧٦) ، وذكر ياقوت «ان في مدينة هرور قرب العمادية يوجد عسل كثير جدا»(١٧٧) ، كما جاء في مراصد الاطـلاع ، ان قرية قلوذية من بلاد الجزيـرة اشتهرت بالعسل المسمى باسمها والذي توجد فيه رائحة(١٧٨) ٠

وكانت بحـيرة «أرجيش» التي تقـع على مقربـة من خلاط «ليس لها نظير في الدنيا ، يجلب منها السمك المعروف «بالطريخ» الى ساير البلاد»(١٧٩) ٠

وأوضح ابن سعيد المغربي ، أن الطريخ انما «هو السمك الذي كان يجلب من بحيرة أرجيش حيث يملح ويحمل الى الاقطار»(١٨٠) ٠

ويبدو ان ميافارقين وآمد قـد صارتا سوقا دائمية لمنتجات المنطقة الجبليـة الزراعية منها والحيوانية خلال القـرن السادس الهجري(١٨١) ، كمـا كانت الموصل سـوقا لبلاد الجزيـرة الفراتية برمتها(١٨٢) تعـرض فيها الغـلات والمواشي من أغنـام وأبقار وجاموس ٠ وأشار الفارقي الى ما أسماه «بيوت الغلات» في مدينة آمد(١٨٣) ، من المحتمـل انها مخـازن للحبوب والمحاصـيل الاخرى تنقل اليها من المناطق المجاورة لتوزيعها عند الحاجة ٠

وذكر ابن الاثـير ان منطقة الزوزان ، كانت سـوقا لبيع الاغنام والماشـية ، فالتركمان والاكراد والكيلكان وهـم رعاة الماشية منهم بصورة خاصة ، يتنقلون في فصلي الربيع والصيف من الاماكن التي شتوا بها الى مدينة الزوزان وهي في شرق دجلة في موقع

---

(١٧٦) ناصر خسرو علوي : سـفرنامه (بالفارسية ـ ترجمة يحيى الخشـاب ـ الطبعة الاولى ـ القاهـرة) ص٧ ٠ (المن الواحـد = رطلان) انظـر عباس العزاوي : تاريخ النقود العراقية ـ المكاييل ـ ص١٠٢ ٠

(١٧٧) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص٩٧٠ ٠

(١٧٨) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج٢ ص٤٤٥ ٠

(١٧٩) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٤٥٧ـ٤٥٨ ٠

(١٨٠) ابن سعيد المغربي : كتاب بسط الارض ص١٠٤ ٠

وسط بين جبال أرمينية في الشمال الشرقي وخلاط وأذربيجان وميافارقين والموصل فيبيعون الغنم هناك رخيصا(١٨٤) ·

رابعا : المنطقة الممتدة بين مدينتي الرقة وملطية :

وتشمل الاراضي الواقعة الى شمال مدينة الرقة على نهر الفرات حتى مدينة ملطية في أقصى الشمال الغربي والواقعة على الفرات أيضا ويحدها نهر البليخ أحد روافد الفرات ، جنوبا · وهذه المنطقة لا يفصلها عن الهضبة الصحراوية من جهة الشرق ·

ويقدم لنا الاصطخري(١٨٥) وابن الفقيه الهمداني(١٨٦) وابن

---

(١٨١) الفارقي : التاريخ ص٩٥ ·

(١٨٢) ابن الاثير : الكامل جـ٢ ص٤٤٣ـ٤٤٤ (وجاء ان الخليفة الظاهر بأمر الله العباسي ، أطلق حمل الاطعمة الى الموصل ، وان يبيع كل من أراد البيع للغلة فحمل منها الكثير الذي لا يحصى) نفس المرجع السابق جـ١٠ ص٥٦٤ ·

(١٨٣) الفارقي : التاريخ ص٩٥ ·

(١٨٤) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٤٧٣ ·

(١٨٥) وصفها الاصطخري بقوله : «انها كثيرة الجوز» ويفهم بان أشجار الفاكهة فيها هي أشجار من نوع النباتات الطبيعية ، «كما تنتشر فيها البساتين والزروع النزهة وهي كثيرة الاعناب» مسالك الممالك ص٦٢ · ووصف مدنها قائلا «ان الرقة أكبر ما فيها من المدن ثم تليها الرافقة وهما كثيرتا الاشجار والمياه وكذلك مدينة سميساط وجسر منبج ، مدينتان نزهتان لهما زروع ومياه وبساتين» نفس المرجع السابق ص٧٤ ·

(١٨٦) ذكر الهمداني أحصائية عن خراج هذه المنطقة ، موزعة على الشكل الاتي :
حران ٧٤٠٠٠٠ درهم ، الرها ١٣٠٠٠٠٠ درهم ، سميساط ١٠٠٠٠٠٠ درهم ، سروج ٦٠٠٠٠٠ درهم ، الرقة ١٦٠٠٠٠ درهم ، الرافقة والروابي ٧٥٠٠٠ درهم (مختصر كتاب البلدان ص١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ·

حوقل(١٨٧) والمقدسي(١٨٨)، وجميعهم من أهل القرن الرابع الهجري، معلومات مفيـــدة عن هذه المنطقـــة تلقي ضوءا كافيـا عن أحوالها الزراعية في الفتــرات التالية ، حيث نقرأ عند ياقــوت وابن سعيد المغربي(١٨٩) وأبي الفداء وابن شداد ما يفيد استمرارها على الانتاج الزراعي في القرن السادس الهجري • فيشير ياقوت الى شهرة مدينة حران(١٩٠) التي جاءت بسبب نشاطها الزراعي ، حيث تقع في الطريق الموصلة الى مدينة جسر منبج الكثيرة المياه والبساتين والتي تحتوي على أنــواع من الفواكه مثل الرمـــان الجيد والسفرجــل والخوخ والكمثرى(١٩١) كمـــا اشتهرت قريـــة «دامان» بالقـــرب من الرقة «بالتفاح الداماني» ، وكان يصدر الى المدن ومنها بغداد ويضرب بحمرته المثل(١٩٢) ، ويلاحظ انتشار «شجر التوت» في مدينة جسر منبج ، لتربية «دودة القز» للحصول على الحرير الطبيعي(١٩٣) ، كما

---

(١٨٧) اشار ابن حوقل الى المكانة الاقتصادية لهذه المنطقة ، حيث كانت لها عمارة وأعمال ورساتيق ، وكور ، وهي كثيرة المياه والزروع والبساتين وأعنابها جيدة كما كان يعمل من زبيبها «الرب» أي الشراب لكثرته ، (صورة الارض ص٢٠٥ـ٢٠٧) •

(١٨٨) قال المقدسي عن الرقة بأنها «طيبة، نزهة كثيرة القرى والبساتين والخيرات والزيتون» وعن حران انهاجيدة الاقطان، وعدد اهم منتجات المنطقة الزراعية فقال : هي الزيت والعســل والقطن والالبان والاعناب والفــواكه الرطبة والقنب» • (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٤٠ـ١٤٦) •

(١٨٩) يصفها ابن سعيد المغربي بأنها كثيرة المياه والبساتين والرمان المفضل والكمثري والخوخ والسفرجل ، كما ألقي بعض الضوء على المنطقة الممتدة بين حران وبالس عبر مدينة جسر منبج والرقة البيضاء ، لا بيضا في رملها ، فقال بأنهـــا ذات فواكه كثيرة وهي أرض زيتون ونخيل وفيهـــا الكثير من الغاسول المعـــروف بالقلي وهي شجر السدر الذي يفيد باغتســـال الموتى (كتاب الارض ص٨٨ـ٨٩) •

(١٩٠) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٢٣٠ـ٢٣١ •

(١٩١) ابن سعيد المغربي : كتاب بسط الارض ص٨٨ •

(١٩٢) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٥٣٨ •

(١٩٣) ابن سعيد المغربي : بسط الارض ص٨٨ •

تكثر المياه والبساتين وأشجار الكمثرى والرمان والسفرجل والخوخ في مدينـة سروج ، احدى أهم المـدن الواقعة الى الغـرب من مدينة حران(١٩٤) • وأشار ابن شداد الى أهميـة مدينة الرها من الناحية الزراعية خلال القرن السادس الهجري ، فقال «ان بساتينها وورق التوت فيهـا والاعناب وغيرها ، تـدر واردات تدخـل في الحقوق السلطانية لخمسمائة فارس»(١٩٥) ، هذا بالاضافة الى ان ما يتبعها من القـرى ، يقدر بسبعمائة قرية ، تشـتمل على أربعةعشر ألفا وستمائة فدان من الاراضي الزراعية»(١٩٦) •

ويحدثنا ابن شداد عن غرس البساتين الكثيرة في مدينة الرقة ، حيث جلب لها الغروس الملك الاشرف موسى ابن الملك العادل صاحب دمشق عندما استولى عليها في نهاية القـرن السادس الهجري فزرع فيها النخيل واشجار الموز وبنيت فيها الجواسق(١٩٧) ، وتجاور مدينة الرقة مساحات واسعة من الاراضي الزراعية فيها نباتات كثيرة يطلق عليهـا «المروج» وأهمها «مرج الضـيازن»(١٩٨) و «مرج عبدالواحد»(١٩٩) و «مـرج الموصل»(٢٠٠) الذي يمتد في موضـع بين الجبال في منخفض من الارض ، شـبيهة بالغور ، فيها مروج وقرى كثيرة(٢٠١) ، ولعل أغلب هذه الارض كانت مناطق رعوية ، تستغل لتربية الماشية •

---

(١٩٤) ابوالفداء : تقويم البلدان ص٢٨٤ •
(١٩٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ــ مخطوطة قسم الجزيرة ــ الورقة ٣٠ب •
(١٩٦) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٣٠ب ، ٣١أ •
(١٩٧) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٢٢ب •
(١٩٨) منسوب الى «الضيزن» صاحب مدينة الحضر بازاء تكريت في البرية بينها وبين الموصل (ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٢٨١ــ٢٨٢) •
(١٩٩) وهو ابن عم الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان • (ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع جـ٣ ص٨٤) •

(٢٠١) ابن عبدالحق : نفس المرجع السابق جـ٣ ص٨٤ •

هذه أهم المناطق الزراعية في أرض الجزيرة الفراتية ، خلال القرن السادس الهجري • وهناك مناطق صغيرة أخرى غيرها ، تقع في أنحاء متفرقة من أرض الجزيرة ، عرفت بجودة غلاتها ووفرتها مثل منطقــة «الغيضة» وهي ناحية في شرق الموصل تضم عــدة قرى تقدر قيمة اســتغلال أراضيها ومزارعها في هذه الفترة بأكثــر من خمسة آلاف دينار(٢٠٢) ومدينة أســعرد (سعرت) قرب ميافارقين ، حيث تنتشر أشجار التين والرمان والكروم(٢٠٣) وقد بلغت مواردها الزراعية ٥٠٠ر٤٦ دينــار(٢٠٤) • ومنطقة «كردســتان» الواقعة بمحاذاة العراق العربي ، حيث يحدها من الجنوب والعراق العجمي من الشرق واذربيجــان ، من الشــمال ، وتشكل ديــاربكر حدودها الغربية • وقد بلغت قيمة موارد هذه المنطقة الزراعية ٥٠٠ر٢٠ دينار ، بينمــا كانت قد وصلت هــــذه الموارد أيــــام السلطان السلجوقي ســليمان شــاه في بدايــة القــرن الســادس الهجــري ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ دينـــــــار(٢٠٥) • وكانت «باصـــــــفرا»(٢٠٦) و «باعشيقا»(٢٠٧) و «باعيناثا»(٢٠٨) ، مناطــق البساتين الكثيرة في شرق الموصــل حيث يغلب عليها شجر الزيتون والنخــل والنارنج والكروم(٢٠٩) أما قريتــا «سوق ثمانين» و «خرســتاباذ» وهي شرق

---

(٢٠٢) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص٨٢٨ •

(٢٠٣) ابوالفداء : تقويم البلدان ص٢٨٩ •

(204) Mustawfi of Qazwin: Ibid P. 103.

(205) Mustawfi of Qazwin, Ibid, P. 105.

(٢٠٦) وجاء عنــد ياقوت «ان عنبها يجيء في وسط الشتاء» معجم البلــدان ج١ ص٤٧١ •

(٢٠٧) وتجاورها قريــة أخرى كبيرة ذات بساتين متصــلة (ياقوت : نفس المرجع السابق ص٤٧٢) •

(٢٠٨) وبساتينها تشبه بدمشق وقد ذكرها أبو تمام في شعره قائلا :

لولا اعتمادك كنت ذا مندوحة … عن برقعيد وأرض باعيناثا

(ياقوت : نفس المرجع السابق ص٤٧٢-٤٧٣) •

(٢٠٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ص٤٧١-٤٧٣ •

نهر دجلة الى الشمال ، فتمتد فيهما مزارع الاعناب الوفيرة الانتاج، وذكر ياقوت ان ما يرد من الاولى تبلغ قيمته ٢٧ر٤٠٠ دينار(٢١٠) ٠

ومن المنـــاطق الرعوية المنتشرة هناك ، منطقتـــا «الاني» و«دربند زنكي»، حيث كانت مراعي جيدة وأرض صيد جيدة، ومن محاصيلها الحبوب(٢١١) ٠

ويجلب الى بغداد نوع من الرمان من منطقة «البواريج» بواسطة نهر دجلة(٢١٢) ، كما يجلب من قريـــة يقال لها «شرملة» التابعة الى مدينة «شـــوش» قرب الموصل ، حيث ينسب اليهـــا«حب الرمان الشوشي»(٢١٣) الذي اشتهر في مدن الجزيرة الفراتية وبغداد ٠

ولابد من أن نشير الى أهمية بعض المدن والقرى الزراعية التي تقع في أنحاء متباعدة من أرض الجزيرة ، حيث تمتد فيها البساتين والمزارع وأشـــجار الفاكهة الكثـــيرة المتعددة الالوان والاصـــناف ، ويبدو أنها تدر موارد زراعية كبيرة خلال القرن السادس الهجري، استنادا الى اشارات الجغرافيين والمؤرخين المسلمين ، ومن أهم هذه القـــرى «نيربـــا»(٢١٤) و «وادي زمـــار»(٢١٥) و «بيســـان»(٢١٦)

---

(٢١٠) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٤٢٢ ، Mustawfi, Ibid P. 104.

(211) Mustawfi of Qazwin, Ibid, P. 108-106.

(٢١٢) ابن سعيد المغربي : بسط الارض ص٩٠ ٠

(٢١٣) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ض٣٣٤ ٠

(٢١٤) قرية كبيرة ش قي الموصل (ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج٣ ص٢٥٦) ٠

(٢١٥) قرب الموصل (ابن عبدالحق : نفس المرجع السابق ص٢٦٥) ٠

(٢١٦) من قرى شرقي دجلة الى الشـــمال من الموصل ٠ ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٧٨٩ ٠

و « باجـــدا »(٢١٧) و « الجديـــــدة »(٢١٨) و « الســــلامية »(٢١٩) و«كرمليس»(٢٢٠) ·

ومن الجدير بالذكر ، ان المصادر أوردت اسماء عدد كبير من الأديرة المنبثة في أنحـاء الجزيرة الفراتيـة ، حيث كانت تـؤلف مساحات واسعة من الارض المزروعة بالمحاصـيل والاشجار والبساتين التي ضمت أنواعا من أشجار الفواكه والأثمار · ومن الاديرة التي كانت تدر موارد متعددة الاصناف «دير احويشا» الذي يقع بالقرب من حيزان ، حيث تنتشر حولـه بســاتين الكـروم ويمتـــاز بكثرة الفواكه(٢٢١) و «دير الكلب» بالقـرب من معلثايا وشجرة الزيتون والرمان والآس والكروم والزعفران والنرجس وتمتد مزارعه في السهول القريبة منه (٢٢٢) ، وأديرة «باسهرا» و«الزرنوق» و«أكمن» و«الباعوث» و«جرجيس» و«الزعفران» ، وجميعها تقع بالقرب من الموصل ، حيث امتـدت فيها البســاتين والمزارع الواســعة وغطتها أشجار الفواكه والاثمار ، بالاضافة الى المحاصيل والحبوب كالحنطة

---

(٢١٧) قرية كبيرة بين رأس العين ومدينة الرقة · ياقوت : نفس المرجع السابق ص٥٣ ·

(١٢٨) بين نصيبين والموصل ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع جـ١ ص٢٤٤ ·

(٢١٩) شرقي دجلة ، من نواحي الموصل ، فيها كروم ونخيل وبساتين · ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص١١٣ ·

(٢٢٠) قرية من أعمال نينوى في شرقي دجلة · ابن عبدالحق : مراصد جـ٢ ص٤٩٢ وذكر المستوفي القزويني أن مواردها الزراعية بلغت ٢٠٠ر١١ دينار ·
Mustawfi, Ibid, P. 104.

(٢٢١) الشابشتي : الديـارات ص١٢٦ـ١٢٧ ، العمري ، مســالك الأبصار جـ١ ص٣١٠ ·

(٢٢٢) الشابشــــتي : نفس المرجع السابق ص٢٦٢ ، العمــــري : نفس المرجع السابق جـ١ ص٢٥٤ ·

والشعير ، كما ان هناك مساحات من الارض تركت لتكون حقولا لرعي الماشية والدواجن(٢٢٣) •

أما أديرة «عمر الزعفران» قرب نصيبين و «ما سرجيس» بالقرب من مدينة عانة و «باعربا» قرب تكريت و «قنى» غربي دجلة قرب الجديدة و «مريحنا» الى جانب تكريت و «العجاج» قرب هيت و«أبي يوسف» القريب من بلد فانها مناطق زراعية تكثر فيها زراعة المحاصيل والاشجار وأشجار الفواكه ، مثل الزيتون والفستق والبندق والكروم(٢٢٤) ، كما وصفت مزارعها بالاتساع وكثرة الغلات(٢٢٥) •

وكان غالبية سكان الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، فلاحين مرتبطين بالارض ، وكان الطابع الزراعي العام يغلب على هذه المجتمعات وبعبارة أخرى ، انها مجتمعات زراعية ، لم تلعب الصناعة أو التجارة فيها الا دورا محدودا فالذين يستوطنون ضفاف الانهار أو السفوح والسهول الجبلية أو مناطق العيون والابار والقنوات أو السهل الرسوبي ، جميع هؤلاء اتجهوا للاشتغال بالزراعة ، وقد أشار الى ذلك ياقوت في مواضع كثيرة من كتابه معجم البلدان(٢٢٦) مما يدل على أن عددا كبيرا من الناس كان يشغل هذا القطاع •

---

(٢٢٣) ياقوت : معجم البلدان جا ص٢٦١ ، ج٢ ص٦٤٤ ، ٦٦٣ ، ابن عبدالحق مراصد الاطلاع جا ص٤٢٤ (العمري : مسالك الابصار جا ص٢٥٥ـ ٢٨١) •

(٢٢٤) الشابشتي : الديارات ص١٤٧ ، ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٦٤٥ـ ٦٧٨ـ٧٠١ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع جا ص٤٣٨ ، العمري : مسالك الابصار جا ص٣٠٢ـ٣٠٥ـ٣٠٩ •

(٢٢٥) العمري : نفس المرجع السابق جا ص٣٠٩ •

(٢٢٦) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص٧٠ ، ٨٦ ، ج٤ ، ص٥٧٦ •

أما هجرة الفلاحين الداخلية أو الخارجية(٢٢٧) ، فلم تقدم عنها المراجع المتوفرة معلومات مفصلة ، ولكن نلمس من خلال النصوص والحقائق التاريخية القليلة والمشتقة ان ذلك كان يحدث بين حين وآخر ، يدل عليه تناقص الانتاج الزراعي الكلي في بعض المناطق ، او انعدامه في مناطق أخرى .

ووردت عند ابن الاثير اشارة تفيد أن عمادالدين زنكي صاحب الموصل ، بلغه ، ان جماعة من فلاحي الموصل قد رحلوا الى ماردين احدى الامارات الارتقية ، فأرسل الى صاحبها حسام‌الدين تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق ، يطلب منه أن يعيدهم ، فلم يفعل ، وكان جوابه : «اننا نحن نحسن الى الفلاحين ونخفف عنهم ونأخذ منهم في القسمة من الغلال العشر ، فلو فعلتم أنتم مثل فعلنا لم يفارقوكم»(٢٢٨) .

وقد تعرضت أرض الجزيرة الفراتية الى بعض الآفات الزراعية التي كانت تسبب تلف المحصول أو القضاء عليه ، ذكر ابن الاثير بأن غزو اسراب الجراد قد تسبب في اهلاك كثير من الغلات والخضر بالعراق وبلاد الشام والجزيرة خلال القرن السادس الهجري(٢٢٩) ، ويبدو ان هذه الموجة من الجراد كانت عامة شملت بلادا كثيرة . كما وقع سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م برد عظيم في مدينة ماردين «ولم تجر بمثله عادة ولا أبصر أكثر منه «وقد أدى ذلك الى اهلاك المواشي واتلاف أكثر النبات والشجر»(٢٣٠) كما حدث مثل ذلك

---

(٢٢٧) ويبدو ان معظم هؤلاء الفلاحين المهاجرين ، كانوا يفتشون عن الارض الزراعية العشرية ، أي تلك الارض التي يؤخذ للسلطان من ريعها ومواردها الزراعية العشر عند قسمة المحاصيل (انظر ابن‌الاثير : التاريخ الباهر ص٧٨) .

(٢٢٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٢ ص٤١٨ ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص١٢٥ .

(٢٣٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ــ ١٩٠٨) ص٢٠٢ .

في الموصل سنة ٦٢١هـ حيث «خرج الجراد وكان كثيرا خارجا عن الحـــد»(٢٣١) • ونقل اليــــونيني ، الاحـــاديث التي كان الناس يتناقلونها فيمـــا يتعلق بـ (الدودة) التي أكلت ثمـــر التفاح ، في مناطق زراعته من مـــدن الجزيرة الفراتية في هذه الفتـــرة ، بحيث يبست معظم أشجاره عندهم(٢٣٢) •

ولكن هذه الاشارات الخاصة بتلك الآفات كانت قليلة ومتباعدة زمنيا ، مما يدل على أن القرن السادس الهجري ، كان عصر ازدهار الزراعة في بلاد الجزيرة الفراتية ووفرة بالمحاصيل الزراعية على شتى أنواعها وخيراتها •

---

(٢٣١) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٤٢٤ •

(٢٣٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص٣٠ •

الفصل الثاني

الاقطـــاع

أنواع الاقطاع :

١ ــ الاقطاع العسكري ٠
٢ ــ الاقطاع الوراثي ٠
٣ ــ الاقطاع السياسي ٠
٤ ــ اقطاع المدن ٠

الفصل الثاني

الاقطـــاع

نشأ الاقطاع في أرض الجزيـرة الفراتية قبل القرن السادس الهجري ، واتخذ له مفاهيم متعددة ، كما هو الحال في جميع البلاد الاسلامية ، وأول اشارة الى هذا النظام في أرض الجزيرة الفراتية أوردها البـلاذري في القرن الثالث الهجـري ، فقد ذكـر الارض البوار التي أحياها المسلمون فأقطعوهـــا «فان لبيت المال العشر فيها»[1] . لذلك أطلق على هذه الارض المقطعة ـ الارض العشرية[2] ـ وذكر البلاذري جـلاء أهل مدينة رأس العـين في بلاد الجزيـرة عن أراضيهم ، حيث اقطعت الى جماعات ليزرعوها[3] ثم تطور الاقطاع

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان قسم ٢ ص٢٠٧ .

(٢) البلاذري : نفس المرجع السابق ص٢٤٨ ، ويذكر قائلا «سألت المشايخ عن اعشار بلد وديار ربيعة والبرية ـ وهي أرض من الجزيرة الفراتية ـ فقال هي أعشار ما أسلمت عليه العرب أو عمرته من الموات الذي ليس في يد أحد أو رفضــه النصارى فمات وغلت عليه الدغل فأقطعه العـــرب» ، انظر عبدالعزيز الدوري «ان اقطاعات الارض الموات تراوحت بين (٦٠) جريبا الى (٨٠٠) جريب (الجريب = ١٥٩٢ مترا مربعا) » مقالته «نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية» مجلة المجمع العلمي العراقي ، مجلد ٢٠/ ١٩٧٠ .

(٣) البلاذري : نفس المرجع السابق ص٢١٠ ، وانظر أيضا فهمي عبدالجليل محمود : النظام الاسلامي للارض الزراعية حتى نهاية الدولة الاموية (رسالة ماجستير مكتوبة على الآلة الكاتبة ـ ١٩٧٤) الورقة ٢١٩ـ٢٢٠ .

واصبح ، كما تشير النصوص الواردة عنه في القرن الرابع الهجري، في بلاد الجزيرة الفراتيه ، نوعا من الاساليب الاداريه الاقتصاديه للاراضي الزراعية أو غير الزراعية وما يتبعها من ممتلكات اخرى ٠

وكانت أساليب منح الاقطـاع ، تختلف في مفاهيمها العامة ، فبعض الارض تمنـح بملكية دائمة أو مدى الحياة وأخرى لفترة محدودة ، فالاولى لا يمكن استردادها من المقطـع (بالفتح) وهي شبيهة الى حدما بالاقطاع الوراثي والثانية يكون التصرف في الارض المقطعة يختلف عن مفهوم الملكية الفردية حيث ينتهي استغلالها بموت المقطـع (بالفتح) كما يحق للمقطـع (بالكسر) أن يستردها متى شاء ٠ أما منح ملكية الارض لفترة محدودة فيعني الاستغلال المؤقت للثروات ينتهي بانتهائه ٠

كما اتخذ الاقطاع سبيلا لدفع الرواتب أو العطاء ، حيث تمنح موارد الارض على مختلف أنواعها ، فأصبح الاقطاع محدودا بزمن أو بخدمة الى أن صار وراثيا ، ومن ثم تطور الى اقطاع مقابل تهيئة المقطع (بالفتح) لعدد من الجند[٤] ٠

وشاعت الى جانب ذلك ، الاقطاعات التي يأخذها أصحابها على انها ملكية مؤقتة ، وتكون فيها سيطرة رئيس الدولة تنفي صفة الاستقلال الكامل أو الجزئي للمقطعين الذين يحصلون على الاقطاع لاي سبب من الاسباب ٠

وقد عمم السلاجقة النظام الاقطاعي[٥] بعد أن أخذوه عن البويهيين[٦] ونتيجة لذلك اقطع السلاجقة أكثر بلاد الجزيرة

---

(٤) انظر : عبدالعزيز : الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص٩٨ ٠

(٥) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق (مصر ـ ١٣١٨هـ) ص٥٥ ٠

(٦) مسكويه : تجارب الامم جـ٥ ص٣٥٤ ، جـ٦ ص٩٦ ، وانظر : ابراهيم علي طرخان : النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى (القاهرة ـ ١٩٦٨) ص٢٢ وذكر «ان البويهيين أساءوا التصرف في حكومتهم نتيجة لاتباعهم النظام الاقطاعي حيث خربوا البلاد» ٠

الفراتية لامرائهم فأدى هذا بالتدريج الى ظهور الامارات الاتابكية والارتقية(٧) وانفصالها عن الدولة السلجوقية ، ويرى الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ان سعي السلاجقة لتعميم الاقطاعات والاتابكيات ، قد أدى الى عكس الهدف الذي كان يرمي اليه وزير السلاجقة نظام الملك ، اذ انفصلت هذه الاتابكيات عن السلطة ، مكونة امارات صغيرة ، فتفككت وحدة السلاجقة وتوزعت الدولة بين أمرائها(٨) وأخذ أمراء الجزيرة الفراتية، النظام الاقطاعي السلجوقي، وطبقوه خلال حكمهم الذي استغرق القرن السادس الهجري • واقطاع السلاجقة هو آخر صورة متطورة للاقطاع منذ القرن الثالث الهجري •

ومن الجدير بالذكر ، انه منذ بداية النصف الثاني من القرن السادس الهجري ومع انتعاش الخلافة العباسية ، وانحسار ظل

---

(٧) ينتمون الى (ارتق بن اكسك) وهو احد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥ـ٤٧٥هـ/١٠٠٤ـ١٠٨٢م) وكانت له مكانة حسنة لدى السلاجقة وقد استطاع الاستيلاء على عدد من أهم مدن دياربكر مثل حصن كيفا وماردين ونصيبين وتشكيل امارة محلية • وبعد وفاته تمكن اخوه ايلغازي الاستيلاء على معظم ممتلكاته ، فيما عدا حصن كيفا الذي صار لداود بن سقمان ، وبذلك ظهرت امارتان للاراتقة ، هما ماردين وحصن كيفا • وفي عهد حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي توسعت املاك بني أرتق • واستمرت هذه العائلة تحكم المنطقة حتى مطلع القرن التاسع الهجري •

راجع عن الاراتقة : الفارقي : تاريخ آمد وميافارقين (المخطوطة) ، تاريخ الفارقي (القسم المنشور) ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ــ مخطوطة قسم الجزيرة ــ •

(٨) الدكتور محمد حلمي محمد احمد : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص٢٠٧ـ٢٠٨ ولكنه يذكر ، ان النظام الاقطاعي الذي اقامه السلاجقة في وسط فارس وشماليها كان عاملا مساعدا للسلاجقة ، اذ انصرف أصحاب الاقطاعات الزراعية المدنية الى انشاء قوة عسكرية مشتركة بين المنتفعين بهذه الاقطاعيات لتقوم بمهمة الحماية لهم والدفاع عن اقطاعهم ، فيسر هذا التفكك مهمة السلاجقة الذين كانوا يطوقون هذه الاقطاعات ويفصلونها بعضها عن بعض ، فلا تلبث ان تبادر الى التسليم لهم • نفس المرجع السابق ص١٩٦ـ١٩٧ •

السلاجقة عن العراق وبلاد الجزيرة الفراتية أخذ الامراء الاتابكة والاراتقة يمارسون الاقطاع الذي أصبح يمثل نوعا من أنواع التولية الادارية ، وذلك بجعل المقطع (بالفتح) مسؤولا عن ارسال موارد اقطاعه الى خزينة الامارة بعد أن يأخذ نصيبه منها ٠ وفي هذه الحالة كان المقطع يتولى الاشراف المباشر على اقطاعه أو يرسل نائبا عنه لادارتها ٠ كما أن بعض الاراضي كانت تقطع مقابل دفع مبلغ معين أي بالضمان ، هذا فضلا عن استمرار الاقطاع باستثماره بدلا من مرتبات القادة العسكريين أو الجند أو الموظفين الثابتة أو كجزء منها(٩) ٠

وهناك بعض الاقطاعات في الجزيرة الفراتية ، كانت تعطى بالعشر في عهد الاتابكة والاراتقة ، كما كان الحال أيام السلاجقة ، فقد أشار ابن خلكان الى اقطاعات جمال‌الدين محمد بن علي الاصفهاني وزير الاتابكة في الموصل سنة ٥٧٥هـ ، التي كانت تقوم على عشر موارد الارض العامة على «جاري عادة وزراء الدولة السلجوقية» ٠

ولكن مثل ذلك النوع من الاقطاع لم يرد ذكره ، كثيرا في النصوص المتيسرة لدينا عن الجزيرة الفراتية ، سوى ما يذكره ابن الاثير عن اقطاع كان يمارسه الاتابك سيف‌الدين غازي بن عمادالدين‌زنكي صاحب الموصل (٥٦٥ـ٥٧٦هـ/ ١١٦٥ـ١١٨٠م) فكان يسلم الارض أو الممتلكات الملحقة بها «على اقطاع يذكره فيجاب الى ذلك»(١٠) ، أي على قاعدة تستقر بينهم من اقطاع بين الاتابك وصاحب الاقطاع ٠ كما أشار ابن العديم الى أن الاتابك نورالدين زنكي ، كان يرغب في الاقطاع ، فان لم يجب الى ذلك يعدل الى الشدة والعنف(١١) ، ويبدو أن هذه الاقطاعات كانت غير

---

(٩) محمد حلمي محمد احمد : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص٢٠٣ ٠
(١٠) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص١٦٩ـ٣٤٦ـ٤١٢ ٠
(١١) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص٣٢٥ ٠

مرغوبة لانها تفرض عشر الموارد للمقطعين (بالكسر) ، مما يجعل المقطعين (بالفتح) يفتشون عن نوع اخر من الاقطاع ·

ويبدو ان الاقطاع الذي انتشر في ارض الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، لم يكن النظام الوحيد المعروف هناك ، فقد وجد بجانبه اقطاع غربي ، انتقل مع الصليبيين من أوربا(١٢) الى الدويلات الصليبية ومنها امارة الرها في الجزيرة الفراتية(١٣) ولكن هذا الاقطاع كان بنطاق ضيق، ولم يستمر طويلا نتيجة للتهديدات المستمرة التي تعرضت لها امارة الرها الصليبية من جانب الاتابكيين والايوبيين من بعدهم ·

---

(١٢) مع اختلاف النظامين ، الاقطاعي الاسلامي الذي أوجده البويهيون وعممه السلاجقة ونظيره الاقطاع الاوربي في خصائص جوهرية ، فهناك أوجه شبه ، وخاصة في مجال مظاهر الاستغلال البشري والمادي · أما وجه الخلاف الكبير بينهما ، ففي النظام الاسلامي لم يكن الاقطاع تمليكا ، وانما استغلالا ، فلا يملك المقطع (بالفتح) حق الرقبة أي حق الامتلاك ، بل له حق الاستغلال بينما يسود نظام التابع والمتبوع في النظام الاقطاعي الاوربي ، حيث يرتبط الفلاح بالارض ويصبح جزءا منها ، وتكون منافع حق الرقبة والاستغلال والارتفاق للسيد الاقطاعي (المتبوع) · ويمكن القول ان النظام الاقطاعي الاوروبي يمثل صفة أساسية للاقتصاد الاجتماعي العام ·

راجع : حول الاختلاف بين الاقطاعين الاسلامي والاوربي بصورة مفصلة: الدكتور : ابراهيم الطرخان : النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط ص٢٢ ، ٩٩ ، ١٥٣ ، ٢٣٥ · ثم انظر : عن الاقطاع الغربي :

Runciman: A History of The Crusades vols. 1,11,111; Baldwin, M. (Ed) The First Hundred years (A History of the Crusades vol. 1).

وارنست باركر : الحروب الصليبية (ترجمة الباز العريني ــ مصر ــ ١٩٦٠) ·

(١٣) اتخذ الصليبيون الاوائل قاعدة في التوزيع الاقطاعي ، ويتضمن هذا التوزيع معنى اقتسام الغنيمة فجعلوا للقادمين الاولين ، أي لانفسهم ، الحق الكامل في كل حصن أو بلد أو أقليم يضعون أيديهم عليه ·

انظر : ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية ص٤٧ــ٤٨ ·

ويمكن القول ، ان أنواع الاقطاع التي قامت في أرض الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي كانت كما يأتي :

١ ـ الاقطاع العسكري(١٤) :

درج الاتابكة والاراتقة على هذا الموضوع من الاقطاع منذ عهد السلاجقة(١٥) ، حيث كان الاقطاع السلجوقي ، في طبيعته آنذاك اقطاعا عسكريا ، ويتضمن اقطاعا للموارد ولفترة معينة ٠

وحل هذا الاقطاع ، على ما يبدو مشكلة الجند الذين كانوا يقيمون بالمدن ويديرون اقطاعاتهم بالوكلاء ، حيث أصبح الزراع والفلاحون تابعين للجند المقطعين (بالفتح) ويهيئون لهم الموارد المالية ، لكي ينصرفوا للخدمة العسكرية(١٦) ولاعداد الجند ، ففي ٥٨٧هـ ، اقطعت حران والرها للجند ، ليصبحوا قوة يعتمد عليها في مقارعة الصليبيين(١٧) ، وكذلك ماردين التي اقطعت لعساكر الاتابك نورالدين أرسلان شاه صاحب الموصل (٥٨٩ـ٦٠٧هـ/ ١١٩٣ـ١٢١٠م) ، ولكن «لم يستحصلوا منها شيئا لتأخر ادراك الغلات»(١٨) وقد ذكر ابن الاثير ، أنه «لو بقى الاقطاع بأيدي هؤلاء

---

(١٤) ظهر الاقطاع العسكري نتيجة الحاجة الى المال ، وكانت بدايته تعزى الى المؤثرات التركية المغولية ، وقد بدأه في العراق وأرض الجزيرة البويهيون، وسار السلاجقة على خطتهم : انظر : عبدالعزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ٨٧ـ٩٦ ٠

(١٥) أنظر محمد حلمي محمد أحمد : الدولة والخلافة في العصر العباسي ، ص ٢٠٨ ٠

(١٦) كانت الخدمة العسكرية في الاقطاع الاوربي مقررة نظريا بأربعين يوما يخدمها التابع عند سيده مع اتباعه ، ولكن هذه المدة لم تحدد بالنسبة للاقطاع الاسلامي ٠ أنظر : ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية ص٤٨ ٠

(١٧) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص٦٢ ٠

(١٨) ابن الاثير : الباهر ص١٩٥ـ١٩٦ ٠

الجند الى أن يأخذوا منها ما ينفقون على الحرب لكان مصلحة»(١٩) •
كما أن الاتابك قطب‌الدين مودود بن عمادالدين زنكي (٥٤٤-٥٦٥هـ/١١٤٩-١١٦٩م) اقطع جنده اقطاعات في قرى كواشي والزعفران وقلاع الزوزان(٢٠) واستجاب الى طلب أحد مماليكه المسمى «أغلبك» بالاقطاعات «وصار عنده من أكابر الامراء ، اذ كان يزيده اقطاعا وقربا وجعله مقدم عسكره»(٢١) • ومن الامراء الآخرين الذين حازوا الاقطاعات العسكرية في عهد عمادالدين زنكي صاحب الموصل ، نجم‌الدين أيوب وأسدالدين شيركوه ، فقد «اقطعهما اقطاعا سنيا في شهرزور»(٢٢) •

٢ ـ الاقطاع الوراثي :

يبدو ان توارث الاقطاعات كان سائدا ، منذ العصر العباسي الاول ، ونفهم مما رواه البلاذري ، أن «عين الرومية» وهي في أرض الرقة من الجزيرة الفراتية ، كانت للوليد بن عقبة بن أبي معيط ، ملكا فرديا ، ثم صارت للخليفة ، فاقطعها الى ميمون بن حمزة ثم ابتاعها الخليفة هرون الرشيد من ورثته(٢٣) ، كما اقطع ابن هبيرة من أرض سروج في الجزيرة ، فأخذت منه واقطعت الى بشر بن ميمون ، ثم ابتاعها الرشيد من ورثته(٢٤) أيضا •

أما في العهد الاتابكي ، فقد تطور الاقطاع العسكري الى جند مقطعين (بالفتح) للارض يتوارثونها ، مقابل ضمان بقاء عدد من الجند في خدمة الامير الاتابكي ، ولكن يحق للامير وبامكانه أن يلغي

---

(١٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٩٦ •
(٢٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١١٢-١١٩ •
(٢١) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١١٩-١٢٠ •
(٢٢) أبو شامة : كتاب الروضتين (تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد) ص٩٥-٩٦-١٢٩-١٣٠ •
(٢٣) البلاذري : فتوح البلدان قسم ٢ ص٢٤٨ •

أية اقطاعــات متى شاء • ويذكر ابن الاثير بهذا الصــدد ما كان يفعله الاتابك نورالدين محمود زنكي مع أجناده ، فاذا توفى أحدهم وخلف ولدا ، اقر اقطاعه عليه ، فان كان الولد كبيرا اشرف بنفسه وتولى الاقطاعات وان كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يحق اليه فيتولى أمره الى أن يكبر ، فكان الاجناد يقولون هذه املاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عنها(٢٥) ، لاننا نتوارثها(٢٦) •

ويعزو ابن الاثير الى اقطاعات الجنــد المتوارثة هذه سبب ثباتهم في ساحات الحروب ومداومتهم على القتال(٢٧) •

ويمكن القول أن مفهوم الاقطاع الوراثي يجب أن يتضمن استمرار التبعيــة والولاء للامير الاتابــكي(٢٨) ، ففي ٥٢٣هـ مات صاحب منبــج وهي من مدن الجزيرة ، فاقطع الاتــابك نورالدين محمود زنكي أرض منبــج الى ولده غازي بن حســان «فعصى عليه فسير اليه عسكرا وأخذوها منه فأقطعها أخاه قطبالدين ينال بن حسان»(٢٩) • وفي ٦١٦هـ ، اقطع الملك الاشرف موسى صاحب ديار الجزيرة ودمشق عمادالدين بن المشطوب وهو أحد أمرائه المنشقين عليه ، مدينة رأس العين «وأقام عنده مخيما»(٣٠) •

---

(٢٤) البلاذري : نفس المرجع السابق ص٢٤٨ •

(٢٥) ابن الاثير : الباهر ص١٦٩ •

(٢٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان قسم ١ جـ٨ ص٣٠٩ـ٣١٠ •

(٢٧) ابن الاثير : الباهر ص١٦٩ •

(٢٨) يقول القلقشندي نقلا عن ابن فضلالله العمري «والذي للامراء والعسكرية لا يكتب به مرسوم لان كل طائفة ، ورثت مالها من ذلك عن آبائها ، وأما الادارات من المبالغ والقرى ، فانها تبقى لصاحبها كالملك يتصرف فيه كيف يشاء من بيع ووصية ووقف لمن أرادها» صبح الاعشى جـ٤ ص٤٢٥ ، ٤٢٦ـ ٤٢٧ •

(٢٩) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ٢ ص٣٢٥ •

(٣٠) ابن العديم : نفس المرجع السابق جـ٣ ص١٦٠ •

ومن المحتمل جدا ، أن الملك الاشرف انما فعل ذلك لاسترضاء ابن المشطوب ، الذي كان قد خرج عن طاعته ، بجعله تابعا له وبخدمته .

وعلى أية حال فان الاقطاعات الوراثية والتمتع بايراداتها لا تعني المشاركة في الحكم ، ففي ٥٤١هـ سار الاتابك نورالدين محمود زنكي الى قلعة جعبر وضرب حولها الحصار ، فلما طال عليه أرسل صاحبها لتسليمها اليه، وفي هذه الحالة فانه يضمن له الاقطاع الكثير والمال الجزيل(٣١) . ونفهم ان ضمان الاقطاع والاموال لصاحبه قلعة جعبر كان لابعاده عن التحكم فيها والغاء سلطته عنها .

وجاء عن الاتابك قطب الدين مودود صاحب الموصل في ٥٦٣هـ انه كان يوسع من اقطاعاته على نوابه «لئلا يمدوا عيونهم على غيرهم» فيأخذون اموال الرعية والرشاوي(٣٢) ، ومن المرجح أن ذلك لا يعني أنهم مستقلون في حكم اقطاعاتهم هذه ، كما ورد في اخبار بدرالدين لؤلؤ أمير الموصل المستقل ، انه أمر الشاعر أبا الطيب بن الحلاوي الموصلي ان يلازم مجلسه كسائر الندماء واقطعه اقطاعا(٣٣) .

ويبدو ان اقطاع الشاعر المذكور لا يعني المشاركة في الحكم أيضا ومن الاطباء الذين حصلوا على اقطاعات جزيلة من الاتابكة تقي الدين عيني الرأس المعروف بابن الخطاب وهو من مدينة رأس العين ، وهذه الاقطاعات تفيد ـ كما هو واضح ـ في الحصول على موارد مالية لقاء خدمات هذا الطبيب في الحقل الطبي(٣٤) وهي متوارثة أيضا .

---

(٣١) ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص١٠٩ .
(٣٢) ابن الاثير : نفس المرجع السابق الباهر ص١٤٩ .
(٣٣) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات جـ١ ص١٣٢ .
(٣٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢٧٤ .

٣ ــ الاقطاع السياسي :

وهي مشـــاركة المقطع (بالفتح) في ادارة الاقطاعـــات وحكمها والاستقلال فيها بعيدا عن تاثيرات المقطع (بالكسر) وتدخلاته ٠

وكان هـــذا الاقطاع يشبه الاقطاع الاداري ، وهـــو ولاية على منطقة ، وللمقطـــع (أو الامير) السلطة التامة في اقطاعـــه ، وله أن يعطي اقطاعات بدوره(٣٥) ٠ وقـــد عرف هذا النوع من الاقطاع في الجزيرة الفراتية أيام الاتابكة ٠ وتتكون الاقطاعات هنا من المدن أو القلاع وما يجاورهما من أراض زراعية أو غير زراعية ، فقد اقطعت مدينة حران وقلعتها سنة ٥٧٨هـ الى مظفرالدين كوكبري ، حيث كان يثق فيه الاتابك عزالدين مسعود بن قطبالدين مودود ، ويعتمد عليـــه(٣٦) ٠ والظاهر ان اعتماد الاتابـــك على مظفرالدين كوكبري ، كان نتيجـــة الثقة في مقدرته على حكم المدينـــة وادارتها سياسيا ، حيث شغل هذا الامير وظائف مماثلة كان الاتابكيون قد عهدوها اليه ٠

كما اقطع صلاحالدين الايوبي ، مظفرالدين كوكبري نفسه ، الذي كان يتمتـــع بمنزلة رفيعة لديه ، مدينة أربل وأضـــاف اليه شهرزور وأعمالها والرها وقد «سار الى أربل فامتلكها»(٣٧) ٠ أي احتلها عسكريا وأقـــام حكمه السياسي فيها ، ولكنه تنـــازل عن الاقطاعات الاخـــرى التي كان صلاحالدين الايوبي قـــد اقطعها اياه(٣٨) ٠ وكان سيفالدين غـــازي بن عمادالدين زنكي قـــد أقطع

---

(٣٥) عبدالعزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص٩٧ ٠

(٣٦) ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص٤٨٢ ٠

(٣٧) ابن الوردي : التاريخ جـ٢ ص١٤٧ ٠

(٣٨) وقد سمي ــ بالملك المعظم ــ وهو من أصحاب صلاحالدين الايوبي : انظر : ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في مجمع الالقاب جـ٥ المنشور في مجلة (Oriental College Magazine) الهنـــد ــ مجلـــة ٢٠ العدد ٢٢ ص٤٨٩) ٠

شهرزور من أبيـه[٣٩] وتعني هذه الاقطاعية فيما يبـدو ، تخويل جميع صلاحيات الحكم الذي كان يمارسه سيفالدين غازي في هذه المدينة على أقرب الاحتمال . كما انه من غير المحتمل تصور ان معاملة عمادالدين زنكي لابنـه ، هي نفس معاملته للمقطعـين الآخرين ، الذين هم نواب لـه مسؤولون عن ارسال واردات الاقطـاعات الى الحكومة بعد أن يأخذوا حصتهم .

٤ ـ اقطاع المدن :

اتبع الاتابكة والاراتقة في هذه الفترة ، اقطاعات عامة تضم مدنا أو قرى كاملة وما يلحقها . ويبدو من النصوص الواردة عن هذاالنوع من الاقطاع بأنه أوسع الاقطاعات التي كان يلجأ اليها الامراء الاتابكيون والاراتقة . غير انـه ليست لدينا معلومات مفصلة عن طبيعة هذا الاقطاع الذي يشمل المدينة أو القرية أو القلعة ، وهل ان المقطع (بالفتح) تطلق يده بالاستغلال المؤقت أو الدائم للثروات أو الارض الزراعية أو جباية الضرائب أو فرض ضرائب جديدة أو الحصـول على موارد أخرى تنشـأ عن التجارة أو الصـناعة أو الاسواق ؟ ويبدو ان هذه الاقطاعات هي نـوع خاص من التولية الادارية العامة ، ولكن بعيدا عن اللامركزية في ادارتها . فقد اقطع الملك الاشرف موسى بن الملك العادل مدن خلاط وميافارقين وحاني، اخاه شهابالدين غازي ، وأخذ منه مدينتي الرها وسروج، والسبب هو لحمايتها من خطر غزو الجنود المغولية[٤٠] والقي ابن الاثير بعض الضوء على اقطاعات من هذا النوع ، فيشير الى ان في سنة ٥٦٦هـ أمر سيف غـازي صاحب الموصل ، الامير «كمشـتكين» والذي لقبه ب «سعدالدين » بأن «لا ينفرد بقليل من الامور ولا بكثير ، وحكمه

---

(٣٩) ابن الاثير : الباهر ص٨٥ .

(٤٠) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص٣٩٨ .

في البلاد واقطع مدينة سنجار ، لعمادالدين ابن أخيه قطب‌الدين»(٤١) •

أما الاقطاعات التي منحها صلاح‌الدين الايوبي لابن أخيه ، الملك المظفر تقي‌الدين عمر وهي مدن الرها ونصيبين وسروج وبلاد الخابور وسنجار ، وذلك بعد عبوره نهر الفرات سنة ٥٧٨هـ بجيوشه واستيلائه عليها عسكريا(٤٢) ، فيمكن اعتبارها اقطاعات خاصة ، تكون تحت ادارة المقطع (بالفتح) المسؤول أمام الادارة المركزية أو سلطة الامارة عنها •

وكذلك الحال فيما أقدم عليه الملك العادل ، سيف‌الدين أبوبكر ، حيث اقطع صاحب ماردين ناصرالدين الارتقي مدينة سنجار ونصيبين واقطع أسدالدين شيركوه بلدة عانة وغيرها من بلاد الخابور(٤٣) •

وغالبا ما يسترد المقطع (بالكسر) اقطاعه من المقطع(٤٤) لاسباب معينة ، فأما ان تستبدل باقطاعات أخرى غيرها ، أو يكتفي بتقديم مبالغ من الاموال •

ومن المرجح جدا ، أن ينطبق ذلك فقط ، على اقطاعات المدن ، ففي ٥٨٥هـ حاصر الخليفة الناصر لدين‌الله العباسي مدينة حديثة التي تقع بالقرب من عانة لاخراجها من مقطعيها ، وقد سلموها على اقطاع معين ، كما اعطى صاحبها وأهلها اقطاعا آخر(٤٥) أيضا • وفي ٦١٥هـ استرد الملك الاشرف مدينة رأس العين التي كان قد

---

(٤١) ابن الاثير : نفس المرجع السابق جا١١ ص٣٦٥

(٤٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص٢٩٣ •

(٤٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ قسم٢ ص٢٧٠ •

(٤٤) وتسمى مجموعة من هذا الصنف من الاقطاعات (مسترجعات) انظر : عبدالعزيز الدوري ــ مقالته «نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية» (مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ٢٠/١٩٧٠) •

(٤٥) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص٥٩ •

اقطعها الى صاحب ماردين وأخذ منـه مبلغ ثلاثين الف دينار(٤٦) ، وبعد استيلاء نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي سنة ٥٦٤هـ على قلعة جعبر ، أشار على صاحبها ان يأخذ عوضها منه مدينة سروج واعمالهـا والملاحـة التي تقـع بالقـرب من حلب وعشرين ألف دينار(٤٧) ٠

ثم ان المقطع (بالفتح) قد يتنـازل عن اقطاعاته لدى المقطع (بالكسر) فيطلب اقطاعـا غيرها ، وكانت مدن حـران والرها وسميسـاط مقطعة لمظفـرالدين كوكبـري بن زين‌الدين ، فطلب التنازل عنهـا والانتقال الى مدينة أربل لتكون في اقطاعـه فأجابه صلاح‌الدين الايـوبي ، ثم ضم اليه مدينة شـهرزور(٤٨) ٠ واقطع قطب‌الدين مودود سـنة ٥٥٢هـ أحد مماليك الاتابـك سيف‌الدين غازي اقطاعا كثيرا ، معوضا اياه عن جزيرة ابن عمر التي كانت في حوزته(٤٩) ، كما منـح الخليفة الناصر لدين‌الله العبـاسي ٥٨٥هـ أصحاب مدينة تكريت اقطاعا غيرها(٥٠) ٠

وعندما حاصر الخوارزميون مدينة خلاط واستمر الحصار طويلا التمس والي المدينة وهـو مقطعها من السلطان الخوارزمي جلال‌الدين منكبرتي ، تعيين اقطاع له ، فاقطعت له مدينة «سلماس» احدى مدن اذربيجان وعدة ضياع متفرقة أخرى(٥١) ٠ ويبدو أن تنازل هؤلاء المقطعين (بالفتح) انما كان يجرى برغبتهم في الحصول على اقطاع غيره لاسباب مختلفة يتعلق أغلبها بموارد الاقطاعات أو موقعها أو مصيرها ٠

---

(٤٦) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٣٤٣ ٠

(٤٧) ابن الاثير : الباهر ص١٣٧ ٠

(٤٨) مجهول : مخطوطة (انسان العيون في مشـاهير سادس القرون) الورقة ٢٩٢-٢٩٣ ، أبوالفداء : المختصر في اخبار البشر جـ٢ ص١٠٤ ٠

(٤٩) ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص٢٢١ ٠

(٥٠) الخزرجي : العسجد المسبوك ص٤١ ٠

(٥١) المنشيء النسوي : سيرة السلطان جلال‌الدين منكبرتي ص٣٢٠ ٠

الفصــل الثالث

الضرائب : أنواعها ، أسلوب جبايتها

أ ـ ضريبة الارض «الخراج» وضريبة الرؤوس «الجزية» •

ب ـ المساعدات والمصادرات والغرامات •

ج ـ المكـــوس •

د ـ أسلوب جباية الضرائب •

١ ـ الاقطاع •

٢ ـ الضمان •

٣ ـ الجباية المباشرة •

الفصـــل الثالث

الضـــــرائب

كان ظهــــور الاتابكيات والامــارات الارتقيــــة على المسرح السياسي في الجزيرة الفراتية(١) في بداية القرن السادس الهجري(٢) واستقلال الاتابكيين والاراتقة باماراتهم ، عاملا مهما في ازدياد

---

(١) كانت الجزيرة الفراتية أبان الفتوح الاســـلامية واحدة من أغنى الامصار الاسلامية من حيث الموارد ، فلقد وفرت لبيت المال موارد كثيرة وخاصة بعد توقف الفتوحات الاسلامية الذي أدى الى حرمانه من مصادره المالية العظيمة، وقد كان أغلب هذه الموارد من الضرائب المتعددة الانواع والاساليب كضريبة الارض من خراج وعشور ، أو الضرائب المفروضة على رؤوس أهل الذمة من نصارى ويهود وهي ضرائب الجزية ومتى ما أسلموا أعفوا منها ، أما ضريبة الارض (الخراج) فتبقى الا اذا تركت الارض فتسقط • وهناك الضرائب الموضوعة على الصادرات والواردات والاسواق والتركات أو تلك الضرائب التي فرضت على التجارات والصناعات أو الضرائب التي كانت تستحصل من أملاك الكنيسة • وقد ذكر ابن حوقل في القرن الرابع الهجري ما يشير الى ذلك فقال «والجزيرة اقليم كثير الجبايات لسلطانه» صورة الارض ص ١٩٠ •

(٢) وفي القرن الخامس الهجري وبعد تغلب العناصر التركية وسيطرة البويهيين والسلاجقة على بلاد الجزيرة الفراتية ومدنها ، شاع القلق السياسي وعدم الاستقرار والفوضى ، فضعف الانتاج الزراعي وتقلص النشاط التجاري في الوقت الذي ازداد فيه اسراف الحــــكام وبذخهم وتعددت اشكال عسفهم بالسكان ، حيث انعكس كل ذلك على الضرائب بمختلف أنواعها ، ففرضت ضرائب جديدة وازدادت ثقلا على السكان من حيث كميتها واسلوب جبايتها•

وانتشار العمران والرخاء في المدن والقرى ، مما جعل أمر فرض الضرائب من قبل الدولة وتعددها ، مسألة طبيعية ، لا تثقل كاهل السكان آنذاك ٠

ولكن في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، صارت الضرائب تخضع لاهواء الامراء الاتابكيين والاراتقة ، وأصبحت تضم عددا من الضرائب الشرعية مثل ضريبة الارض (الخراج والعشور) وضريبة الجزية (على أهل الذمة) والضرائب غير الشرعية مثل المكوس ٠

ومن الضرائب التي نتلمس اثرها في الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري هي :

أ ــ ضريبة الارض (الخراج) وضريبة الرؤوس «الجزية» :

لابد لنا اذا أردنا أن نفهم طبيعة هاتين الضريبتين في القرن السادس الهجري ، من أن نرجع الى نشأتهما الاولى في هذه البلاد ونستعرضهما منذ أواخر الفتوح الاسلامية لانهما استمرار لما كانتا عليه في تلك الفترة ، فقد فرضتا بشكل محدود في مدن الجزيرة الفراتية ــ دينارا على كل رجل ومدى قمح وقسطي زيت وقسطي خل ، واعتبر الناس طبقة واحدة فيما يتعلق بأستيفائهما ، كما

---

(٣) صنف الفقهاء الضرائب الاسلامية الى صنفين : الاول ضرائب شرعية ، والصنف الثاني الضرائب غير الشرعية ، ويدخل في الصنف الاول ضريبتي الجزية والخراج ويشمل الصنف الثاني كل ما استحدث من ضرائب أخرى غيرها ٠ وقد جاء ذلك نتيجة لتطور الدولة الاسلامية وظروفها المتغيرة الجديدة ٠ انظر : الدكتور محمد حلمي محمد أحمد : الخلافة والدولة في العصر الاموي ص٢٢٨ ويذكر ان ضريبتي العشر والخراج على الانتاج الزراعي هما ضريبتان متناظرتان ، فالعشر يؤخذ من الملاك المسلمين ، بينما يؤخذ الخراج من أهل الذمة وتؤخذ الجزية أو ضريبة الدفاع من أهل الذمة القادرين على العمل والحرب ٠

اعتبر القسم النقدي أي الدينار هو الجزية ، والقسم النوعي ضريبة الارض «الخراج»(٤) .

ولكن بالنظر الى أزمة الخزينة وتقلص مواردها من الجباية والاموال في عهد الدولة الاموية ، فقد أعيد النظر في الضرائب المقررة في الجزيرة الفراتية ، وبعد اجراء المسوحات الشاملة للمنطقة تقرر جعل الجزية أربعة دنانير ، كما ألغيت الضريبة النوعية على الارض وفرضت ضريبة نقدية عوضا عنها(٥) .

وعلى الرغم من استحصال هذه الضرائب بنسب عالية ، فقد عمدت الدولة العباسية الى زيادة نسبتها الى الربع في الموارد العامة للارض وأحيانا الثلث أو النصف مما جعل أهل الموصل ونواحيها يكسرون الخراج ولا يعطونه ، الامر الذي حمل الخليفة هرون الرشيد الى اتخاذ وسائل العنف باستحصال الضريبة فالزمهم بذلك واحتسب على أساس الربع في الموارد(٦) . وقد ورد عند قدامة بن

---

(٤) يذكر البلاذري : «ان عمر بن الخطاب فرض على كل انسان مع جزيته مدا قمح وقسطان من زيت وقسطان من خل» فتوح البلدان ج٦ ص١٨٥ .

(٥) يقول أبو يوسف «فلما ولي عبدالملك ، بعث الضحاك عبدالرحمن الاشعري الى الجزيرة ، فاستقل ما يؤخذ منهم فاحصى الجماجم ، وجعل الناس كلهم عمالا بايديهم وحسب ما يكسبه العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وآدمه وكسوته وحذائه ، وطرح أيام الاعياد في السنة كلها ، فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير فالزمهم ذلك جميعا وجعلهم طبقة واحدة ، ثم حمل الاموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب دينارا وعلى كل الف أصل كرم مما قرب دينارا ، وعلى كل ألفي أصل مما بعد دينارا وكانت غاية البعد عنده مسيرة يوم أو يومين أو أكثر» الخراج ص٢٣ـ٢٤ ، ثم أنظر : الدكتور محمد حلمي محمد احمد : الخلافة والدولة في العصر الاموي ص٢٣٠ .

(٦) يقول الازدي سنة ١٧٥هـ «وفيها كسر خراج الموصل وكان البلد في البرية عشرا وما كان بنينوى والمرج مرابعة يؤخذ من أهلها الربع ــ وكانت الخوارج تخرج ولا يصل أصحاب السلطان الى شيء الا دون الربع ، فاذا طولبوا



جعفر في القرن الرابع الهجري احصائية بالموارد المالية (التي كانت ترد سنويا) لمدن الجزيرة الفراتية في هذه الفترة ، لابد أنها اعدت لاحتساب ضريبة الخراج وهي أخذ عشر الموارد(٧) منها أو لتقدير الضرائب الاخرى(٨) ٠

احتجوا بالخوارج فحذر هرون الرشيد جماعة من أهل الموصل فناظرهم في ذلك ودعاهم الى ان يجعل عليهم دراهم معلومة ، فامتنعوا من ذلك فاضطرهم ، وكان المناظر لهم يحيى بن خالد البرمكي ، فقال لهم ـ فيما اخبرني أحمد بن عبدالرحمن : كنت فيمن نوظر على ذلك فقال لنا خالد البرمكي : اذا جاءت الغلات نصبتم قصبة وجعلتهم على رأسها خرقة وأخذتم الغلات وقلتم فعل المارق ، والله لا فارقتموني الا على أمر بين وعلى ما تؤدونه ، كان مارقا أو لم يكن ، واضطرهم الامر الى ذلك وحبسهم ثم عاودهم المناظرة، وسالهم الجريب البذر في كم يقع من المساحة ؟ فاعلموه ، ان الجريب يقع في اربعة أجربة مساحة وثمن الجريب الحنطة فيوقته ، فبلغ ثلاثين درهماوأخذ ربع الثلاثين فاذاهوسبعة دراهم ونصففألزمها الجريب وسالهم عن جريب الشعير في أربعة مسابخ فعلم انه يدخل أربعة مثل الحنطة لانهم عرفوه ان دخل الجريب أربعة أجربة وقوم الشعير فبلغ الجريب في ذلك الوقت عشرين درهما ، فأخذ ربعها فصار لكل جريب خمسة دراهم» ٠

تاريخ الموصل جـ٢ (تحقيق علي حبيبة ـ القاهرة) ص٢٧٥ ٠

(٧) ذكر ان موارد حران والرها وسروج والمديبر وتل موزن وغيرها ، مما يدخل في هذ الديار ستة ملايين درهما ٠ وموارد هيت وعانة والرحبة وقرقيسياء ٠٠٠ر٩٠٠ر١ درهما ٠ وتكريت والسن والطبرهان والبوازيج ٠٠٠ر٩٠٠ درهما وكورة الموصل ٠٠٠ر٣٠٠ر٦ درهما وقردى وبازبدي ٠٠٠ر٢٠٠ر٣ درهما ومدينتا ارزن وميافارقين ٠٠٠ر٢٠٠ر٤ درهما ومدن ديار ربيعة ٠٠٠ر٦٠٠ر٩ درهما وآمد ٠٠٠ر٠٠٠ر١ درهما ومدن ديار مضر ٠٠٠ر٠٠٠ر٦ درهما ٠ نبذة من كتاب الخراج ص٢٤٦ـ٢٥٠ ٠

(٨) ونجد الى جانب ذلك ضريبة تستوفى من الموارد ، يتفق عليها مقابل القيام ببعض الخدمات لاصحاب الارض ، ويبدو ان هذه الضريبة تستقطع بعد استخراج ضريبة السلطان التي مقدارها العشر أو الربع ٠ فقد جاء ان القائد الاسلامي ، مسلمة بن عبدالملك ، اتفق مع سكان بعض مدن الجزيرة ، مثل بالس وقاصرين وعابدين ونويلس ، ان يحفر لهم نهرا لارواء مزارعهم فيجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان ففعل ووفوا له بالشرط ٠

انظر : البلاذري : فتوح البلدان جـ٢ ص٢٠٥ ٠

كما أوضح ابن الفقيه الهمداني في نهاية هذا القرن ضرائب الخراج لمدن الجزيرة على الوجه الاتي :

مدينة حران ٠٠٠ر٤٧ درهم ، الرها ٠٠٠ر٣٠٠ر١ درهم ، سميساط ٠٠٠ر٠٠٠ر١ درهم ، سروج ٠٠٠ر٦٠٠ درهم ، رأس كيفا ٠٠٠ر٣٥٠ درهم ، الرقة ٠٠٠ر١٥٠ درهم ، والمازحين والمدبير ٠٠٠ر١٨٥ درهم(٩) • وهذه نسب عالية كانت توفر موارد كبيرة تستوفيها الدولة آنذاك • ومن المرجح جدا أنها استمرت بنسب أعلى في القرنين التاليين ، نظرا لازدياد أهمية مدن الجزيرة من الناحية الاقتصادية فيرد عند ابن الاثير ما يشير الى عدم ثبات ضريبة الارض الخراجية والمسماة ضريبة الاعشار(١٠) في الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري فتكون أحيانا ضريبة الربع أو الثلث أو الثلثين وأحيانا أخرى ضريبة النصف(١١) • ويبدو ان هذه الضرائب كانت تخضع لظروف وأحوال الامراء الاتابكة أو الاراتقة وأهوائهم وجشعهم(١٢) •

ونقرأ عن ضريبة الارض الخراجية وضريبة الارض الممسوحة(١٣) أيام الاتابكة(١٤) ، فالاولى تكون عشرية أو يؤخذ من

---

(٩) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص١٣٦ •

(١٠) ابن الاثير : الباهر ص٧٩ ، وانظر الفصل الاول «نظام الري والزراعة» •

(١١) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٤٥٩ ، جـ٣ ص٩٨٥ •

(١٢) ابن الاثير : الباهر ص٧٩ •

(١٣) القيام بمسح الارض لحصرها وتقدير درجة خصوبتها لربط خراج مناسب عليها ويطلق على هذا النظام في مصر في العصور الوسطى اسم «الروك» وهي كلمة قبطية أصلها «روش» ومعناها «الحبل» ثم استعملت للدلالة على عملية قياس الارض بالحبل ، وهي مشتقة من اللفظ الديموطيقي «روخ» ومعناه «تقسيم الارض» والروك نظام قديم عرفته مصر منذ فجر الاسلام ، كما عرفته الدول الاسلامية قبل عصر المماليك (انظر : ابراهيم علي طرخان : النظم الاقطاعية والشرق الاوسط في العصور الوسطى (القاهرة – ١٩٦٨) ص ٩٥–٦٩ •

(١٤) ذكر ابن رجب : ان عمرو بن رافع بن علوان الزرعي ، قد رحل الى حران خلال



مواردها الربع أو الثلث أما الثانية فيؤخذ منها شيء معلوم عن كل جريب(١٥) .

وهناك نوع آخر من ضريبة الارض المزروعة ، ما هي مطلقة من الجميع اي ليست أرضا تخضع لضريبة العشر أو الربع أو الثلث أو أرضا ممسوحة ، فقد ذكر ابن الاثير قال : «حدثني والدي قال : كنت اتولى جزيرة ابن عمر لقطب‌الدين مودود ، ومن جملة أعمال جزيرة ابن عمر قرية تسمى (العقيمة) مقابل الجزيرة يفصل بينهما دجلة ولا بساتين كثيرة وبعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب من الارض التي قد زرعت شيء معلوم وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه ، وبعضها مطلق منهما ، فالممسوح منها لا يحصل لاصحابه الا القدر القريب . وكان لنا بها عدة بساتين ، فحكى لي والدي وقال : جاءنا كتاب فخرالدين عبدالمسيح الى الجزيرة ، وأنا أتولى حينئذ ديوانها والحكم الى فيه على ما شوهد ، يأمر بأن يجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة قال : فشق ذلك علي لاجل أصحابها ، ففيها ناس صالحون لي معهم أنس وهم فقراء قال : فراجعته وقلت له لا تظن انني أقول هذا لاجل ملكي لا والله ، انما أريد أن يدوم الناس على الدعاء للمولى قطب‌الدين ، وأنا أمسح ملكي جميعه ، قال : فأعاد الجواب ، يأمر بالمساحة ويقول : تمسح أولا ملكك ليقتدي بك غيرك ، ونحن نطلق لك ما يكون عليه وشرع النواب

هذه الفترة وأقام بها مدة طويلة ، يشتغل على ما يقف على ما يندب اليه من المساحة والحدود «أي كان يقوم بتعيين المساحة والحدود للارض الزراعية واحتساب مقادير الضرائب المقررة عنها» . (الذيل على طبقات الحنابلة ج٢ ص١٦٦ .

(١٥) تستخرج مساحة الارض المزروعة وحدودها ، ويؤخذ منها على كل جريب شيء معلوم . (الجريب : مقياس للارض ومقداره عشر قصبات في عشر قصبات . على أنه قد يختلف باختلاف المكان والزمان) ابن الاثير : الباهر ص١٤٧ .

يمسحون · ولكن بعد أيام، واذا قد وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمر باطلاق مساحة العقيمة»(١٦) ·

وهناك «ضريبة الرؤوس» أو الجزية المفروضة على أهل الذمة من اليهود والنصارى(١٧) في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، وذلك مقابل حمايتهم واعفائهم من الخدمة العسكرية(١٨) ·

فقد أشار بنيامين التطيلي الى أن اليهود الذين كانوا يستوطنون في مدن الجزيرة الفراتية ، مثل قرقيسياء والانبار والعمادية وبالس وقلعة جعبر والرقة ، يؤدون الجزية للمسلمين شأنهم شأن سائر اليهود المقيمين في الديار الاسلامية(١٩) ، وقدرها دينارا واحد أميري ذهبا(٢٠) ، أي ما يعادل دينارا مرابطيا ذهبا وثلثا ، لمن بلغ منهم الخامسة عشرة من عمره(٢١) ·

أما النصارى ، فانهم يتوزعون ، في الاديرة والكنائس المنتشرة في أنحاء الجزيرة الفراتية ، وقد كانوا يؤدون هذه الضريبة ـ ولكن

---

(١٦) ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ص١٤٧ ، الكامل في التاريخ ج١١ ص٣٥٦ـ٣٥٧ ·

(١٧) وكانت تؤدي هذه الضريبة على قدر طاقة الشخص ، ولذلك قسم أهل الذمة الى طبقات ثلاث ، تدفع الطبقة الدنيا منها اثنىعشر درهما في السنة والطبقة الوسطى أربعة وعشرين والطبقة العليا ثمانية وأربعين · وكان مقدار هذه الضريبة في البلاد التي تستعمل فيها العملة الذهبية ، ودينارا وديناربن وأربعة دنانير على التوالي · أنظر : الدكتور محمد جمال‌الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ص١٠٩ ·

(١٨) أنظر الدكتور محمد حلمي محمد أحمد : الخلافة والدولة في العصر الاموي ص٢٢٨ ويقول «تؤخذ الجزية من أهل الذمة مقابل اعفائهم من الخدمة العسكرية» ·

(١٩) يذهب نصف الجزية للسلطان والنصف الثاني لمرتبات رؤساء اليهود · انظر : رحلة بنيامين التطيلي ص١٥٤ ·

(٢٠) انظر فصل النشاط التجاري والنظام النقدي ص٢٩٣ـ٣٠٤ ·

(٢١) بنيامين التطيلي : نفس المرجع السابق ص١٢٢ـ١٢٣ـ١٢٩ـ١٥٤ ·

ليست لدينا معلومات مفصلة عن مقدار ما وضع على كل رأس منهم سوى ما ذكره العمري عن رهبان دير سعيد الواقع بالقرب من الموصل ، حيث ألزموا في وقت ما بجباية ما مقداره ثلثمائة ألف درهم(٢٢) .

ب ـ المساعدات والمصادرات والغرامات :

وهناك نوع من الضريبة ترد تحت اسم «المساعدة» ويبدو أنها نوع من الضرائب الطارئة التي كانت تفرضها الدولة ، وهي ليست ثابتة ولا مستقرة ولا محدودة ، فقد كان بدرالدين لؤلؤ ، أمير الموصل ، يكثر في طلب الاموال من الناس ويكلفهم «مالا على وجه المساعدة»(٢٣) . ومثلها المصادرة التي كان يعامل بها اليهود والنصارى(٢٤) ، والتي استمرت خلال القرن السادس الهجري أيضا .

وكان ناصر الدولة ، أمير ميافارقين ، يأخذ أموال أهل بلد ولم يبق فيها باقية(٢٥) . وفي ٥٣٤هـ/١١٣٩م أكثر بنو نيسان من الاضطهاد والاجحاف والمصادرات بحق سكان مدينة آمد والتضييق عليهم ومطالبتهم برسوم ومؤن ، وضعوها لم تكن فيها من قبل(٢٦) .

---

(٢٢) العمري : مسالك الابصار ج١ ص٢٩٠ . وجاء عند ياقوت : «ان رهبان دير برصوما وهو قرب ملطية ، كانوا يؤدون في كل عام الى ملك الروم للمسلمين من نذوره عشرة آلاف دينار ، وقال بان ذلك كان قطيعة عليهم الى صاحب الروم» معجم البلدان ج٢ ص٦٤٦ .

(٢٣) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، المنسوب لابن الفوطي ص٢٧١ .

(٢٤) الشابشتي : الديارات ص١١٦ .

(٢٥) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٨ .

(٢٦) مجهول : المعلق على كتاب صورة الارض لابن حوقل) ص٢٠١

كما صودر أهـــالي الرقة والرافقة ووضعت عليهـــم من الكلف والنوائب والمغارم مرة بعد أخرى(٢٧) ٠

وهناك نوع من الضرائب كانت تفرض تحت تبرير مواجهة الاخطار الخارجية أو الحالات الناجمة عن التهديدات العسكرية ، وهذه الضرائب تشـبه ما ندعوها في الوقت الحـاضر ب (ضريبة الدفاع) وكانت تمثل هذه الضرائب في حقيقتهـا «قطائع» قسرية يقررها الحكام وتستحصل باستمرار(٢٨) ، ولكنها لا تذهب لغرض الانفاق العسكري ٠

ذكر سبط ابن الجوزي ما يشير الى ذلك ، حيث قررت على أهل الشام «قطيعة في كل سنة ، على الغني عشرة دراهم ، وعلى الوسط خمسة وعلى الفقير درهم ، وقرئ الكتـاب على الناس وشرعوا في الجباية»(٢٩) ٠ ويبدو ان جباية هذه الضريبة شملت جميع البلدان ومنها الجزيرة الفراتية ٠

أما ما يقال عن القطيعة بأنها ما يفرض من المال على بلد أو اقليم لغرض الانفاق على الاستعدادات العسكرية الدفاعية ، فانه

---

(٢٧) مجهول : نفس المرجع السابق ٠

(٢٨) واستمرت هذه الضريبة تؤخذ تحت مبررات مواجهة الخطر المغولي واحتمال التعرض لفضائعهم التي كانت تملأ الاسماع ٠ يذكر ابن شداد وصول رسل (بايجو نوين) القائد المغولي ، ومعهم تجار من المغول يحملون حوالات تتضمن فرض الاموال على سائر ملوك المنطقة ومنهم : الملك الناصر صاحب دمشق وعليه أن يدفع (٢٠٠ الف دينار) والسلطان عزالدين صاحب الروم السلاجقة (٢٠٠ الف دينار) وبدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل (١٠٠ الف دينار) والملك السعيد صاحب ماردين (١٠٠الف دينار) والملك الكامل (١٠٠ الف دينار) وصاحب جزيرة ابن عمر (١٠٠ الف دينار) وصاحب حصن كيفا (٥٠ الف دينار) الاعلاق الخطيرة ــ مخطوطة قسم الجزيرة ــ الورقة ٦٢ب ٠

(٢٩) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ قسم ٢ ص٧٤٥ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيـرة (تحقيق سامي الدهان) ص٣١٩ ، المقريزي السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ قسم٢ ص٣١٥ ٠

أمر لا صحة له البتة ، لان المراجع المتوفرة لدينا لا تشير الى ذلك في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ٠

ويشير ابن الاثير الى ضريبة (الجناية) التي كانت تفرض على الناس ممن يرتكبون جنايات تخل بسلامة الناس أو النظام والأمن(٣٠) كغرامات تأديبية وهي ضرائب غير مستقرة أيضا ، فقد يحصل أن المقربين من الامير يتدخلون في أمر زيادتها أو الغائها أو تقليصها وفرضها ٠

جـ ـ المكوس :

وهي ضرائب تفرض على السلع التي تباع في الاسواق(٣٢) موظفوها أو أصحاب الاقطاعات من الاموال ٠ وقد وضعها الفقهاء ومجموع هذه الضرائب هي كل ما يحصل عليه ديوان الدولة أو المسلمون في الصنف غير الشرعي من الاموال المستحصلة ٠ وكانت هذه من الضرائب الثقيلة على الباعة ، وقد سادت في مدن الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، حيث أشار اليها ابن الاثير بما يفيد أنها ضرائب مفروضة على السلع المعروضة للبيع سواء تم بيعها أم لم يتم ، كما أوضح بأنها ضرائب ثقيلة الوطأة ،

---

(٣٠) المقريزي : السلوك جـ١ قسم ٢ ص٣٢٠ هامش رقم (٢) ٠

(٣١) وتسمى أيضا : المال الهلالي ، ومن أنواعه ما يؤخذ في الثغور البحرية والبرية على المتاجر الواصلة من الخارج ومن أنواعها : (مكس القوافل ومكس البهار ومكس فندق القطن) المقريزي : السلوك جـ١ قسم ٢ ص٣٢٠ حاشية رقم (٤) ٠

(٣٢) ويطلق عليها في الوقت الحاضر اسم (السلع الاستهلاكية والسلع الانتاجية) ٠

تستوفى من أصحاب البضائع والتجار بالقوة ، مما أدى في نهاية الامر الى ابطالها والغائها(٣٣) ٠

وقد وردتنا أسماء لضرائب غير واضحة المعنى ، كانت تجبى في بلاد الجزيرة الفراتية أيام الاتابكة والاراتقة مثل (الكلف) و (المؤن)(٣٤) و(الاقساط) و(البوائق)(٣٥) ، ففي (٤٨٦هـ/١٠٩٣م) اسقطت عن أهل ميافارقين هذه الضرائب وكل ما فرضه المحتسب واتخذه من الرسوم(٣٦) ٠ وعادت وفرضت مرة أخرى ، حيث أزيلت عن أهل ميافارقين في ٥٠٢هـ/١١٠٨م(٣٧) ٠

والظاهر ان الكلف والمؤن والاقساط والبوائق هي ضرائب استثنائية يقسطها الحكام على الباعة عند الحاجة ٠ والطريقة الشائعة في استحصالها هو تعيينها أما نقدا أو عينا ، فاذا كانت نقدا فتؤخذ بنسب معينة من أسعار البضائع والسلع(٣٨)،

---

(٣٣) قال ابن الاثير : «لما ملك نورالدين أرسلان شاه ، استغاث به انسان من التجار ، فسأله عن حاله ، فقيل انه قد ادخل قماشه الى البلد لبيعه فلم يتم له البيع ، ويريد اخراجه ، وقد منع من ذلك فقال من منعه ؟ فقيل : ضامن البز ، يريد منه ما جرت به العادة من المكس ، وكان القيم آنذاك مجاهدالدين قايماز ، وهو الى جانبه فسأله عن العادة ، آكيف هي ؟ فقال : ان اشترط صاحبه اخراج متاعه مكن من اخراجه وان لم يشترط ذلك لم يخرج حتى يؤخذ ما جرت العادة يأخذه فقال : والله ان هذه عادة مدبرة انسان لا يبيع متاعه لاي شيء يؤخذ منه ماله ؟ فقال مجاهدالدين ، لاشك في فساد هذه العادة ، فقال اذا قلت أنا وأنت انها عادة فاسدة ، فما المانع من تركها ؟ وتقدم باخراج مال الرجل ، وان لا يؤخذ الا ممن باع» ٠
الكامل في التاريخ ج١٢ ص٢٩١-٢٩٢ ٠

(٣٤) يرى عباس العزاوي انها كانت في أصلها هدايا ، اكتسبت مع مرور الزمان شكل رسوم مقررة ٠ انظر عباس العزاوي : الضرائب العراقية ص٢٢ ٠

(٣٥) الفارقي : التاريخ ص٢٣٦٠ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (مخطوطة) الورقة ١٠٠ب ٠

(٣٦) الفارقي : نفس المرجع السابق ص٢٧٥ ٠

(٣٧) الفارقي : نفس المرجع السابق ص٢٧٥ ٠

(٣٨) الدمشقي : الاشارة الى محاسن التجارة ص٥١

أما عينا فتؤخذ مقادير معينة من تلك البضائع والسلع ، وفي كلتا الحالتين فان الباعة يعمدون بعد فرض الضريبة عليهم الى اضافة مقاديرها على أسعار البضائع الاصلية حيث ينتقل عبؤها في نهاية المطاف الى الناس(٣٩) وهذه الضرائب تقابل في الوقت الحاضر ما ندعوه بالضرائب غير المباشرة ٠

وهناك الى جانب هذه الضرائب نجد ما أطلق عليها «ضريبة الغريب» و «ضريبة البلدي» في مدينتي آمد وميافارقين(٤٠) ولعلها في مدن أخرى ٠ وهي ضرائب عينية تؤخذ من أصحاب بساتين الفواكه والكروم والخضر وغيرها وكذلك من الفحم والحطب ، ثم توزع على الغرباء الذين يدخلون البلد أو المحتاجين والمعوزين والفقراء من أهل ذلك البلد ٠ ويبدو ان انفاق هذه الضرائب لا يدخل في وجوهه المذكورة ، بل يذهب لمنفعة الحاكمين بعد المبالغة في زيادة نسبتها وجبايتها ، لذلك فان الناس كانوا يخاطبون الامراء باسقاطها فيذكر الفارقي ان امير ميافارقين اطلق لاهلها هذه الرسوم سنة ٥٨٣هـ ، غير ان باقي بلاد الجزيرة لم يسقط عنهم شيء وهذه الرسوم جميعها باقية في جميع دياربكر وآمد وجزيرة ابن عمر وغيرها(٤١) الى نهاية القرن السادس الهجري ٠

وهناك نوع من ضرائب المكوس تستحصل من مرور بضائع التجار من بلد لآخر ويمكن ان نطلق عليها اسم «مكوس المرور» التي تمثل في الوقت الحاضر ما نطلق عليه اسم «رسوم الترانسيت أو ترانسيت المرور»(٤٢) وهي استمرار لما كانت عليه في القرن الخامس

---

(٣٩) الدمشقي : نفس المرجع السابق ص٥١ ٠

(٤٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ٩٦ أ ٠

(٤١) الفارقي : التاريخ ص٢٢٤ ٠

(٤٢) يرى الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ان ضريبة العشور هي ضريبة العبور (الترانزيت) نفسها وكانت تجمع من التجار العابرين بأراضي الدولة من رعايا الدول الاخرى (الخلافة والدولة في العصر الاموي ص٢٢٨) ٠

الهجري يذكر ناصر خسرو ان مدينة حلب تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام والروم والجزيرة ومصر والعراق عندما يذهب اليها التجار من جميع البلاد ٠

ولابد من وجود هذه الضريبة في البلاد التي ذكرها هذا المرجع ومنها الجزيرة الفراتية في هذه الفترة ليكون استحصالها متبادلا على الاقل ، وخاصة ان نقل التجار للبضائع والسلع لايقتصر على بلد دون آخر ، وذلك لاختصاص كل بلد بنوع معين من البضائع والسلع ٠

ونسمع عن ضرائب «الشراب» التي سبق أن أطلق عليها ابن حوقل «عشور أموال اللطف»(٤٣) وكانت تستحصل من بيع الخمور وتدر موارد ضخمة لخزينة الامارة ، نظرا لتوسع صناعة الخمور وتعاطيها المستمر في أغلب مدن الجزيرة(٤٤) ، حتى أن مواردها كانت تصل في مدينة الموصل ونواحيها الى مليون درهم سنويا(٤٥) ٠ وقد استمرت هذه الضرائب في القرن السادس الهجري حيث أشار اليها سبط ابن الجوزي(٤٦) ٠

والى جانب تلك الضرائب يوجد نوع اشتهر باسم «مكس المسافرين» وهي ضرائب كانت مفروضة على السفر ، وتؤخذ بصورة مباشرة من المسافرين المغادرين أو القادمين في مدن الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، وقد بلغت أقيامها في احدى السنين (٥٠) ألف دينار عن مدينة (عزاز) و (١٠) آلاف دينار عن مدينة «تل باشر» و (١٠) آلاف دينار عن مدينة «الرحبة» و (٥) آلاف دينار عن مدينة «حران» وألف دينار عن مدينة «سنجار»(٤٧) ٠

---

(٤٣) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٣ ٠
(٤٤) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ قسم ١ ص٣٢٥ ٠
(٤٥) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٧ ٠
(٤٦) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ قسم ١ ص٣٢٥ ٠
(٤٧) ابو شامة : كتاب الروضتين ج١ ص٣٨-٣٩ ٠

وهذه الضرائب تقابل بضعة رسوم تستحصلها الدول من المسافرين في الوقت الحاضر .

د ــ أسلوب جباية الضرائب :

كانت جباية الضرائب المذكورة تتم بالاساليب الاتية :

١ ــ الاقطاع : وكان متبعا في تحصيل الضرائب بصورة غير مباشرة، حيث تقطع المنطقة او المدينة أو غيرها لاحد الافراد بعد تعيين حصة متفق عليها من ضرائبها تدفع لخزينة الامارة(٤٨) .

٢ ــ الضمان : ويتم بتعهد أحد الاشخاص تقديم مبلغ معين لخزينة الامارة عن منطقة من المناطق أو عدة مناطق ، مقابل جباية ضرائبها لنفسه . ويبدو أن الضمان كان أكثر الاساليب شيوعا فيجباية الخراج وضرائب الاسواق والخمور والخواطيء والمعادن والمغارس وضريبة السفن والجناية والشراب وجميع الضرائب المستقرة والثابتة .

ان الضامن يقدم الاموال لخزينة الامارة ، ويحتفظ لنفسه بقدر منها ، بينما يقوم بدوره بضمان ضرائب كل منطقة لاخرين يتعهدون بتقديم ما يجب عليهم ويحتفظون بالباقي لانفسهم ، ومن ذلك كان يقوم الضامنون باستيفاء موارد الموصل من الضمانات حتى كانت تصل الى عشرة آلاف دينار(٤٩) ، كما كان الكتاب أي الضمناء يستوفون الضرائب المفروضة على ضياع الاخوة في بلاد الجزيرة الفراتية ، والتي بلغت مليونين من الدراهم(٥٠) .

---

(٤٨) انظر فصل الاقطاع .

(٤٩) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٧ . وقال ان «بالموصل تجبى أموالها ولها عامل بذاته على استيفاء أموالها ، فربما عملت بالامانة ، وربما كانت بضمان، وقلما ضمنت لان أحوالها تزيد وتنقص» .

(٥٠) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص١٩٧ .

وقد اتبع الاتابكة والارتقة هذا الاسلوب في جباية الضرائب والحصول على الاموال خلال القرن السادس الهجري ، يذكر ابن الاثير ان لكل بضاعة في السوق ضامنا لاستيفاء ضرائبها(٥١) ، كما ان في دير الاعلى بالقرب من الموصل عدة معادن كبريت قد ضمنه قوم من السلطان ولكن أصحاب هذا الدير أبطلوا هذه الضمانة وجعلوها لانفسهم(٥٢) وذكر أن الزراد الدمشقي كان يتجول بين حران والسويداء من أرض الجزيرة الفراتية على أصحاب القلاع لرسوم كانت له عليهم(٥٣) ويبدو ان هذا الشخص كان ضامنا لهذه المناطق وقد ضمنها لغيره •

وذكر سبط ابن الجوزي في ٦١٥ ان «المعتمد» وهو شخص ضامن الضرائب وكانت تستحصل من المغنيات والمغنين ، ويقوم بدوره في ضمانها الى ضمناء آخرين يطلق عليهم اسم «ضامن القينات»(٥٤) وهذا النوع من الضمان استمرار لما كان سائدا خلال القرن السادس الهجري في مدن الجزيرة الفراتية • .

٣ ــ الجباية المباشرة :

وهي الوسيلة المتبعة في استحصال ضرائب المساعدات والمصادرات والغرامات والحوالات والقطائع وكذلك استحصال ضريبة الجناية وجميع الضرائب التي لم تكن ثابتة ولا مستقرة ، وقد ذكر ابن الاثير انه كان لعمادالدين زنكي ، جماعة من الخراسانيين كانوا يجمعون الاموال والضرائب ويجبونها ثم

---

(٥١) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص٢٩١ـ٢٩٢ •
(٥٢) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص٤٢٣ •
(٥٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ قسم٢ ص٦٣١ •
(٥٤) سبط ابن الجوزي : نفس المرجع ص٥٩٤ـ٥٩٥ •

يقسمونها عليهم كرواتب كل ثلاثة أشهر مرة(٥٥) ، كما ان الجباية المباشرة كانت الاسلوب السائد في جباية الجزية وكثير من المكوس ، ولكن ليست لدينا معلومات تفيد بأن للجزية ديوانا خاصا بها كما هو الحال في الدولــة العباسية خلال القرنين الســادس والسابع الهجريين(٥٦) ٠

وإذا استعرضنا الاحداث في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري نجد ان الضرائب كانت ثقيلة من حيث الكمية الى حد أن الضمناء أنفسهم كانوا يعجزون عن دفعها أحيانا ، فقد كان بدرالدين لؤلؤ أمير الموصل يفرض أموالا طائلة على رجال الكنائس، بحيث يعجزون عن الاتيان بها مما جعلهم يسلكون سبيل الضغط على اتباعهم بفرض ضرائب يكرهونهم على دفعها ٠ وقد قضى المفريان اغناطيوس صليبا الثالث عهده بالطــواف في القرى يجمع الاموال التي طلبت منــه غير انه لم يعد قــادرا على ذلك مما جعله يفــر من الموصل الى حلب(٥٧) ٠

وكانت هذه الضرائب غير ثابتة تخضع لارادة الحاكم أو الضامن أو الجابي من حيث كميتها ونوعيتها ووقت جبايتها ٠ وكان الضامن يجبى المال لنفسه ، اضافة لما هو مكلف بدفعه لخزينة الامارة ، بحيث أن أكثر الاموال لا تصل اليها مما يدفع الحكومة أحيانا الى مصادرة الضمناء والجباة وتعذيبهم ، فقد ذكر ابن حوقل في القرن الرابع الهجري ما قام به بنو حمدان في مدينة نصيبين «من الظلم والعدوان ودقائق الجور والغشم وتجديد كلف لـم يعرفوها ورسم نوائب ما عهدوها ، الى المطالبة ببيع الضــياع والمسقف حتى حمل ذلك بني

---

(٥٥) ابن الاثير : الباهر ص٨٣ ٠

(٥٦) كان هذا الديوان يسمى «ديوان الجوالي» يأتي كل ذمي بنفسه حيث توزن له جزيته ويكتب له بهــا ، أنظر : جعفر خصباك : العــراق في عهد المغول الايلخانيين ص١١٠ ٠

(٥٧) تاريخ الرهاوي المجهول «باللغة السريانية» طبع رحماني ــ ١٩٠٤ ص٤٢٢ ٠

حبيب الى ان خرجوا بذراريهم وعبيدهم ومواشيهم»(٥٨) ، وقد استمر ما اشار اليه ابن حوقل حتى القرن السادس الهجري فقد اتبع الاتابكة والاراتقة هذا الاسلوب ، حيث جاء قول المعلق المجهول في كتاب صورة الارض سنة ٥٣٤هـ «أن جور بني نيسان في مدينة خلاط واضطهادهم للناس ومصادراتهم وتضييقهم ومطالبتهم برسوم ومؤن وضعوها لم تكن فيها من قبل وتكلفهم ما لا يطاق فالجأهم ذلك الى التشتت عن الاوطان»(٥٩) • كما ذكر ابن الاثير ان «الدزدار» أي حاكم القلعة ، في مدينة جزيرة ابن عمر كان يفعل ما يريد(٦٠) وخاصة فيما يتعلق بتحصيل الضرائب وجبايتها أو الغائها أو مضاعفتها •

وكان عزالدين أفح بن محمد العبيدي ، الكاتب لدى الاتابكة ، جلدا وجريئا على أخذ الاموال لنفسه «وكان يؤخذ ويحبس ثم يخرج فيعود الى ما كان عليه اذا رتب في شغل»(٦١) •

ويشير الشاعر مجدالدين أسعد بن ابراهيم الشيباني ، الى معاقبة المتلاعبين في حسابات ديوان امارة أربل في عهد أميرها مظفرالدين كوكبري في نهاية القرن السادس الهجري ، هؤلاء الموظفون الذين كانوا على مايبدو يأخذون الاموال لأنفسهم ويحجبون قسما منها عن الخزينة فقال :

جماعة ديواننا أصبحوا وهم في العذاب لسوء الحساب

فان يرجو الوزير الثواب فقتلهم من جزيل الثواب

وقال أيضا :

---

(٥٨) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩١ •

(٥٩) المعلق المجهول : صورة الارض ص٢٠١ •

(٦٠) ابن الاثير : الباهر ص١٤٨ •

(٦١) ابن الفوطي : تلخيص معجم الآداب في مجمع الألقاب (تحقيق مصطفى جواد) ج٤ قسم ١ ص٣٣ •

قد قسمنا الذيوان خمسة أقسا م عليهـا لكل قـول دليـل

رب حق فـلا يطـاع ومنسـو ب الى الظلـم قولـه مقبـول

ثم شخص كأنه الحرف في النحو فـلا فاعـل ولا مفعـول

ومصر على التحيف والظلـم بعيـد عن الصواب جهـول

واخو حاجـة يمشي أحـوا لا لدينـه ان جـاءه البرطيـل

وله أيضا ، وقد حبس وزير اربل ابن المستوفي جماعة الديوان لعمل الحساب فقال :

جماعـة الديـوان في ليلـة شـحط مظلمـة

وقـد غـدت أيـدي الوز يرمنهـم منتقمـة

لا رحـم الله الـذي يرحم قومـا ظلمـه(٦٢)

(٦٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص١١٦-١١٧ .

الفصـــل الرابـــع

الصناعـــة

١ ـ صناعة النسيج والملابس ٠

٢ ـ صناعة الاواني والآلات والادوات ٠

٣ ـ المعادن :

النفط ٠

الحديد ٠

النحاس ٠

الاحجار ٠

الاملاح ٠

٤ ـ صناعة الخمور والسكر ٠

الفصـــل الرابـــع

الصناعـــة

تحظى الصناعات في مدن الجزيرة الفراتية ، في الفترة الواقعة بين القرن الرابـــع الهجري وحتى نهاية القرن الســـادس منه ، باشارات غير قليلة من البلدانيين والجغرافيين ، والمؤرخين العرب والمسلمين ، على الرغـم من أن الزراعة والتجارة كانتـا الغرضين الوحيدين اللذين يوجهان الحياة الاقتصادية في هذه الفترة ٠

وكانت المدينة ترد لدى كتاب ذلك العصر ومؤرخيه على انها نتيجة التوسع الذي يحصل في مجالات الزراعة والتجارة والصناعة، وذلك بخلاف مدينـة العصر الحديث المبنية على التطـور الصناعي الذي يقوم على العلم والتكنولوجيا الحديثة ٠

لقد غدت بـلاد الجزيرة الفراتية بصناعاتها ، خـلال القرن السادس الهجري بعد التطورات التي شهدتها في ميادين توفر رؤوس الاموال والموارد المختلفة والمواد الاولية والمهارة الفنية والصناعية، وانتقال الصناع المهرة اليها[1] ، مركزا حيويا يزود العراق وبلاد

---

(١) لم يكن هناك ما يدعو الصناع والحرفيين وأرباب المهن للهجرة من مدينة الموصل في هذه الفترة ، وذلك لانهم يتمتعون بتأييد وعون حكام بني زنكي (الاتابكيين) في الموصل ٠ انظر : صلاح حسين العبيدي : التحف المعدنية الموصلية في العصر العباسي (مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٧٠) ص٣١ ٠

الشام ، ومصر وبلاد فارس ، بسلع وبضائع مهمة ، كالمنسوجات والاثواب والاواني والالات والاسلحة ، والخمور وغيرها ، وقد ألقى زكريا بن محمود القزويني ، ضوءا على طبيعة النشاط الصناعي في مدينة الموصل حيث نقل في كتابه معلومات مهمة في القرن السادس الهجري فقال «وأهلها أهل خير وتدقيق في الصناعات»(٢) • كما كان بفضل تطور صناعات الموصل وازيائها القديمة مثل الملابس القطنية وأقمشة «الموسلين»(٣) ان انتشرت في أوروبا وزاد شيوعها على أثر الحروب الصليبية والنشاط التجاري(٤) •

ويوضح ما جاء به الجغرافيون والبلدانيون والمؤرخون العرب والمسلمون عن صناعات مدن الجزيرة الفراتية منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين الاسس التي قامت عليها تلك الصناعات وأسباب ازدهارها •

١ ـ صناعة النسيج والملابس :

عرفت صناعات الانسجة القطنية والصوفية والحريرية في معظم مدن الجزيرة الفراتية ، ويمكن القول على ضوء النصوص المتوفرة ، بانها كانت صناعات تمتاز بجودتها وشهرتها اذا ما قورنت بمثيلاتها في بلاد العراق والشام وفارس ومصر وخاصة في فترة القرن السادس الهجري •

---

(٢) زكريا بن محمد بن محمود القزويني : آثار البلاد واخبار العباد (دار صادر دار بيروت ١٩٦٠) ص٤٦١ •

(٣) وهو مأخوذ من اسم الموصل ويطلق عليه التجار الايطاليون اسم «موسولينا» (Mussolna) انظر كتاب تراث الاسلام ج٢ (مقالة الفنون الاسلامية الفرعية وتأثيرها في الفنون الاوربية (A.H. Christie) ترجمة زكي محمد حسن) ص٦٢ـ٦٣ •

(٤) نفس المرجع السابق (مقالة ايرنست باركر ـ الحروب الصليبية ـ ترجمة علي أحمد عيسى) ص١١٦ وما بعدها •

واذا تتبعنا وجود صناعات الانسجة في مدن الجزيرة الفراتية ، يبدو لنا أن أكثرها كان استمرارا للعهود السابقة للقرن السادس الهجري ، فيشير الجاحظ المتوفى (٢٥٥هـ/٨٦٨م) الى صناعة «الثياب الموشية والمناديل والمقارم(٥) الرقاق والطيالسة من الصوف في مدينة آمد»(٦) ٠

ويؤكد صاحب مراصد الاطلاع استمرار صناعة الوشي ، الذي توشى فيه الثياب في منطقة «عبقر» في الجزيرة الفراتية(٧) ٠ كما انتشرت صناعة الستور والموج في الموصل(٨) ٠

أما الانسجة والثياب القطنية والصوفية في بلاد الجزيرة خلال القرن السادس الهجري ، فترجع الاشارات اليها الى القرن الرابع الهجري ، فقد ذكر ابن حوقل ان مدينة «عرابان» القريبة من رأس العين كانت كثيرة الاقطان وثياب القطن تحمل منها وتجهز الى الشام وغيرها(٩) . كما أشار المقدسي البشاري الى صناعة ثياب الصوف والكتان الرومية على طريقة العمل الصقلية(١٠) في مدينة آمد(١١) وأشار الشابشتي الى توشح رهبان دير الاعلى القريب

---

(٥) المقارم : أي المقرمة الستر ، وهي أثواب مصنوعة من الصوف فيها ألوان مختلفة ، فاذا خيط فصار كأنه بيت فهو كله ٠ وقد تزن المقارم في أطرافها بالرجائز ـ وهي نسيجة حمراء عرضها ثلاثة أصابع وأربعة ٠ أنظر : الجاحظ : التبصر بالتجارة (نشر حسن حسني دمشق ١٩٣٤) ص٣٠ ٠

(٦) الجاحظ : نفس المرجع السابق ص٣٠ ٠

(٧) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج٢ ص٢٣٣ ٠

(٨) المسوح : كساء مخطط ، يكون في البيت ، يستتر به ويفترش : انظر : الجاحظ : التبصر بالتجارة ص٣٣ ، وذكر الخطيب العمري ، ان أنوال الحياكة في الموصل خلال القرن السابع الهجري كانت (٧٥) ألف نول منهل الاولياء ج١ ص٦٠ ٠

(٩) ابن حوقل : صورة الارض ص٢٠٠ ٠

(١٠) ويبدو انه كان يشير الى ما ذكره الجاحظ ، وهي صناعة الثياب الموشية (الموشاة) التي انتقلت بتأثير صقلية ٠

(١١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٤٥ ٠

من الموصل بالمناديل المنقوشة(١٢) التي ربما تكون هي نفسها المصنوعة في مدينة آمد التي أشير اليها آنفا ٠ كما كان هذا المرجع يفضل بعض الانسجة في منطقة الجزيرة على الانسجة العدنية المشهورة(١٣) التي يبدو انها انتشرت هناك(١٤) ٠

واستمرت صناعة تلك المنسوجات والثياب في القرنين الخامس والسادس الهجريين فيشير مسكويه (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م) الى صناعة ثياب الخز" في الموصل(١٥) وصناعة الثياب والفرش الفاخرة في قلعة اردمشت(١٦) ، ووصف الرحالة المغربي ابن جبير سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) موكب استقبال أم الاتابك عزالدين قره أرسلان صاحب الموصل ، فأشار الى (عصابة الذهب)(١٧) التي كانت تعصب بها رأسها ، وعصائب النسوة اللواتي جئن لاستقبالها ، كما خرج الناس وقد جللوا أبلهم بالحرير الملون(١٨) ٠

ومن المرجح أن صناعة العصائب المكونة من خيوط الذهب ، كانت صناعة رائجة في الموصل ، نظرا لشهرة المدينة في صناعة المعادن الثمينة كالذهب والفضة(١٩) ، هذا فضلا عن ذكر ابن

---

(١٢) الشابشتي : الديارات ص١١٣ ٠

(١٣) تقع مدينة عدن على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن(ياقوت:معجم البلدان ج٣ ص٦٢١) وقد اشتهرت بالنسيج العدني والعمائم العدنية ، انظر : ابن النديم: الفهرست (طبعة فلوجل-ليبزج ١٨٧٢م) ص١٩٨٠ الطبري:تاريخ الرسل والملوك ج١ ص١٢٠٤ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص٦٢٧ ٠

(١٤) الشابشتي : الديارات ص١٢٩ ٠

(١٥) مسكويه : تجارب الامم (طبعة مصر ١٩١٥) ج٢ ص٢٠٥ ٠

(١٦) مسكوية : نفس المرجع السابق ص٣٩٢ ، وقلعة اردمشت حصينة قرب جزيرة ابن عمر في شرقي دجلة على جبل الجودي تحتها دير الزعفران (ياقوت : معجم البلدان ج١ ص١٩٩ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص٤٥ ٠

(١٧) وهي تنسج بخيوط رفيعة من الذهب ٠

(١٨) رحلة ابن جبير ص٢٠٦ ، وذكر القلقشندي : ان اهل الموصل وتلك الديار كانوا يلبسون الحرير الاسود المرقوم (صبح الاعشى ج٤ ص٤٠) ٠

(١٩) صلاح حسين العبيدي : التحف المعدنية الموصلية ص٢١-٢٦ ٠

الفوطي لعزالدين ابي الفضل الحسن بن الحسين الموصلي النقاش الذي عاش في القرن السادس الهجري «وكان يتعاطى صناعة النقش وخياطة الزركش»(٢٠) كما ورد عند ابن سعيد المغربي عن الموصل ، ان فيها صنائع جمة ولا سيما ثياب المحرزات ، وهي التي يخلط غزلها بالحرير(٢١) وتسمى الملحم من الثياب ٠

وهذه الثياب سداها ابريسم أي حرير ولحمتها غير ابريسم ، بخلاف الديباج ٠

وهناك ما يشير الى وجود «البز» (وهو قماش مصنوع من الحرير) ، فذكر ياقوت قرية السلامية بنواحي الموصل ، حيث توجد هناك قيسارية للبز(٢٢) كما ان في باعشيقا من قرى الموصل، قيسارية أيضا ، يباع فيها البز(٢٣) ، ويؤكد ابن الفوطي ان عون‌الدين ابن زيد بن طه الفوارسي الاربلي استوطن اربل في عهد مظفرالدين كوكبري وله بها دكان يبيع البز(٢٤) وكان سوق البز في ميافارقين يتمتع بشيء كبير من الحرمة(٢٥) ٠

ونظرا لتوسع انتشار هذا النوع من النسيج ، فلابد أن يكون البز هو صنف من أصناف ما أطلق عليه اسم «الموسلين» الذي امتازت بصناعته الموصل في القرن السادس الهجري ، وقد ورد في قصيدة الشاعر علي بن المقرب الاحسائي الذي زار الموصل في أواخر هذا

---

(٢٠) ابن الفوطي : تلخيص معجم الاداب في مجمع الالقاب ج٤ قسم١ ص٦٦ ٠

(٢١) ابن سعيد المغربي : كتاب بسط الارض في الطول والعرض ص٩٠ ٠

(٢٢) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص١١٣ ٠

(٢٣) ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص٤٧٢ ٠

(٤٢) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ج٤ قسم ٢ ص٢٨٦ ٠

(٢٥) قال الفارقي : «ان احدا لا يستطيع الدخول اليها راكبا البتة ، واتفق ان دخل أحد أقارب الامير السوق ذات يوم راكبا فشق عليهم ، فخرج وعاد بعد ايام فدخل راكبا ونزل في بعض الحوانيت ساعة فانزلوه من الفرس لكي يحمل أوساخ فرسه خارج السوق ، وكان جهد بهم ان يرميه غلامه فلم يفعلوا ٠٠» ٠ التاريخ ص٦٦ ٠

القرن(٢٦) ، ذكر لنوع آخر من القماش تصنع منه الاثواب التي لا يخالط لونها لون آخر أو هي التي جميعها ابريسم أي حرير لا يخالطه قطن ولا غيره(٢٧) ٠

وأشار ياقوت الى مدينة «باقداري» القريبة من الموصل التي تعمل فيها ثياب القطن الغلاظ الصفاق التي يضرب أهل بغداد بها المثل(٢٨) والى بليدة «حربي» بالقرب من تكريت التي تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة وتحمل الى ساير البلاد(٢٩) كما تنسب النصافي الحزية وهي ثياب أو أردية(٣٠) تصنع من القطن الى بليدة «حزة» الواقعة بين نصيبين ورأس العين(٣١) وفي قرية «الحظيرة» بالقرب من تكريت تنسج الثياب الكرباسي الصفيق (أي السميك) ويحملها التجار الى البلاد(٣٢) ٠

---

(٢٦) قال من قصيدة امام بدرالدين لؤلؤ أمير الموصل :

انزل لتلثم ذا الصعيد مقبلا   شرفا واجلالا لمولى ذا الملا

الفا مصمته أنال وبغسلة   تشاء النغامة والحزون وفرزلا

ومن الملابس حلة لو قابلت   روض الحمى أنفا لكانت أجملا

أنظر ديوان علي بن المقرب الاحسائي (تحقيق وشرح عبدالفتاح محمد الحلو ـ طبعة أولى ١٩٣٦) ص٣٤٧ ٠

(٢٧) أنظر : الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس (المطبعة الخيرية ١٣٠٦) ج١ ص٥٦١ـ٥٦٢ (مادة ص م ت) ٠

(٢٨) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٤٧٥ ٠

(٢٩) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٢٣٥ ، ابن الفوطي : تلخيص معجم الآداب ج٤ قسم ٢ ص٨٢٢ ٠

(٣٠) وردت عند ياقوت كلمة «ردية» أي غير جيدة ٠ ولكننا نعتقد بأن ما جاء في مراصد الاطلاع هو أقرب الى الحقيقة فقد قال «اليها تنسب النصافي الحزية وهي أردية» ابن عبدالحق ج١ ص٣٠١ ٠

(٣١) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٢٦٣ ، انظر القلقشندي ، حيث اشار الى وجود هذا النوع من القماش الابيض النصافي في الموصل في الفترة التي اشار اليها ياقوت (صبح الاعشى ج٤ ص٤٠) ٠

(٣٢) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٢٩٢ ٠

أما في قلعــة «وان» التي تقــع بين خــلاط وتفليس في أقصى الشمال الشرقي لبــلاد الجزيرة الفراتية فتعمــل البسط[33] ، كما تعمل أيضا في بليدة «معرين» من نواحي نصيبين ، البسط المعرينية المعروفة[34] ٠ ويشير ابن أبي أصيبعة الى هذه البسط التي كانت من أحسن ما يكــون من البسط الرومية الفاخرة في مدينــة الموصل[35]، وامتازت مدينة «ماردين» التي تقع بين رأس العين ونصيبين بكثرة المرعز وهو صوف الجمل الذي كانت تصنع منه الاكسية وتحمل الى البلاد[36] ٠

وكان السائح المغربي ابن بطوطة قد مر بمدينة «ماردين»، وأشار الى صــناعة الثياب المنسوبة اليها من الصــوف المعروف بالمرعز[37] التي كانت صناعتها استمرارا لما هي عليه في الفترات السابقة ٠

واشتهرت مدينة «أرزن» في شرقي دجلة بالقرب من ميافارقين بالازر الرفاع والابراد والمصافي والبطاين وتحمل منها الى البلاد ٠

٢ ـ صناعة الأواني والآلات والأدوات :

شاعت هذه الصناعات في بــلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ونتلمسها بنطاق واسع في مدينة الموصل ، حيث كانت على درجة كبيرة من الاتقــان الفني ، وتعتبر الموصل مركزا لانتاج الاواني والآلات المعدنية المختلفة سواء من الذهب أو الفضة

(٣٣) ياقوت : نفس المرجع السابق جـ٤ ص٨٩٥ ٠

(٣٤) ياقوت : كتاب المشترك وضعا والمفترق صقعا ص٣٨٤ ٠

(٣٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ص٤١٠ـ٤١١ ٠

(٣٦) ابن سعيد المغربي : بسط الارض في الطول والعرض ص٩٠ ٠

(٣٧) ابن بطوطة : تحفة النظار ص٢٣٨ ، وكان التجار الايطاليون يطلقون على هذا النوع من القماش اسم (الكاملت) وهو اســم القماش الذي اتخذ من شعر الجمل أو الماعز ، انظر : ايرنست باركر : تراث الاسلام «الحروب الصليبية» ص١١٨ ٠

أو النحاس ، وذلك لتوفر المواد الاولية اللازمة لتلك الصناعة(٣٨) ٠ وأهم ما جاء عن هـذه الصناعات ، ما يتعلق بصناعـة القلب التي يدخل فيها البرونز والنحاس الاصفر ومكفتة بالفضة(٣٩) ، وصناعة الاباريق من النحاس الاصفر ومكفتة بالفضة والنحاس الاحمر أو من البرونز المكفت بالذهب والفضة(٤٠) ، والشمعدانات المصنوعة من النحاس وقد كفتت زخارفها بالفضة أو مصنوعة من البرونز ، مكفتة بالفضة ومن النحاس الاصفر المكفت بالفضة(٤١) ٠

وهنـاك صـناعات الصـواني والطسـوت والآلات الفلكية والزهريات ، أمـا الطسوت فمصنوعة من النحاس الاصـفر مكفتة بمعدني الذهب والفضة(٤٢) والصواني المصنوعة من النحاس الاصفر المكفتة بالفضة(٤٣) ٠

والآلات الفلكيـة ، وهي دقيقـة الصنع من النحـاس الاصفر ويستعين بها الفلكيون وتكفت بالذهب والفضة(٤٤) ٠ والزهريات المصنوعة من النحاس الاصفر ومكفتة بالفضة(٤٥) ٠

---

(٣٨) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ ص٢١٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٢ ص ١٩١ جـ١٣ ص٢١٤ ، راجع التفاصـيل عن ذلك في كتاب ، صلاح حسين العبيدي : التحف المعدنية الموصلية في العصر العباسي ص٢٤ـ٢٥ ٠

(39) Combe: Cinq Cuivres Musluman, P. 56, Rice: Studies in Islamic Metalwork, Part, 11, 62.

انظر : صلاح حسين : نفس المرجع السابق ص٢٧ـ٣٨ ٠

(40) Rice: Inlaid brasses from Al-Dhaki, P. 297-323.

انظر : صلاح حسين : نفس المرجع السابق ص٢٩ـ٨٤ ٠

(41) Rice. The Oldest Mosul Candlestick, P. 337-339.

انظر : صلاح حسين : نفس المرجع السابق ص٨٥ـ١٠٥ ٠

انظر : صلاح حسين : نفس المرجع السابق ١٠٦ـ١١٥ ٠

(43) Rice: Inlaid brasses from, Al-Dhaki, P. 301-308.

انظر : صلاح حسين : نفس المرجع السابق ص١١٦ـ١٢٦ ٠

(44) Rice: Inlaid brasses from Al-Dhaki, p. 322.

انظر : صلاح حسين : نفس المرجع السابق ص١٢٧ـ١٢٩ ٠

(45) Rot: L'epigraphic Arabs L'Exposition d'Art Persan, P. 36.

وقد اشار ابن سعيد المغربي الى هذه الصناعات عموما ، وتعدد صناعات الموصل التي كان من أهمها أواني النحاس المطعم التي تحمل الى الملوك(٤٦) ٠

ويبدو ان الآلات الفكية التي أشير الى صناعتها في الموصل في فترة القرن السادس الهجري ، هي نفسها الاصطرلابات(٤٧) التي كانت تعمل في مدينة حران في القرن الرابع الهجري(٤٨) ، كما ان صناعتها تقدمت على ما يبدو في القرون التالية ، حيث ذكر ابن حجر العسقلاني ، ان عبدالله ابن يوسف الاصطرلابي الاسعردي من مدينة «اسعرد» احدى مدن الجزيرة الفراتية «قد تمكن من اتقان صناعة الاصطرلابات ففاق فيه وعمل أوضاعا حسنة»(٤٩) ٠

ويذكر لنا الفارقي الذي عاش في القرن السادس الهجري ، صنع موائد من البلور في مدينة ميافارقين ، ارتفاع بعضها خمسة أشبار ، وغيرها من القطع البلورية ، والصحون والحليات والاقداح للشراب ، وهي منقوشة ومحفورة بصناعة متقنة لم يــر أحسن منها(٥٠) ٠

ويفيدنا المقدسي المتوفي ٣٧٥هـ/٩٨٥م في ادراك طبيعة تطور بعض الصناعات المحلية في مدن الجزيرة الفراتية ، التي انتشرت

---

(٤٦) انظر : صلاح حسين : نفس المرجع السابق ص١٣٠ـ١٣٢ ٠

(٤٦) ابن سعيد المغربي : بسط الارض في الطول والعرض ص٩٠ ٠

(٤٧) يذكر ابراهيم شوكة في مقالتــه «الاصطرلاب» ، طرق وأساليب رسمه وصناعته «ان اصطرلاب علي بن عيسى الذي كان له صناع حاذقين أكثر من أن يكونوا من رياض العلماء بالاصطرلاب بالنسبة الى أستاذهم علي بن عيسى ، وانه ضمن من قام بقياس درجة من درجات الفلك في صحراء الموصل لتحقيق مقدار الدرجة بالفراسخ والاميال كي يستند اليها في الحسابات الفلكية» مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٩ لسنة ١٩٧٠ ٠

(٤٨) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص١٣٢ ، (ويذكر أيضا مقاود الابل الحرانية) ٠

(٤٩) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعلام المائة الثامنة جـ٢ ص٣٨ ٠

(٥٠) الفارقي : التاريخ ص٢١٦ ٠

صناعتها في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، فالموصل اشتهرت بصناعة الاسطال ، وهي أوان ، والسكاكين والنشاب والسلاسل والفحم والشحوم والجبن والمن (من السـما) ونصيبين في الموازين والدوايات والكواذين والرقة بالصابون والزيت والاقلام وحران بالموازين ومعلثايا بالفحم والقنب(٥١) ٠

كما آكـد المقدسي على أن اقليم الجزيرة الفراتية يتميـز عن البلاد الاسلامية الاخرى بكثرة الخيل وصناعات الصابون والسلاسل والسيور وقبيط حران وموازينها(٥٢) ، تلك الخصائص التي عرفت بها خلال القرون الثلاثة التي أعقبت القرن الرابع الهجري ٠

وكان للصابون الذي يعتبر من مظاهر ومستلزمات الحضارة المهمة صناعة في مدينة الرقة وبعض المدن الاخرى خلال الفترة التي أشار اليها أسامة بن منقذ المتوفى (٥٨٤هـ/١١٨٨)(٥٣) وذلك لتوفر المواد الاولية التي كانت تدخل في صناعته وأهمها القلى (الشنان) الذي هو من النباتات القلوية المعروفة(٥٤) ويكثر في براري ومفاوز الجزيرة الفراتية(٥٥) كما يكثر في الرحبة أيضا(٥٦) ٠ ويكثر الزيت في مدينة الرقة(٥٧) وفي ماكسين ، وهي بلد قريب من سنجار على نهر

---

(٥١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٤٥ ٠

(٥٢) المقدسي : نفس المرجع السابق ص١٤٦ ٠

(٥٣) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص١٨٦ ٠

(٥٤) كانت هناك صناعة للصابون في العراق القديم ، فقد ذكرت منه أنواع في أزمان قديمة ، كما جاء في كتاب جودية حاكم مدينة لجش ، في القرن الثالث قبل الميلاد ، حيث كان الصابون يصنع من القلى (الشنان) والزيت والماء ٠ انظر : طه باقر مقالته «دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية» ٠ مجلة سومر ج١ مجلد ٩ لسنة ١٩٥٣ ص١٦ـ١٧ ٠

(٥٥) ابن حوقل : صورة الارض ص٢٠٢ ٠

(٥٦) ابن سعيد المغربي : بسط الارض في الطول والعرض ص٨٩ ٠

(٥٧) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٤٥ ٠

الخابور حيث توجد معاصر الزيت(٥٨) الذي يستخرج من حب الكتان(٥٩) أو يؤتى به من بلاد الشام ، حيث يستحضر هناك بكثرة وينقل الى أكثر البلدان(٦٠) ٠

وان دباغة الجلود كانت صناعة قائمة ببلاد الجزيرة الفراتية فهناك ما يدل على وجود المدابغ(٦١) ، الامر الذي يجعل تصنيع الجلود عملا قائما أيضا في صناعات الاحذية وسروج الخيل وفي عدد الفرسان(٦٢) ٠

وتحدثنا المراجع عن المصوغات الذهبية والفضية والصناعات القائمة عليها ، فيشير الفارقي الى مراكب الذهب المرصعة بالجواهر التي كانت توضع فوق ظهور الابل في مدينة آمد(٦٣) ٠ ويذكر ابن جبير الجلال المذهبة الموضوعة على ظهور الدواب عند مواكب الاستقبال ، وتجلل القباب التي كانوا يحملونها بسبائك الذهب أهلة ودنانير سعة الالف وسلاسل وتماثيل بديعات الصفات(٦٤) ويكون صخب تلك الحلي يسد المسامع ، كما تجلل أعناق الدواب بالذهب ومجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره(٦٥) ٠ وجاء في الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ، ان في الموصل يكفتون الدواة بالذهب

---

(٥٨) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص٣٩٦ ، (يوجد في الموصل في القرن السابع الهجري ١٢٠ معصرة للزيت (بزارة) و٩٩ معصرة للسمسم) ٠ الخطيب العمري : منهل الاولياء ج١ ص٦٠ ٠

(٥٩) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص٤٤٥ ٠

(٦٠) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص٨٧ ٠

(٦١) المنشيء النسوي : سيرة السلطان جلال‌الدين منكبرتي ص٣١٤ـ٣١٥ ٠

(٦٢) المنشيء النسوي : نفس المرجع السابق ص٣١٥ ٠

(٦٣) الفارقي : التاريخ ص٨٣ ٠

(٦٤) من الصاغة الذين زاولوا صناعة الحلى ، سليمان بن سليمان بن أبي الجيش عبدالجبار الاربلي ، كان أبوه صائغا أيضا : انظر : اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٤ ص٣٢١ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٧ ص٣٧٢ ٠

(٦٥) رحلة ابن جبير ص٢٠٦ ٠

ويفضضونها بالفضة ، وكذلك الكوسات والنقارات(٦٦) وكانت الغاشية التي تحمل بين يدي الامير الاتابكي عند الركوب في المواكب الحافلة في الميادين أثناء الاعياد ، هي عبارة عن سرج من أديم مخروز بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب(٦٧) ٠

ولدينا ما يشير الى صناعة المزولة الشمسية في بعض مدن الجزيرة الفراتية وخاصة في بالس ، فقد اشار الرحالة بنيامين التطيلي (ت٥٦٩هـ/١١٧٣م) الى وجود مزولة تعين ساعات النهار في برج المدينة الذي أقامه اليهود هناك(٦٨) ٠

كما جاء أن أحد امراء الاراتقة قد كلف سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م المصنع الكبير الملقب بالجزري ان يركب له ساعة مائية عجيبة ففعل ٠

أما صناعة الاسلحة وآلاتها وادواتها ، فقد كانت من الصناعات المهمة والمتميزة في هذه الفترة ، ومما يدل على انتشارها ما أشار اليه ابن الطقطقي ، حول طلب المغول لالات الحرب والسلاح من بدرالدين لؤلؤ أمير الموصل (٦٩) ، وهذه الالات كانت تصنع منذ عهد الاتابكة كما ذكر ان عزالدين مسعود بن مودود صاحب الموصل اهدى صلاح الدين الايوبي «من النفط الابيض والرماح والتراس

---

(٦٦) الحوادث الجامعة ص٧٠٤ ، وذكر ان الملك الاوحد صاحب خلاط قد صاغ لاخيه الملك الاشرف صاحب حران ، قلعة ذهب من خمسماية دينار وبقيت في الخزانة ٠

(٦٧) أبن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص١٢٤ ، وذكر الدمشقي : ان البعض ممن يتعاطى صنعة الكيمياء وهم «الطماعون المطعمون» في عمل الذهب والفضة من غير معدنيهما ، الاشارة الى محاسن التجارة ص٥٣ ٠

(٦٨) بنيامين التطيلي : رحلة التطيلي ص١٢٢ ٠

T. Rice: The Soljukt, in Asia Minor, p. 181-182.

(٦٩) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية (بيروت ١٩٦٠) ص٤٧ ٠

أحمالا من كـــل جنس ، احكمه وأقومـــه وأجوده ، وصـــل السلاح، استجيدت التراس والرماح»(٧٠) ٠

ويبدو ان مدينة حران قد اشتهرت بصناعة المنجنيقات ، حيث كان يعقوب بن صابر الحراني المنجنيقي، مقدما على أهل صنعته(٧١) في عمل وصناعة المنجنيقات وشعره :

كلفت بعلم المنجنيق ورميه لهدم الصياصي وافتتاح المرابط(٧٢)

وهناك مـــا يشير الى التوسع في صناعة النشـــاب في مدينة تكريت(٧٣) ، بحيث دفع ذلك الى المتاجرة فيه ، كما اختصت بعض الاسواق ببيعه مثل سوق النشابين في نصيبين(٧٤) ٠

وكانت صناعة الخط ونسخ الكتب والمؤلفات حرفة يمارسها عدد كبير من الناس ، غير أن المراجع لم تقدم لنا معلومات مفصلة بهذا الصدد سوى ما يتعلق الامر بياقوت بن عبدالله الحموي الذي

---

(٧٠) عمادالدين الاصفهاني : الفتـــح القسى في الفتح القدسى (طبعـــة ١٨٨٨ ــ ألمانيا ورتنبرغ) ص٢٣١ــ٢٣٢ ٠

(٧١) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ص٨ ٠

(٧٢) الحوادث الجامعة ص٨٠ (وقد ذكره أيضا الخزرجي: العسجد المسبوك ص ٣١٤ ، مؤكدا تقدمه على أهل صنعته في عمـــل المنجنيقات) ثم انظر : ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٦ ص٣٥ ٠

(٧٣) يقول ابن بطوطة «لما وصلت الى بلاد السند ٠٠٠ اشتريت من تاجر عراقي من أهل تكريت يعرف بمحمد الدوري بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرسا وجملا عليه حمل من النشـــاب فانه مما يهدى الى السلطان» تحفـــة النظار ص ٣٩٥ ٠

(٤٧) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ــ مخطوطة الجزيرة ــ الورقة ٣٦ أ ، وذكر اليونيني ، ان اسعد بن ابراهيم بن حسن الشيباني الاربلي النشابي كان يعمل النشاب ، وقد تنقل في بلاد الجزيرة والشامية ثم عاد الى أربل ٠ ذيل مرآة الزمان جـ١ ص٨٧ ٠

(٧٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٥ ص١٧٨ ٠

اشتغل بالنسخ بالاجرة وقد أقام في الموصل يكتب وينسخ(٧٥) • وقد أشير الى «ارتفاع قدره بسبب خطه»(٧٦) •

وعرفت الطواحين في أكثر بلاد الجزيرة الفراتية ، حيث تطحن الحبوب مثل الحنطة والشعير وغيرها فتزود منطقة الجزيرة وبلاد العراق بالدقيق ، وقد أطلق عليها ابن حوقل في القرن الرابع الهجري اسم «العروب»(٧٧) وقال ان «في وسط دجلة مطاحن تعرف بالعروب يقل نظيرها في كثير من الارض ، لانها قائمة في وسط ماء شديد الجرية موثقة بالسلاسل الحديد ، في كل عربة منها أربعة أحجار ويطحن كل حجرين في اليوم والليلة خمسين وقرا ، وهذه العروب من الخشب والحديد ، وربما دخل فيها شيء من الساج(٧٨) وأكثر ما تكون هذه المطاحن في الموصل ونصيبين (٧٩) وبلد والرقة وقلعة جعبر وتكريت وعكبرا والبردان(٨٠) وآمد(٨١) • ويؤكد ياقوت الحموي وجود العروب ـ التي أشار اليها ابن حوقل ـ في القرن السادس الهجري ففي مدينة جزيرة ابن عمر نصبت على مدخل خندق أجرى فيه الماء من جانب المدينة(٨٢) ، وفي مدينة رأس العين ، حيث تديرها مياه العيون التي كانت تصب في نهر الخابور(٨٣) •

---

(٧٦) مجهول : انسان العيون في مشاهير سادس القرون الورقة ٨٨ـ٨٩ •

(٧٧) راجع : ميخائيل عواد ، مقالته «العروب في العراق» (مجلة الرسالة ـ العدد ٣٦٠) ص٨٩٤ـ٨٩٦ •

(٧٨) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٨ •

(٧٩) وقد بلغت موارد المدينة من الطواحين ١٦٠٠٠ دينار ذهبا سنويا (ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص١٩٤) •

(٨٠) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص١٩٨ •

(٨١) (وفيها حجارة الارحية للطحن أيضا ، وليس لحجارته في جميع الارض نظير) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص٢٠١ •

(٨٢) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٧٩ •

(٨٣) ياقوت : نفس المرجع السابق جـ٢ ص٧٣١ •

أمـا المنشـآت والدور والجـوامع والكنـائس والاسـواق والقيسـاريات والتماثيل والنقود ، فهي شواهد على وجود صناعات متعددة مثل صناعة الجص(٨٤) والطابوق والاحجار المقطعة(٨٥) وفنون البناء والنحت والنقش والزخرفة وصناعة الزجاج وصناعة قطع الاخشاب والابواب والشبابيك من الخشب أو الحديد وغير ذلك كثير مما هو قائم فعلا في تلك الفترة ، ولكن المؤسف ان ما بقي منها الان محدود ولا يساعد الباحث على دراسة صناعات الجزيرة الفراتية ، دراسة علمية شاملة ، اذ يستلزم ذلك توفر النماذج الاثرية اللازمة لكل صناعة من هذه الصناعات التي كانت قائمة، ولكن على الرغم من ذلك فقد ذكرت بعض المصـادر معلومات قليلة ومفيدة حول بعض الصناعات التي كانت قائمة آنذاك ، فقد أشار ابن الاثير الى أن من ابنية جمال الدين وزير الموصل سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلـة بالحجر المنحوت والحديد والرصاص ، والكلس(٨٦) كمـا بنى مجاهدالدين قايماز القناطر والجسور على الانهار وبيمارستانات للمرضى ، ونصب على دجلة جسرا من الخشب»(٨٧) .

---

(٨٤) كان محمد بن عيسى بن بركة أبو الفتح الجصاص ، يعمل بالجص ويبيض الجدران في مدينة رأس العين (الذهبي : المختصر المحتاج اليه ج١ ص١٠٤) .

(٨٥) ذكر العماد الكاتب الاصفهاني ، انه عندما اعتمد السلطان صلاح الدين الايوبي في عمارة القدس ، وحفر خندقا، وتحديد سورة واعادة رونقه سنة ٥٨٧هـ وصل من الموصل جماعة من الحجارين وعدتهم خمسون رجلا ، وقد سيرهم صاحب الموصل الى القدس للعمل في الخندق ، وتعميق الحفر والنطع في الصخر ، فأقاموا هناك نصف سنة وأتوا في صنعتهم بكل حسنة وكان الحجر الذي يقطع من الخندق يستعمل في بناء السور وحفر خندق جديد عميق . الفتح القسي في الفتح القدسي ص٤٠٠-٤٠١ .

(٨٦) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص١٢٩ .

(٨٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٩٤ ، ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ج٤ قسم١ ص٨٣ .

ووصف ابن جبير مدينة الموصل عند مروره بها سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م فقال عن الجامع الذي بناه مجاهدالدين قايماز بأنه لم ير وضعا أحفل منه بناء يقصر الوصف عنه وعن تزيينه وترتيبه وكل ذلك نقش في الآجر ٠

ووصف مقصورته بأنها يطيف بهـا شبابيك حديد تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة ٠ ثم ذكر قيسارية التجار فقال كأنها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت وبعضها على بعض قد حلى ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف(٨٨) ٠

وعندما وصل الى دارا وماردين ورأس العين وصف بناءها ودورها وقلاعها وقال بأن سقوف دورها جوائز الخشب والحنايا ٠ ثم وصف الجامع في مدينة رأس العين بأن له تسعةعشر بابا تسعة يمينا وتسعة شمالا والتاسععشر منها باب عظيم وسط هذه الابواب يمسك قوسه من أعلى الجدار الى أسفله بهي المنظر جميل الوضع كأنه باب من أبـواب المدن الكبرى ولهذه الابواب كلها اغـلاق من الخشب البديع الصـنعة والنقش ووصف سور مدينـة حران المتين الحصين المبنى من الحجارة المنحوتة المرصوصة بعضها على بعض في نهاية من القوة(٨٩) ٠

والقي الفارقي ضوءا على مدينة ميافارقين ومبانيها ومنشآتها فقال بأن فيهاقصرا مليحا علىجانب الشطوفيها الاسواق والحمامات والدور ودولاب على الشط يزود المدينة بالمياه ، وأشار الى الجسر الذي عند تل بنان وحسن بنائه وصنعته وفي الجامع باب من الصفر (النحاس)(٩٠) ٠

---

(٨٨) رحلة ابن جبير ص٢١٠ ٠
(٨٩) رحلة ابن جبير ص٢١٥ ٠
(٩٠) الفارقي : التاريخ ص١٤١ ٠

وذكر سبط ابن الجوزي الجسر الذي شيده وزير الموصل جمال الدين محمد بن علي الانصاري سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م عند مدينة جزيرة ابن عمر المنحوت من الحجر والرصاص والموثق بالحديد بين البنيان(٩١) ·

أما بناء الاديرة(٩٢) ، فيمكن القول بأنها كانت تمثل مجموعة من الصناعات المهمة المتداخلة مثل بناء دير متي بالموصل وهو حسن البناء جيد الحصانة وأكثر بيوته منقورة في الصخر وله عدة أبواب مفرطة في الكبر وكلها من حديد مصمت وبه صهريج عظيم يجتمع فيه ماء المطر ويفتح هذا الصهريج من موضعين في أعلاه وفي أسفله فيخرج ماؤه من أسدين من صفر مما يدل على تقدم صناعة التماثيل والمنحوتات والمصنوعات المعدنية والخشبية ·

وأخيرا لابد لنا من الاشارة الى صناعة ضرب النقود الذهبية والفضية والنحاسية ، وهي صناعة مهمة ومتقدمة على ما يبدو ، وكانت تتوزع على أغلب مدن الجزيرة الفراتية في القرن الخامس والسادس الهجريين ، وقد احتوت الكثير من الفنيين والصناع وأهل الخبرة والصاغة وذوي الايدي الماهرة في هذه الصناعة(٩٣) ·

٣ ـ المعادن :

النفط ـ الحديد ـ النحاس ـ الاحجار ـ الاملاح ـ الزجاج ·

يبدو ان سطح الجزيرة الفراتية عموما قد ترك تأثيره على وجود المعادن فيه ، وذلك بفعل التواء قشرة الارض وعوامل التعرية

---

(٩١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ قسم الاول ص٢٤٨ـ٢٤٩ ·

(٩٢) راجع وصف الاديرة عند ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٦٤٠ـ٦٤١ـ٦٥١ـ٦٥٨ـ٦٦٢ـ٦٦٣ـ٦٦٩ـ٦٧٣ـ٦٧٨ـ٦٧٩ـ٦٩٧ـ٧٠١ـ٧١٠ · وعند العمري : مسالك الابصار جـ١ ص٢٥٤ـ٢٥٥ـ٢٦١ـ٢٦٥ـ٢٨١ـ٢٨٧ـ٣٨٩ـ٣٩٩ ·

(٩٣) انظر التفاصيل في الفصل الخامس النشاط التجاري والنظام النقدي ·

الاخرى ، فظهرت بعض المعادن مثل النفط والحديد والنحاس والزرنيخ والاملاح وغيرها • وقد أشار الاصطخري في القرن الرابع الهجري الى جبل (بارما) وهو جبل تشقه دجلة فتجرى في وسطه ويمتد الى وسط الجزيرة ، وفي الماء منه عيون القير والنفط(٩٥) • وهذه الظاهرة الطبيعية وغيرها استمرت خلال القرن السادس الهجري فيذكر ابن سعيد المغربي ، ان موقع تكريت وهي آخر مدن الجزيرة مما يلي العراق في أرض يصنع بها النفط(٩٦) • وجاء في مراصد الاطلاع أن بالقرب من خانقين وهي من مدن الجزيرة ، عين للنفط عظيمة كثيرة الدخل(٩٧) •

والجدير بالذكر أن هذه المواطن التي تحدثت عنها المراجع تمثل في الوقت الحاضر المستخرجات والمنابع الحديثة للنفط في العراق ، فالاشارة الاولى الى آبار النفط في منطقة الموصل ، والثانية والثالثة تمثل آبار النفط في كركوك الحالية •

أما معدن القار فيشير الى وجوده الشابشتي في معرض كلامه عن دير القيارة فيقول «تحته عين قير ، وهي عين تفور بماء حار نضب في دجلة ويخرج منه القير ، فما دام القير في مائه فهو لين يمتد فاذا فارق الماء وبرد جف»(٩٨) • ويقدم لنا هذا المؤرخ وصفا تفصيليا عن عملية استخراج القير ومعالجة سيولته ، لكي يسهل

---

(٩٤) المعادن المشهورة : الذهب والفضة والنحاس والصفر والزئبق والرصاص والنفط والقار والزفت والزرنيخ والجص والنورة والملح ونحوه والغالب على معادن الذهب والفضة أن يكونا بالمغرب والغالب على الياقوت والجواهر واللآلىء بالمشرق ، والنحاس والصفر والزفت والقار بالجزيرة •
قطعة من كتاب في الجغرافية لمؤلف مجهول من أهل القرن السادس الهجري (مكتبة الدراسات العليا ــ بغداد ــ رقم ٣٢٤) الورقة ٩ •

(٩٥) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧٥ •

(٩٦) ابن سعيد المغربي : بسط الارض في الطول والعرض ص٩٠ •

(٩٧) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص٣٣٦ •

(٩٨) الشابشتي : الديارات ص١٩٦ •

حمله والاستفادة منـــه وذلك بتجميده ، فيذكر ان هنـــاك قوما يجتمعون لجمع هذاالقير حيث يغترفونه منمائه بالقفاف ويطرحونه على الارض ، وكانوا يهيئون له القــدور الحديدية الكبيرة ، حيث يذوب بالتسخين ويوضع فوقه الرمل الناعم المنخول ، ويخلط فاذا بلغ حد استحكامه قلب الارض قطعـــا مجمدة فيصلب ويحمل الى البلدان(٩٩) ، وزاد بقوله ان هذا القير يستعمل لطلاء السفن وتبليط الحمامات وغير ذلك(١٠٠) وما ذكره الشابشتي يؤكده ابن جبير في ٥٨٥هـ/١١٨٤م فيصف هذا الرحالة عنـــد مروره بهذا الموضع فيقول بأن على يمين الطريق الى الموصل وهدة من الارض سوداء كاتبها سحابة ، فيها عيون كبار وصـــغار تنبع بالقار ، وتصنع له أحواض يجمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطا على الارض أسود تقذفه الى جوانبها يرسب قارا ٠ وبمقربة من هذه العيون على شط دجلة عين أخرى منه كبيرة ٠ وقال بانهم كانوا يضربون فيها النيران لتخليصه من رطوبـــة الماء وتجميده بعد ذلك ليســـهل تقطيعه ونقله(١٠١) ٠

ويؤكد ياقوت استــمرار تدفق معدن القار في هــذه المنطقة في أيامه ، عندمـــا يذكر دير القيارة ، فيقول بأنـــه مشرف على دجلة وتحته عــين القار التي يستخرج منها هذا المعدن بالطريقــة التي ذكرها من سبقه(١٠٢) ويشير ابن الاثير اليها أيضا بقوله أنها أعجوبة وهي شديدة الحرارة ويسميها الناس (عين ميمون) ويخرج مع الماء قليل من القار(١٠٣) ٠

---

(٩٩) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص١٩٦ ٠
(١٠٠) الشابشتي : نفس المرجع السابق ص١٩٦ ٠
(١٠١) رحلة ابن جبير : ص٢٠٩ ٠
(١٠٢) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٦٨٩ ٠
(١٠٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٢ ص٤٦٦ ٠

وهناك عين تفور بالقير تقـــع بالقرب من هيت ، وكان أهل العراق يقيرون حماماتهم بهذا القير بدلا من الرخام والبلاط(١٠٤) ولعل هذه العين هي نفسها عين القيارة التي سبقت التفاصيل عنها. ويذكرها العمري فيشير الى استخراج القير منها ، كما يذكر عيونا يخرج منها النفط والقير وتتقبـــل من السلطان بضمانها بألوف الدراهم في كل سنة(١٠٥) .

أما ابن بطوطة الذي مر في هذه المنطقة فانه ينقل على ما يبدو معظم العمارات التي جاء بها ابن جبير عن دير القيارة وعيون القار القريبة منها(١٠٦) .

وهناك مـــا يدل على وجود معدن الحديد في بـــلاد الجزيرة الفراتية ، فقد أشار ابن حوقل الى الشبابيك التي كانت تعمل من الحديد وتوضع حول العيـــون في مدينة رأس العـــين(١٠٧) . ويذكر المقدسي توفر الحديد في مدينة الموصل ، حيث تصنع منه الاسطال والسكاكين والسلاسل الحديدية(١٠٨) . واستمرت هذه الصناعات تتزود بمعـــدن الحديد خلال فترة القرن السادس الهجـــري فيشير ياقوت الى مدينة (حاني) في الجزيرة الفراتية المعروفة ، بمعدن الحديد ، حيث يستخرج منها ويجلب الى سائر البلاد(١٠٩) . كما ان هناك ما يشير الى سباكة الحديد (أي صهره) حيث تعمل البواتق من معادن القـــار والمغرة والطين بالقـــرب من جبـــل البشر على حدود

---

(١٠٤) شيخ الربوة : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص١١٩ .

(١٠٥) العمري : مسالك الابصار ج١ ص٣٠١ .

(١٠٦) انظر : ابن بطوطة : تحفة النظار ص٣٣٤ .

(١٠٧) ابن حوقل : صورة الارض ص٢٠٠ . وذكر ناصر خسرو بأنه رأى احدى كنائس النصارى في الجزيرة الفراتية وعليها باب من الحديد المشبك لم ير مثله في أي مكان . سفرنامه ، ص١٠ .

(١٠٨) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٤٥ .

(١٠٩) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص١٨٨ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص٣٨٢ .

الجزيرة الفراتية من أرض الشام(١١٠) واستمرت الصناعات القائمة على الحديد في هذه الفترة ، ففي مدينة ميافارقين كانت تستعمل قضبان الحديد بين الاحجار(١١١) كما أشير الى ان الحوانيت كانت لها أبواب وصفت بأنها مشط(١١٢) من الحديد والمساجد لها شبابيك من الحديد(١١٣) ٠

وهناك اشارة الى القوة المغناطيسية التي ذكرها ابن الفقيه ، بجذب المغناطيس ، وقال بأن الجبل الذي يقع بالقرب من آمد ــ متى يحك فيه السكين أو السيف أو الحديد يجذب الابر والمسال بأكثر من جذب المغناطيس ــ وتبقى فيه هذه القوة مائة سنة(١١٤) ٠

وأكد ياقوت بأن هذا الجبل نفسه يمتلك قوة مغناطيسية(١١٥)، ولكن ليست لدينا معلومات مفصلة عن مدى الاستفادة من هذه القوة في المجالات الصناعية ٠

أما الاحجار (الرخام) فأنواعه متعددة ، فمنها الاسود والابيض والازرق ــ وكان يستعمل في تشييد الجسور(١١٦) والدور(١١٧) والأسوار والكنائس(١١٩) ٠ وقد جاء في مراصد الاطلاع ان منطقة

---

(١١٠) ياقوت : نفس المرجع السابق : جـ١ ص٦٣١ ٠
(١١١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ــ قسم الجزيرة ــ مخطوطة ــ الورقة ٦٨ب وهو ما نطلق عليه في الوقت الحاضر اسم «الحيطان الكونكريتية المسلحة» ٠
(١١٢) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ٦٩ أ ــ ٦٩ب ٠
(١١٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ص٢٣٥ ٠
(١١٤) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٣٤ ٠
ابن الفقية : مختصر كتاب البلدان ص ١٣٤ ٠
(١١٥) ياقوت : معجم البلدان جـ١ ص٦٦ ٠
(١١٦) رحلة ابن جبير ص٢١٥ ٠
(١١٧) ياقوت : معجم البلدان جـ٤ ص٦٨٢ــ٦٨٣ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع جـ١ ص٤٣٩ ٠
(١١٨) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، الورقة ٦٦ أ ــ ٦٦ب ٠
(١١٩) ناصر خسرو : سفرنامه ص١٠ ٠

(البلاليق) التي تقع بين تكريت والموصل ، وهي فجوات في الرمل ، كانت تنبت الرخامي(١٢٠) وقد وصفت هذه الاحجار بأنها صلبة مانعة ، لا يعمل فيها الحديد ولا تضرها النار(١٢١) ، ولكن مع ذلك فقد نقرت البيوت فيها(١٢٢) ونحتت لتوضع مع الحديد والرصاص، والكلس(١٢٣) ، كما نقشت وفرشت على الارض في الكنائس(١٢٤) وصنعت منها المياضيء في المساجد(١٢٥) • وذكر ان سور ميافارقين قد صنع من الحجر الابيض الذي يزن الحجر منه خمسمائة مَن• كما صنعت الابراج من هذا الحجر ونحتت فيه(١٢٦) ، أما آمد فانها محاطة بسور من الحجر الاسود كل حجر يزن ما بين مائة وألف من وأكثرها ملتصق ببعضه من غير طين أو جص(١٢٧) •

واشتهر جبل ماردين القريب من نصيبين بجوهر الزجاج(١٢٨) (الحجر الذي يعمل منه الزجاج) ووصفه ابن حوقل بأنه جوهر الزجاج الجيد ، وقال بأنه كان يحمل منه الى سائر بلدان الجزيرة الفراتية وبلد الروم ، فيفضل على ما سواه بجوهرية فيه(١٢٩) • وكانت مدينة (القادسية) الواقعة بالقرب من سامراء ، يعمل فيها الزجاج خلال القرن السادس الهجري(١٣٠) •

---

(١٢٠) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص١٦٩ •

(١٢١) ابن شداد : الاعلاق ، الورقة ٦٦ أ ـ ٦٦ب ، أبوالفداء : تقويم البلدان ص٢٨٧ •

(١٢٢) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص٤٤١ •

(١٢٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج١ قسم ٢ ص٣٥١ •

(١٢٤) ناصر خسرو : سفرنامه ص١٠ •

(١٢٥) الميضأة : التي يتوضأ منها للصلاة (ناصر خسرو : نفس المرجع السابق ص١٠) •

(١٢٦) ناصر خسرو : نفس المرجع السابق ص٨ •

(١٢٧) ناصر خسرو : المرجع السابق ص٨ •

(١٢٨) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧٥ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص٢٧٩ •

(١٢٩) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٤ ، مجهول : قطعة من كتاب في الجغرافية الورقة ٩ •

(١٣٠) ياقوت : المشترك وضعا والمفترق صقعا ص٣٣٧ •

ومن المحتمل جدا أن ما أشار اليه ياقوت ، حول صناعة الخزف في بلاد فارس المأخوذة عن بلاد الصين، كانت قائمة في الجزيرة الفراتية في هذه الفترة حيث يؤخذ الحصى والكلس القلعي والزجاج ثم يعجن على البواين وينفخ ويعمل بالماسك ، كما ينفخ الزجاج مثل الجامات وغيرها من الأواني(١٣١) ٠

ويبدو أن الزجاج استعمل لاغراض مختلفة في كتائب(١٣٢) الكنائس وواجهات المساجد والمراقد وشبابيك البيوت ، وداخل الاسواق والقيساريات ، كما ورد استعمال الزجاج مع الرخام(١٣٣) لاغراض مماثلة ٠ ويصف القزويني حمامات مدينة سنجار بأن سقوفها مكونة من جامات ملونة مثل الحمراء والصفراء والخضراء والبيضاء ، وهي مرتبة كالنقوش فالجالس في الحمام كأنه في بيت مدبج(١٣٤) ٠

وفي بعض مدن الجزيرة الفراتية ، يقتلع الملح من البراري والسباخ المنتشرة في وسطها ، ثم ينقي وتجهز به المدن وبلاد العراق(١٣٥) ٠ ويذكر ياقوت ما يشير الى وجود ملاحة في جزء من وادي الثرثار ، حيث تقل الامطار في الصيف وتتبخر المياه من بعض أقسامه(١٣٦) ٠ أما ملاحة حلب الواقعة بالقرب من قرية الجبول ، فعند تبخر المياه وترسب الاملاح في القعر يؤخذ منها الكثير ويرسل

---

(١٣١) ياقوت : مُعجم البلدان ج٣ ص٤١٩ ٠

(١٣٢) جمع كتيبة ، وهي جماعة من الافراد يقومون بالدفاع والحماية عن المدن والحصون والبلدان ، وقد استعملت لفظة كتائب هنا مجازا لحفظ الكنائس والمؤسسات الاخرى من السطو (انظر : ابن منظور : لسان العرب ج٢ ص ١٩٥ مادة كتب) ٠

(١٣٣) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص٧٠٣-٧٠٤ ٠

(١٣٤) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص٢٩٣ ٠

(١٣٥) ابن حوقل : صورة الارض ص٢٠٥ ٠

(١٣٦) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٩٢١ ٠

الى بلاد الجزيرة والشام ، وكان يضمن في كل سنة بمائة وعشرين ألف درهم(١٣٧) •

٤ ـ صناعة الخمور والسكر :

انتشرت صناعة الخمور في أغلب مدن الجزيرة الفراتية ، وقد زاول صناعتها النصارى الذين يكونون غالبيـــة في بعض مدنها ، وبرعوا في صـــناعتها في أديرتهم وكنائسهم ومطارحهـم منذ القرن الرابع الهجري حيث ذكر الشابشتي في كتابه الديارات معلومات غير قليلة عن صناعة الخمور التي كان يهتم بها الرهبان ورجال الكنيسة وغيرهم من المســيحيين(١٣٨) الذين استمروا في صـــناعتها وتعاطيها خلال القرن السادس الهجري فقد أشار العمري في كتابه مسالك الابصار الى الشراب المفضل في اللون والرائحة والعتق في أكثر أديرة النصارى في هـــذه الفترة وخاصـــة في دير الزعفــران بالقرب من معلثايا(١٣٩) وخمر دير عمر أحويشا باسعرد المطل على مدينة أرزن الذي يحمل منه الكثير الى البلدان لجودته(١٤٠) •

كما ينسب الى دير (اكمن) الخمر الموصوف في نهاية الجودة ، وقد قيل عنه بأنه «لا يورث الخمار»(١٤١) أي (لا يسكر بافراط) •

---

(١٣٧) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٢٩ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص٢٣٩ــ٢٤٠ •

(١٣٨) الشابشتي : الديـارات ص١١٧ • وقد ذكر قول أحـــد الشعراء في دير الشياطين المشهور بخمرته قال :

رهبان دير شقوني الخمر صافية مثل الشياطين في دير الشياطين

وذكر أيضا : ان شراب دير (عمر الزعفران) موصوف ويحمل الى نصيبين وغيرها (نفس المرجع السابق ص١٢١) •

(١٣٩) العمري : مسالك الابصار ج١ ص٢٥٥ •

(١٤٠) ابن عبدالحق : مراصد الاطـلاع ج١ ص٤٢٣ ، العمـــري : نفس المرجع السابق ج١ ص٣١٠ •

(١٤١) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٦٤٤ •

والى (قطربل) وهي قرية بين بغداد وعكبـرا من أرض الجزيرة ، ينسب الخمر الجيد، وهي مازالت متنزها للبطالين وحانة ليخمارين على حد قول ياقوت(١٤٢) ٠

وبنفس الطريق تقع قرية (القفص) التي يقال عنها بأن فيها الخمور الجيدة والحانات الكثيرة(١٤٣) ٠

وجاء في كتاب رسائل ضـياءالدين بن الاثير المتوفى ٦٣٧هـ/١٢٣٩م وصفا شـيقا للخمرة ومجالسها في الموصـل وبعض مدن الجزيرة الفراتية ، وأشار الى تناولها في (محضها) أي خالصة أو في (مذقها) أحيانا أي بعد مزجها بالماء(١٤٤) ٠

وهناك نوع من الشراب يعمل من الشعير ويعلوه الزبد يسمى «الفقاع» وقد أشار اسامة بن منقذ الى هذا الشراب الذي كان يصنع في مدينة حصن كيفا سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م ويجلب الى المدن الاخرى ومنها الموصل(١٤٥) ٠

ولدينا مـا يشير الى صناعـة تقابل صـناعة تعليب وتجفيف الفواكه والخضر واللحـوم والاسماك في الوقت الحـاضر في بعض المدن خلال القرن السادس الهجري ٠ وقد أشار الى وجودها قبل هذه الفترة المقـدسي البشاري في مدينتي نصـيبين والحسينية ففيهما الفواكه المقـددة (أي المجـزوءة والمفرومة والمقطعـة) وفي مدينة

---

(١٤٢) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٤ ص١٣٣ ٠

(١٤٣) ياقوت : نفس المرجع السـابق ج٤ ص١٥٠ ٠ واشير الى توفر الزبيب في مدينة سروج الواقعة الى شمال حران حيث يصنع (الرب) الذي يدخل في صناعة(الناطف) وهو نوعمن الشراب الذيكان يتناوله الرهبان في أديرتهم وكنائسهم أثناء الطقوس الدينية (انظر : ابن حوقل : صورة الارض ص ٢٠٧ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ٣١ أ) ٠

(١٤٤) ضياءالدين بن الاثير : رسائل بن الاثير (تحقيق أنيس المقدسي ـ بيروت ـ ١٩٥٩) ص١٧٢ـ١٧٣ ٠

(١٤٥) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص١٧٧ ٠

الموصل ، الطريخ الفائق (أي السمك الذي يملح ويكبس) ، كما ان فيها وفي معلثايا النمكسود(١٤٦) (وهو اللحم المجفف النييء) ٠

أما صـــناعة العطور ، فيبدو انها صناعة كانت تقـــوم على استخدام الورد وتقطـيره واستخلاص عطـره(١٤٧) ، وكانت مدينة نصيبين قـد اختصت بصناعته حيث كان يجلب منها مــاء الورد الى الآفاق(١٤٨) ٠ واستمرت نصيبين في صنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطارة الطيب حتى أواخر القرن السابع الهجري(١٤٩) وأشار الصفدي الى مــادة اللاذن في الموصـل الذي يبخر فيقطـع الرائحة الرديئة(١٥٠) ٠ وكانت العطور تعرض في حوانيت لبيعها في (سوق العطر) في مدينة الموصل(١٥١) ٠

وصنعت العطور من أنواع الورود ومنها (الخلوق) وهو ضرب من الطيب يعمـــل من ورد الزعفــران وتغلب عليـه الحمـــرة والصفرة(١٥٢) وقد شاع استعماله في عصر ابن سعيد المغربي حيث ذكر كذلـك الورد الابيض الذي كان يعـم ماء ورده بـلاد الدنيا

---

(١٤٦) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٤٥ ٠

(١٤٧) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج٢ ص١٧٦ ٠ وأورد قول الشاعر علي ابن المظفر بن ابراهيم ٠

سـأل الورد عمن استقطروه لم كذا عذبـوك بالنـيران
قـال مالي جنايـــة غير اني جئت بعض السنين في رمضان

(١٤٨) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧٦ ٠

(١٤٩) ابن بطوطة : تحفة النظار ص٢٣٦ ٠

(١٥٠) الصفدي : نكت الهميان في نكت العميـــان (طبع أحمد زكي بك ١٩١١)، ص١٥٦ ٠

(١٥١) سبط ابن الجوزي : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص٢٦٢ ، وجاء عند الخطيب العمري ، (ان في الموصل خلال القرن السابع الهجري أحد عشر دكانا لبيع المسك) منهل الاولياء ج١ ص٦٠ ٠

(١٥٢) الشابشتي : الديارات ص١٩٦ ٠

(١٥٣) ابن سعيد المغربي : بسط الارض في الطول والعرض ص٨٩ـ٩٠ ٠

ويفضل على سائر أنواعه(١٥٣) كما يعمل من ورد اللينوفر الذي كان يكثر في مدينة نصيبين وكذلك من ورد النرجس(١٥٤) ٠

ومن انواع العطور التي يشير الى صناعتها ياقوت في مدينة دارا بالقرب من نصيبين «المحلب» الذي كانت تتطيب به الاعراب(١٥٥) ٠

أما السكر فقد عرفت صناعته في مدينة الموصل ، وخاصة صناعة السكر النادر الاسمر الذي أشار اليه ابن الاثير ، ويبدو ان صناعته كانت محدودة(١٥٦) ٠ وكان السكر الابلوج المصري يغطي حاجات الناس في تلك الفترة ، لذلك لم تقدم المراجع معلومات تفصيلية وكافية عن صناعة السكر في مدن الجزيرة الفراتية ٠ ولعل سكر الاهواز وهو أردأ أنواع السكر هناك كان يجلب الى هذه البلاد(١٥٧) ٠ كما أشار القلقشندي الى وجود (القند) وهو عسل قصب السكر اذا جمد(١٥٨) ٠ ويبدو ان صناعته قد شاعت في بلاد الشام والجزيرة أيام الايوبيين ٠

---

(١٥٤) ابن شاكر الكبتي : فوات الوفيات ج٢ ص١٧٦ ، وأورد قول الشاعر :

واذا هم ان يقبل خد الورود ٭ شوقا ثغر الاقاح الشنيب

خال ان اللينوفر الغض والنرجس اذن الواشي وعين الرقيب

(١٥٥) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٥١٦ ٠

(١٥٦) انظر فصل التجارة ٠

(١٥٧) قال أبو الطيب المتنبي :

نقضم الجمر والحديد الاعادي ٭ دونه قضم سكر الاهواز

الجاحظ : التبصر بالتجارة ص٣٢ ٠

(١٥٨) القلقشندي : صبح الاعشى ج٣ ص٤٤٣ ٠

الفصـــل الخـــامس

النشاط التجاري والنظام النقدي

١ ـ النشاط التجاري :

ا ـ الطرق التجارية ـ البرية والنهرية •

ب ـ التجارة الداخلية والخارجية •

جـ ـ قائمة بأسماء بعض التجار •

د ـ الأســواق •

٢ ـ النظام النقدي :

أ ـ أساس التعامل •

ب ـ القراضة والمثلوم •

جـ ـ الوزن والحجم •

د ـ دور الضرب •

هـ ـ قيمة النقد •

و ـ الدنانير والدراهم والفلوس •

ز ـ كساد النقد «التضخم النقدي» •

ح ـ الأوراق المالية «القراطيس ـ الشيكات» •

الفصـل الخـامس

النشاط التجاري والنظام النقدي

النشاط التجاري :

أتاح الموقع الجغرافي لبلاد الجزيرة الفراتية ان تكون مصدرا للربح حيث أصبحت اقليما غنيا يدر سنويا موارد غير قليلة ، وذلك لأنها كانت مركزا لحياة اقتصادية نشطة تلعب التجارة فيها دورا رئيسا ٠

وكانت الحركة الاقتصادية التجارية في هذه البلاد ، تقوم على أساس التعامل بالنقود منذ أواخر القرن الثالث الهجري[1] ، حيث كانت تتوفر مستلزمات نقل التجـارة الخارجية والداخلية ، وقد احتفظت بهـذا المركز حتى منتصف القرن السابع الهجـري حيث توقفت بسبب الغزو المغولي فترة قصيرة لم تلبث بعدها ان استعادت نشاطها مرة أخرى[2] ٠

---

(١) ذكر المقدسي البشاري ما يشير الى الحركة التجارية في هذا الاقليم خلال القرن الرابع الهجري فقال «واليه قوافل الرحاب» ، ثم عدد التجارات التي كانت ترتفع من مدن الجزيرة الفراتية الى بغداد وغيرها من البلاد ثم ذكر الطرق الممتدة بين مدنها فقال: «واذكر الطرق اليها لحاجة المسلمين الى ذلك وقصدهم في شراء الاساري والرسالات والغزو والتجارات» أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٣٦ـ١٤٨ ٠

(٢) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص١٣٣ـ١٤٧ ٠

وخلال القرن السادس الهجري أشار ابن الاثير الى أهمية التجارة في هذه البلاد والاهتمام بفعالياتها في الحياة الاقتصادية ، وقد عكس لنا في كتابه المعاملة الحسنة التي كان يعامل بها الاتابك قطب الدين محمد بن مودود التجار واكثاره من الاحسان اليهم(٣) ، كما قدم لنا المستوفي القزويني صورة واضحة تعيننا كثيرا على ادراك طبيعة هذا النشاط التجاري لبلاد الجزيرة الفراتية في هذه الفترة بقوله : ان واردات الحكومة من هذه الولاية كانت تبلغ أيام الاتابكة وبدر الدين لؤلؤ عشرة ملايين دينار فأصبحت الآن ـ أي في أوائل العهد الجلائري نهاية القرن السابع الهجري ـ تساوي ٠٠٠ر٩٢٥ر١ دينارا(٤) ، ويعني ذلك كما أفاد أحد الباحثين أن تدهورا كبيرا أصاب وارداتها يحتمل جدا أن يكون تناقص النشاط التجاري أحد أسبابه(٥) ، ثم ان امكانيات الجزيرة الزراعية وكثرة انتاجها من الغلال والثمار والزيتون والقطن والكروم من جهة ، وحاجتها الى المصنوعات والاطعمة من جهة أخرى ، لعبت دورا كبيرا في تنشيط الحركة التجارية لها سواء أكانت في نطاق التجارة الخارجية أم الداخلية ، كما ساعد ذلك على نشوء الاسواق فيها التي كان يقصدها التجار من شتى الجهات كالعراق وبلاد الشام وبلاد الروم والمناطق البعيد من بلاد الجزيرة الفراتية ٠

ويوضح الدور الذي كانت تضطلع به التجارة في النشاط الاقتصادي عموما في بلاد الجزيرة الفراتية في هذه الفترة ، كثرة الطرق والمسالك والمسافات والسكك(٦) التي يذكرها الجغرافيون والبلدانيون العرب والمسلمون في كتبهم وتآليفهم ، وهي الطرق التي

---

(٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٢ ص٣٥٥ ٠

(٤) Mustawfi Of Quzwin, The Nuzhat-Al-Qulub, P. 102.

(٥) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص١٣٨ ٠

(٦) رحلة ابن جبير ص٢٢٠ ، ابن شداد : الاعلاق (المخطوطة) الورقة ١٢٧ أ ٠

آتاحت الفرصة للتجار على مختلف أصنافهم لتسهيل مزاولتهم لصنعتهم في نقل التجارة بين منطقة وأخرى(٧) ·

وأهم الطرق هي :

١ ـ الطريق الذي كان يربط بغداد حاضرة الخلافة العباسية بمدينة الموصل التي هي «قاعدة بلاد الجزيرة»(٩) بل «واحدى قواعد بلاد الاسلام»(١٠) حيث يسير بمحاذاة نهر دجلة على ضفته الغربية حتى مدينة الموصل ، ثم يتفرع الى طرق تربط القرى المنتشرة هناك وهي باعيناثا وبرقعيد واذرمة وتل فراشة ، ويصل فرع منه الى مدينة نصيبين حيث يتفرع عندها نحو الشمال الى دارا وكفرتوثا وقصر بني نازع وآمد وميافارقين وارزن · وبذلك يكون هذا الطريق من أهم الطرق التي تؤمن تجارة المنطقة الشرقية لبلاد الجزيرة الفراتية مع الطرق خلال القرن السادس الهجري(١١) ·

وقد أشار ابن خرداذبة والاصطخري الى وجود هذا الطريق منذ القرن الرابع الهجري ، فالأول ذكر المسافات بين كل مدينة واخرى بالفراسخ(١٢) بينما كان الثاني يقيس المسافات بعدد الايام أو بعدد المراحل التي كانت تستغرقها الرحلات(١٣) ·

---

(٧) قال ياقوت : «السكة ، الطريق المسكوكة التي تمر فيها القوافل من بلد الى آخر ، فاذا قيل في الكتب من بلد كذا الى بلد كذا سكة ، يعنون الطريق ـ مثال ذلك ، ان يقال من بغداد الى الموصل خمسة سكك يعنون ، ان القاصد من بغداد الى الموصل يمكنه أن يأتيها من خمس طرق · وحكى عن بعضهم ، ان قولهم سكك البريد ، يريدون منازل البريد في كل يوم ، والاول أظهر» · معجم البلدان جـ١ ص٤٢ ·

(٨) انظر : الطرق التجارية على الخريطة ·

(٩) ابن سعيد المغربي : كتاب بسط الارض ص٩٠ ·

(١٠) ذكريا القزويني : آثار البلاد ص٣٠٩ ·

(١١) انظر : أهم الطرق على الخريطة ·

(١٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٩٦ ·

(١٣) الاصطخري : مسالك الممالك ص٧٢ ·

ويبدو أنـه طرأ بعض التحول في اتجاهات هـذا الطريق في نهاية القرن السادس الهجري ، فقد بدأه أبو الفدا من مدينة الانبار الى تكريت والى الموصل ثم الى آمد وسميساط ، وعند مدينة نصيبين يتفرع الى رأس العين وحران والرها وبرقعيد وبلد(١٤) ٠

٢ ـ وهناك طريق آخر ، يبدأ من مدينة آمد الى شمشاط وتل جوفر وجرنان ثم الى باقعدا وجلاب حتى يصل الى مدينة الرها ومنها الى حران وتل محرا وباجروان ثم يعود الى الرقة ٠ ويبدو ان هذا الطريـق كان يؤمن المواصلات البرية للمنطـة الشمالية الغربية للجزيرة الفراتية في القرن الرابع الهجري حيث أشار اليه ابن خرداذبة فذكر المسافات بين المدن بالفراسخ(١٥) ٠

ومن المرجح أن هذا الطريق قد حافظ على اتجاهاته ، خلال القـرن السادس الهجري ، فكان له من آمـد الى حران ، فرعين أحدهما لا عمران فيـه والثاني أماكن معمورة وقرى كثيرة(١٦) ، مما يدل على عدم تحولـه ، ببقاء مظاهر العمران حوله ٠

٣ ـ أما الطـريق الذي كان يربط بعض مدن الجزيـرة الفراتية بملطية في الجهات الشمالية الغربية وبالثغور(١٧) ، فيبدأ من

---

(١٤) أبوالفداء : تقويم البلدان ص٢٧٣ ٠

(١٥) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٩٦ ٠

(١٦) «وذكر بان هذا الطريق ستون فرسـخا ، وقد سرنا مع القافلة فيه» ٠ (ناصر خسرو : سفرنامه ص١٠) ٠

(١٧) ومن ثغور الجزيرة «سلعوس وكيسوم وشمشاط وملطية وزبطرة والحدث ومرعش وكمخ وحصن منصور وقورس ودلوك ورعبان» (ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٩٧) وكان قدامة بن جعفر يسمى هذه الطريق «الطريق العادلة من الحصن الى الثغور الجذرية» ٠ نبذة من كتاب الخراج ص٢٢٩ ٠

مدينة الموصل وآمد وسميساط ثم يتجه باتجاهين متعاكسين ، الشمالي الذي يذهب الى ملطية والجنوبي الذي يصل الى جسر منبج وبالس والرقـــة ، حيث ينتهي فيها في حـــدود القرن السادس الهجري ، أما قبل هذه الفترة فكان يمتد على ما يبدو الى الانبار حتى يصل الى تكريت(١٨) ٠

٤ ـ وهناك طريق يربط وسط الجزيرة الفراتية، بأقسامها الغربية ويبدأ من مدينة بلد ومنها الى تل أعفر ثم الى سنجار والى عين الجبال وهي منطقة زروع وقرى ومنها يخترق الى مدينة سكير العباس التي تقع على نهر الخابور حيث يصل الى (الفدين) ثم الى قرقيسياء على الضفة الشرقية لنهر الفرات ٠ ويبدو أن هذا الطريق بقى محتفظـا بأهميته حتى في هذه الفتـرة ، وذلك لاتصالـه بطريق آخر يبدأ من قرقيسياء الى الرقة ومنهـا الى دوسر وداقـين حيث يتصل بالطريق الذي يقطع شـمال غرب الجزيرة والذي مر ذكره ، فيما ينشطر الى شطرين ، الاول من الرقة الى حمص ودمشق على الرصافة ، والثاني من الرقة الى دوسر والرهـا ليتصل بالطريق الذي كان يغـطي المنطقة الشمالية الشرقية للجزيرة الفراتية ، وجميع هذه الطرق كانت قائمة خلال القرن السادس الهجري ٠

أما قبل هذا القرن فكانت دائمة التحول والتغير(١٩) ٠

٥ ـ والطريق الآخر هو الذي يربط الجزيرة الفراتية ببلاد فارس ويبدأ من مدينـة ميافارقين ومنها الى أرزن وخـلاط ثم الى

---

(١٨) أنظر الخريطة ٠

(١٩) يتكلم ابن حوقل عن حدود ومسافات الجزيرة الفراتية فيقول : ان هذه الطرق كانت متداخلة ومتقاربة بحيث يؤدي بعضها الى البعض الآخر بسهولة ، ونتيجة لذلك فقد كانت تغير اتجاهاتها ومسالكها لفترات متقطعة ثم لا تلبث أن تعود لها أهميتها» ٠
(صورة الارض ص١٩٠) ٠

(باركرى) وخاوى (خوى) في جنوب أرمينية ومنها الى (مرند) ثم ينتهي في تبريز[٢٠] .

ويبدو ان هذا الطريق جبلي في معظمه ، وهو يقع الى شمال طريق خراسان العظيم[٢١] الذي كان قائما خلال القرن السادس الهجري ويمر من بغداد الى حلوان داخل العراق على نهر الزاب الصغير ومنها الى همدان فالري ثم الى اقليم خراسان ثم الى نيسابور وطوس ومرو حتى يبلغ ضفة نهر جيحون عند آمل ثم الى بخارى وسمرقند .

ومن المحتمل جدا ان القوافل التي كانت تروم المتاجرة مع بلاد الجزيرة الفراتية لابد لها أن تسلك هذا الطريق الذي يرتبط بصورة طبيعية بالطريق الاول الذي ذكرناه والمحاذي لنهر دجلة على الضفة الشرقية حيث ينتهي في مدينة الموصل ، ويبدأ تفرعاته من هناك نحو المناطق والمدن الاخرى .

٦ ـ وهناك طريق يبدأ من ميافارقين ومنها الى آمد ثم الرها وينتهي عند مدينة حلب ، وهذا الطريق يصل شرق الجزيرة الفراتية بغربها ، وقد أشار اليه ناصر خسرو ، حيث ذكر بان التجار ، «كانوا يمرون من ديار بكر في الجزيرة الى مدينة حلب»[٢٢] .

وأشار قدامة بن جعفر في القرن الرابع الهجري الى الطرق التي رتبت فيها الرجال لحمل الخرائط ، وهؤلاء هم الخفراء أو الأدلاء[٢٣] في عهد الاتابكة والاراتقة وكانت لهم معرفة

---

(٢٠) انظر الخريطة .

(٢١) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص١٣٥ .

(٢٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص١٠ .

(٢٣) وكانوا يسمون في العراق في عهد المغول «قراقجية» يخفرون المترددين الى الطرق التجارية (ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٣٩٩) . وانظر أيضا: جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص١٣٤ .

بسلوك الطرق بين مدينة وأخرى ، حيث لم تكن هذه في الاصل طريقا واحدة بل أكثر من ذلـــك ، فمن (جبلتا) مثلا الى مدينة السن (عشر) سكك أي عشر طرق ومن السن الى الحديثة (تسع) سكك(٢٤) • ومع ان هذه الطرق قد جعلت رسما للبريد ، أي لنقل شؤون البريد وتأمينه ، ولكن القوافل التجارية سلكتها هي الاخرى •

وكانت القوافل التجارية بطبيعة الحال ، تختار أسلم الطرق وأقصرها وأقلهـا مخاطرا فتتخذها بصورة دائمـة أحيانا أو تتحول عنها اذا ما اكتشف طرقا أخرى غيرها ، وقد ساد ذلك منذ القرنـين الثالث والرابـع الهجريين(٢٥) وحـتى الفترات التالية لهما ، مما أوجد كثرة الطرق وتعددها بين مدينة وأخرى أو بين بلاد وبلاد •

أما الطرق النهرية ، فهي مجموعة المسالك التي كانت تتخذ من نهري دجلة والفرات وروافدهما وتفرعاتهما ، وأهمها

---

(٢٤) اذا أحصينا عدد الطرق التي كانت تربط الجزيرة الفراتية بحلب والتي ذكرها قدامة بن جعفر بلغت (٧٩) طريقا ، والطرق بين نصيبين وقاليقلا (٣٢) طريقا وبين مدينة الحصن وثغور الجزيرة (١٩) طريقا (نبذة من كتاب الخراج ص٢٢٥–٢٢٧–٢٢٩) •

(٢٥) أورد الاصطخري مســافات الطرق بين مدينة وأخرى مقــدرة بالايام أو بالمراحل وعند احتسابها ظهر ان :
الطريق الاولى : من ملطية الى الموصل تقطع بـ(٢٠) يوما و(٢٠) مرحلة •
الطريق الثانية : من الموصل الى ملطية تقطع بـ(١٠) أيام فقط •
أما من الموصل الى الرقة فتقطـــع ب (١٣) يوما و(٧) مراحل (مسالك الممالك ص٧٢) • واورد ابن حوقل : الطريق الاولى : من ملطية الى الموصل بـ(٣٧) يوما • الطريق الثانية : من الموصل الى ملطية ب (٢٠) يوما ، أما من الموصل الى جهة الغرب على الفرات فتقطـــع ب (٢١) يوما و ٢٨٫٥ مرحلة (صورة الارض ص١٩٠) ويرى جاسم الخلف ، ان المياه الجوفية كانت عاملا مهما في تحديد طرق المواصلات البرية (القوافل) وهذا ينطبق على الفترات التاريخية في العصور الوسطى (جغرافية العراق ص١٦٢) •

طريقان ، الاول الذي يصل بغداد بالموصل ، مارا بسامراء وتكريت ، والاخر بين بغداد وعانة مارا بالانبار وهيت والحديثة • وعن الطريق الاول كانت تنقل التجارات التي أشار اليها ابن حوقل والمقدسي وغيرهما من أهل القرن الرابع الهجري ، حيث بقي محتفظا بأهميته حتى العهد المغولي الايلخاني في العراق(٢٦) •

ومن الجدير بالذكر ، ان نهر دجلة ، شمال مدينة الموصل يكون ذا مجرى صخري عميق وشديد الجريان لا يصلح للملاحة ، كما أن نهر الفرات شمال مدينة عانة يمتاز بأحواضه العريضة فتتكون فيه الجزر الرملية لبطيء جريانه ، وهذا يمنع الملاحة فيه أيضا ، ولذلك فكلا النهرين في هذه المناطق لا يصلحان اتخاذهما لنقل البضائع والمؤن الزراعية والسلع الاخرى •

أما روافدهما وتفرعاتهما ، فلم تقدم المراجع المتوفرة لدينا ما يشير الى أنها اتخذت طرقا لنقل التجارة الداخلية في هذه الفترة بنطاق واسع • ولكن لابد ان يكون لها دور آخر في هذا المجال لاتصالها مع بعضها وبالانهار الرئيسة •

التجارة الداخلية والخارجية :

تقسم التجارة الى نوعين : داخلية ، وهي ما يجري بين الريف والمدينة وبين المدن نفسها ، ومناطق القرى والارياف مع بعضها • وخارجية وتعنى العلاقات التجارية القائمة بين مدن الجزيرة الفراتية والبلاد المجاورة والبعيدة • وكان اعتماد التجارة الداخلية

(٢٦) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص١٣٥ •

على الطرق البرية أجتـــر منها على الطرق النهرية(٢٧) وذلـــك لعدم صلاحية الانهار للملاحة في بعض مناطقها بصورة كافية ٠

وكانت المدن مراكز طبيعية للمواصلات والتجارة منذ القرن الرابع الهجري حيث أن نشاطها يعكس لنا، أحوال البلاد الاقتصادية العامة ومـــدى رخائها وحيويتها حتى منتصف القـــرن السابع الهجري ٠ وكانت تجـــارة بلاد الجزيرة تتركز في مدينـــة الموصل وبعض المدن الاخرى ، وان نشاطها في هذا المضمار هو استمرار لما كان عليه في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، فيلقى كل من الاصطخري(٢٨) وابن حوقل(٢٩) والمقدسي(٣٠) ضوءا جيدا على طبيعة هذا النشـــاط ، حيث تحمل الفواكه والقطن الى الموصـــل من سائر النواحي كما أن أغلب مدن الجزيرة ، كانت تتزود بجوهر الزجاج

---

(٢٧) وكانت تجارة العراق في القرنين السادس والسابع الهجريين تعتمد كذلك على الطرق النهرية لرخصها وسهولتها ، ويتكرر ذكر دجلة أكثر من الفرات في هذا المجال ، وكانت السفن والقوارب تصل من الفرات الى دجلة عن طريق القنوات العديدة التي تربط بينهما ٠ (انظر جعفر خصباك : نفس المرجع السابق ص١٣٥) ٠

(٢٨) يذكر الاصطخري : «من مشاهير القرى بين مدينة المجدل وعرابان التي كان يرتفع منها القطن والفواكه : هي طابان والمطرية والسحيمية وتنينير ، وكانت عرابان فرضة لاهل خلاط والموصل» مسالك الممالك ص٧٢ـ٧٤ ٠

(٢٩) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٤ـ١٩٩ـ٢٠٢ـ٢٠٣ ٠
ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٤٥٧ـ٤٥٨ ٠

(٣٠) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٤٥ـ١٤٦ ويذكر «ما كان يرتفع من الموصل من التجارات ، وأهمها ، الحبوب والعسل والنمكسود والفحم والشحوم والجبن وامن والسماق ٠ ومن نصيبين شاه بلوط والفواكه المقددة والموازين والدوايات والكواذين ومن الرقة الصابون والزيت والاقلام ومن حران القبيط وعسل النحل في (ادنن) والقطن والموازين ومن جزيرة ابن عمر ، الجوز واللوز والسمن والخيل الجياد ، ومن الحسينية ، الالبان والفحم والاعناب والفواكه الرطبة والشاهدانق والقنب والنمكسود ٠ ومن بلد ، اللباني في قدور (وهو نوع من منتجات الحليب) والزواريق من الرحبة السفرجل الفائق الرائق ، ومن آمد ثياب الصوف والكتان الرومية» ٠

الجيد من جبل ماردين الواقع بالقرب من نصيبين ، وتزود مدينة سنجار ، مناطـق الجزيرة الاخـرى بحب الرمان الكبـير المجفف والسماق والجوز واللوز والزيتون والاترج والسمسم(٣١) . وكانت التجارة الدائمة بين جزيرة ابن عمـــر والموصل احد معالم هذا النشاط حيث تصـل المراكب مشحونة بالتجارة كالعســل والسمن والمن والجبن واللــوز والبنـدق والزبيب والتين الى غير ذلــك من الانواع(٣٢) وقد استمر ذلك حتى القرن السادس الهجري(٣٣) .

واستمر النشــاط التجاري لهذه المدن بصورة أكثــر اتساعا خلال القرن الســادس الهجري لانهــا بقيت تحتفظ بمـــواقعها الجغرافية الممتــازة ومكانتها التأريخيــة والسياسية ، فينــوه ابن سـعيد المغــربي بمـــا يشــير الى ذلــك(٣٤) . وكذلــك يفعل زكريـا القـــزويني(٣٥) ويقـــدم حمـــدالله المســـتوفي القزويني صـــورة واضحة عن هــذا النشاط التجــاري في العهد الاتابكي(٣٦) ، كمــا بين السائح البندقي (ماركــو بولو) أهميتها التجارية ، التي هي اســتمرار لمــا كانت عليه في القــرن السادس الهجري بصورة أكثر وضوحا من غيره فأكد على أنسجتها الذهبية والحريرية وقال ان«جميع كبار التجار المعروفين بالموصليين والذين كانوا يحملون التوابل والعقاقير بكميات كبيرة بين بلاد وأخرى هم من منطقتها»(٣٧) . وذكر ياقوت ان مدينة نصيبين كانت على اتصال

---

(٣١) ابن حوقل : صورة الارض ص٢٠٢ .
(٣٢) ابن حوقل : صورة الارض ص٢٠٢ .
(٣٣) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٤٥٧ـ٤٥٨ .
(٣٤) ابن سعيد المغربي : كتاب بسط الارض ص٩٠ .
(٣٥) زكريا القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص٣٠٩ .
(36) Mustawfi Of Quzwin, The Nuzhat-Al-Qulub, P. 102.
(37) The Travels of Marco Polo, P. 29.

تجاري دائم مع العراق وبلد الروم حيث كانت تجارة جوهر الزجاج الجيد تحمل منها الى هذه البلدان(٣٨) ٠

ولعل التجارات التي كانت تخرج من مدن الجزيرة الفراتية في القرن الرابع الهجري(٣٩) والتي استمرت خلال القرنين التاليين استنادا لما جاء في المصادر المعاصرة لم تكن تجري بين مدن الجزيرة فحسب ، بل كانت قائمة كذلك مع البلاد المجاورة مثل العراق وبلاد الشام وبلاد فارس وحلب والبلاد المصرية ، كما ان اشارة المراجع الى خصائص اقليم الجزيرة وهي الخيل والصابون والسلاسل والسيور وقبيط حرآن وموازينها(٤٠) ٠ يفهم منها على أقرب الاحتمال نشاطها التجاري ـ في هذه الفترة وما أعقبها ـ مع البلاد الاخرى القائم على تلك السلع والبضائع ٠

ويؤكد لنا ياقوت ، النشاط التجاري القائم بين مدن الجزيرة الفراتية وبلاد الشام في معرض كلامه عن مدينة جسر منبج ، حيث يقول ان فيها جسرا تعبر عليه القوافل من حران الى الشام(٤١) ٠ كما يمكن أن نستنتج من اشارة له ان بلاد الجزيرة الفراتية كانت تستورد (السيوف القلعية) وهي الهندية العتيقة من مدينة القلعة أول بلاد الهند على الحدود الصينية حيث تنتهي فيها المراكب(٤٢) ،

---

(٣٨) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٤٥٧ـ٤٥٨ وذكر أيضا «ان في مدينة خلاط بحيرة ليس لها نظير في الدنيا يجلب منها السمك المعروف (بالطريخ) الى ساير البلاد ولقد رأيته ببلخ ، وقال بأنه يرسل الى غزنة» ٠

(٣٩) كانت مدينة سنجار تزود العراق بسلع وبضائع ٠ ومن مدينة عرابان ترسل ثياب القطن الى بلاد الشام كما كان يجلب الجهاز من سائر البلدان الى مدينة سوق دنيسر هذا بالاضافة الى أن فواكه مدينة قرقيسياء وفواكه الخابور تجلب الى العراق في الشتاء ٠ (انظر ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٤ـ٢٠٤) ٠

(٤٠) المقدسي : أحسن التقاسيم ص١٤٨ ٠

(٤١) ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص١٦٥ ٠

(٤٢) ياقوت : نفس المرجع السابق ص١٦٢ ٠

وذلك عن طريق العراق والخليج العربي لان هذه السيوف كانت شائعة الاستعمال في هذه البلاد خلال القرن السادس الهجري ·

وذكر ابو شامة ، ما كان يجلب من التمور الى بلاد الشام من قرى الجزيرة وهي قرقيسياء والرحبة وعانة والكبيسات والمعمر والعين وشفاثا(٤٣) ·

أما المتاجرة مع البلاد المصرية في هذه الفترة ، فقد أشار اليها غير واحد من المؤرخين ، حيث كانت القوافل التجارية تجلب السلع والبضائع المهمة الى بلاد الجزيرة الفراتية بعد أن تسلك الطرق البرية الممتدة عبر بلاد الشام ، فهناك ما يشير الى جلب الاثواب الدمياطية من مدينة دمياط في مصر التي اشتهرت بصناعة الاقمشة الحريرية والكتانية المقصبة(٤٤) ·

ويبدو ان التجارة المصرية الى بلاد الشام والجزيرة الفراتية والعراق عموما والتي أشارت المصادر الى بعض أوجهها ، كانت استمرارا لما هي عليه خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ، فقد أورد سبط ابن الجوزي ، خروج القوافل من حران احدى مدن الجزيرة في أواخر القرن السادس الهجري(٤٥) وهي محملة بالسكر المعمول في مصر ، حيث كانت تقصد مدن الجزيرة الاخرى وبغداد ، وقد جاء ذلك أيضا عند ابن كثير(٤٦) والمقريزي(٤٧) وابن تغري بردي(٤٨) · وأكد القلقشندي ورود التجار الى الديار المصرية عن

---

(٤٣) ابو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ص١٥١ ·
(٤٤) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص١١ ، ١٧٣ ·
(٤٥) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ قسم٢ ص٧٨٧ ·
(٤٦) ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ج١٣ ص١٨٢ ·
(٤٧) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ قسم ٢ ص٣٨٣ـ٣٨٤ ·
(٤٨) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص٢٥ ·

طريق البر من العراق والشام وما والاهما(٤٩) ، كما أشار المقريزي الى ودائع التجار من أهل بغداد وحران والشام(٥٠) .

ونشطت العلاقات التجارية بين بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الروم واواسط اسيا في هذه الفترة ، فأشار ابن الاثير الى انقطاع الطرق من بلاد الروم والروس وقفجاق وغيرها برا وبحرا ، وكان انقطاعها مؤقتا على ما يبدو ، فأصاب الناس من جراء ذلك ضرر كبير ، لانهم كانوا يتجرون معهم ويدخلون بلادهم ويقصدهم التجار من الشام والعراق والموصل والجزيرة وغيرها(٥١) .

أما العلاقات التجارية القائمة بين اقليم خوزستان والجزيرة الفراتية فيشير اليهـا ابن الاثير خـلال النصف الاول من القـرن السادس الهجري ، بقوله «ان القوافل كانت تسلك الطرق البرية سلع التجارة»(٥٢) .

وكتبت (تامارا رايس) عن النشاط التجاري في منطقة الشرق الاوسط الاسلامي في هـذه الفترة ومنهـا تجارة بلاد الجزيـرة مع أوروبا ، تقـول بأن معظم التجـارة الواردة من سـورية والعراق وخاصة من مدينة الموصل ، كانت تمر بمدينة سيواس حيث يتسلمها الوكلاء السلاجقة ، الذين كانوا مسؤولين عن تنظيم القوافل المتجهة نحو (سينوب) على البحر الاسود أو (طرابزون) فينقلون البضاعة عبر البحر الى موانيء البحر الاسود الشرقية والجنوبية(٥٣) . وأكد (أيرنست بازكر) ان البضائع التي كانت تجلب الى أوروبا أثناء الحروب الصليبية لابد من ان تمر قوافلها في مدينة الرقة من مدن

---

(٤٩) القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا ج٣ ص٤٦٦ .
(٥٠) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ قسم ٢ ص٦٠٣ .
(٥١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٢ ص٢٤٢ .
(٥٢) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٧٩ .
(٥٣) تامارا رايس ـ السلاجقة ـ تاريخهم وحضارتهم . (ترجمة لطفي الخوري وابراهيم الداقوقي ـ بغداد ـ ١٩٦٩) ص١٢٥ .

الجزيرة ونهـــر الفرات ، لكي تدرك الطرق البرية عبـــر بلاد الشام(٥٤) .

قائمة بأسماء بعض التجار :

رددت المصادر أسماء لتجار نسبت بعضهم الى مدن الجزيرة الفراتية وكان أغلبهم يزاول نشاطه التجاري خلال القرن السادس الهجري :

١ ــ يوسف بن محمد بن قائد الاربلي البحراني ، من أهل أربل ، صنعته التجارة من البحرين ، حيث كان يقيم بها مدة لتحصيل اللالىء من المغاصات اسوة بأمثاله من التجار سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م(٥٥) .

٢ ــ ومن التجار الذين ذكرهم ابن الدبيثي (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م) سعد أبن الحسن بن سلمان ابو محمد الحراني ابن التوراني (وتوران قرية بالقرب من حران)(٥٦) .

(٥٤) ومن هذه البضائع «الملابس القطنية وأقمشة الموسلين والبلدكان والدمقس والاقمشة الدمشقية والبضائع الشرقية والاقمشة الحريرية الثقيلة التي كانت تعرف باسم Samites والاقمشة القطنية المتينة البيضاء التي تسمى Dimities وأقمشة الكتان التي تسمى Diapers والسجاجيد والابسطة ودهان الصقل والاصباغ والعقـــاقير والتوابل والعطور والعود والقرنفل واللبان والنيلة والصندل وأدوات اللبس والزينة والحبوب (وهي قطعة من ملابس النساء) والمساحيق والمرايا والمسبحة الذهبية والقطع الفنية المصنوعة من الفخار والزجاج والذهب والفضة والمينا» ايرنست باركر : تراث الاسلام ج١ (الحروب الصليبية ــ ترجمة علي احمد عيسى) ص١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ .

(٥٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص١٠٢ــ١٠٤ .

(٥٦) ابن الدبيثي : المختصر المحتاج اليه ج٢ (تحقيق مصطفى جواد ١٩٥١) ص٨٣ .

(٥٧) ابن الدبيثي : نفس المرجع السابق ج١ ص٤٨ .

٣ ـ محمد بن عبدالرحمن بن أبي العز ، أبو الفرج ، التاجر الواسطي الذي اشتغل بالتجارة مدة في الموصل (سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م)(٥٧) .

٤ ـ التاجر الحراني حماد بن هبة الله بن حماد أبو الثناء الذي ذكره سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)(٥٨) .

٥ ـ أبو عمرو بن منصور بن الحسن بن العطار الحراني الذي قال عنه ابن الساعي (ت٦٧٤هـ/١٢٧٥م) بأنه من مياسير التجار(٥٩) .

٦ ـ وذكر ابن الساعي ، أيضا ، التاجر أبا الفرج عبدالمنعم بن عبدالوهاب بن صدقة بن الخضر الحراني وكان من أعيان التجار وأكابرهم(٦٠) .

٧ ـ ويذكر الفارقي ، ممن اشتغل بالتجارة في مدينة ميافارقين أبا بكر محمد بن جري وهو من أكابر التجار فيها(٦١) وابن البهات(٦٢) الذين كان لهما فضل في المساهمة في الاعمار واقامة بعض المباني والمؤسسات .

---

(٥٨) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ قسم ٢ ص٥١١ . وذكر انه كان ينشد :

تنقل المرء في الآفاق يكسبه محاسنا لم تكن فيه ببلدته
أما ترى بيدق الشطرنج اكسبه حسن التنقل فيها فوق رتبته

(٥٩) ابن الساعي : الجامع المختصر ج٩ ص١٤ .

(٦٠) ابن الساعي : الجامع المختصر ج٩ ص١٤ .

(٦١) الفارقي : التاريخ ص١٦٥ . أنظر أيضا ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ٨٨ب

(٦٢) الفارقي : نفس المرجع السابق ص١٦٦

٨ ـ أبو القاسم سعيد بن الحسن بن علي البغدادي البيع وهو من احدى قرى سنجار ، وذكره المنذري (ت٦٥٤هـ)(٦٣) ٠

٩ ـ عبدالقادر بن محمد بن عبدالواحد الحراني الذي اشار اليه ابن شاكر الكتبي فقال عنه انه كان تاجرا ذا مال كثير(٦٤) ٠

١٠ـ علي بن أحمد بن عبدالواحد بن احمد بن عبدالرحمن السعدي المقدسي الصالحي الذي ذكره ابن رجب (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م) وكان يتعاطى السفر للتجارة في بلاد كثيرة بدمشق ومصر وبغداد والموصل وتدمر والرحبة والحديثة وزرع(٦٥) ٠

١١ـ أما التجار الذين جاءوا عند اليونيني فهم القاسم ابن أبي بكر ابن القاسم الاربلي التاجر ، وكان من أعيان التجار وتردد الى الديار المصرية وبلاد فارس مرارا وانتهي الى بلاد خوارزم(٦٦) وصفي‌الدين ابراهيم بن عبدالله بن أحمد العسقلاني ، الكاتب التاجر وقد كان من المعروفين بالثروة ، كما كان يتاجر بالقمح من مصر(٦٧) ، ومحمد بن علي بن ابي طالب بن سويد التكريتي التاجر المشهور بسعة المال والجاه وكانت متاجرة لا يتعرض لها أحد(٦٨) وشجاع‌الدين نعمان بن حمدان التكريتي من التجار المشهورين بالثروة وكثرة الجد(٦٩) ، وشمس‌الدين محمد بن الشيخ العماد المقدسي الحنبلي ، وكانت عنده ودائع للتجار من أهل بغداد وحران والشام(٧٠) ٠

---

(٦٣) المنذري : التكملة لوفيات النقلة جـ١ (تحقيق بشار عواد معروف ١٩٦٨ بغداد) ص٩٩ ٠

(٦٤) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات جـ١ ص٦١٠ ٠

(٦٥) ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة جـ٢ ص٣٢٥ ٠

(٦٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ٢ ص٤٧٠ ٠

(٦٧) اليونيني : نفس المرجع السابق جـ١ ص٤٧٢ ٠

(٦٨) اليونيني : نفس المرجع جـ٢ ص٤٨٧ ٠

(٦٩) اليونيني : نفس المرجع جـ٣ ص٨٢ ٠

(٧٠) اليونيني : نفس المرجع جـ٢ ص٤٧٠ ٠

وكان نقل السلع والبضائع ولقوافل التجارية يتعرض الى مخاطر كثيرة كالقرصنة التي أشار اليها أبو شامة في عهد الاتابك نورالدين محمود ابن عمادالدين زنكي صاحب دمشق والموصل ، حيث أمر هذا الاتابك شحنة الموصل بمعالجة الجرائم باتباع اسلوب العقوبات التي تحددها الشريعة ولا يزيد عليها(٧١) ، ويبدو ان هذه السياسة المتهاونة قد سببت كثرة الدعار والمفسدين وقطاع الطرق ۰

وفي ٥٩٩هـ/١٢٠٢م «ثار التركمان وقطعوا الطريق في تلك المناطق فأكثروا من الفساد مما تعذر معه سلوك الطريق الا لجماعة من أرباب السلاح ، ولكن عندما سارت طائفة من العسكر الى رأس العين لاصلاح الطريق والقضاء على المفسدين استطاعوا كف عادية الفساد»(٧٢) ۰

وكانت القبائل العربية تقطع الطريق بين خوزستان والجزيرة الفراتية فتنهب القرى وتخيف الناس أيام الاتابكة والاراتقة حيث كان القلق السياسي على أشدة «فنال الخلق منهم أذى شديدا وأخذوا في طريق العراق قفلين عظيمين ، كانا سائرين الى الموصل فلم يسلم منهما شيء البتة»(٧٣) ۰

---

(٧١) قال أبو شامة : «ان نورالدين محمود أمر كمشتكين شحنة الموصل الا يعمل شيئا الا بالشرع وبطلت الشحنكية (أي لم يكن لرئيس الشرطة ان يعالج الجرائم بما يناسبها من عقاب رادع ، وانما كان عليه ان يتبع العقوبات التي حددها الشرع ولا يزيد عليها ـ تعليق المحقق) فجاء آكابر البلد وقالوا لكمشتكين : قد كثر الدعار وأرباب الفساد فكتب الى نورالدين وقال له : ان الدعار والمفسدين وقطاع الطريق قد كثروا ويحتاج الى نوع سياسة ، فمثل هذا لا يجيء الا بقتل وسلب وضرب» كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ج١ قسم ١ (تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد احمد ـ القاهرة ٥٦ ، ١٩) ص٣٢ ۰

(٧٢) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص١٧٩ ۰

(٧٣) ابن الاثير : المرجع السابق ص٤٢٨ ۰

ويشير القلقشندي الى سائر التجار الذين كانوا ينقلون تجارتهم عبر الطريق من الشام والعراق وما والاهما الى الديار المصرية ، كانت أشدها على التجار تضبيقا(٧٤) ، أي تعرضا للمخاطر(٧٥) الى جانب الضرائب التي ذكرها والمقررة عليهم ٠

وكانت الطرق البرية عبر القارة الاسيوية عموما خلال القرن السادس الهجري محدودة الفائدة من الناحية التجارية ، اذ لم يكن يسلكها التجار الاوربيون وذلك لاختلال الامن وانتشار الفوضى على طول هذه الطرق ـ نتيجة لانعدام الوحدة السياسية في السهول الاسيوية(٧٦) غير أن المعتمد التجاري البندقي (جاكوب يتبولو) المقيم في القسطنطينية قام بالاتصال بسلاجقة آسيا الصغرى ، ونتيجة رغبتهما المشتركة في توسيع التجارة بين بلدان الشرقين الادنى والاوسط وبين أوروبا ، تمّ عقد اتفاقية تجارية بين الطرفين وبموجبها تم الاتفاق على نقل السلع والبضائع بينهما وتأمين حماية القوافل التجارية(٧٧) ٠

وكانت الخانات ومحطات القوافل والابراج الموضوعة للمسافرين قد أخذت بعين الاعتبار المسافات ، فكانت المسافة بين كل محطة وأخرى تليها تبلغ تسع ساعات على ظهور الجمال ، أو ما

---

(٧٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج٣ ص٤٦٦ ٠

(٧٥) قال ابن واصل لما دخل المعظم دمشق قام الشعراء فابتدأ العدل تاج الدين ابن الدجاجية ، فقال :

كيف كان القدوم من حصن كيفا حين ارغمت للاعادي انوفا

فأجابه المعظم :

الطريق الطريق يا ألف نحس تارة آمنا وطورا مخوفا

انظر ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج١ ص١٨٧ ٠

(٧٦) المنشيء النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ص٨٤ ، حاشية رقم (١) ٠

(٧٧) تامارا رايس : السلاجقة ، تاريخهم وحضارتهم ص١٢٤ ٠

يعادل ثمانيةعشر ميلا وهي المسافة التي يستطيع الجمل قطعها في النهار الواحد(٧٨) ٠

ذكر ابن الاثير ان نورالدين محمود صاحب دمشق قد بنى الخانات والابراج على الطرق فأمن الناس وحفظت أموالهم اذ جعل فيها من يحفظها(٧٩) ٠

وبقيت هذه المبرات ماثلة الى ما بعد القرن السادس الهجري فقد كان ابن بطوطة قد مر بها فوصفها وذكر الخانات والمحطات التي تقع هناك ، ومنها الخان الكبير وهو في منتصف الطريق بين حران وسروج ، والمحطة التي تقع في الطريق الى مدينة الرقة حيث يقول ان فيها «المهم من علف وخبز واقامة»(٨٠) ٠ ويشير ياقوت الى عدد من هذه الخانات والمحطات ومنها برقعيد التي كانت ممرا للقوافل ثم أصبحت بمرور الزمن مدينة عامرة ٠ غير أن تلك القوافل أصبحت تتجنبها فانتقلت الاسواق الى (باشزي) وذلك لان سكانها كانوا يقومون بأعمال وصفها ياقوت باللصوصية والسطو على القوافل ونهبها(٨١) ٠ كما ذكر ان دير ابي يوسف كان في ممر القوافل(٨٢) وان قرية العقر التي تقع بين تكريت والموصل كانت

---

(٧٨) وكان المبيت والراحة في هذه الخانات مجانا ، اما تلك التي أنشئت في المدن فقد كان لها بوابتان تؤخذ فيهما الضريبة عند الدخول والخروج ثم تنزل الاحمال وتخزن في غرف حصينة أعدت لهذا الغرض كما تقاد الحيوانات المتعبة الى اصطبلات جيدة مزودة بمعالف من حجر كما يحتوي الخان على مقهى وحمام ومحل لاصلاح ما يراد اصلاحه لادارة القافلة ٠
انظر المرجع السابق ص١٢١ ٠

(٧٩) وكان معهم كذلك الطيور الهوادي فاذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لانفسهم فلا يبلغ العدو منهم غرضا ٠ ابن الاثير : الباهر ص١٧١ ٠

(٨٠) ابن بطوطة : تحفة النظار ص٢٢٢ ٠

(٨١) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٥٧١ ، القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص٣٠٦ ٠

(٨٢) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٢ ص٦٤١ ٠

تنزلها القوافل وهي أول حدود أعمال الموصل من جهة العراق(٨٣) ، وان «العرادة» وهي قرية بين مدينة رأس العين ونصيبين كانت تنزلها القوافل(٨٤) ، وان (بلاباذ) «قرية في شرقي الموصل تنزلها القفول وبها خان للسبيل»(٨٥) • وجاء في مراصد الاطلاع ان قرية (تل عبدة) وهي من قرى حران بها خان للقوافل في الطريق الى مدينة الرقة(٨٦) ـ وان في تل السلطان وهي تقع في الطريق الى بلاد الشام وحلب خان يعرف (بفندق للقوافل)(٨٧) وان بليدة (تل هفتون) من نواحي أربل تنزلها القوافل في الطريق الى اذربيجان(٨٨) •

كما ذكر أبوالفدا ، ان حاجب الملك الاشرف ، حسام الدين علي الموصلي وهو من أهل الموصل قد بنى الخان الذي بين حران ونصيبين وبني الخان الذي بين حمص ودمشق(٨٩) • وأشار ابن خلكان الى مدينة دنيسر الواقعة بين نصيبين ورأس العين «وكان يطرقها التجار من جميع الجهات وهي مجمع الطرقات»(٩٠) ومن محطات القوافل في الطريق بين الفرات وبلاد الشام مدينة الرحبة التي تقع بين الرقة وعانة(٩١)

---

(٨٣) العقر : قلعة حصينة في جبال الموصل ، أهلها أكراد وهي شرقي الموصل وتعرف أيضا بعقر الحميدية • ياقوت : مجم البلدان ج٣ ص٦٩٦ •

(٨٤) ياقوت : نفس المرجع السابق ج٣ ص٦٢٧ •

(٨٥) ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص٧٠٧ •

(٨٦) ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ج١ ص٢١١ •

(٨٧) ابن عبدالحق : نفس المرجع السابق ص٢١١ •

(٨٨) ابن عبدالحق : نفس المرجع السابق ص٢١٣ •

(٨٩) أبوالفداء : المختصر في اخبار البشر ج٦ ص٤٢ •

(٩٠) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص٢٣٢ •

(٩١) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص١١٥ •

الأسـواق :

يتطلب فهم طبيعة الحركة التجارية في الجزيرة الفراتية ـ خلال القرن السادس الهجري استعراض ما ورد عن الاسواق ، لانها كانت في الواقع ، تمثل مظهرا حيا للنشاط التجاري والاقتصادي .

ويمكن القول ، ان وجود الاسواق في هذه الفترة هو استمرار لما كانت عليه خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، حيث وصف ابن حوقل مدينة الموصل بغزارة أهل الاسواق ، وانها كانت «واسعة وأحوالها في الشرف والفخم ظاهـــرة»(٩٢) ، و «ان لكل جنس من الاسواق الاثنـــان والاربعة والثلاثــة ، مما يكون في الســوق المائة حانوت وزائد»(٩٣) .

وقال : «وفيها مدينة تعرف بسوق الاحد فيها أسواق ولها موعد لأوقات يحضر فيها السوق ، يجتمع فيه المتاع وسائر التجارة والاكرة والاكراد»(٩٤) . واستمرت أسواق الموصل على هذا الحال في الاتساع والانتشار حتى صارت خارج سورها سنة ٥٦٠هـ(٩٥) .

---

(٩٢) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٤ـ١٩٥ ، كما قال عن الرقة بأنها مدينة حسنة الاسواق (نفس المرجع السابق ص٢٠٣) وقال الاصطخري «بدنيسر بازار عظيم في الخميس والجمعـــة والسبت والاحد يجتمع فيه الناس من البلاد البعيدة ليحضروا ويشتري منه كل ما يحتاج اليه» مسالك الممالك ص٧٦ .

(٩٣) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص١٩٥ ، أما ما ورد عن الاسواق عند المقدسي من معلومات فكانت قليلة ، فيما عدا أسواق باعيناثا التي وصفت بأنها فرجة الاسواق ونصيبين سوقها من الباب والرقة حسنة الاسواق وقد ظللت بالاشجار . أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١٣٦ـ١٣٧ .

(٩٤) ابن حوقل : نفس المرجع السابق ص١٩٦ ، ذكر البلاذري «كان بين الرقة والرافقة فضاء ، فلما قدم علي بن سليمان بن علي واليا على الجزيرة نقل أسواق الرقة الى تلك الارض ، فكان سوق الرقة الاعظم فيما مضى يعرف بسوق هشام العتيق» . فتوح البلدان قسم٢ ص٢٤٧ .

فتوح البلدان قسم ٢ ص٢٤٧ .

(٩٥) المعلق المجهول ـ وهو من أهل القرن السادس ـ في كتاب صورة الارض لابن حوقل ص١٩٥ .

كما اتخــذت في ميافارقين في هــذه السنة الحانــات والفنادق والحمامات والاسواق والبيع والشراء وكان يجلب اليها الجهاز من سائر البلدان(٩٦) ولكن في ٥٣٤هـ/١١٣٩م وصفت ميافارقين بأنها ضيقة وكذلك ماردين ، وعليه أوجد بالقرب منها موضع يعرف بسوق دنيسر يجتمع الناس كل يوم فيه للبيع والشراء(٩٧) ٠

وفي ٥٨٠هـ/١١٨٤م زار الرحالة ابن جبير مدن الجزيرة وقدم لنا معلومات مفيــدة عن أسواقها ، فقال عن الموصــل «وبنى داخل البلد وفي السوق قيسارية للتجار كأنها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب حديد وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض قد جلى ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف الذي لا مثيل له ، فما أرى في البلاد قيسارية(٩٨) تعدلها»(٩٩) ٠

ويواصل ابن جبير رحلته الى مدينة دنيصر ، فيذكر ان اهل القافلة التي كان ينضم اليها هو ، يريدون حضور سوقها الحفيلة التي كانت تنعقد أيام السبت والاحد والخميس والجمعة ، حيث يجتمع بها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بها ، لان الطريق كلها يمينا وشمالا قرى متصلة وخانات مشيدة ، «ويسمون هذه السوق التي يحضرها الناس من جميع الجهات «البازار» وكانت أيام كل سوق معلومة»(١٠٠) ٠

أما عن مدينــة حران فيقــول : «ولهذه البلــدة أسواق حفيلة الانتظام عجيبة الترتيب» ، ويشــير الى أنها كانت مسقفة

---

(٩٦) المعلق المجهول : نفس المرجع السابق ص٢٠٢ ٠

(٩٧) المعلق المجهول : نفس المرجع السابق ص٢٠٢ ٠

(٩٨) القياسر : جمع قيسارية ، مجموعة من المباني العامة وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن وفي بعضها مساجد ويعلوها رباع ذات مساكن يقيم فيها الصناع والتجار بأجر ٠ عن المقريزي ، خطط جـ٢ ص٨٧ــ٨٩ ، انظر الدكتور محمد جمال‌الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ص١٦٠ ٠

(٩٩) رحلة ابن جبير ص٢١٠ ٠

(١٠٠) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص٢١٧ ٠

بالخشب ، فلايــزال أهلها في ظل محدود ، ويورد وصفا جيــدا لها فيقول : «وعندما تخترقها كأنك تخترق دارا كبيرة الشوارع قد بني عند كل ملتقى أربع سكك أسواق ، منها قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص هي كالمفرق لتلك السكك ، ويتصل بهذه الاسواق جامعها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعا وكبرا وأعالي أسواقها مسقفة • وزاد قولــه : «ان على هذا الترتيب أسواق مـــدن هذه أسواق مدينة جسر منبج وسككها كانت فسيحة متسعة ، دكاكينها في هذه الفترة ، ولكن على ما يبدو فقد شيدت على النسق الذي أشار اليه ابن جبير ، واستمرت ماثلة حتى خلال القرن الثامن الهجري ، فابن بطوطة قد زار تلك المنـــاطق في ٧٧٤هـ/١٣٧٣م وذكر «ان الكرم ••»(١٠١) •

وعلى الرغم من قلة المعلومات الواردة عن أسواق المدن الأخرى الجهات»(١٠٢) ، كما انه وصف لنا أسواق مدينة الموصل ، وقال بأن قيساريتها مليحة لها أبواب حديد ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض مسقفة البناء(١٠٣) •

ومن الاســواق التي يشار اليها منــذ القرن الرابــع الهجري وحتى نهاية القرن السادس :

١ ـ سوق الطعام الذي أشار اليه الفارقي(١٠٤) ، وكانت تباع فيه الخضروات واللحوم والسمن والمؤن والحبوب والبقول ـ وقد وجد مثل هذا السوق في أكثر مدن الجزيرة الفراتية •

---

(١٠١) ابن جبير : نفس المرجع السابق ص٢٢٠ـ٢٢١ •
(١٠٢) ابن بطوطة : تحفة النظار ص٢٢٣ •
(١٠٣) ابن بطوطة : نفس المرجع السابق ص٢٣٥ •
(١٠٤) الفارقي : التاريخ ص٨٠ ، الى جانب ذلك توجد بيوت الغلات «أي المخازن» في مدينة آمد (نفس المرجع السابق ص٩٥) •

٢ ـ سوق القبة(١٠٥) نسبة الى القبة التي فوقه ، حيث تتفرع منه الاسواق الى جميع الجهات .

٣ ـ سوق البز(١٠٦) نسبة الى نسيج البز ، حيث يعرض ويباع فيه هذا القماش دون غيره .

٤ ـ سوق العطـارين(١٠٧) الذي يحتوي على حوانيت لبيـع السكر والعقاقير وجميع البضائع والسلع المشابهة .

٥ ـ سوق البـزازين(١٠٨) وهو يضم الحـوانيت والقيساريات التي تعرض فيها أنواع الانسجة والاقمشة وغيرها .

٦ ـ سوق العطر(١٠٩) يحـوي حوانيت العطور والبخـور واللاذن والخلوق والمحلب .

٧ ـ سوق الصوافين(١١٠) يباع في حوانيته الصوف والغزول والوبر وشعر الماعز والجلود المجففة والفرو .

٨ ـ سوق النشـابين(١١١) نسبة الى النشـاب ، ويباع فيـه أنواع الاسلحة الاخرى مثل السكاكين والمديات والتروس والجواشن والرماح وأنواع السيوف والخناجر .

وجاء في الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ، ان هناك سوقا في الموصل يسمى : «سـوق التركمان»(١١٢) وهو سـوق يختص بهذه

---

(١٠٥) الفارقي : نفس المرجع السابق ص١٦٥ .

(١٠٦) انظر الفصل السـادس . كما جاء ان في مدينـة السلامية قيسـارية للبز : ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص١١٣ . وفي باعشيقا قيسارية يباع فيها البز (ياقوت : نفس المرجع السابق ج١ ص٤٧٢) .

(١٠٧) الفارقي : التاريخ ص٢٠٦ .

(١٠٨) اشارت المراجع الى وجوده في أغلب مدن الجزيرة .

(١٠٩) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص٢٦٢ .

(١١٠) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ج٤ قسم ٣ ص٥٩٧ .

(١١١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ٣٦ أ .

(١١٢) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص٢٣١ .

الطائفة ، ولعل هنـاك ما يشير الى وجـود أسواق خاصـة بالعرب والاكراد . كما ورد سوق بآسم «سوق العديم» في مدينة ميافارقين ، ولعل هذا السوق كان يضـم الحوانيت التي تباع فيهـا الادوية والاشربة والمعاجين والعقاقير وما شابه ذلك(١١٣) .

النظام النقدي :

جرى التعامل في بلاد الجزيرة الفراتية ، خلال القرن السادس الهجري على أسـاس الدينار(١١٤) الذهبي والدرهـم(١١٥) الفضي ، المحليين ، مثلما كان يجري الوضع عليه في الدولة العباسية في هذه الفترة ، وذلك فضـلا عن مجموعة النقود الاخرى مثـل الدينار الارمانـوسي(١١٦) و المـرابطي(١١٧) و الصـوري(١١٨)

---

(١١٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ــ مخطوطة ــ الورقة ٩٣ب .

(١١٤) الدينار : كلمة بيزنطية Donarius أي عشرة وحدات Mummus ومعناها سوية «نقد ذو عشرة أسات ، والاس في الاصل من النقود النحاسية» انظر : يوسف غنيمة : مقالته «النقود العباسية» (مجلة سومر جـ١ مجلد ٩/ ١٩٥٣) ص١١٥ . وقد ساد الدينار في المعامـلات في الدولة العباسية ، وأصبحت كل سبعة دنانير تساوي عشرة دراهم . انظر : محمد ضياءالدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية (الطبعة الثانية ــ ١٩٦١ القاهرة) ص٣٥٤ ثم انظر :
The Encyclopaedia of Islam, "Art Dirham"

(١١٥) الدرهم تعريب «درم» الفارسي ، ومنه اليوناني «دراخمي» ومن اليوناني مأخوذ السرياني «درخما» (يوسف غنيمة : نفس المرجع السابق ص١١٥) وانظر أيضا :
The Encyclopaedia of Islam, "Art Dirham"

(١١٦) وهو دينار بيزنطي ، ينسب الى الامبراطور رومانس الثاني Romanus أحد أباطرة الدولة البيزنطية (القلقشندي : صبح الاعشى جـ٧ ص١٠ــ١٣).

(١١٧) وهو دينار ذهبي اسباني .

(١١٨) وتسمى الدنانير (المشخصة) يؤتى بها من البلاد الافرنجية والروم وهي معلومة الوزن على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه ، وعلى الوجه الآخر صـورتا (بطرس) و (بولس) الحواريين ، وقـد يعبر عنها أحيانا (بالافرنتية) واصلها افرنسي (القلقشندي : صبح الاعشى جـ٧ ص٤٣٧) .

والمصـــري(١١٩) والاميـــري(١٢٠) ، فضـــلا عن الدراهـــم النحاسية والفلوس(١٢١) النحاسية(١٢٢) ودراهم النقرة والسلطاني والدراهم النصفية ٠

وكان لهـــذه النقود وزنهـــا الشرعي من الذهب أو الفضـــة ، فالدينار الذهبي عموما يساوي مثقالا من الذهب ، والدرهم الفضي سبعة أعشار المثقال من الفضة ٠ وقد كان صرف الدينار الذهبي يساوي عشرة أو اثنـــاعشر درهما فضيا(١٢٣) ، ولعل ذلـــك لم يكن يسرى على الدينـــــار والدرهم المحليين فحسب ، بـــل على النقود الاخرى ٠

وكانت هذه النقـــود غير منسجمة من حيث العيـــار «أي نسبة المعدن الثمين فيها» والحجم والوزن ، وذلك لعدة أسباب ، يأتي في مقدمتها النقص في كمية الذهب(١٢٤) والفضة(١٢٥) بسبب الاضطراب

---

(١١٩) وهو دينار ذهبي شاع التعامل به في بلاد الشام والجزيرة في هذه الفترة ٠

(١٢٠) الدينار العباسي ، الذهبي الذي كتب عليه اســـم ولي العهد ، وقد منع التعامل بغيره من العملات التي ضربت بكثرة في دار الضرب التي كان لسيرها وكلاء الخليفة ٠

(١٢١) الفلس لفظ يوناني معرب ، وقد أخذه اليونانيون من اللفظ اللاتيني ومعناه «كيس النقود»، المقريزي : اغاثة الامة بكشف الغمة٠ (نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة) حاشية (١) ص٦٦٠ ٠

(١٢٢) وكانت تسمى «الزيوف» حيث تطلى من الخارج بالفضة لتبدو لمن يراها أول مرة فضية ، ونتيجة الاستعمال ، تبلى الفضة ، فيظهر النحاس وينكشف أمرها ٠ أنظر : عبدالرحمن فهمي : النقـــود الاسلامية ماضيها وحاضرها ص١١٩ ٠

(١٢٣) فلو كان الدرهم مساويا في وزنه ، وزن المثقال لكان ثمنه ١/٧ ثمن المثقال ولكن وزن الدرهم هو ٧/١٠ المثقال فقط ٠ لـــذا فان نسبة ثمنه الى ثمن الدينار كانت ١/١٠ ، فالدينار أي المثقال يساوي ١٠ دراهم (انظر محمد ضياءالدين الريس : نفس المرجع السابق ص٣٩٦) ٠

(١٢٤) ومن مظاهر عدم توفر الذهب في بلاد الجزيرة الفراتية هو اقتصار ضرب الدنانير الذهبية على مدينة الموصل فقط دون غيرها من المدن الاخرى ، حيث



والقلق السياسي والاقتصادي والتناحرات العسكرية ، التي قد يكون الخطر الصليبي من أسبابها ٠

ويبدو ان نقص معدني الذهب والفضة وخاصة في القرن السادس الهجري انما يرجع الى تصديرهما من الموصل الى الولايات والبلدان الاخرى ، هذا بالاضافة الى ان بعض المناجم الموجودة في الموصل قد سيطرت عليها بعض الدول مثل بلاد فارس وأرمينية وبلاد الروم مما حال دون الاستفادة منها في هذا المجال(١٢٦) ، كما انه من المحتمل جدا أن تكون هذه المناجم فقيرة في معدن الفضة بطبيعتها ، مما أدى الى استيرادها من ايران(١٢٧) والمناطق المجاورة لها ٠ وقد ظهر بمرور الزمن العجز عن ضرب العملات الفضية(١٢٨) واستعيض عنها بالدراهم النحاسية ٠

لا يتوفر هذا المعدن فيها بصورة كافية لاصدار الدنانير ٠

انظر محمد باقر الحسيني : العملة الاسلامية في العهد الاتابكي ص٧١ ـ٧٢ ٠

(١٢٥) وهذا يرجع الى تصديره وعدم كفاية مناجمه ، نتيجة للتوسع في ضرب الدراهم التي كانت تقوم مقام الدنانير الذهبية ٠

(126) Gaston Migeon: Les Cuivres Arabes. (Paris, 1900) P. 9-10.

(١٢٧) كانت ايران والمناطق المجاورة لها ، غنية بمعدن الفضة في «تائين» وشمال غربي «دلفريد» حيث جبل المعادن و«بنجهيز» ٠ انظر : كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص٣٣٢ـ٣٥٤ـ٣٨٩ـ٤٣١ وأنظر أيضا محمد ضياءالدين الريس : الخراج والنظم المالية ص٣٧٣ ٠

(١٢٨) جاء ان بعض التجار ممن يمتلكون كميات من معدن الفضة ، كانوا يستأذنون الخلفاء والأمراء بسكها دراهم للتعامل ٠ وقد استأذن أحد التجار الناصر صلاح الدين الايوبي عند اخضاعه معظم بلاد الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، استأذنه في ضرب الفضة الكثيرة التي كانت لديه ، دراهم فاذن له وجعل دار الضرب بيده فضرب منها شيئا كثيرا ، انظر : اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ٢ ص٤٨٧ ٠

وكانت «القراضة»(١٢٩) وهي أجزاء وكسور السكة ، تقطع من الدينار الذهبي ، كما يسمى الاخير «مثلوما»(١٣٠) ، اذا بقي ما يساوي أكثر من القراضة المقطوعة منه ٠ والقراضة والمثلوم ، كانا شائعي الاستعمال في عمليات التداول النقدي خلال القرن السادس الهجري في بلاد الجزيرة الفراتية(١٣١) ٠ وظل التعامل فيهما سائدا الى ما بعد هذه الفترة ، ويذكر ابن خلكان وصول الشاعر عبدالرحمن بن أبيالحسن بنعلي البوازيجي الى أربل سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م ٠ وكان شرفالدين بن المستوفي ، وزيرا ، حيث أرسل اليه «مثلوما» على يد الشاعر الكمال بن الشعار الموصلي ، فتوهم ذلك الشاعر ان الكمال قد قرض القطعة من الدينار وان شرفالدين بن المستوفي ما سيره الا كاملا(١٣٢) ٠

---

(١٢٩) ذكر ابن خلكان : كان الناس يتعاملون بالقطع الصغار ويسمونها «قراضة» وهي كثيرة الوجود بأيديهم في معاملاتهم ٠ وفيات الاعيان ج٣ ص٣٩٦ ، انظر أيضا : مجهول : انسان العيون في مشاهير سادس القرون (مخطوطة) الورقة ٣١١ ، وذكر الذهبي انه ضربت ببغداد دراهم وفرقت في البلد وتعاملوا بها ، وانما كانوا يتعاملون بقراضة الذهب القيراط والحبة ونحو ذلك فاستراحوا ٠ العبر في خبر من غبر ج٥ (تحقيق صلاحالدين المنجد الكويت ـ ١٩٦٦) ص١٢٧ ٠

(١٣٠) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص٣١٢ـ٣٩٦ ، انسان العيون الورقة ٣١١ ٠

(١٣١) ابن خلكان : نفس المرجع السابق ج٣ ص٣٩٦ ، انسان العيون الورقة ٣١١ـ٣١٢ ٠

(١٣٢) أنشد الشاعر :

يا أيها المولى الوزير ومن به ... في الجود حقا تضرب الامثال
أرسلت بدر التم عند كماله ... حسنا فوافى العبد وهو هلال
ما غاله النقصان الا انه ... بلغ الكمال وهكذا الأحوال

ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص٣١٢ـ٣٩٦ ، جاء في الحوادث الجامعة ص٧٠ـ٧١ (في ٦٣٢هـ منع الخليفة المستنصر بالله العباسي التعامل بالقراضة واصدر بدلا منها دراهم فضية تساوي كل عشرة منها دينارا واحدا) ٠

الوزن والحجم :

يقتضي معرفة طبيعة النقــود ، دراسة أوزانها(١٣٣) ، فهي في الغالب تساعد على ادراك كثير من الحقائق المتعلقة بالنقود وحجومها ومعاييرها ومقاييسها الاخرى ٠

والملاحظ ، ان عدم انسجام البســكة من حيث الوزن والحجم والعيار ، كان صفة ملازمة للنقود السائدة في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القــرن السادس الهجري فهناك دينار ضرب ســنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م من وزن (١٠٣ر٤غم) وقطــر (٢٥مم) ٠ وآخــر من وزن (٢٢٨ر٢غم) وقطر (٢ر٢٥ملم) وقطر (٤ر٢٥ملم) وصدر آخر في الموصل ســنة ٥٥٧هـ/١١٦١م من وزن (٧٣٠ر٤غم) وقطر (٢٧ مم) ٠ وآخر من وزن (٢٠٤ر٤غم) وقطر (٢٦مم) صدر في الموصل سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ٠ وآخر من وزن (٨٣٠ر٤غم) وقطر (٢٦ مم) صدر سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م ٠ وصدر سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م دينار من وزن (٨١٤ر٥غم) وقطر (٢٩مم)(١٣٤) ٠

أما الدراهم الفضية والنحاســية ، فليست لدينا نماذج لها في الوقت الحاضر ولكن تبين نماذج الفلوس النحاسية الاتابكية عدم انسجامهــا في الوزن والحجم حتى مــا صدر منها في عهــد الاتابك الواحد نفسه ٠ ففي عهد عزالدين مسعود ابن مودود أتابك الموصل ٥٧٦هـ/١١٨٠م صدرت الفلوس الآتية أوزانها وأقطارها :

الأول من وزن (٧٩٠ر١٠غم) وقطــر (٢٦مم) والثــاني من وزن (٤٥٠ر١٣غم) وقطر (٢٧مم) والثالث من وزن (٢٤٠ر١٣

---

(١٣٣) محمد ضياءالدين الريس : الخراج والنظــم المالية للدولة الاسلامية ص ٣٤٩ ٠

(١٣٤) مجموعة مسكوكات المتحف العراقي ، ناصر النقشبندي : مقالته «الدينار الاسلامي للملوك الطوائف والمتغلبة على الدولة العباسية» (الدينار الاتابكي) مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ٤ جا/١٩٥٦ ٠

غم) وقطر (٢٧مم) والرابع من وزن (٠٢٠٥ر١٣غم) وقطر (١٩ مم) والخامس (٠٦٤٠ر١٥غم) وقطر (٢٨مم)(١٣٥) ٠

وفي عهد الاتابك قطب الدين محمد أتابك سنجار ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م صدرت الفلوس النحاسية ومنها من وزن (٠٣٧٠ر١٠غم) وقطر (٢٤مم) وآخر من وزن (٠٤٧٠ر٨غم) وقطره (٢٥مم) وآخر (٠٦٠ر١٠غم) وقطر (٢٦مم) وآخر من وزن (٠٩٣٠ر١٠غم) وقطر (٢٥مم) وآخر من وزن (٠٤٢٠ر١٠غم) وقطر (٢٥مم) وآخر من وزن (٠٠٤٠ر١٠غم) وقطر (٢٦مم) وآخر من وزن(٠٩٢٠ر٨غم) وقطر (٢٤مم)(١٣٦) ٠

وقد ضربت هذه النقود في الموصل وأربل وسنجار وآمد والانبار ودقوقا وميافارقين ودنيسر وخلاط ونصيبين وتكريت وجزيرة ابن عمر وتبدو الكتابة المنقوشة عليها متقاربة يتلخص أكثرها بذكر اسم الخليفة العباسي القائم ثم بذكر اسم الملك الاتابكي الحاكم وعبارات الشهادة مثل «الامام المقتفى لامرالله ــ لا اله الا الله وحده لا شريك له» على الوجه ٠ وكلمات «لله ــ سنجر ومسعود ــ تكريت (مدينة سكها)» على القفا وعلى الهامش الكلمات «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»(١٣٧) ، وينقش في بعض المسكوكات ، هامشان ، الاول الخارجي ويكتب فيه التاريخ واسم المدينة التي ضرب فيها مثل «بالموصل سنة احدى وأربعين ٠٠٠» وآخر «بالموصل سنة خمسين وخمسماية» ٠ وآخر «باسم الله ضرب هذا الدينار بدقوقا

---

(١٣٥) مجموعة مسكوكات المتحف العراقي ، محمد باقر الحسيني : العملة الاسلامية في العهد الاتابكي ص١٠٣ ٠

(١٣٦) مجموعة مسكوكات المتحف العراقي ، محمد باقر الحسيني : العملة الاسلامية ص١٢٩ ٠

(١٣٧) مجموعة مسكوكات المتحف العراقي : محمد باقر الحسيني : نفس المرجع السابق ص٤٠ ٠

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة» أما الهامش الداخلي فيحتوى على عبارات الشهادة مثـل «لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئـذ يفرح المؤمنون بنصر الله»(١٣٨) وهذه العبارة تغلب على الهوامش الداخلية لمعظم المسكوكات المتوفرة · وتظهر لاول مرة في الفلوس النحاسية الاتابكية ، صـور منقوشة لآدميين بعضها كاملة وبعضـها نصفية وأخرى مجنحة ، وهي تمثل الملوك الاتابكيين وبعضها الآخر كان يمثل الامراء الاراتقة ·

ففي عهـد قطب الدين مودود اتابك الموصـل ٥٤٤ـ٥٦٥هـ/ ١١٤٩ـ١١٦٩م صـدر فلس ، نقشت على وجهه صـورة لشخص متجه نحو اليسار قليلا ، فوق رأسه ملكان ناشران اجنحتهما(١٣٩) · وعلى فلس آخـر نقشت الوجه ، صـورة نصفية لشخص متجـه الى اليسار على رأسه خوذة(١٤٠) · وعلى آخر، صورة لشخص جالس ممسك بيديه المرفوعتين على صدره بالهلال ، كتب خارج الهلال من اليسار (ضرب بالموصل)، وفي اليمين (وثمانين وخمسماية) أماداخل الهلال قرب الوجـه ، فقد كتب فيه على اليسـار (ست) وعلى اليمـين (خمس)(١٤١)٢ وعلى آخر صورة رأس انسان متجه نحو اليسار وتحت ذقنه نجمة ، والصورة مرسومة داخل مربع(١٤٢) وعلى آخر ، صورة شخص مكلل رأسـه بأوراق شجر الغـار(١٤٣) وعلى آخر يرجـع الى أتابكية الجزيرة (جزيرة ابن عمر) صدر سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م في عهد الاتابك معزالدين سنجر شاه على الوجه زخرفة نقشت داخل

---

(١٣٨) مجموعة مسكوكات المتحف العراقي : محمد باقر : نفس المرجع السابق : ص٤٠ ـ ٤٢ ·

(١٣٩) مجموعة مسكوكات المتحف العراقي ·

(١٤٠) محمد باقر : العملة الاسلامية ص١٠٤ ·

(١٤١) متحف الفن الاسلامي بالقاهرة «رقم ١٧١٨٤» ·

(١٤٢) محمد باقر الحسيني : العملة الاسلامية ص١١٩ ·

(١٤٣) الحسيني : نفس المرجع السابق ص١٣٣ ·

دائرتين احداهما وهي (الداخلية) متموجة والثانية (الخارجية) بخط غير متموج(١٤٤) ٠

ويبدو ان اضطراب الحياة الاقتصادية وتذبذبها قد أثرا الى حد بعيد في شدة تباين المسكوكات من حيث العيار والوزن والحجم ، مما يؤكد ذلك شيوع ظاهرة التعامل بالنقود الوافدة التي لم تكن تخضع الى نظام موحد أو تستند الى قاعدة ثابتة في نسبة الصرف ، بالاضافة الى أنها غير منسجمة او مستقرة فمنها الجيد ومنها الرديء الرخيص ، وكان الناس يفضلون في معاملاتهم العملة الجيدة ويطالبون بالتعامل بها، وكان التجار بصورة خاصة يتجافون مناطق العملة الرخيصة(١٤٥) ٠

ومع أنه ليست لدينا معلومات مفصلة عن مدى ثبات قيمة النقود الاتابكية ، بما فيها الدنانير الذهبية أو الدراهم الفضية أو النحاسية أو الفلوس النحاسية ، وتذبذبها ، أمام النقود الوافدة من البلاد الاخرى أو بالعكس ، فان صرف هذه العملات جميعها ، كما يبدو ، يقوم على أساس وقتي ويخضع للصدفة ٠ وكانت العادة ان الدينار الاميري يساوي ٢٠ قيراطا(١٤٦) ، ولكن الدينار الاتابكي جاء سعره في سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م بأحد عشر قيراطا(١٤٧) ، بينما حافظ الدينار الاميري على سعره المعتاد ٠

---

(١٤٤) الحسيني نفس المرجع السابق ص ١٣٤ ٠

(١٤٥) رشيدالدين فضل‌الله : داستان غازان (بالفارسية) نشر كارل‌يان ، لندن ١٩٤٠ ، ص٢٨٢ ٠

(١٤٦) يزن القيراط "Silka" ١٨٩ر٠غم ٠

(١٤٧) ذكر ابن الاثير ، ان الملك الظاهر غازي بن صلاح‌الدين الايوبي صاحب حلب قد الزم صاحب ماردين سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م بعد ان هدد امارته بالاحتلال على قاعدة (اتفاق) باعطاء الملك الظاهر مائة وخمسين ألف دينار فجاء صرف الدينار أحدعشر قيراطا من الدينار الاميري وهو ما يعادل عشرين ألف دينار من النقد المذكور ٠ الكامل في التاريخ ج١٢ ص١٧٩ ، انظر ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢٢٦ ٠

وكان الدينار المصري قد شاع التعامل فيه على أساس وزنه ذهبا وليس عملة في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري وبعده ، كما هو الحال عليه في مصر في العهد الايوبي وهو يساوي سبعة مثاقيل(١٤٨) والمثقال يساوي أربعة وعشرين قيراطا(١٤٩) ، أي ان الدينار الواحد يساوي (مائة وثمانية وستين) قيراطا ، وهو أكثر من الدينار الاميري بـ (عشرين) مرة ومن الدينار الاتابكي بـ (سبع وسبعين) مرة ٠

وأشار ابن جبير في منتصف القرن السادس الهجري ، الى تداول الدينار المصري في بلاد الجزيرة الفراتية(١٥٠) كما استمر التعامل فيه خلال الفترات التالية في هذه البلاد ، فقد جاء ان الناس كانوا يتعاملون بالدينار المصري في مدينة خلاط سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م(١٥١) ، ويذكر ابن شداد ما يشير الى استعماله في ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م فعند اجتماعه بالملك السعيد صاحب ماردين قال له : أنا أقرض صاحبكم (أي صاحب ميافارقين) ثلاثمائة ألف دينار مصرية(١٥٢) ٠

والى جانب الدينار الاتابكي والاميري والعباسي والمصري ، هناك الدينار الارمانوسي من الذهب ، وهو من العملات المتداولة على نطاق واسع أيام الاتابكة ، حيث كان تداوله استمرارا لما كان عليه في القرن الخامس الهجري ، ويذكر الفارقي قيام التاجر ابن البهات من أهل ميافارقين في هذه الفترة ، بصفقة تجارية ، فقد

---

(١٤٨) ان وزن المثقال هو (٤٫٢٥)غم ، وقد اتخذه الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان وزنا للدينار الاسلامي ، الذي هو بالضبط وزن الدينار البيزنطي "Solidos" الذي كان مستعملا في تلك العصور ٠

(١٤٩) انظر : محمد ضياءالدين الريس : الخراج والنظم المالية ص٣٦٣ـ٣٦٤ ٠

(١٤٩) القلقشندي : صبح الاعشى ج٣ ص٤٣٦ ٠

(١٥١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢٤٥ ٠

(١٥٢) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ١١٨ أ ٠

اشترى قماشا وباعه وقبض ثمنه ، فربح فيه خمسمائة دينارا أرمانوسية(١٥٣) وفي ٤٣١هـ/١٠٣٩م وصل أولاد الخليفة العباسي الى آمد فكان أميرها يجرى لهم رواتبهم كل يوم مقدار خمسين دينارا أرمانوسية(١٥٤) وان نصارى ميافارقين دفعوا ثلاثين ألف دينار أرمانوسية الى الامير فخر الدولة لمساهمته في بناء دير عباد(١٥٥) ٠

وفيما عدا ذلك ، كان هناك الدينار المرابطي الذهب ، وهو عملة افرنجية اسبانية يؤدي بها اليهود المقيمون في العمادية وبعض مدن الجزيرة الاخرى الجزية للمسلمين(١٥٦) ، وكان له أثر في القرن الخامس الهجري والقرنين التاليين له ، فقد كان يصرف في هذه الفترة كل دينار مرابطي وثلث يساوي دينارا أميريا ذهبا ٠

أما الدينار الصوري الذهب ، فقد أشار المقريزي الى تداوله سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م في مدينة ماردين في عهد الامير الارتقي ناصر الدين أرسلان(١٥٧) ٠

أما الدراهم المتداولة الى جانب الدراهم الفضية والنحاسية الاتابكية فأكثرها شيوعا هي الدراهم السلطانية والنصفية والنقرة فالأولى تضرب بدور الضرب بالسكة السلطانية ٠ والسكة هي حديدة منقوشة تضرب بها الدراهم ، ويحتفظ السلطان أو الامير بها(١٥٨) ٠ وكان وزن الدرهم السلطاني الواحد أربعة وعشرين قيراطا فضة ، والنصفية هي في الاصل سلطانية ، قرضت الى قطع صغيرة وتعامل بها الناس ، وكان سعرها منخفضا ، وقد عرفت في محيط التداول في أغلب مدن الجزيرة خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين ٠

---

(١٥٣) الفارقي : التاريخ ص١١٦ ٠
(١٥٤) الفارقي : نفس المرجع السابق ص١٥٨ ٠
(١٥٥) الفارقي : نفس المرجع السابق ص٢٢٠ ٠
(١٥٦) رحلة بنيامين التطيلي الاندلسي ص١٥٤ ٠
(١٥٧) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جا قسم ١ ص١٦١ ٠

أما دراهم النقرة أي الفضية والفلوس فقد استعملت في محيط التــداول حتى ســنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م حيث ابطلت واســتخدمت غيرها من الدراهم السداد التي هي مزيــج من النحاس والفضة ، وكانت كل أربعين درهما بدينار(١٥٩) .

وانتشرت في ذلـك الوقت ظاهرة كساد النقـد أو ما يعرف في الوقت الحاضر بظاهرة التضخم النقدي(١٦٠)، والتي يصاحبها تقلص الانتاج الزراعي والصناعي ، وكان هذا يحدث غالبا أثناء الحصار العسكري أو الاضطراب الاقتصادي وقلة الموارد الزراعية والعامة وتوقف النشــاط التجاري الذي تعرضت له أحيانا بــلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، حيث استمرت هذه الظاهرة الاقتصادية حــتى في خلال القــرون التالية ، فعندمـــا حاصر الخوارزميون خــلاط احدى مدن الجزيرة ســنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م «عظم بها البلاء واشتد الغلاء وكسدت الدنانير»(١٦١) ولما طالت مدة الحصار لها (انعدمت الموارد والاقوات) نتيجة للحصار الاقتصادي «فذلت الدراهــم والدنانير»(١٦٢) حيث قلت قيمتها نظــرا لانعدام مصادر الانتاج وشحة الموارد .

وعرف في هذه الفترة التعامــل (بالقراطيس) أو «السفاتج» وهي الاوراق المالية التي كانت تعوض عن النقد في البيع والشراء

---

(١٥٨) الفارقي : التاريخ ص١٠٤ .

(١٥٩) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص٣٤٨ ، وذكر القلقشندي ، ان نسبة الفضة في هــذه الدراهم هي ٢/٣ ، والنحـــاس ١/٣ (صبح الاعشى جـ٣ ص٤٣٩) .

(١٦٠) انظر : محمد ضياءالدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص٣٧٢ .

(١٦١) المنشيء النسوي : سيرة السلطان جــلال‌الدين منكبرتي (تحقيق حافظ احمد حمدي ــ مطبعة الاعتماد مصر ــ ١٩٥٣) ص٣١٠ .

(١٦٢) النسوي : نفس المرجع السابق ص٣٢٠ .

ونعرفها في الوقت الحاضر باسم «الشيكات» وبناء عليه نشأت الصيرفة ومصارف الايداع والتسليف وقد أشار أبو شامة الى تداولها الواسع في منطقة الشام والجزيرة ، بحيث كان يمتلك أحد السوقة منها عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس وكان سعر كل ستين قرطاسا بدينار أو كل سبعة وستين بدينار[١٦٣] . كما ذكر ابن أبي اصيبعة ، أن أباالحسن ثابت بن قرة الحراني ، كان صيرفيا ويزاول بيع وشراء النقود أيام الاتابكة[١٦٤] .

---

(١٦٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جا قسم ١ ص٤٥ .

(١٦٤) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ص٢٩٥ .

الفصـــل الســـادس

نظـــم الادارة والقضـــاء

أ ـ نظم الادارة ووظائفها :

١ ـ النائب ٠

٢ ـ الدواوين ٠

٣ ـ البريد ٠

ب ـ القضـــاء ٠

ج ـ التقسيمات الادارية العامة ٠

د ـ المحتسب ٠

الفصل السادس

نظم الادارة والقضاء

أ ـ نظم الادارة ووظائفها :

كانت الخطوط العامة التي رسمها الولاة السلاجقة (٤٨٩ ـ ٥٢١هـ/١٠٩٥ـ١١٢٧م) لامارات الجزيرة الفراتية ، تتمشى مع ادارة الدولة السلجوقية الكبرى التي كانت تشتمل على بلاد المشرق كلها والشام والعراق الذي يشمل هو الاخر اقليم الجبل (العراق العجمي) واقليم اذربيجان واقليم بلاد فارس واقليم الجزيرة الفراتية وهذه جميعها بلاد واسعة لم يستطع السلاجقة حكمها مباشرة أو القيام بادارتها مالم يستعينوا بأمرائهم وقوادهم وحجابهم ومقربيهم ، فعهدوا لهم بولايتها ، وقد سُمي بعض هؤلاء بالاتابكة ٠

لذلك فان ادارة الامارات الاتابكية والارتقية فيما بعد كانت تمثل مظهرا عاما للادارة السلجوقية ، حيث لم يؤد تحول هذه الامارات من عهد ولاة السلاجقة الى عهد الاتابكة أو الاراتقة الى ظهور مؤسسات ادارية جديدة ، بل أن أكثرها بقي موجودا مع استحداث عدد قليل من المناصب التي كانت تقتضيها الظروف العسكرية والسياسية الجديدة كما أنهم اقتبسوا كذلك شيئا من

التنظيمات الادارية السائدة في الدولتين الايوبية والمملوكية بعد ذلك ٠

ويمكن القول بأن الاتابكة والاراتقة كانوا يحكمون دويلاتهم واماراتهم في الجزيرة الفراتية بادارات بسيطة ذات وظائف محدودة[١] ٠ وقد اعتمدوا في ذلك على الاساليب المركزية في التنفيذ ٠ وكانت التنظيمات السائدة لدى الاتابكيين والاراتقة يقوم أغلبها على اشباع مراكزهم الاسمية ، فمجموعة الموظفين الذين أقاموهم ومنحوهم صلاحيات وسلطات غير قليلة في ممارسة شؤونهم الادارية ، كانوا مسؤولين أمام الاتابك أو الامير وتحت اشرافه ومراقبته ، وان تنفيذهم لواجباتهم هذه كان يستهدف بالدرجة الاولى دعم السلطة الفردية الاقطاعية للاتابك أو للأمير ، والتي كانت تقوم في أغلب الاحيان على القوة والقسر ٠

وكان هؤلاء الموظفون يشغلون مناصب الوزارة[٢] والدواوين والنيابة والمحافظة والولاية والاعمال ٠ وكان اشغال هذه الوظائف يمثل جميع السلطات الادارية،ولكل منها صلاحيات معينة ومحدودة أحيانا وواسعة وغير محدودة في أحيان أخرى ٠

ولكي نلقي بعض الضوء على طبيعة الادارة الاتابكية والارتقية خلال القرن السادس الهجري ، لابد من أن نستعرض أهم ماجاء من الوظائف المدنية وأهمها :

---

(١) يطلق على وظائف الادارة المدنية في معظم الدول الاسلامية ، اسم وظائف الاقلام ، تمييزا لها عن الوظائف العسكرية التي اطلق عليها اسم وظائف السيوف ٠ وقد اقتصرت الوظائف الاولى على الدواوين ، حيث أطلق عليها اسم الوظائف الديوانية ، وتشمل وظائف الاقلام التي تتميز بادارتها المدنية الوظائف الدينية ايضا ٠ أنظر : القلقشندي : صبح الاعشى ج٣ ص ٤٨٦ــ٤٨٩ ٠

(٢) يغلب على منصب الوزارة عند الاتابكيين والاراتقة الجانب السياسي ، لذلك بحثت في فصل النظم السياسية ٠

١ ـ النائب :

وهو موظف اداري ، يمثل رئيس وحدة ادارية ، أهم واجباته الاشراف العام على ادارة المدن التي تعهد اليه او المدن المحتلة عسكريا وتوجيهها نيابة عن الامير(٣) • ويقابل هذا المنصب ما ندعوه حاليا «مدير الناحية» أو «القائمقام» أو «المحافظ» في العراق •

ويبدو أن النائب كان يصاحب الجيوش في تنقلاتها قبل توليه منصبه ، فاذا احتل مدينة ما ، تولى هو الاشراف على ادارتها • وقد ذكر ابن الاثير وظيفة النائب في أكثر من موضع في كتابه(٤) ، ولكنه لم يقدم لنا معلومات مفصلة عن طبيعتها كما أشارت المراجع الى وجود هذه الوظيفة في أغلب الامارات الاتابكية والارتقية مما يدل على استخدام النواب بنطاق واسع وقد اطلقت عليه لقب النيابة(٥) أو (دزدارية)(٦) القلاع(٧) •

وكان على النائب أن ينوب عن الامير في ادارة شؤون الامارة ، وأن يكاتب السلطان السلجوقي والخليفة العباسي عن أحوالها العامة ، خلال تغيب الامير(٨) • وأشار ابن خلكان الى بعض المهام التفصيلية التي كان يمارسها النائب مثل جمع الضرائب وجباية

---

(٣) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص١٨٣ـ١٨٤ •
(٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٣٢ـ١٤١ـ١٤٢ـ١٤٣ـ١٨٣ •
(٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (تحقيق آمدروز ـ بيروت ١٩٠٨) ص ٢٦٣ـ٢٧٠ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص٣١٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص١٩٤ ، الفارقي : تاريخ آمد ـ مخطوطة الورقة ١٣٧ أ ـ ١٣٨ أ •
(٦) مأخوذة من الكلمة الفارسية «دز» وتعني مالك الدار أو القلعة أو المتولى •
(٧) ابن الاثير : الباهر ص٣٥ ، الكامل ج١٠ ص٢٤٦ ، أبو شامة : الروضتين ج١ ص٧٦ •
(٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٢٦٣ •

الامـوال والاشراف المستمر على التحصينـات والاسـوار وتعميق الخنادق(٩) بالاضـافة الى أعماله العسكرية كالدفـاع عن المدينة وتعهده بالقيام بالحملات العسكرية التوسعية(١٠) وكان من ضمن مهام نواب الاراتقة وولاتهم ، تلقى المكاتبات من الخارج(١١) وحفظ القلاع والاعتنـاء بغلق أبوابها وفتحها وتفقد أحـوال سكانها والتعرف على أحـوال مجاوزيها من الاعداء فضلا عن مهمـاته المالية(١٢) ٠

وهذه السلطات التي كان يمارسها النائب ، تبدو واسعة ، في شتى مجالاه الادارية والمالية والعمرانية والعسكرية ، وينطبق عليها مـا كان يمارسه النائب في العهدين الايوبي والمملـوكي في مصر وبـلاد الشام حيث كان هـو «القائم مقام السلطـان في عامة أموره أو غالبها(١٣) ٠

بمقارنة منصب النائب في تنظيمـات الايوبيين والمماليك في بلاد مصر والشام، نجد انلقب «الدزدار» وهو متولىالقلعة و«نائب الامير» اللذين كانا يطلقان على نائب الاتابكيين والاراتقة ، يكونان مفهومين منفصلين عن بعضهما في هذين العهدين ، فالنائب يشترك مع السـلطان في منح لقب الامـارة والاقطاعات وتعيـين الموظفين وتوقيع المراسيم وتنفيذ بعض القوانين وترؤس اجتماعات ديوان الجيش(١٤) والرد على مكاتبات نواب المدن(١٥) ٠ وبذلك يكون نائب

---

(٩) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص٣١٥ـ٣١٦ ٠

(١٠) ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص٥ـ٦ ، الباهر ص٦٤ ٠

(١١) أشار القلقشندي الى بعض المكاتبات التي كانت توجه اليهم من نواب المماليك في دمشق وحلب ٠ صبح الاعشى جـ٨ ص٢٢٥ـ٢٢٩ ٠

(١٢) الفارقي : تاريخ أمد ، الورقة ١٣٨ أ ، القلقشندي : صبح الاعشى ١١/٩٢ ٠

(١٣) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٥ ص٤٥٣ ٠

(١٤) القلقشندي : نفس المرجع السابق جـ٤ ص١٦ ، المقريزي : الخطط جـ٢ ص٢١٤ ٠

الايوبيين والمماليك قد جمع لديه السلطات العسكرية والمالية والادارية · اما (نائب القلعة) أو «الدزدار» فهو غير نائب السلطنة، اذان اختصاصات الاول تتمثل في الاشراف على فتح واغلاق باب القلعة المخصص لدخول الجند وخروجهم(١٦) وتفقد الاسوار والمنافذ وصيانتها واصلاحها والفصل فيما يقع بين العامة من خصومات(١٧)، وبذلك يكون قد تمتع باستقلال واضح عن النائب(١٨) ·

ونؤكد ما جاء عن دور النائب في الادارة الاتابكية والارتقية في معرض الكلام عن نائب عمادالدين زنكي صاحب الموصل في بداية القرن السادس الهجري حيث كان يجمع بيده سلطات ثلاث هي النيابة ودزدارية القلعة ومهمة الوالي ، وذلك بعد مقارنة صلاحياته بنظم العصرين الأيوبي والمملوكي في الشام ومصر، والتي هي استمرار للنظم الادارية للفترة السابقة لاسيما الفترة الزنكية النورية(١٩) ، ببقية الموظفين في العهد الاتابكي في الجزيرة ·

وكانت علاقة النائب علاقة يشوبها الغموض ' لعدم وجود تفصيلات عنها في المراجع وكذلك فيما يتعلق بتحديد الاختصاصات بين المؤسسات الادارية ، كما ان هذه المراجع تجعل العمل الاداري الواحد مشتركا بين عدة مؤسسات أو موظفين ، مما يزيد في صعوبة

---

(١٥) المقريزي : الخطط ج٢ ص٢١٥ ·

(١٦) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص٢٢-٢٣ ·

(١٧) علي ابراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية (مكتبة النهضة المصرية ط٢ ـ القاهرة ـ ١٩٤٨م) ص٢٣١ ، عن :
Van Berchem: Corpus, Egypte, Vol. P. 210-211

(١٨) علي ابراهيم حسن : نفس المرجع السابق ص٢٣١ ·

(١٩) علي ابراهيم حسن : نفس المرجع السابق ص٢٣٠ ، عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص٢٣٧ ، وقد اكد القلقشندي ذلك بقوله : «ان الدولة الايوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها في الديار المصرية ، خالفتها في كثير من ترتيب المملكة ، وغيرت غالب معالمها ، وجرت على ما كانت عليه الدولة الاتابكية بالموصل زمن عمادالدين زنكي ـ ثم ولده الملك العادل نورالدين محمود بالشام» صبح الاعشى ج٤ ص٥ ·

التوصل الى اختصاص كل موظف ٠ كما أن مشكلة التداخل بين المؤسسات الادارية التي كانت تعاني منها هذه الفترة وخاصة في أتابكيات الجزيرة الفراتية ، وعدم وجود خطوط واضحة للتخصص كل ذلك يجعل من الصعوبة الكشف عن طبيعة النظم الادارية فيها وتحديد معالم كل وظيفة من وظائفها ، ولكن يعزى وضوح سلطة بعض الوظائف الى شخصية شاغليها ، فعندما تظهر مواهب أحدهم ويقوي نفوذه ، يطغى على اختصاص غيره ٠ وهذا الاستنتاج صحيح ، وخاصة في مثل هذا الاضطراب في الوظائف الذي أشار اليه الباحث وقال بأنه أمر غير مستغرب في بيئة لم تكن النظم الادارية فيها قد وضعت على أسس وقوانين لا تقبل التفسيرات المختلفة(٢٠) ٠

وكما أن السلطات الادارية الواسعة التي كان يمارسها نائب عمادالدين زنكي صاحب الموصل ، تتطلب جهازا اداريا واسعا ، لتنفيذ الاوامر والقرارات(٢١) كان ذلك ينطبق على نواب الاتابكيين الاخرين الذين خلفوه وعلى نواب الاراتقة(٢٢) أيضا ، حيث يحتم بالضرورة وجود عدد من الموظفين الذين كانوا يمثلون الجهاز الحكومي الذي تكون له صفة تنفيذية ٠ وبذلك يمكن أن نستنتج ما هو مفيد عن علاقة النائب بهؤلاء الموظفين التنفيذيين ٠

٢ ـ الدواوين(٢٣) :

كانت الدواوين في البلاد الاسلامية، تمثل أهم مظهر من مظاهر

---

(٢٠) علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك ص٢٦٠ ، عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص٢٣٨ ٠

(٢١) عمادالدين خليل : نفس المرجع السابق ص٢٣٨ ٠

(٢٢) كان نواب الاراتقة يلقبون بالحجاب ، وذلك أما انهم اشغلوا فعلا وظيفة الحجابة سابقا ، أو ان التقاليد كانت تقتضي تسمية كل نائب أو وال باسم الحاجب ٠ الفارقي : تاريخ آمد ــ الورقة ١٠٥ أ ــ ١٠٥ب ، ١٣٢ أ ، ابن شداد : الاعلاق الورقة ١٠٢ ب ٠

التنظيم الاداري ، وقد اتخذت أكثر الدول والامارات والممالك الاسلامية دواوين لها ، تشرف على ادارتها العامة ، اقتداءا ببغداد حاضرة الخلافة العباسية ، حيث كانت مركزا لدواوين عديدة[٢٤] ٠

وورث الاتابكيون والاراتقة في الجزيرة الفراتية ، هذا النوع من التنظيم الاداري فأوجدوا لهم في كل امارة ديوانا واحدا عرف ب (ديوان الجند) أو الجيش[٢٥] كما هو الحال في الدولة العباسية أو الدواوين التي شهدها العصران الايوبي والمملوكي في مصر وبلاد الشام[٢٦] ٠

وليس لدينا معلومات فيما اذا كان ديوان الجند أو الجيش ، صار يسمى بمرور الزمن باسم المدينة التي يرجع اليها أو الامارة ، فلم تقدم المراجع ما يعيننا على ادراك التطور الذي حصل بهذا الديوان من حيث طبيعة العمل الاداري الذي كان يقوم به وعدد

---

(٢٣) اتخذت الادارة الاسلامية كلمة «ديوان» لتدل على سجلات الدخل والصادرات وأطلقت فيما بعد على المكان الذي يعمل فيه أرباب الوظائف المالية ، واخيرا اطلقت على جميع فروع الادارة الاسلامية ، سواء المدنية منها أو العسكرية أو الادارية : انظر :
Encyclopaedia of Islam: P. 323, "Art Diwan" (A.A. Duri).

(٢٤) وأهمها : ديوان الزمام الذي كان يوصف (بالعزيز) وديوان الانشاء وديوان الجوالي وديوان عرض الجيش وديوان المقاطعات وديوان التركات وديوان الابنية وديوان العقار ٠

(٢٥) وكان يشرف على شؤون الجند وأحوالهم وتنظيمهم ، ويطلق عليه أحيانا اسم «الديوان» (ابن الاثير : الباهر ص٨٣) ٠

(٢٦) كان هناك عدد من الدواوين المستقلة مثل ديوان «المستأجرات» والحمايات الشريفة وديوان الاحباس (مايحبس من الازراق) وديوان الاشراف وديوان العمائر (يتعلق بالبناة والمهندسين وأرباب العمائر) وديوان الذخيرة (تجمع به الذخائر التي تخزن الاحباش أخرى من جهات متعددة) وديوان الاستيفاء وديوان الزكاة ٠ وقد كان لكل هذه الدواوين وغيرها نظار ومباشرون ٠ انظر : عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص٢٦٩ ٠ عن : الظاهري : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (بولس راويس ــ باريس ١٨٩٤) ص١٠٩ــ١١٠ ٠

الموظفين والاشخاص الاخرين الذين كانوا يشغلون الوظائف فيه ، وكل ما هنالك ، فقد جاء عن ديوان الموصل(٢٧) انه كان على غرار ديوان الانشـاء في الدولة العباسية(٢٨) ، حيث وضعت أسسه في الموصل منذ عهد عمادالدين زنكي بعد ان تولاها من قبل السلاجقة ، فقد ورد ذكـره وكان له أهمية كبيرة ، بحيث جعـل جمال‌الدين الاصفهاني الذي كان يتقلد منصب الوزارة ، مشرفا له(٢٩) ، كما أشار ابن الاثـير الى هذا الديـوان الذي أوجده عمـادالدين زنكي والذي كان «يقاس بدواوين السلاطين السلجوقية لكثرة التجمل ونفاذ الامر وعظم الحاشية وكثرة الخرج»(٣٠) • وهذا يؤكد أهمية ذلك الديـوان وبلوغه مرحلة متقدمة من الاتسـاع والنمو وكثرة الموظفين وضخامة المصروفات(٣١) بحيث ان أي مراجع كان يقصده كان يجـد من «توفر ــ موظفيـه ــ عليـه ونظرهم في مصـالحه ما ــ يجعله ــ كأنه في أهله»(٣٢) • ويبدو ان ديوان الموصل أخذ يشمل اختصاصات ديـوان الجيش ، وكان يضم أسماء القـواد ومناصبهم والجند وطوائفهم ورواتبهم وأعطياتهم واقطاعاتهم أو ما يتعلق بأحوالهم المختلفـة وكان على رأس ديوان الموصل ، مـوظف يسمى «نائب الديوان»(٣٣) حيث كان يقوم بادارة الديوان والمراسلات(٣٤)

---

(٢٧) ابو البركات ابن المستوفي : تاريخ أربل (كما جاء في وفيات الاعيان ج٣ ص٢٩٧) أنظر أيضا : ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ج١ ص٨٤ •

(٢٨) ويسمى أحيانـا «ديوان الرسائل» انظر مقدمة مصطفى جـواد لكتاب تاج‌الدين علي المعروف بابن الساعي ، الجامع المختصر •

(٢٩) عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص١٩٢ـ٢٦١ـ٢٦٩ •

(٣٠) ابن الاثير : الباهر ص٨٣ •

(٣١) عمادالدين خليل : نفس المرجع السابق ص٢٧٠ •

(٣٢) ابن الاثير : الباهر ص٨٣ •

(٣٣) ابن الاثير : نفس المرجع السـابق ص٨٤ـ٦٨ ، ١١٨ـ١١٩ ، ١٧٢ـ ٣٢٨ •

(٣٤) ياقوت : معجم الادباء ج٦ ص٢٣٨ •

ويسمى أحيانا «صاحب الديوان» كما هو الحال في الدولة العباسية في عهودها الاخيرة(٣٥) ، حيث أشار ابن الاثير الى ان ديوان الموصل كان يتولاه صاحب الديوان(٣٦) • الذي صار يسمى فيما بعد «رئيس الديوان» أو «متولى الديوان» أو «كاتب الديوان»(٣٧) وكان يمارس صلاحيات تشبه الى حد ما ، صلاحيات ، صاحب الديوان في الدولة العباسية ، حيث يكون له حق التصرف المطلق في الولاية فيعين كبار الموظفين ويعزلهم وله «حق العطاء والمنع»(٣٨) •

وهناك دواوين أخرى ، غير ديوان الموصل ، كديوان أتابكية الجزيرة(٣٩) (أي جزيرة ابن عمر) ، وديوان اتابكية سنجار(٤٠) • ولابد أن تكون للامارات والمدن الأخرى دواوين مشابهة • ان هذه الدواوين كانت تشرف على الادارة العامة كما ان جانبا مهما من من نشاطها كان ينصب على الأمور العسكرية •

أما دواوين الامراء الاراتقة ، فقد ذكر بعضها ، ومنها ما أشار اليه ابن شداد باسم «الديوان» الذي كان قد تولاه سنة ٥٢٧هـ /١١٣٢م علي بن أحمد الآمدي في مدينة آمد ، فسمي ناظر

---

(٣٥) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص٦٧ـ٦٨ • وهناك ديوان الخراج الذي صار يسمى ديوان (المخزن) • أنظر : مقدمة مصطفى جواد لكتاب ابن الساعي : الجامع المختصر •

(٣٦) ابن الاثير : الباهر ص٨٣ •

(٣٧) ابن الصابوني : تكملة اكمال الاكمال (تحقيق مصطفى جواد ـ ١٩٥٧) ص١٥٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص١٣٠ ، ابن قطلوبغا : تاج التراجم في طبقات الحنفية (بغداد ـ ١٩٦٢) ص٤ •

(٣٨) ابن الساعي : الجامع المختصر ج٩ ص٣٠٠ ، جعفر خصباك : العراق في عهد المغول ص٦٨ •

(٣٩) ياقوت : معجم الادباء ج٦ ص٢٣٨ ، ابن الساعي : الجامع المختصر ج٩ ص٢٩٩ •

(٤٠) ابن الساعي : الجامع المختصر ج٩ ص٢٥٧ •

الديوان(٤١) الذي أصبح مسؤولا عن القضايا المالية وعن كل ما يتم في معاملته من خلل امام الامير الارتقي ، وكان له عدد من النظار على الجهات المحلية الاخرى(٤٢) ٠

ويبدو ان ديوانا آخر باسم ديـوان «الاستيفاء» كان قد وليه المؤيد، أبوالحسن بن‌محمد سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م ، وكان موجودا في مدينة ميافارقين، وعمل المستوفي الذي كان يتولاه على ضبط الاموال المتعلقة بالجيش وادارة ديوان الاستيفاء(٤٣) ٠ وفي ٥٤٥هـ/١١٥٠م قام حسام‌الدين تمرتاش صاحب ميافارقين بتعيين المؤيد أبي‌الحسن ابن محمد وشخص آخر لقب بالمهذب ، بالديوان(٤٤) ، مما يدل على اشغال اكثـر من مشرف واحد فيه ٠ وأوجد الاراتقة عـــددا من المشرفين على دواوينهم المحلية(٤٥) التي كانت تعنى بالاشراف على ضبط الحسابـات والصادرات والواردات والموازنة بينهمـا وقد نقلوا ذلك عن السلاجقة حيث كانت وظيفة الاشراف عندهم تعد من الوظائف المهمة ، ولها ديوان خاص يقوم المشرف بادارته(٤٦) ، وبهذا يمكن القول بأن ديوانا آخر باسم ديوان «الاشراف»(٤٧) كان موجودا لدى الاراتقة في هذه الفترة ٠

٣ ــ البريد :

اتخذ الاتابكة ، البريد ، ضمانا لورود واصدار المكاتبات التي كانت تجري بين اماراتهم في الجزيرة الفراتية أو بين البلاد القريبة

---

(٤١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ــ مخطوطة الجزيرة ــ الورقة ١٠٣ أ ب ، الفارقي : تاريخ آمد ــ مخطوطة ــ الورقة ١٠٩ أ ، ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في اعلام المائة الثامنة ٣/٢٦٤ــ٦٢٥ ٠

(٤٢) ابن حجر العسقلاني : نفس المرجع السابق ٣/٢٦٥ ٠

(٤٣) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ــ مخطوطة ــ الورقة ١٣٤ ب ٠

(٤٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص٤١٣ ٠

(٤٦) الفارقي : تاريخ آمد ــ المخطوط ــ الورقة ١٣٩ أ ٠

(٤٧) الفارقي : تاريخ آمد ــ مخطوطة ــ الورقة ١٣٩ أ ٠

والبعيدة عنهم فأمنت الطرق ورتب فيها الرجال لحمل الخرائط وبنيت الخانات والابراج عليها ، وهو استمرار لما كانت عليه في القرنين الرابع والخامس الهجريين حيث «جعلت رسما للبريد»(٤٨) وقد بدأ الاهتمام بنظام البريد منذ عهد عمادالدين زنكي في الموصل حيث طرأ تقدم واضح في هذا النظام لا سيما بعد الذي أصابه من الاضطراب أثر الحروب التي نشبت بين السلاجقة(٤٩) ، وكان هؤلاء قد اقتصروا على الخيل والبغال في نقل البريد(٥٠) .

واستخدم الاتابكيون نوعا من الحمام كان يطلق عليه اسم «الحمام الهوادي»(٥١) يرسل في حالة ما اذا تعرضت الطرق لخطر اللصوص فيأخذ الناس حذرهم(٥٢) ، كما استخدم نوع آخر منه في نقل الرسائل بسرعة وانتظام بين مدينة وأخرى(٥٣) . وقد أشار ابن الاثير الى أنه كان في كل ثغر من ثغور الدولة الاتابكية في الشام والعراق رجال يقومون بتربية عدد معين من الحمام يستخدمونه في البريد ، ففي كل مدينة ينقل الحمام الرسائل الى المدينة المجاورة لها ولا يتعداها لمدينة أخرى(٥٤) .

وذكر القلقشندي ان ملوك الاتابكة أعدوا لنقل البريد الخيول والنجب أي الجمال السريعة العدو التي هي أسرع من الخيل واصبر على السير منها وكذلك الرجال العدائين(٥٥) الذين كانوا يقطعون

---

(٤٨) قدامة بن جعفر : نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ص٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ . وأنظر أيضا : الفصل الخامس ــ النشاط التجاري والنظام النقدي ــ .

(٤٩) عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص٢٧٤ .

(٥٠) القلقشندي : صبح الاعشى ج١٤ ص٣٦٩ــ٣٧٠ .

(٥١) ابن الاثير : الباهر ص١٧١ .

(٥٢) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٧١ .

(٥٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٥٩ .

(٥٤) ابن الاثير : نفس المرجع ص١٥٩ .

(٥٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص٣٧ .

مسافات بعيدة مشيا على الاقدام ، كل ذلك اتخذه الاتابكة لاتساع سملكتهم وترامي أطرافها(٥٦) • والجدير بالذكر ان الحمام الذي عرف استخدامه في بلاد مصر والشام في هذه الفترة وما أعقبها ، كان قد نقل عن الموصل «وأن أول من اعتنى به من الملوك ونقله من الموصل هو نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي عام ٥٦٥هـ»(٥٧) •

وقد سار الاراتقة على نفس النظام الذي اتبعه الاتابكيون في البريد فكانت لهم الخيول والنجب لنقل ما يستجد بين مدنهم • كما أمنوا الطرق الرئيسة التي تصل بين المدن وفروعها ، ووضعوا لها الخفراء والرجال الذين يقومون بحراستها ، فضلا عن اقامتهم للخانات والابراج ومحطات القوافل التجارية(٥٨) •

ب ـ القضاء :

اهتم الاتابكيون والاراتقة بالقضاء وببعض المناصب التي كانت ترتبط به كالقاضي والخطيب والمفتي • فقد أشار ابن الاثير الى أن الأتابكيين كانوا «يجلسون بدار العدل للانصاف والاشراف والأخذ من الاقوياء للضعفاء»(٥٩) وكانوا يحكمون بما تقضي به الشريعة الاسلامية فيأمرون القاضي بتدوين اللوائح ضد الاشخاص الذين يدانون وبكتابة الاثبات لاصحاب الحق والاشهاد على الجميع(٦٠) •

---

(٥٦) القلقشندي : نفس المرجع السابق ج٤ ص٣٧ ، ابن الاثير : الباهر ص ١٥٩ •
(٥٧) القلقشندي : نفس المرجع السابق ج١٤ ص٣٩٠ •
(٥٨) انظر ـ الفصل الخامس ـ النشاط التجاري والنظام النقدي ـ •
(٥٩) ابن الاثير : الباهر ص٢٠٣ •
(٦٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٨٨ •

حظيت وظيفة القاضي ، وهي من الوظائف الجليلة التي ذكرها القلقشندي ضمن أرباب الوظائف الدينية ، باهتمام كبير لدى الاتابكة ، فكانوا يقلدون هذا المنصب لمن يرغبون أو يحجبوه عن آخرين وذلك على الرغم من أن قاضي القضاة في بغداد هو الذي كان يقوم بتعيين القضاة في امارات الجزيرة الفراتية في هذه الفترة(٦١) ٠

وكان القاضي يقوم بالفصل بين الخصوم وحل المنازعات واصدار الأحكام بمقتضى الشريعة الاسلامية(٦٢) ، وكان له عدد من العدول يختارهم بنفسه من بين الاشخاص المعروفين بالتقوى وحسن الخلق ، حيث يقومون بمساعدته بالشهادة بين يديه أو تزكية الشهود(٦٣) وكثيرا ما كان القاضي يحتاج الى خدماتهم لمعاونته في مهمته(٦٤) ٠

---

(٦١) وموضوع قاضي القضاة «القيام بالاوامر الشرعية والفصل بين الخصوم ونصب النواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه ، وهي أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدرا وأجلها رتبة» القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص٣٤ـ٣٥ ٠

(٦٢) ومن الواجبات الاخرى التي يمارسها القاضي الوصاية على اليتامى والمجانين والقاصرين وادارة المؤسسات الدينية وأمامة الناس في صلاة الجمعة وتعيين القضاة في الولايات والمدن التابعة للامارة (انظر : الماوردي : الاحكام السلطانية ص٥٣ ، وانظر أيضا : رشيد الجميلي : دولة الاتابكة ص٢٤٦) ٠

(٦٣) ابن الاثير : الباهر ص١٢٩ ٠ وكان هؤلاء يؤلفون هيئة محترمة بين الناس يرشح أفرادها لتولى مناصب القضاء والحسبة وادارة الاوقاف وكثير من مناصب البلاط والادارة ٠ انظر جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص٧١ ٠

(٦٤) ويطلق عليهم اسم «الشهود العدول» وكان القاضي يتصفح أحوالهم ويراقبهم ويعاقب من يسيء استعمال السلطة ، وكانوا يتولون أحيانا الفصل في المنازعات نيابة عن القاضي ٠

ويعقد «مجلس الحكم»(٦٥) في مكان معين للاجتماع بالمتخاصمين، وهو مكون من القاضي والشهود العدول والموقعين(٦٦) ، ويرجح كذلك اشتراك صاحب الشرطة فيه ، فينظرون في القضايا المعروضة بين أيديهم • وكانت الجوامع هي المكان الذي يعقد فيها مجلس الحكم في أغلب الاحيان • وكان قاضي الموصل أيام الاتابكة يسمى «الحاكم»(٦٧) ويقيم بدار العدل(٦٨) •

وأول من تقلد هذا المنصب في الموصل بهاءالدين أبوالحسن علي ابن الشهرزوري الذي عينه عمادالدين زنكي قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد ، وقد أصبحت له منزلة كبيرة(٦٩) ، كما تولى كمالالدين محمد بن الشهرزوري منصب قاضي قضاة الموصل في عهد سيفالدين غازي الاول ٥٤١ـ٥٤٤هـ/١١٤٦ـ١١٤٩م غير ان هذا الاخير عزله واعتقله وفوض أمر القضاء في الموصل وأعمالها بعده الى القاضي نجمالدين أبي علي الحسن بن بهاءالدين الشهرزوري(٧٠) • أما في عهد الاتابك عزالدين مسعود ٥٧٦ـ ٥٨٩هـ/١١٨٠ـ١١٩٣م فقد تولى القضاء أبو حامد بن القاضي كمالالدين الشهرزوري الذي كانت له منزلة رفيعة لدى الاتابك(٧١) •

---

(٦٥) ابن الاثير : الباهر ص٢١ ، ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة ج٢ ص٢٦٥ـ٢٦٦ •
(٦٦) لم تشر المراجع الى طبيعة عمل الموقعين ، والمعتقد بانهم يقومون بمهمة من ندعوهم الآن (بشهود الاثبات) أمام الحاكم •
(٦٧) ابن الاثير : الباهر ص١٨٨ •
(٦٨) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٢٠٣ • وأشار الى أن الملوك الاتابكة كانوا يجلسون في دار العدل لمباشرة القضايا بأنفسهم •
(٦٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٣٥ •
(٧٠) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص٣٧٥ـ٣٧٦ •
(٧١) ابن خلكان : نفس المرجع السابق ج٣ ص٣٧٩ •

أما وظيفة «قاضي العسكر» التي كانت من الوظائف الدينية الجليلة التي عرفت لـدى المماليك وقدمت المصادر عنهـا معلومات جيدة(٧٢) فاننا لانجد في هذه المصادر ما يشير الى وجودها في أتابكيات الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري(٧٣) ومن المحتمل جدا ان قاضي المدينـة ، كان يقوم بمقاضاة العسـكر(٧٤) • ومن قضاة الموصل الذي مارس مقاضاة الجنـد ، عمادالدين محمد بن يونس الموصلي الذي تولى منصبه هذا في عهد الاتابك نورالدين أرسلان شاه بن مسعود ٥٨٩ـ٦٠٧هـ/١١٩٣ـ١٢١٠م(٧٥) •

وكان للقضـاة من عائلة بني نباته خلال القـرن السادس الهجري، منزلة رفيعة لدى الامراء الاراتقة، ففي ٥١٢هـ/١١١٨م ولى ايلغازي بن ارتق صاحب امـارة حصن كيفا ، علمالدين أبا الحسن بن نباتة ، قاضيا في مدينة ميافارقين(٧٦) ، كما ولى ابنه أبا الفتح رتبة قضاء ماردين ، حيث مكث فيها الى ما بعد منتصف القرن السادس الهجـري(٧٧) • وممن تولى قضـاء ماردين في أواخـر هذا القرن، القاضي عبدالسلام المقدسي الماردينى(٧٨)، كما ذكر القفطي أن والد هـذا القاضي وهو عبدالرحمن المقدسي كان قاضـيا على

---

(٧٢) محمود بن محمد بن عرنوس : تاريخ القضاء في الاسلام (المطبعة الاهلية المصرية الحديثة ـ القاهرة) ص٨٠ وجاء فيه (كان يحضر الى دار العدل مع القضاة ويسافر مع السلطان أثناء تنقله ويصاحب العسكر) •

(٧٣) وأغلب الظن أن الاراتقـة اتخذوا قضاة العسكر خلافـا للاتابكيين • القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص٣٦ •

(٧٤) محمود بن عرنوس : نفس المرجع السابق ص١٩٩ •

(٧٥) ابن الفوطي : تلخيص مجمـع الآداب في معجـم الالقاب ج٤ قسـم ٢ ص٨٥٦ •

(٧٦) الفارقي : تاريخ آمد ـ مخطوطة ـ الورقة ١٠٢ أ ب •

(٧٧) الفارقي : نفس المرجع السابق ، الورقة ١٠٣ب ـ ١٠٤ أ •

(٧٨) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول •

ثانيسر(٧٩) • أما قاضي خرتبرت ، فكان الحكيم شمعون الخرتبرتي الذي اشتهر باتقان فن الخط العربي(٨٠) •

نظم الاراتقة القضاء في امارتهم ، فأوجدوا منصب قاضي القضاة وجعلوا مدينة ماردين مقرا له(٨١) • وكان الامير الارتقي هو الذي يعين قاضي القضاة مباشرة ويودعه صلاحيات كثيرة ، أهمها أن يتولى تعيين نواب له في المدن والمناطق التابعة(٨٢) للامارة ويراقب أعمالهم وتصرفاتهم فيكافئهم ويرقيهم أو ينقلهم أو يعزلهم • وخصص الاراتقة لقاضي القضاة ونوابه مرتبات كبيرة أو كانوا يقطعونهم اقطاعا(٨٣) • ويزاولون النظر في قضايا الأحوال الشخصية وممارسة القضايا المتعلقة بامامة المسلمين في الصلاة والاشراف على دار ضرب النقود(٨٤) والاوقاف وأموال المواريث •

وتشير المراجع الى دور قاضي قضاة الاراتقة في الحياة السياسية ، حيث كان يقوم بالمفاوضات مع ممثلي الامارات والدول الاخرى ، وعقد الاحلاف ، فضلا عن نشاطه في مهمة السفارات(٨٥) •

جـ ـ التقسيمات الادارية في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن

---

(٧٩) القفطي : تاريخ الحكماء ص١٨٩ـ١٩٠ •

(٨٠) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٤٤٤ •

(٨١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة ـ الورقة ١٣٥ أ ، مجهول : انسان العيون الورقة ٢٧٧ـ٢٧٨ •

(٨٢) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ج٢ ص٢٩٠ •

(٨٣) مجهول : انسان العيون الورقة ٢٧٧ـ٢٧٨ •

(٨٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج٩ ص٣٤ـ٣٥ •

(٨٥) كما أسهم قاضي القضاة في تقرير الصفة الشرعية لامراء الاراتقة ، وتمتع بعضهم بصلاحيات القائد الاعلى للحرب والادارة والاشراف على الامور العمرانية • الفارقي : تاريخ آمد ، الورقة ١٣٨ـ١٣٩ب ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ الورقة ١٣٥ أ •

السادس الهجري :

كانت السلطة التي منحها السلاجقة الى الأمراء في الجزيرة الفراتية ، قد ساعدت على ظهور مجموعتين من الامارات ، الاولى الامارات المحلية التي كان يحكمها الامراء حكما وراثيا طويل المدى • والمجموعة الثانية هي امارات المدن التي استأثر بحكم كل منها أمير شبه مستقل ، وقد تميزت عن المجموعة الاولى بكون صاحبها لم يكن يملك الا حكم المدينة وحدها وما يحيط بها ـ أحيانا ـ من أراض ومناطق محدودة(٨٦) •

وقد سعى عمادالدين زنكي بعد توليه الموصل من قبل السلاجقة الى توحيد منطقة الجزيرة الفراتية في دولة موحدة ، وكانت الظروف آنذاك مواتية له لتحقيق هدفه هذا ، فقد بدا وكأنه يستهدف من وراء ذلك تعزيز الارتباط السياسي والاداري بالسلاجقة ، فاحتل أغلب المدن والقلاع والمناطق(٨٧) • وهدد الامارات الارتقية في الشمال الشرقي لبلاد الجزيرة الفراتية(٨٨) • كما بدأ باخضاع حصون الاكراد القريبة من

---

(٨٦) عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص٦٩ •

(٨٧) احتل مدينة جزيرة ابن عمر سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م • وهاجم سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م ، اربل التي كانت بمثابة الباب الشرقي الذي يصل امارات الجزيرة الفراتية ببلاد فارس والمشرق عامة وفي ٥٢٩هـ/١١٣٤م ضم مدينة الرقة اليه ثم سقطت بيده دقوقا سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م وشهرزور سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م والحديثة وعانة سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م • (أنظر الباب الثالث ـ العلاقات السياسية ـ) •

(٨٨) بدأ بامارة ماردين فاحتل نصيبين التابعة لها واتخذها قاعدة عسكرية سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م للهجوم على المناطق المجاورة • وفي ٥٣٧هـ/١١٤٢م اخضع الحصون الواقعة في أقاصي دياربكر وهي مدينة طنزة واسعرد والمعدن وحيزان وحصن الزوق وفطليس وباتاسا وحصن ذي القرنين والبرون ثم قام بترتيب أوضاعها الادارية ووضع في كل منها حامية عسكرية تدافع عنها • وفي ٥٣٩هـ/١١٤٤م استولى على أكثر المناطق التابعة لامارة حصن

←

الموصل(٨٩) .

وهكذا تمكن عمادالدين زنكي الى حد ما ، من جمع معظم بلاد الجزيرة وبعض مدن الشام فيما عدا قواعد الامارات الارتقية وامارة أربل في ظل حكومة واحدة اتبعت أسلوب الادارة المركزية الشديدة في الحكم حيث ارتبطت بسلطته التي غدت أمرا لا مفر منه ، ومما زاد في تشديد المركزية في الادارة ، ضعف الادارة السلجوقية وانحلال اسرتهم وتدهورهم من جهة وازدياد نفوذ عمادالدين زنكي الذي كان على رأس السلطة في تلك المناطق من جهة أخرى .

يتضح من ذلك أن المناطق التي تؤلف الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري أصبحت مكونة من الاقسام الادارية الآتية :

أولا : الامارات المحلية التي كانت تتألف من أكثر من مدينة أو قرية أو منطقة واحدة ، ترتبط كل منها بالمدينة الرئيسة التي تديرها وفيها مقر الأمير أو النائب أو الحاشية والموظفين وأرباب الدولة والجيش ، كما أن فيها المؤسسات الحكومية والادارية . وتمثل هذه الامارات في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، الامارات الاتابكية والامارات الارتقية .

كيفا وهي حاني وارقتين وحيرموك وبالمرقتين . ولكن على الرغم من ذلك لم يستطع أن ينهي الوجود الارتقي في المنطقة . أنظر : عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص٨٥-٩٨ .

(٨٩) هاجم مدينة العقر وقلعة الشوشي ثم قلعت آشب . وفي ٥٣٧هـ/١١٤٢م استولى على قلعة كواشي شرقي نهر دجلة والزعفراني والشعباني والربية وفرح وسروة وبلاد الزوزان وبذلك استطاع أن يضع يده على أكثر ممتلكات الاكراد وقواعدهم المهمة ويخضعها لسيطرته في فترة قصيرة .
انظر : عمادالدين خليل : نفس المرجع السابق ص١٠١-١١٦ .

ثانيا : امارات المدن التي لا تتعدى حدود المدينة والمناطق المجاورة أحيانا وكانت تدار بصورة مباشرة من الامير وأعوانه من الموظفين . وتغلب على ادارتها الادارة العسكرية .

ثالثا : مدن الاكراد(٩٠) وقلاعهم وحصونهم ، التي كانت تتوزع في مناطق تضم قبائلهم وطوائفهم وقد انقسموا الى قسمين ـ الاول لم يكن يخضع لسلطة منظمة وهو يتألف من الافراد والقبائل(٩١) . أما الثاني ـ فهي الامارات التي تختلف في نظمها وأحجامها ، فمنها الواسعة ، التي كانت تحكم بالوراثة ، ومنها الصغيرة وهي التي ينفرد وتخضع لحكم الامير الاقوى(٩٢) .

وتجدر الاشارة الى ما ذكرته المراجع من كلمات ، القصبة والضياع والاعمال والولاية ، وهي اصطلاحات وردت بما يفيد انها تقسيمات ادارية شاعت في بلاد الجزيرة الفراتية . وقد

---

(٩٠) كان الاكراد في القرن السادس الهجري ينقسمون الى القبائل والطوائف ومن أهمها : الجوزقان والزوم واللر والجلالية والجوبية والداسنية والكورانية والهذبانية والبشنوية والشاهنجانية والرلجية واليزولية والمهرانية والزرزارية والكيكانية والجاك والدنبلية والرواوية والهكارية والحميدية والوركجية والمروانية والشنبكة : ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٤٧٧ ، ج٢ ص١٥١ـ٢٧٧ـ٥٣٨ـ٩٥٩ـ٩٦٠ ، ج٤ ص٣٥٥ .

وانظر أيضا المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص١ـ٤ وقد عدد القلقشندي عشرين طائفة من الاكراد موضحا مناطق كل من هذه الطوائف وعدد محاربيها وذكر كذلك خمسا وفشرين موضعا اخر يقطنها الاكراد الذين كانوا يتخذون القلاع مراكز ينطلقون منها . صبح الاعشى ج٤ ص٣٧٣ـ٣٧٩ . وأنظر أيضا : عن الطوائف الكردية في الفترة التي سبقت القرن السادس الهجري : المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص٣٥٣ـ٣٥٤ ، مسكوية : تجارب الامم ج٦ ص١٧٩ .

(٩١) ابن الاثير : الكامل ج١٠ ص٢٣٠ .

(٩٢) راجع عن الاكراد وتاريخهم : شرفخان البدليسي : شرفنامه ثم محمد امين زكي : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان وتاريخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامي .

ترددت في المراجع منذ القرن الرابع الهجري وخلال القرون التالية -
فالقصبة على ما يبدو ، هي المدينة الرئيسة التي تدير مدنا
ومناطق • ذكر الاصطخري ، ان الثغور لا قصبة لها وكل مدينة
قائمة بنفسها(٩٣) مما يدل على ان المدن الاخرى التي لها قصبة لا
يمكن أن تنفرد هي بادارة شؤونها العامة بل تستمد ذلك من
قصبتها • وقد اشار ابن حوقل الى التفريق بين القصبة والضياع
التابعة لها من حيث متحصلاتها من الموارد المالية(٩٤) وأكد المقدسي ،
ان القصبة هي مركز المنطقة بقوله : «وأما ديار بكر فقصبتها
الرقة ، ومن مدنها المحترقة والرافقة»(٩٥) وخلال القرن السادس
الهجري ، ذكر ياقوت ، ان مدينة حران هي قصبة ديار مضر(٩٦) •

أما الاعمال ، فقد وردت في أغلب المراجع ، وتعني كل ما يدخل
ضمن منطقة الامارة من مدن وممتلكات وقلاع ومزارع واراض
وغيرها • وجاء عن الولاية ، انها هي الامارة أو المدينة التي كان
السلاجقة يقرون توليتها الى الاتابكة أو الاراتقة أو لغيرهم ، أو ان
هؤلاء أنفسهم كانوا يولونها الى أمرائهم وقوادهم •

ان دراسة التقسيمات الادارية التي كان يسير عليها الأيوبيون
والمماليك ــ من بعدهم ــ في مصر وبلاد الشام(٩٧) ، لا توضح ما كان

(٩٣) الاصطخري : مسالك الممالك ص٦٧ •
(٩٤) ابن حوقل : صورة الارض ص١٩٣ــ١٩٤ •
(٩٥) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٢٣٠ــ٢٣١ •
(٩٦) ابوالفداء : تقويم البلدان ص٢٧٧ •
(٩٧) وهي تقسيم دولتهم الى أقاليم أو نيابات تضم كل منها مجموعة من المدن والحصون حيث كان النائب هو المسؤول الاعلى في نيابته وممثل السلطان الشخصي الذي يرتبط به ويتلقى الاوامر منه ، كما كان السلطان يعين نوابا آخرين على القلاع فيصدر مرسوما سلطانيا يكتب بديوان الانشاء • وكان نائب المدينة أو القلعة مستقلا في معظم الاحيان عن نائب السلطنة في الاقليم، وهو يتبع الحكومة المركزية بصورة مباشرة • وان من أهم واجبات نائب



عليه الوضع الاداري في امارات الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري ، والسبب يعزى الى عدم الاستقرار السياسي ونشوب الحروب ووجود المشكلات التي كانت تحول دون اتاحة المجال لاجراء الاصلاحات الادارية وفق تنظيم معين ، وكان يكتفي الامير أو الاتابك بتعيين من يثق به على المدينة أو الموقع ، وكانت المدن والقلاع المفتوحة تقطع في أحيان كثيرة لبعض القواد والمقربين مما لا يوفر كذلك مجالا لادخال الاصلاحات المذكورة(٩٨) ٠

ويلاحظ أن كثيرا من الاصول الادارية الايوبية والمملوكية ، قد ساد العمل بها في امارات الجزيرة الفراتية خلال القرن السابع الهجري والقرون التالية ٠

د ــ المحتسب :

وهو صاحب وظيفة «الحسبة» وموضوعها هو «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراقبة المعايش والصنائع والاخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته»(٩٩) وكانت واجباتها مهمة ، تقابل على أقرب تقدير الكثير مما تقوم به في عصرنا الحالي مؤسسات الشؤون الاجتماعية والصحية والبلديات(١٠٠) ٠

القلعة فضلا عما سبق ان يتولى حفظ القلعة وصونها ، ولا يسلم مفتاحها لاحد الا لمن يتولاها مكانه ، أو لمن يأمره السلطان بتسليمه له ، انظر القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص١٨٥ وهذا التقسيم الاداري كان في مناطق بلاد الشام ، أما في مصر ، فكانت الادارة المحلية تتمثل في الوالي ، حيث كان يشرف على كل مجموعة من الاعمال فئة من الموظفين وعلى رأسهم والي الاقليم الذي كانت مهمته الاولى العمل على استتباب الامن والنظام واشاعة الطمأنينة بين الناس والمحافظة على أموالهم وأرواحهم ٠ أنظر : عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص٢٤٧ ، علي ابراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية (القاهرة ١٩٤٨ الطبعة الثانية) ص ٢٣١ـ٢٣٢ ٠

(٩٨) عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص٢٤٧ ٠

(٩٩) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص٣٧ ٠

(١٠٠) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص٧٢ ٠

وقد أخذ أمراء الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، بنظام الحسبة وطبقوه في اماراتهم ، كما هو متبع في البلاد الاسلامية • ففي الاتابكيات كان القاضي ، يجمع ما بين القضاء والحسبة ، كما تدل الاشارات القليلة المتوفرة على ان هناك محتسبين مستقلين بوظائفهم لا يخضعون فيها للقضاة في اغلب المدن والامارات •

ويبدو ان عرفاء الاسواق هم محتسبون أشار اليهم ابن الاثير في الموصل(١٠١) حيث كانوا يقومون بالمهام نفسها التي كانت للمحتسبين ، وقد وجد عرفاء الاسواق في كل مدينة وقرية فيها أسواق على أقرب احتمال •

غير أن عدم وجود خطوط واضحة للتخصص بين الوظائف الادارية عموما في اتابكيات الجزيرة الفراتية ، جعل من غير الممكن تحديد سلطة هذه الوظائف ومنها وظيفة المحتسب ، وخاصة في النصف الثاني من القرن السادس الهجري • وان أغلب الوظائف يتوقف اشغالها الى حد كبير ، على شخصية من يشغلها وكثيرا ما يطغى اختصاص موظف يتمتع بالقوة والنفوذ على اختصاص غيره ، مما لا يجعل هناك حدودا واضحة بين الوظيفتين •

أما دور المحتسب في الامارات الارتقية ، فيبدو أكثر وضوحا ، فقد أوجد «الاراتقة محتسبا في كل بلد من بلدانهم»(١٠٢) فكان ينظر في الامور المتعلقة بالنظام العام وفي الجنايات وحسمها عن طريق السرعة ومراقبة مراعاة الآداب العامة وتطبيق أحكام الشرع وتفتيش الاسواق والمؤسسات التجارية والاشراف عليها والاطلاع على المرافق التي تحتاج الى اعمار واصلاح(١٠٣) •

---

(١٠١) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص١٩٠ •

(١٠٢) ابن العماد : شذرات الذهب جـ٥ ص١٢٥ ، الفارقي : تاريخ آمد ، الورقة ١٣٨ أ ـ ١٣٨ب •

(١٠٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ١ ص٦٤ •٤

كما كان يؤدي دورا مهما في ضبط الامن الداخلي والمحافظة عليه و «تسكين الناس» خلال فترات الاضطراب وحوادث العصيان والثورات أو عند وفاة الامير • ويشير الفارقي الى دور المحتسب في سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م عندما ساد الاضطراب بين أهالي ميافارقين لوفاة الامير حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين ، حيث ركب المحتسب وتوجه مسرعا اليهم وسكنهم «فاطمأنوا وطابت نفوسهم»(١٠٤) وأشار القلقشندي الى وجود نواب للمحتسب، يطوفون الاسواق والمحلات العامة ويساعدون في تنفيذ تعليماته(١٠٥) من المحتمل جدا ان مثل هؤلاء النواب موجودون في مدن الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري •

---

(١٠٤) الفارقي : تاريخ آمد ــ مخطوطة ــ الورقة ١٣٨ أ ــ ١٣٨ب •

(١٠٥) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٤ ص٣٧ ، ١٩٣ ، انظر : علي ابراهيم حسن ، المماليك البحرية ص٣٠٤ـ٣٠٥ •

البـــاب الثـــالث

العلاقـــات والنظـــم السياســـية والعســـكرية

الفصـل الأول

العلاقـات السياسـية

١ ـ العلاقات بين اتابكية الموصل والامارات الارتقية ٠

٢ ـ الدور السياسي للأكـراد في منطقة الجزيرة خـلال القرن السادس الهجري ٠

٣ ـ العلاقات مع بلاد الشام :

أ ـ حلب ٠

ب ـ دمشق ٠

٤ ـ أمراء الجزيرة الفراتية والصليبيون ٠

٥ ـ العلاقات بين صلاح الدين الأيوبي وأمراء الجزيرة الفراتية ٠

٦ ـ موقف الاراتقة من الصليبيين ٠

الفصـل الأول

العلاقـات السياسـية

شهدت منطقة الجزيرة الفراتية ، في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، عددا من الامارات المحلية ، تمثلت في الموصل وماردين وحصن كيفا وميافارقين(١) ، كما قام الى جانبها عدد آخر من امارات المدن، التي استأثر بحكم كل منها أمير شبه مستقل، وكان من أهمها ، حران والرقة وجزيرة ابن عمر وسنجار وأربل والحديثة وعانة وتكريت وداقوقا وقلعة جعبر(٢) وتقاسم هـذه الامارات . الحكام المعـروفون بالاتابكة(٣) والاراتقـة(٤) ، حيث أتـاح الجو

(١) انظر مواقعها على الخارطة .

(٢) انظر مواقعها على الخارطة .

(٣) كانوا في الاصل مربين لاولاد السـلاجقة ، فأقطعوهم بعض بلاد الجزيرة الفراتية .

(٤) ينتمي هؤلاء الى (ارتق بن اكسك) أحد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥ـ٤٧٥هـ) وقد اقطعه السلاجقة القـدس ، وعند وفاته انتقلت الى ولديه مع بعض القلاع الجزرية كالرها وسروج . وقد اتجه ولده سقمان الى الرها بعد استيلاء الفاطميين على القدس ـ واستطاع الاستيلاء على حصن كيفا وماردين ونصيبين وشكل منها امارة محلية حتى سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م حيث أقام داود بن سقمان امارة حصن كيفا ، واستمرت هذه العائلة تحكم المنطقة حتى مطلع القرن التاسع الهجري ، انظر : ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر (طبعة بيروت مجلدة ص٤٦١ـ٤٦٩) .

المضطرب المتمثل بتدهور النظام السلجوقي وتفكك دولتهم وضعف بعض السلاطين وانحلال اسرة السلاجقة ، فضلا عن عوامل القلق والاضطراب السياسي العام ، كل ذلك أسهم بأتاحة الفرصة لهؤلاء الأمراء المحليين فاستقل كل بما تحت يده ، وعمل على توسيع نفوذه وبسط سلطانه الى ما وراء حدود امارته ، ان استطاع ، على حساب جيرانه من أمثاله من الامراء الطامعين الضعفاء ، وقد تركزت هذه الامارات حول الموصل وانطاكية والرها وحلب ودمشق والقدس وغيرها من الامارات التي لم تكن لها حدود ثابتة دائمة(٥) ٠

وقد كانت امارة الموصل احدى الامارات التي ظهرت نتيجة هذه التطورات السياسية ، وقدر لهذه الامارة أن تلعب دورا حاسما في النشاط السياسي والعسكري الذي غمر المنطقة طيلة القرن السادس الهجري ٠ وتولى امارة الموصل الاتابك عمادالدين زنكي ابنآقسنقر بنعبدالله التركي(٥٢١ـ٥٤١هـ/١١١٨ـ١١٤٦م)(٦) الذي أعاد تنظيم أمورها الادارية والعسكرية ، ثم قاد عساكره فاحتل أكثر مدن الجزيرة الفراتية الواحدة تلو الاخرى ، فابتدأ بمدينة جزيرة ابن عمر سنة ٥٢١هـ/١١١٨م التي كان يحكمها اذ ذاك أحد مماليك عزالدين مسعود بن البرسقي ، حيث استطاع عمادالدين زنكي الدخول الى المدينة بعد تشديد الحصار عليها فاحتلها وضمها الى ولايته(٧) ٠ كما استولى على سنجار سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م(٨) ، وهاجم مدينة أربل سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م وقد كانت

---

(٥) انظر : الدكتور محمد حلمي محمد احمد : مقدمته لكتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية لابي شامة الدمشقي جـ١ قسم ١ ص١ـ٣ ٠

(٦) عندما تسلم عمادالدين زنكي الموصل ، وجه اليه السلطان السلجوقي محمود ، ولديه (ألب أرسلان وفروخ شاه) ليربيهما ، ولهذا قيل لعمادالدين زنكي ، أتابك ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص١١٤ ، الصفدي : الوافي بالوفيات (النشريات الاسلامية ـ الهند) جـ٨ ص٨٨ ٠

(٧) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص٣٦ ، الكامل في التاريخ جـ١٠ ص٢٤٦ ٠

(٨) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٣٧ ، نفس المرجع السابق ص٢٤٧ ٠

من ممتلكات مسعود بن محمد السلجوقي سلطان اذربيجان حيث أدرك عمادالدين زنكي أهميتها العسكرية بالنسبة للموصل فهي بمثابة الباب نحو الشرق الاسلامي ، وقد تم له اخضاعها فتسلمها وعين فيها نائبا عنه(١٠) ، واحتل مدينة الرقة بمكيدة دبرها(١١) • وفي ٥٣١هـ/١١٣٦م تمكن بعد قتال شديد من الاستيلاء على مدينة داقوقا الواقعة بين أربل وبغداد(١٢) • وبعد ثلاثة أعوام قرر الاستيلاء على قلعة شهرزور الواقعة في سهل شهرزور الممتد بين أربل وهمدان(١٣) ، واستطاع في ٥٣٦هـ/١٤١م توسيع حدود امارته نحو الجنوب فاستولى على مدينة الحديثة الواقعة على الفرات ، وبعد مرور عامين أرسل جيشا الى مدينة عانة القريبة منها واستولى عليها(١٤) •

وفي أواخر ٥٤٠هـ/١١٤٥م ، توجه عمادالدين زنكي الى قلعة جعبر المطلة على الفرات في محاولة للاستيلاء عليها غير ان قواته لم تستطع احتلال القلعة فاستمر القتال حتى سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م ،

(٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٣٧ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة (مخطوطة قسم الجزيرة) الورقة ١٧ أ ـ ١٨ أ •

(١٠) ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب جا ص٩٧ •

(١١) تظاهر عمادالدين زنكي عند اقترابه من الرقة بأنه يريد الاستحمام في حمام البلد فقام حاجبه باحضار مسيب بن مالك صاحب الرقة وقال له : «زنكي يشتهى الدخول في الحمام وهذه خمسمائة دينار أعمل بها دعوة ، فلم يشك مسيب بنوايا زنكي ، فأقام الدعوة وسمح لهم بدخول المدينة وعندما انتشروا فيها ، أمر عمادالدين زنكي قواته بالاستيلاء على المدينة» •
انظر ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٦٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ج٢ ص٢٥٧ •

(١٢) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص٢٢ ، ابن واصل : مفرج ج١ ص٧١ •

(١٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٣١ ، الباهر : ص٥٧ـ٥٨ •

(١٤) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ج١٠ ص١٠٢ ، ابن الاثير : الكامل ج١١ ص٣٦ •

حيث اغتيل عمادالدين زنكي فاضطرب جيشه واضطر الى الانسحاب(١٥) ٠

١ ـ العلاقات بين أتابكية الموصل والامارات الارتقية :

اتسمت تلك العلاقات بالسياسة التوسعية التي كان ينتهجها عمادالدين زنكي فكان يستهدف من نشاطه العسكري منذ توليه امارة الموصل ، اخضاع الامارات الارتقية الى امارته ، ففي ٥٢٣هـ / ١١٢٨م تقدمت قواته نحو نصيبين التابعة للاراتقة ، الذين كانوا يتركزون في امارات ثلاث ، هي امارة حصن كيفا ٤٩٥ـ٦٢٩هـ/ ١١٠١ـ١٢٣١م والامارة الثانية في خرتبرت ٥٨١ـ٦٦٠هـ/ ١١٨٥ـ١٢٦١م ، والثالثة امارة ماردين ٥٠٠ـ٨٠٩هـ/١١٠٦ـ ١٤٠٦م فاستنجد صاحب نصيبين حسام‌الدين تمرتاش الارتقي ٥١٦ـ٥٤٧هـ/١١٢٢ـ١١٥٢م بابن عمه ركن الدولة داود ، حاكم امارة حصن كيفا لصد قوات عمادالدين زنكي ، ولكن عمادالدين استطاع احتلال المدينة(١٦) واتخاذها منطلقا للهجوم على المواقع المجاورة ٠

واشار ابن الاثير الى طبيعة العلاقات السياسية بين الامراء الاراتقة وعمادالدين زنكي بعد احتلال عمادالدين لمدينة نصيبين ، فذكر التحالف الذي عقد بين حسام‌الدين تمرتاش حاكم امارة ماردين وركن الدولة داود حاكم امارة حصن كيفا وسعد الدولة

---

(١٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٢٨٤ـ٢٨٥ ، ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص٤٤ ، الباهر ص٧٣ـ٧٤ ٠

(١٦) غير عمادالدين زنكي مضمون الرسالة التي بعثها حاكم امارة ماردين الى أهالي مدينة نصيبين وحاميتهم في حثهم على الصمود ، ريثما تصلهم النجدة الارتقية خلال خمسة أيام ، فأمر عمادالدين زنكي بكتابة رسالة اخرى تتضمن حثهم على الصمود لمدة عشرين يوما ، ولكن أهل نصيبين عجزوا عن الدفاع عن البلد خلال هذه المدة الطويلة فسلموا الى عمادالدين زنكي ودخلت جيوشه المدينة ٠ ابن الاثير : الكامل جـ١٠ ص٢٤٦ ، الباهر ص٣٦ـ٣٧ ٠

ايكلدي صاحب آمد وعدد كبير من تركمان المنطقة وقرروا تكوين جيش قوامه عشرين ألف مقاتل ، لمواجهة الخطر الذي بات يهدد اماراتهم • وقد التقى جيش عمادالدين زنكي بجيوشهم ودارت معركة شديدة أسفرت عن هزيمة الجيوش المتحالفة(١٧) •

وعلى الرغم من انتصارات عمادالدين زنكي وحصوله على بعض المدن والقلاع ، فقد ادرك مدى الخطر الذي يشكله التحالف بين هؤلاء الامراء ضد اطماعه في المنطقة ، فاتجه الى استمالة حسام‌الدين تمرتاش حاكم امارة ماردين لتكوين حلف معه(١٨) مستهدفا تقويض حلف الاراتقة من جهة والاستعانة به ضد الآخرين من جهة أخرى • وانطلق الحليفان يوسعان من هجماتهم ضد حصن آمد ، التي صمدت بوجه الغزاة ، ففرض عليها الحصار ، ثم عمدت قوات الحليفين الى تخريب واسع النطاق في البساتين والمزارع المجاورة(١٩) ، واتجها بعد ذلك الى قلعة صور في بلاد الشام فاستسلمت لهما(٢٠) • على أن شقة الخلاف اتسعت بين حسام‌الدين تمرتاش أمير ماردين وابن عمه ركن الدولة داود حاكم امارة حصن كيفا من جهة ، وازداد تحالف عمادالدين زنكي صاحب الموصل وأمير ماردين من جهة أخرى ، وقد أدى ذلك الى تشديد هجمات عمادالدين وحسام‌الدين تمرتاش المشتركة على مناطق منها جبل جورا والسيوان واستيلائهم عليهما، الامر الذي جعل قرا أرسلان بن داود ينسحب الى قاعدة أبيه ركن الدولة داود في حصن كيفا ، معرضا ولايته للخطر(٢١) • وكان عدم الاتفاق بين عمادالدين زنكي وحليفه حسام‌الدين تمرتاش ،

---

(١٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص٥٣ ، التاريخ الباهر ص٣٨ـ٣٩ •

(١٨) الفارقي : تاريخ آمد وميافارقين (المخطوطة ـ الورقة ١٢١ أ) •

(١٩) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٢ ص٢٥٣ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة : قسم الجزيرة (مخطوطة) الورقة ١٣٤ب •

(٢٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٢٤٣ ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١١ ص٢٥ •

(٢١) الفارقي : تاريخ آمد وميافارقين (المخطوطة) الورقة ١٢١ب ـ ١٢٢ أ •

وخاصة فيما يتعلق بتوزيع الحصـــون والممتلكاه التي افتتحاها سوية سببا رئيســا في تدهور العلاقة بين الطرفـين ، ولكن مجرى الاحداث في المنطقة ساعد على اعادة العلاقات بينهما من جديد حيث أن خلافات قد نشبت بين الامراء الاراتقة أنفسهم(٢٢) . وكان لعودة التحالف بين أميري الموصل وماردين أثره السيىء لدى ركن الدولة داود أمير حصن كيفا ، فأغار سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م على ميافارقين ونهب أطرافها وفرض الحصار عليها ، ولكنه لم يستطع احتلالها(٢٣) وقدسارع عمادالدين زنكي لنجدة حليفه فالتقى بجيوش قرا أرسلان ابن داود صاحب حصن كيفا كي يشـــغله عن التضييق على امارة حليفه حسام الدين تمرتاش . وقـد انتهت المعركة بانتصار عماد الدين زنكي واستيلائه على قلعة بهمرد(٢٤) .

ويمكن القـول على ضوء ماجـاء به الفـارقي ، ان الاراتقة ادركو بأن الخلاف بينهم لن يفيد أيا منهم بقدر ما يعود بالمكاسب على عمادالدين زنكي واستغلاله لصالحه وبالتالي اضعاف قواهم جميعا ، لذلك عقدوا صلحا بينهم لوقف اطماع عمادالدين زنكي في المنطقة(٢٥) .

وقد اغضب هذا الصلح عمادالدين زنكي ، فسعى الى اتخاذ اجراءات سياسية لاكتساب حليف جديد ضد منافسيه في المنطقة ، فأرسل الى سعد الدولة ايكلدي صاحب آمد يتهدده ان استمر في ولائه لامير حصن كيفا فانحاز هذا الاخير الى جانب عمادالدين زنكي(٢٦) . ثم عقد صاحب الموصـل صلحا مع داود بن سقمان صـاحب حصن

---

(٢٢) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٢١ب ــ ١٢٢ أ .
(٢٣) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٢١ أ ــ ١٢٢ب .
(٢٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جا١ ص٣٢ .
(٢٥) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٢ أ ــ ١٢٢ب .
(٢٦) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جا١ ص٣٦-٣٧ ، التاريخ الباهر ص٦٤ .

كيفا(٢٧) ويبدو أن هذه التطورات قد أرغمت حسامالدين تمرتاش على العودة الى موالاة عمادالدين زنكي ٠

غير ان علاقات صاحبي الموصل وماردين آخذ يشوبها الجفاء في ٥٣٧هـ/١١٤٢م على أثر التواطؤ الذي أقدم عليه شرفالدين حبشي وزير صاحب ماردين بتسليم مدينة ميافارقين التي كان يحكمها بالنيابة الى عمادالدين زنكي ، وقد فشلت الخطة واغتيل الوزير(٢٨) فاضطربت جيوش عمادالدين زنكي التي كانت تعسكر على مقربة من المدينة(٢٩) ٠

وشهدت منطقة الجزيرة الفراتية سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م تحركات عسكرية واسعة النطاق اثارها عمادالدين زنكي ، ضد امارة حصن كيفا الارتقية ، وذلك بعد وفاة أميرها داود بن سقمان وتولى ابنه فخرالدين قرا أرسلان الذي لم يكن يتمتع كأبيه بمقدرة سياسية أو عسكرية(٣٠) ٠ وقد أدت هذه العمليات العسكرية وغيرها من محاولات عمادالدين زنكي المتمثلة بمهاجمة مدينة ميافارقين

---

(٢٧) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ٢ ص٢٧٦ ٠

(٢٨) وتتلخص الخطة ، ان حسامالدين تمرتاش صاحب امارة ماردين أرسل وفدا الى الموصل برئاسة وزيره شرفالدين حبشي (وكان هذا قد ولى الوزارة سنة ٥٢٨هـ وقد بلغ منزلة رفيعة غير أنه وصف بالظلم والعسف) لاجراء مفاوضات مع عمادالدين زنكي حول العلاقات بين الطرفين ـ وأثناء المفاوضات استطاع عمادالدين زنكي أن يحصل من الوزير على وعد بتسليم مدينة ميافارقين في وقت يحدده ٠ ولكن الخطة اكتشفت واتفق رجلان من أعيان المدينة على اغتيال حبشي وانهاء الخطر المحدق بميافارقين ٠ انظر : الفارقي : تاريخ آمد وميافارقين (المخطوطة) الورقة ١٠٩ب ـ ١١٠أ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (المخطوطة) الورقة ١٠٤أ ـ ١٠٥أ ٠

(٢٩) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٢ب ـ ١٢٣ب ، ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٠٤أ ـ ١٥٠أ ٠

(٣٠) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٢ـ١٢٣ب ، ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٠٤أ ـ ١٠٥أ ٠

واستيلائه على قلعتي جور والسيوان ، الى تعميق خلافاته مع حسام الدين تمرتاش حاكم امارة ماردين الارتقية(٣١) ٠

وتشهد العلاقات السياسية تطورا بين أتابكية الموصل وامارة أرمينية التي ضمت اليهـا مدينتي خلاط وميافارقـين سنة ٥٠٥ـ ٦٠٤هـ(٣٢) ، حيث توطدت العلاقات بينهما ، وقد بلغ من حرص عمادالدين زنـكي على ابقاء العلاقات الطيبة مـع سكمان القطبي صاحب أرمينية ، انه كان يحذر حكام المنطقة وأصحاب الاطراف من التحرش بهذه الامارة واستعداده للدفاع عنها في حالة تعرضها لخطر ما ، واسـتمر عمادالدين زنكي على سياسته تجاههـا والتي اثمرت بعدم التعرض لها ، حتى بعد أن تولت زوجة سكمان القطبي الامارة بعد وفاة زوجها(٣٣) ٠

أما علاقات اتابكية الموصل مع امارة بدليس وهي احدى امارات المدن في بلاد الجزيرة(٣٤) فكانت تتسم بتدخل عمادالدين زنكي في شؤونها وعزلهـا وفرض الاموال(٣٥) على حسـامالدين بن دلماج صاحب امارة بدليس مقابل حماية عمادالدين زنكي لامارته من اطماع الاخرين ٠

---

(٣١) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٣ب ـ١٢٤ب ، ١٢٨ب ـ١٢٩ أ ، ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٠٤ـ١٠٥ أ ٠

(٣٢) كان سكمان القطبي صاحب أرمينية مولى لاحد أمراء السلاجقة، وقد اقطعت له مدينة خلاط فاتخذها قاعدة لامارته وضم اليها مدينة ميافارقين بتأييد من سكانها ، وعند وفاته ، تولت زوجته الامارة حتى سنة ٦٠٤هـ حيث استولى الايوبيين على أملاكها (ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ مجلدة ص٣٧٣ـ٣٨١) ٠

(٣٣) ابن منقذ : كتاب الاعتبار ص٨٨ـ٨٩ ٠

(٣٤) ابن منقذ : نفس المرجع السابق ص٨٨ ٠

(٣٥) ابن منقذ : نفس المرجع السابق ص٨٩ ٠

٢ ـ الدور السياسي للاكــــراد في منطقه الجزيرة خـــلال القرن السادس الهجري :

انقسم الاكــراد في هذه الفترة الى عدة قبائــل وطوائف(٣٦) ، فمنهم من كان يستوطن المناطق الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية لبلاد الجزيرة الفراتية ولم يخضع لسلطة منظمة ، شأنهم في ذلك ، شأن بعض القبائل العربية وبعض طوائف التركمان الذين لم يكن لهم استيطان محــدد ، والقسم الاخر استطاع ان يشــكل عددا من الامارات بعضها ضم مناطق واسعة ، كان يحكمها الامراء بالوراثة، وبعضها الآخر امارات مدن صغيرة(٣٧) ٠

ومن حصــون الاكراد القريبة من الموصل عقــر الحميدية(٣٨) والشوش(٣٩) ، وعلى الرغم من عدم تقديم المراجع المتوفرة لدينا ، معلومات مفصلة عن نشاطهم السياسي في هذه الفترة ، ولكن ورد ما يفيد بأن الامير عيسى الحميدي كان يحكم هذه الطائفة الكردية التي اتخذت لها عددا من الحصون المنيعة ، وكانوا يقومون بالاغارة بين حين وآخر على اعمال الموصل فينهبون القرى والمزارع(٤٠) ٠

وأشار ابن الاثير الى طبيعة العلاقات السائدة بين كل من الامير الكردي عيسى الحميدي وعمادالدين زنكي صاحب الموصل والخليفة

---

(٣٦) انظر الباب الاول : الفصل الاول ـ السكان والمدن ـ ٠

(٣٧) انظر ما جاء عن الامارات الكردية : شرفخان البدليسي : شرفنامه ، محمد أمين زكي : خلاصــة تاريخ الكرد وكوردستان ، تاريــخ الدول والامارات الكردية في العهد الاسلامي ٠ وقد جاء تقسيم الامارات في هذا الكتاب الاخير الى قسمين الاول (١٤ دولة) والثاني في مناطق الجبال والجزيرة ودياربكر والشام ولبنان وعددها (٣٥) امارة ٠

(٣٨) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص٦٩٦ ، ابوالفداء : تقويم البلدان ص٢٧٤ ٠

(٣٩) ياقوت : نفس المرجــع السابق ج٣ ص٣٣٤ ، أبوالفـــداء : نفس المرجع السابق ص٢٧٤ ٠

(٤٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١١ ص٥ ، الباهر ص٤٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ج١ ص٥٥ ٠

العباسي المسترشد بالله ، فذكر في ٥٣٧هـ/١١٤٢م ان عمادالدين زنكي قر أقر الامير عيسى الحميدي على ولايته «ولم يعترضه بشيء مما في يده»(٤١) ولكن تأييد هذا الامير للخليفة المسترشد بالله في حصاره لمدينة الموصل لانتزاعها من عمادالدين زنكي جعل هذا الاخير ينشط في حصار قلاعهم ووصل الى قلعة العقر «وصعد في جبلها المرتفع الى سورها فوصلت طعنته اليه»(٤٢) ثم استطاع الاستيلاء على قلاعهم ، أما أبو الهيجاء الهكاري صاحب قلعة آشب القريبة من قلاع الحميدية فقد اعلن طاعته(٤٣) لعمادالدين زنكي مدركا مدى خطورته على امارته فيما يبدو ٠

ويحدثنا ابن الاثير عن النشاط السياسي للاكراد الهكارية ، وعن الدور الذي قام به (جيوش بك) والي الموصل السلجوقي (٥٠٧ـ٥١٤هـ) في التصدي لهم ومحاربتهم ، فقد ذكر انهم انتشروا وازدادت قلاعهم «وغدا الناس معهم في ضيق» مما حمل جيوش بك على مطاردتهم بنفسه فحاصر قلاعهم واستطاع الاستيلاء على معظمها(٤٤) ٠

وكانت طائفة المهرانية تقطن عددا من القلاع المنتشرة في المنطقة الجبلية القريبة من جزيرة ابن عمر ، وقد توزعت في امارات صغيرة خلال القرن السادس الهجري ، وذكرت المصادر من امرائهم عبدالله بن عيسى بن ابراهيم المهراني صاحب قلاع الربية

---

(٤١) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص٨٠ «جاء ان الامير المذكور انضم الى الخليفة بجيوشه وامده بالاقوات ، وجمع له عددا كبيرا من الاكراد ، ولكن هذا الحصار فشل وانسحب الخليفة عائدا الى بغداد» ٠

(٤٢) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٨٠ ، ابن واصل : نفس المرجع السابق ص٥٥ ٠

(٤٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١١ ص٥ ، ابن واصل : نفس المرجع السابق ج١ ص٥٥ـ٥٦ «أرسل اليه الاموال ، وتوسل اليه الا يتعرض الى امارته بسوء» ٠

(٤٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص٢٣٠ ٠

وفرح والقى(٤٥) والامير الحسن بن عمر صاحب قلعة الشعباني أما الامير خول وهرون فقد حكم قلعة كواشي(٤٦) • ولم تقدم المراجع معلومات كافية عن علاقاتهم السياسية في هذه الفترة •

وهناك الطائفة الكردية البشنوية المنتشرة في بلاد الزوزان الواقعة في الاراضي الممتدة من جبال أرمينية شمالا وحتى الموصل جنوبا ، من اذربيجان شرقا وحتى دياربكر غربا ، وكان يستوطن الى جانبهم الاكراد البختية وعدد من الارمن ، ولكل من الطائفتين في هذه المنطقة عدد من القلاع الحصينة(٤٧) • وأهمها حصن فنك الذي كان مركزا رئيسا للاكراد البشنوية •

وقد وجه الامير جيوش بك والي الموصل السلجوقي في ٥٠٩هـ /١١١٥م حملة عسكرية على الاكراد البشنوية وطاردهم واستولى على أكثر قلاعهم(٤٨) •

ويشير ابن الاثير الى سيطرة عمادالدين زنكي على القلاع والحصون المجاورة لحصن فنك التابع للاكراد البشنوية في محاولة لاخضاع هذا الحصن المنيع وبعد ان فرض الحصار عليها قائد جيوشه زين‌الدين علي كوجك في ٥٤١هـ/١١٤٦م اغتيل عمادالدين زنكي خلال حصاره قلعة جعبر في نفس السنة مما أضطر القائد الى فك الحصار والانسحاب الى الموصل(٤٩) •

---

(٤٥) قلعة حصينة ينسبها ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١١ ص٦ الى حصون الهرانية بينما ينسبها ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٣٥٢ الى الزوزان البشنوية •

(٤٦) ابن الاثير: نفس المرجع السابق ج١١ ص٦ •

(٤٧) أشهرها : برقة وبشير وجرذقيل واثيل وعلوس وانيج وباخوخا وبرخو وكنكور وخوشب والهيثم وشاروا • ياقوه : معجم البلدان ، ج١ ص٣٧١ ، ٤٦٦ ، ج٢ ص١٥٧ ، ج٤ ص٣١٢ •

(٤٨) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج١٠ ص٢٣٠ •

(٤٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ، ج١١ ص٤٤ • التاريخ الباهر ، ص ٧٣ •

٣ ـ العلاقات مع بلاد الشام :

أ ـ حلب :

تتميز مدينة حلب بموقعها المهم على خطوط المواصلات بين بلاد فارس والعراق من جهة وبين الشام وآسيا الصغرى من جهة أخرى كما انها حصينة وذات امكانيات اقتصادية ، ونتيجة لذلك نشأت العلاقات بينها وبين امارات الجزيرة الفراتية في القرن السادس الهجري ، وقد بـدت العلاقات السياسية أكثر وضوحا مـع امارة الموصل في عهـــد عمادالدين زنكي حيث كان يطمح دائمـــا الى الاستيلاء عليها وعلى غيرها من البلاد الشامية(٥٠) ٠

وعند اضطراب أحوالها العامة وتهديد الصليبيين لها ووفاة صاحبها عزالدين مسعود سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م وتولى (قتلغابه) أحـــد أمـــراء السلاجقـــة أمورهـــا وتحكمـــه فيهـــا ٠ استطاع عمادالدين زنكي ، ســنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م ، الســيطرة عليها بمساعدة سكانها ، فدخل قلعتهـا وبدأ تنظيم أمورهـا(٥١) وقضى على أكثر زعمائها السابقين ٠

وبعد مقتل عمادالدين زنكي أثناء محاصرته قلعة جعبر سنة ٥٤١هـ ، استطاع ابنـه نورالدين محمود بعد فك الحصـار ، ان يستولى على حلب(٥٢) مما أثار عليه أخوه سيفالدين غازي صاحب الموصل الذي كان يتطلع الى حكم بلاد الشام بما فيها حلب لانه الابن الأكبر لعمادالدين زنكي ، ونتيجة لذلك ساد العلاقات بينهما التوتر واستمر حتى سنة ٥٤٣هـ ، حيث بـادر سيفالدين غازي صاحب

---

(٥٠) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص٣٧ ٠
(٥١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ١٠ ص٢٤٨ ، الباهر ص٣٨ ، ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ٢ ص٢٤٢ ٠
(٥٢) ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص١١٥ ٠

الموصل الى مراسلة آخيه نورالدين محمــود واستمالته(٥٣) للوقوف بوجه الصليبيين الذين راحوا يهـــددون ممالكهما ونجح صاحب الموصل في ازالة الجفوة بينه وبين أخيـــه وتم الاتفاق بينهما على التعاون • وكان من ثمار هذا الاتفاق صد الجيوش الصليبية التي كانت تهدد دمشق سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م •

ب ـ دمشق :

ورث (آل طغتكين)(٥٤) حكم دمشق والمناطق المجاورة(٥٥) عن السلاجقة • وقد بدأت العلاقات بين أمراء الجزيرة الفراتية وآل طغتكــين في ٥٢٤هـ/١١٢٩م عندما أخذ عمادالدين زنـكي يوجه اهتمامه لاحتلال دمشق ، وكان أول عمل قام به عمادالدين زنكي الطلب الذي تقدم به الى حاكم دمشــق بوري بن الطغتكين لانجاده في صد الخطر الصليبي(٥٦) فاستجاب له ابن الطغتكين وأوصل ابنه سونج الذي كان يحــكم حماة على رأس جيش لنجـدة عمادالدين زنكي ، غير ان هذا الاخير اعتقل سونج بن بوري مع قادته ورجاله وهجم على حمـــاة واحتلها ، ثم أخذ يهاجـم حمص ، الا أن سكانها صدوا عمادالدين زنـــكي ببسالة ، فعمد الى حصارها ولــم ينل

---

(٥٣) ابن الاثير : الباهر ص٨٧ـ٨٨ •

(٥٤) وطغتكين (ظهيرالدين اتابك)أحد قواد الجيش السلجوقي ومملوك السلطان تتشى وبعد مقتل تتشى أصبح طغتكين أتابكا لولده شمس‌الملوك دقاق بن تتشى • في ٤٩٧هـ توفى شمس الملــوك فآلت دمشق الى طغتكين وعرفت بأتابكية دمشق وظلت تحكم من آل طغتكين حتى سنة ٥٤٩هـ حيث استولى عليها نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص١٢٤ ، ابن الاثير الكامل جـ١١ ص١٩٧ ، وانظر رشيد الجميلي : دولة الاتابكة ص٢٩) •

(٥٥) وأهمها بعلبك وصلخد وبصري وبانياس •

(٥٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٢٢٧ـ٢٢٨ ، ابن الاثير : الكامل جـ١ ص٢٥١ •

منهـا(٥٧) · وفي ٥٢٧ هـ/١١٣٢م توفي بوري بن الطغتكـين حاكم دمشق فخلفه ابنه اسماعيل الذي تمكن من استرداد حماة من قبضة عمادالدين زنكي ·

وفي ٥٢٩هـ/١١٣٤م طلب اسماعيل بن بـوري بن طغتكين حاكم دمشق الى عمـادالدين زنكي التوجه لاحتلال دمشـق ، وقد استجاب الاخير على الرغم من انهماكه بمشكلاته مع الخلافة العباسية والسلاجقة وكذلك على الرغم من التغييرات التي جرت في دمشق بعد مقتل اسماعيل بن بوري وتنصب آخيه شهابالدين محمود بدلا منه، فقد سارت قـوات عمادالدين زنكي نحو دمشـق وضرب الحصار عليها ، ولكن سكانها بذلوا جهودا كبيرة للدفاع عنها ، وعلى أثر تدخل الخليفة المسترشد بالله العباسي ووصول رسوله ، أمر عماد الدين زنكي بفـك الحصار والتوجـه الى بغداد للاتفـاق على خطة موحدة للعمل ضـد السلطان السلجوقي مسعود فاسـتجاب صاحب الموصل وسحب قواته(٥٨) ·

وفي ٥٣٠هـ/١١٣٥م قام عمادالدين زنكي بمحاولة الاستيلاء على حمص ليسهل عليه تحقيق احتلال دمشق فيما بعد ، فحاصرها حصارا شـديد مما أضطر الامير قـريش بن خيرخـان الى مراسلة شهابالدين محمود صاحب دمشق فقدم له عرضا لحكم حمص على أن يعوضه احـدى مدن امارته فبـادر صاحب دمشـق الى اجابته بارسال الميرة والاقوات اليه ·

غير ان قـوات عمادالدين زنكي استمرت تشن غاراتهـا على أطراف حمص(٥٩) · وفي ٥٣١هـ/١١٣٦م جدد غاراته بنفسه على

---

(٥٧) ابن القلانسي : نفس المرجع السابق ص٢٢٧ـ٢٢٨ ·

(٥٨) ابن القلانسي : نفس المرجع ص٢٤٧ـ٢٤٨ ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١١ ص٨ـ٩ ·

(٥٩) ابن القلانسي : نفس المرجع ص٢٥٢ ، ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١١ ص١٥ـ١٦ ·

مدينة حمص ، وكادت تسقط بيده ، لولا أن المنطقة شهدت تحالفا خطيرا بين زعماء الصليبيين استهدف مباغتته والقضاء على نفوذه في بلاد الشام(٦٠) ، وبالفعل اشتبكت قواته مع الصليبيين بالقرب من بعرين وانتصر عليهم(٦١) لذلك عاود مهاجمة ممتلكات آل طغتكين في بلاد الشام على أمل توحيدها لمواجهة الخطر الصليبي في ٥٣٢هـ/١١٣٧م فاكتسح عددا من الحصون والمدن مثل حماة وبعلبك وحصن المجدل(٦٢) · ثم حاصر مدينة حمص وشدد عليها ، ولكن تهديد امبراطور الروم حنا كومنين لممتلكاته في الشمال اضطره الى فك الحصار فتوجه مرة أخرى ليس لمجابهة خطر الامبراطور فحسب وانما للوقوف ضد التحالف البيزنطي الصليبي الذي انتهى بانسحاب امبراطور الروم الى بلاده(٦٣) ·

وكان عمادالدين زنكي يسعى لتحقيق هدفه بالاستيلاء على مدينة دمشق وقد استهدف من وراء ذلك توحيد بلاد الشام بوجه الخطر الصليبي ، ففي ٥٣٣هـ/١١٣٨م سارت عساكره نحو دمشق فاستعد أهلها للدفاع عن مدينتهم «ولم يتركوا شيئا مما يحتاجون اليه الا وبذلوا جهودا بالغة للحصول عليه»(٦٤) ·

وقد هاجمت عساكر الموصل وهي في طريقها الى دمشق مدينة بعلبك وحققت الاستيلاء عليها(٦٥) وبذلك استطاع احتلال أهم

---

(٦٠) العظيمي : تاريخ العظيمي (مخطوطة منشورة في مجلة المشرق باريس ١٩٣٨) ونشر سامي الدهان حاشية زبدة الحلب ، الورقة ٢١١ ، لابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٢ ص٢٦١-٢٦٢ ·

(٦١) ابن القلانسي : نفس المرجع ص٢٥٨-٢٥٩ ، ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١١ ص٢١-٢٢ ·

Runciman: A History of the Crusades, vol. 11, P. 203-205

(٦٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٢٦٣ ، ابن الاثير : الكامل ج١١ ص٢٣ ·

(٦٤) ابن القلانسي : نفس المرجع السابق ص٢٦٩-٢٧٠ ·

(٦٥) ابن القلانسي : نفس المرجع السابق ص٢٦٩-٢٧٠ ، ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١١ ص٢٨-٢٩ ·

المواقع المحيطـــة بمدينة دمشق ، فضـــلا عن تقوية علاقـــاته مع (رضوان) الوزيـــر الفاطمي الذي كان قد لجأ الى دمشـــق فاغراه بالانضمام الى جبهته ، ومع ان هذا الاخير قد اتفق مع عمادالدين زنكي ولكنه عـــدل أخيرا عن رأيـــه بعد أن بذل لـــه صاحب دمشق الاموال بواســـطة فارس بني شيزر المشهور أسامة بن منقـــذ الذي أرسل اليه فأقنعه(٦٦) ، ومع ذلك فقد تقدم عمادالدين زنكي نحو دمشق وفرض الحصـــار عليها وكادت قواته تحقق الاســـتيلاء على المدينة لولا ايقافه القتال بأمل احتلال المدينة بصورة سلمية بواسطة المفاوضات(٦٧) واستمالة الاهالي واغرائهم بالهدايا والاموال وقد أحاط عمادالدين زنكي رغبته هذه الضمانات الكافية ، ولكن أمير دمشق ورجاله لم يستجيبوا لندائه ، لذلك اضطر الاخير الى استئناف القتال(٦٨) • ونتيجة لمثابرة صاحب الموصل في حصار دمشق وشن الهجمات عليها باستمرار ، فقد راح صاحب دمشق يطلب التحالف مع الصليبيين لدفع الاخطار التي تأتيه من عساكر الموصل ، فالتقى وفد صاحب دمشق بملك بيت المقدس الصليبي فولك وعرض عليه الاموال لقـــاء مساعدته ضد الصليبيين ، فضـــلا عن قيـــام صاحب دمشق بالاستيلاء على بانياس وتسليمها اليهم في حالة الاتفاق • وقد رأى الصليبيون ان سيطرة عمادالدين زنكي على دمشق سوف تؤدي الى تعـــرض قواعدهم في المنطقة الى الخطر(٦٩) ، ولذلـــك سارع (فولك) ملك بيت المقدس الصليبي الى عقد تحالف مع أمير دمشق

---

(٦٦) ابن منقذ : كتاب الاعتبار ص٣٠ـ٣١ •

(٦٧) ابن القلانسي : نفس المرجع السابق ص٢٧١ ، ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١١ ص٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص٨٧ •

(٦٨) ابن القلانسي : نفس المرجع ص٢٧٢ ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١١ ص

(69) Runciman: The Crusades, Vol. 11. P. 227-228.
Setten: A History of the Crusades, Vol. 1, S.V. Zengi and the fall of Edessa, by H.A.R. Gibb, P. 45 -460.

معين الدين أنر . وقد تحاشى الصليبيون الاصطدام بجيش الموصل على الرغم من قيام عمادالدين زنكي بتحشيد جيوشه للتصدي لكل قوة منهم على انفراد(٧٠) . وكان الاتفاق الذي عقد بين الصليبيين وحاكم دمشق يقضي بالاستيلاء على بانياس وبعلبك ، وقد تم لهذا الاخير الانقضاض على بانياس واحتلالهـا ، الامر الذي جعل عمادالدين زنكي يوزع قواته الى مجموعتين ، أرسل المجموعة الاولى الى نواحي دمشق للقيام بهجمات تخريبية في المناطق المحيطة بها ، والقسم الاخر عاد الى حلب للدفاع عنها(٧١) . والظاهر ان عمادالدين زنكي صاحب الموصل قد فشل في كـل محاولاته التي استهدفت احتـلال دمشق ، فيحدثنا ابن القلانسي في ٥٤٠هـ/١١٤٥م عن الاستعدادات الكبيرة التي قام بها عمادالدين زنكي باستكثاره من صنع المجانيق والمهمات العسكرية الاخـرى وتجنيد التركمان والاكراد واعـداد العدة للاستيلاء على دمشق ، وزاد ابن القلانسي بقوله ، ان صاحب الموصل لم يلبث أن غير وجهته الى مدينة الرها حيث اكتشف الخطة التي كان يعدها سكان المدينة لاعادتها الى الصليبيين(٧٢) .

٤ ـ أمراء الجزيرة الفراتية والصليبيون :

كانت امارة الرها الصليبية في الجزيرة الفراتية تشكل خطرا كبيرا على المواقع الاسلامية في المنطقة حتى الربع الاول من القرن السادس الهجري . وكان العالم الاسلامي خلال هذه الفترة يعاني من التدهـور والضعف بسبب النزاع السياسي بـين الخلافتين العباسية والفاطمية وانشغال السلاجقة في الصراع على السلطة فيما

---

(٧٠) ابن القلانسي : نفس المرجع ص٢٧٢ ، ابن الاثير : نفس المرجع السابق جـ١١ ص٣٠ .

(٧١) ابن القلانسي : نفس المرجع ص٢٧٢ـ٢٧٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ٢ ص٢٧٤ـ٢٧٥ .

(72) Runciman: Op. Cit., 11, PP. 239, Gibb: Op. Cit., 1 PP. 462.

بينهم . فاستغل الصليبيون هذا التدهور ونشطوا في توسيع مناطق نفوذهم وراحوا يرغمون السكان على تنفيذ مطاليبهم وقد أشار ابن الاثير الى سرايا هؤلاء الغزاة حيث بلغت الى آمد فلم يبقوا على موحد ولا جاحد ، والى نصيبين ورأس العين فاستأصلوا ما لاهلها من أثاث وعين ، وأما الرقة وحران فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار وقال أيضا «ثم زاد الامر ، وعظم الشر ، حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجا واتاوة ، يأخذونها منهم ليكفوا ايديهم عنهم»(٧٣) .

ولكن على الرغم من هذا التدهور الذي شمل العالم الاسلامي ، فان بعض حكام المسلمين راحوا يتصدون للصليبيين ، وكانت أولى المعارك بينهما تلك التي قادها مودود بن التونتكين والي الموصل بعد تلقيه أمرا من السلطان السلجوقي محمد سنة ٥٠٥هـ/١١١١م بمهاجمة الصليبيين في بلاد الشام ، وقد استهدف الهجوم مدينة الرها وتل باشر ومعرة النعمان ، غير ان اتفاق بوري بن طغتكين حاكم دمشق مع الصليبيين سرا أدى الى اخفاق حملة المسلمين في الاستيلاء على هذه المدن ، وقد اشار ابن الاثير الى ذلك قائلا «ثم سار الى الرها ـ والمقصود مودود حاكم الموصل ـ فحاصرها ولم يتمكن من فتحها ثم رحل عنها ... فحاصر تل باشر خمسة وأربعين يوما ولم يبلغ منها غرضه ، ثم سار عنها الى معرة النعمان فحاصرها ، وجاء اليه الامير بوري بن طغتكين صاحب دمشق ، فلما رأى كثرة عسكره ، خاف أن يأخذ منه دمشق ، فشرع في صلح الفرنج سرا من مودود ، فصالحوه»(٧٤) .

وفي ٥٠٧هـ/١١١٣م عقد التحالف بين أمراء المسلمين من جهة ، وضم كلا من مودود بن التونتكين صاحب الموصل وبوري بن

---

(٧٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص٢٢ـ٢٣ ، نقل عنه : أبو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية جا ص٧٦ـ٧٧ .

(٧٤) ابن الاثير : نفس المرجع ص١٧ـ١٨ .

طغتكين صاحب دمشق وبين الصليبيين من جهة أخرى وكان مؤلفا من (برودويل) ملك القدس وعكا وصور و(جوسلين) ملك تل باشر والرها . وقد استمرت المعارك بين الجيوش الاسلامية والصليبية في فلسطين مدة تقارب الشهر دون نتيجة حاسمة(٧٥) .

ويشير ابن الاثير الى اغتيال مودود بن التونتكين صاحب الموصل على أيدي الباطنية فأقطع السلطان السلجوقي محمد الموصل الى الامير جيوش بك والحقت العساكر الموصلية بالقائد سنقر البرسقي وأرسلت لقتال الصليبيين وما لبثت الجيوش الاسلامية ان التقت بالقوات الصليبية وحاصرتها في مدينة الرها سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م وقد انضم الارمن الى الصليبيين في محاربة الجيوش الاسلامية .

ويبدو ان مناعة الرها وقدرتها الدفاعية أرغمت البرسقي على التخلي عن فكرة الاستيلاء عليها فرحل الى سميساط وهي أيضا للفرنج فخرب بلدها وبلد سروج(٧٦) وهي من مدن الجزيرة الفراتية ، ثم قفل عائدا الى بغداد .

أما جيوش بك فرجع الى الموصل مستصحبا معه عمادالدين زنكي الذي لم يزل بعد قائدا في الجيش .

وفي ٥١٤هـ/١١٢٠م خرج جيوش بك على السلطان السلجوقي محمود سعيا وراء تنصيب السلطان مسعود الذي كان جيوش بك نفسه أتابكا له ، غير انه لم يحقق هدفه ، فأخذت منه الموصل ، وحكمها لأمير آقسنقر البرسقي وألحقت معها جزيرة ابن عمر وسنجار ونصيبين(٧٧) .

---

(٧٥) ابن الاثير : نفس المرجع ص١٩ .
(٧٦) ابن الاثير : نفس المرجع ص٢٠ .
(٧٧) ابن الاثير : نفس المرجع ص٢٢ـ٢٤ .

وتلقى الامير اقسنقر البرسقي ، بعد توليه الموصل ، أمرا من الخليفة المسترشد بالله العباسي سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م بالوقوف ضد دبيس بن صدقة صاحب الحلة ومحاربته ، وذلك لموقفه المساند لجيوش بك ضد الخليفة والسلطان السلجوقي • ولم يصمد الجيش الذي كان يقوده آقسنقر البرسقي صاحب الموصل أمام جيش دبيس بن صدقة صاحب الحلة ولكن على الرغم من ذلك فان دبيس ابن صدقة أرسل الى الخليفة أنه على الطاعة ويطلب أن يخرج النواب الى الاعمال •

ولكن في نفس السنة قرر الخليفة القضاء على دبيس بن صدقة صاحب الحلة لتمرده واصراره على المخالفة وتهديده أطراف بغداد، واستطاعت قوات الخليفة ايقاع الهزيمة بقوات صاحب الحلة وتفريقها «وأما دبيس فانه لما انهزم التحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وصار معه من خواص أصحابه وكان عاصيا على أخيه السلطان محمود»(٧٨) ثم أمر آقسنقر البرسقي بالعودة الى الموصل والتحضير لملاقاة الجيوش الصليبية(٧٩) •

وفي ٥٢٠هـ/١١٢٦م قتل آقسنقر البرسقي حاكم الموصل على يد الباطنية ، فولى بعده ابنه عزالدين مسعود ، الذي كان آنذاك على رأس جيش في مدينة حلب ليصد عنها الصليبيين(٨٠) غير أنه توفي هو الاخر بعد سنة من توليه الامارة ، فولى بعده أخوه الاصغر ، ومن ثم تولاها عمادالدين زنكي الذي لعب دورا عظيما في مقارعة الصليبيين في هذه المنطقة • وقد رأى أن عقد هدنة مؤقتة مع الصليبيين يتيح له الانصراف لتعبئة جيوشه واعدادها للحرب اعدادا كافيا •

وبدأ عمادالدين زنكي خطته بالتصدي للقوى الصليبية ، ففي ٥٢٢هـ/١١٢٨م استطاع الاستيلاء على مدينة حلب بعد أن مكنه

---

(٧٨) ابن الاثير : نفس المرجع ص٢٧ •
(٧٩) ابن الاثير : نفس المرجع ص٢٧ •
(٨٠) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ٨ ص٣٢٠ •

سكانها منهـــا لتخليصهم من تهديدات الصليبين الدائمـــة(٨١) ، ولاتخاذها نقطة انطلاق في مقاومتهم وقـد انتهز فرصة هدنته مع جوسلين ملك الرها لتوسيع حدود امارته كما انتهز ظهور المشكلات الداخلية لامارة انطاكية الصليبية ليتابع سياسته ضد الصليبيين ، ففي ٥٢٤هـ/١١٢٩م ، قتل بوهمند الثاني ملك انطاكية على أيدي سلاجقة آسيا الصغرى فخلفته في الحكم زوجته (أليس) وهي ابنة (بلدوين) ملك بيت المقـــدس التي أعلنت عن رغبتهـــا بالطاعة لعمادالدين زنكي مقابل اقرارها أميرة على انطاكية ولكن سرعان ما فوت بلدوين الفرصة على عمادالدين زنكي باحتلال انطاكية ، حيث اتجه بجيشه نحو المدينة واستولى عليها ، فما لبثت ابنته (أليس) أن أعلنت مضطرة خضوعها له(٨٢) ٠

غير ان عمادالدين زنكي قرر البدء بالهجوم على حصن الاثارب المجاور لحلب في الســنة نفسها وبسبب ما كان يقوم بـه صليبيو هذا الحصن من اغارات مستمرة على المواقع الاسلامية ٠ واستطاع الاستيلاء عليه فأمر بتخريبه ، ثم تقدم نحو حارم الواقعة على طريق انطاكية ، فضرب حولها الحصار ، وفاوضه سكانها وطلبوا المهادنة فأجابهم الى ذلك(٨٣) ٠

أما في ٥٢٩هـ/١١٣٤م فقد اتيحت لعمادالدين زنكي فرصة ثانية لتحقيق انتصارات جديدة في بلاد الشام ، حيث قام بمهاجمة عدد من المواقع الصليبية المحيطة بحلب وهي : الاثارب الذي يبدو

---

(٨١) ابن الاثير : نفس المرجع جـ١٠ ص٢٤٨ ٠

(82) Runciman: A History of the Crusades, Vol. 11, P. 182.
W.B. Stevenson: The Crusaders in the East, P. 129.

(٨٣) ابن الاثير : نفس المرجع الســـابق جـ١٠ ص٢٤٨ ، التاريخ الباهر ص ٣٢ـ٣٤ ٠
ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ٢ ص٢٢٥ـ٢٣٤ ٠

ان الصليبين استردوه بعد سنة ٥٢٤هـ وزردنا وتل اغدي ومعرة النعمان وكفر طاب(٨٤) ٠

كما تقدمت جيوش صاحب الموصـل الى مهاجمة حصن بعرين الصليبي فالتقت بالجيوش الصليبية التي كان يقودها كل من فولك ملك بيت المقدس وريموند كونت طرابلس ودارت رحى معركة شديد انتهت بانتصار العساكر الموصلية ثم اتجهت صوب الحصن وفرضت عليه حصارا شديدا ، مما أدى الى استسلام أصحاب الحصن وسقوطه بيد عمادالدين زنكي(٨٥) ٠

وفي هذه الاثناء عقد اتفاق بـين الامبراطور البيزنطي (حنا كومنين) وريموند أمير أنطاكية للعمل المشترك من أجل الاستيلاء على حلب وما يجاورها من الحصون الاسلامية على أمل تكوين امارة صليبية جديدة تضـم حلب وشيزز وحماة وحمص(٨٦) ، وبعـد ان تقدمت القوات المتحالفة نحو حلب ، سارع عمادالدين زنكي بمد أهل حلب بقوة من الفرسان ساعدتهم على مقاومة الجيوش المتحالفة التي فرضت الحصار على المدينة ٠ ولكن الامبراطور (حنا كومنين) الذي كان يقود الجيوش الصليبية وجه قواته نحو حصن الاثارب فاستولى عليه ثم اتجه نحو شيزر التي اعتبرها الصليبيون من المواقع المهمة في المنطقة ، فاستنجد صاحب شيزر سلطان بن علي الكناني بعمادالدين زنكي ، فانجده بقوات عسكرت بالقرب من حماة ، ثم أخذ يراسل المتحالفين ويتوعدهم في اللقاء بساحات الحرب والقتال لان الصليبيين امتنعوا في باديء الامر من مواجهة جيوش عمادالدين

---

(٨٤) ابن العديم : نفس المرجع السابق جـ٢ ص٢٥٩ ٠
Stevenson: Op. Cit., Vol. 11, PP. 129-130.

(٨٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٢٥٨-٢٥٩ ،
Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 203-205.

(86) Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 213.

زنكي صاحب الموصل(٨٧) ، وقد كان لمراسلات عمادالدين زنكي أثره الكبير في تحطيم معنويات المتحالفين(٨٨) . فقد ظنوا ان وراء جيش صاحب الموصل القليل العدد ، قــوات ضخمه يحتفظ بها في الوقت المناسب كما انه أخذ يفرق بين المتحالفين من الصليبيين والبيزنطيين فيثير الشكوك بين صفوفهم ويستعدي نوايا احدهم على الاخر ، لذلك فقد أشار ابن الاثير الى ما كان يقوم به عمادالدين زنكي واعتبره من العوامل التي عرقلت فتح شيزر وانقاذها من المتحالفين(٨٩) ٠

وبالاضافة الى ذلــك ، فقد ارسل عمادالدين زنــكي القاضي كمال‌الدين الشــهرزوري الى بغــداد لطلب النجدة العسكريــة من السلطان السلجوقي مســعود(٩٠) والى سلاجقة آسيا الصــغرى يشير عليهم بالاغارة على المواقع البيزنطية ، هناك(٩١) ، لتحويل اهتمامهم عن بلاد الشام والجزيرة الفراتية ، كما ورد ما يشير الى قيام أمير حصن كيفا الارتقي ، بارسال ابنه على رأس جيش كبير من التركمان لمواجهة الجيوش الصليبية (٩٢) ٠

وفي ٥٣٣هـ/١١٣٨م وعلى أثر انسحاب القوات المتحالفة من حصار شيزر استطاع صــلاح‌الدين الياغسياني حاجب عمادالدين زنكي أن يســتولى على كفر طاب(٩٣) كمــا تحققت لقــوات الموصل

---

(٨٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ١١ ص٢٣ ، التاريخ الباهر ص٥٥ ٠

(٨٨) عاشور : الحركة الصليبية (مطبعة لجنة البيان العربي القاهرة ـ ١٩٦٣) جـ١ ص٥٨٧ ٠

(٨٩) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص٥٦ ،
Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 216.

(٩٠) ابن الاثير : نفس المرجع ص٦٢ـ٦٣ ٠

(٩١) العريني : الشرق الاوسط والحــــروب الصليبية (دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٣) جـ١ ص٥١٥ـ٥١٦ ٠

(٩٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٢٦٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ٢ ص٢٦٨ ٠

(٩٣) ابن العديم : نفس المرجع السابق جـ٢ ص٢٦٨ ٠

الاستيلاء على حصن عرقة(٩٤) وحصن بزاعة(٩٥) وحصن الاثارب(٩٦) ٠

أما في ٥٣٨هـ/١١٤٣م فقد عقد حلف ثنائي بين قرا أرسلان الارتقي أمير حصن كيفا و (جوسلين) أمير الرها الصليبية للوقوف ضد السياسة التوسعية التي كان ينتهجها عمادالدين زنكي في المنطقة(٩٧) ، غير ان ما يتمتع به صاحب الموصل من مركز قوى في بلاد الجزيرة الفراتية ، أتاح له القيام بفتح عدد من المواقع والحصون الصليبية التابعة لامارة الرها مثل جملين والموزر(٩٨) وتل موزن وكذلك في اقليم شبجتان(٩٩) ، وكان عمادالدين زنكي يستهدف من وراء ذلك الاستيلاء على امارة الرها وانهاء الاحتلال الصليبي لها ٠

كانت امارة الرها من أهم مراكز الصليبيين في بلاد الجزيرة الفراتية باعتبارها قاعدة لاحدى اماراتهم الاربع في الشرق الاسلامي ، ولقربها من العراق ، وقوة تحصيناتها ، وما كانت تسببه للمناطق الاسلامية المجاورة من اخطار كثيرة وقد قال عنها ابن الاثير بأنها «من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلا ، وهي احدى الكراسي عندهم ، اذ كانت من الديار الجزرية عينها ، ومن البلاد الاسلامية حصنها» وأضاف الى قوله بأن غارات الصليبيين

---

(٩٤) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص٥٧ ، أبو شامة : كتاب الروضتين في اخبار الدولتين جـ١ ص٨٤ ٠

(٩٥) ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب جـ١ ص٨٣ ٠

(٩٦) ابن واصل : نفس المرجع السابق ص٨٣ ٠

(97) Runciman: Op. Cit., Vol. 11, PP. 460-461.

(٩٨) احد اقاليم الجزيرة الفراتية ٠ ياقوت : معجم البلدان جـ٤ ص٦٧٩ – ٦٨٠ ٠

(٩٩) كورة تمتد الى الجنوب من دياربكر تضم عددا من المواقع مثل (تل بسمى) و(تل قراد) ، ياقوت : نفس المرجع السابق جـ١ ص٨٦٤–٨٦٩ ٠

كانت تبلغ آمد وماردين ونصيبين ورأس عين والرقة ، وأما حران فكانت في الخزى كل يوم صبحوها بالغارة(١٠٠) .

يتضح من ذلك انامراء الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري وفي مقدمتهم عمادالدين زنكي وبعض أمراء الاراتقة والاتابكيين الآخرين قد ادركوا خطورة هذه الامارة على ممالكهم واماراتهم وانها تشكل عائقا يحول دون اي مسعى لتوحيد الجبهة الاسلامية بوجه الخطر الصليبي المتعاظم في بلاد الشام او الخطر المتاتي من الامبراطورية البيزنطية والذي كان ينبعث من بلاد الروم ، بالاضافة الى تهديدها الدائم لخطوط المواصلات التي كانت تربط بين الموصل وحلب من جهة وبين بلاد فارس وسلاجقة آسيا الصغرى من جهة أخرى(١٠١) .

لذلك أخذ هؤلاء يعدون العدة وينتهزون سنوح الفرصة للانقضاض عليها وتخليصها من حكم الصليبيين ، وفي ٥٣٩هـ/١١٤٤م أصبحت الظروف مواتية لهم لكي يضربوا ضربتهم ، اذ اشتد الخلاف بين ريموند أمير انطاكية وجوسلين الثاني أمير الرها وانفجر الى نزاع انتهى بمقاطعة أحدهما للآخر(١٠٢) ، كما توفى (فولك) ملك بيت المقدس وخلفه (بلدوين) الثالث وهو ضعيف الشخصية(١٠٣) يضاف الى ذلك ، ان التحالف القديم بين الصليبيين والامبراطور البيزنطي كان قد انتهى سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م وحل محله عداء شديد وحروب مستمرة بين الطرفين(١٠٤) .

---

(١٠٠) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص٦٦ـ٦٧ .

(101) Stevenson: The Crusades in the East, P. 153.

عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص١٤٩ .

102)Runciman: A History of the Crusades, Vol. 11. P. 234-235, 236.

(١٠٣) عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٦٠٣ـ٦٠٤ ،
Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 174.

(104) Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 234.

ثم جاءت وفـاة الامبراطور البيزنطي (حنا كومنـين) لتخلي الساحة للامراء المسلمين ولعمادالدين زنكي بصورة خاصة من عدو قوي يسند الصليبيين في عدوانهم على منطقة الشرق الاسلامي(١٠٥) •

وكان جوسلين الثاني أمير الرها ضعيفا ، ميالا الى المسيحيين الشرقيين الارمن ، وكان يفضلهم على المسيحيين الغربيين ، مما سبب القلق بين الفرسان الصليبيين وأوجد نوعا من عدم الاستقرار في مدينة الرها(١٠٦) •

لذلك فقد استغل عمادالدين زنكي هذه الظروف وحاصر مدينة الرها ثم استولى عليها بعد أن دبر خدعة حققت له هدفه(١٠٧) •

وكان من أهـم النتائج التي ترتبت على اسـقاط أول امارة صليبية في المنطقة سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م بيد صاحب الموصل ، شعور المسلمين وأمرائهم بامكانياتهم على مجابهة الصليبيين وبقدرتهم على اسقاط بقية الامارات الصليبية وفعلا تم ذلك حيث انهارت الواحدة تلو الاخرى ، كمـا أدى الى القضاء على الحواجـز التي أقامها

(105) Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 235.

(١٠٦) عاشور : الحركة الصليبية جـ٣ ص٦٠٤ ،
Crousset: Croides, Vol. 11, P. 176.

(١٠٧) اتجه عمادالدين زنكي الى آمد ، وأظهـر انه يعتزم حصارها ليوهم غربة جوسلين الثاني عدم تفرغه للهجوم على الصليبيين حينذاك ، فغادر الامير الصليبي امارته على رأس قواته ، تاركا حماية الرها لسكانها من الارمن والسريان والنساطرة واليعاقبة ، فأسرع عمادالدين زنكي بالتوجه الى الرها حيث استعانوا «على السرعة بركوب النجائب» وفرض الحصار عليها ، .ولم ينجد جوسلين الثاني من الامراء الصليبيين سوى (ميلزاند) الوصية على امارة بيت المقدس ، وقد وصلت نجدتها بعد فوات الاوان ، حيث دخلت قوات المسلمين المدينة وتسلمها عمادالدين زنكي من القس اليعقوبي برصوما انظر ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص٤٠ ، التاريخ الباهر ص٦٧ــ٦٨ •

Gibb: S.V. Zengi and the Fall of Edessa, Vol. 11, P. 235;
Runciman: Op. Cit., Vol., 11, P. 236.

الصليبيون في هذه المنطقة والتي أعاقت الاتصال بين سلاجقة أسيا الصغرى وسلاجقة العراق وبلاد فارس(١٠٨) •

كما نبه سقوط امارة الرها ، الصليبين الى خطورة الاوضاع في الجزيرة الفراتيـة وبلاد الشام ، فنشطوا في الدعـوة الى حملة صليبية جديدة عرفت فيما بعد بالحملة الصليبية الثانية ، وقيام (ريموند) امـير انطاكية بعقـد حلف مع الامبراطـور البيزنطي (مانويل) واعـــلان تبعيته لـه فوعده هـــذا بمساعدتـــه ضد المسلمين(١٠٩) •

ومن النتائج المهمـة الاخرى التي حققهـا فتح امـارة الرها الصليبية ، توطـد العلاقات بـين عمادالدين زنـكي والسلطان السلجوقي والخليفـة العباسي حيث عـززت مكانتـه لديهم(١١٠) ، وكذلك بالنسـبة لامراء المسلمين في الجزيرة الفراتيـة أو في بلاد الشام ، فقد رفعت منزلته لديهم وصاروا يهابونه ويخافونه ، الامر الذي دفع حسام‌الدين تمرتاش الارتقي صاحب ماردين ، للتعاون مع الصليبيين بشأن حماية قلعة البيرة الحصينة المطلة على الفرات ، وهي من أهـم الحصون التابعة للصليبيين ، فقد سلمها هـؤلاء الى صاحب ماردين خوفا من مهاجمة عمادالدين زنكي لها(١١١) •

وتحدثنا المراجـع عن نشاط التركمان في مساندتهـم لجيوش صاحب الموصل في محاربة الصليبيين ، ففي ٥٢٤هـ/١١٢٩م وصل الى حلب الأمير مســعود بن سوار بن ايتكين ، أحد أمـراء التركمان

---

(108) Runciman: Op. Cit. Vol. 11, P. 238.

(109) Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 238.

(١١٠) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٢٨٤ •

(١١١) ابن القلانسي : نفس المرجع السابق ص٢٨٠ ، ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص٤١ـ٤٢ ، التاريخ الباهر ص٧٠ـ٧١ •

المحاربين ، حيث اجريت له الاقطاعات الكثيرة ونصب حاكما في ولاية حلب واعمالهـا ، وكان ذا شجاعة واقدام في قتـال الفرنج(١١٢) • وهناك أمير تركماني آخر يدعى (لجة التركي) اتخذه عمادالدين زنكي قائدا في جيشه لقتال الصليبيين(١١٣) • ويذكر ابن الاثير ان عمادالدين زنكي نقل طائفة من التركمان مع اميرهم (الياروق) الى بلاد الشام «وأسكنهم ولاية حلب وأمرهم بجهاد الفرنج ، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهـم ، وأخذوا كثيرا من السواد وسدوا ذلك الثغر العظيم ، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم الى نحو سنة ستمائة»(١١٤) •

وبتوجيه من عمـادالدين زنـكي قام هؤلاء التركمـان بشن الغارات الموفقة ضد جيوش الصليبيين ومعسكراتهم ومراكز تجمعهم وقوافلهم ، وقـد استمر نشاطهم العسـكري حتى سـنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م فاوقعوا خلاله خسـائر فادحة بحصن الاثـارب(١١٥) وتل باشر(١١٦) وعزاز(١١٧) ، كما هاجموا اللاذقية(١١٨) والمناطق القريبة من انطاكية(١١٩) •

وقد استمر امراء الجزيرة الفراتية بعد سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م وهي السنة التي قتل فيها عمادالدين زنكي ، على التصدي للصليبيين ومهاجمة اماراتهم ففي ٥٤٣هـ/١١٤٨م قام الصليبيون بالحملة الثانية بزعامة كونراد الثالث (ملك ألمانيا) ولويس السابع (ملك

---

(١١٢) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٢ ص٢٤٥ •
(١١٣) ابن العديم : نفس المرجع السابق ص٢٧٥ •
(١١٤) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص٨٠ •
(١١٥) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٢ ص٢٤٧ •
(١١٦) ابن العديم : نفس المرجع السابق ص٢٥١ •
(١١٧) ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ج١ ص٤ •
(١١٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشـق ص٢٥٥-٢٥٦ ، ابن الاثير : الكامل ج١١ ص١٦-١٧ •
(١١٩) ابن العديم : نفس المرجع السابق ج٢ ص٢٧٥-٢٧٦ •

فرنسا) والامير جوردان كونت (دي تولوز) وريمونـد الثاني (صاحب طرابلس) للاستيلاء على دمشق(١٢٠) ، فاستنجد حاكمها معين‌الدين آنر بسيف‌الدين غازي صاحب الموصل(١٢١) ، فوافاه الاخير بجيش كبير(١٢٢) ، وكان يستهدف فضلا عن صد الصليبيين ضم دمشق اليـه(١٢٣) • غير ان معين‌الدين انر رفض ذلك وهدد الصليبيين بتسليم دمشق الى صاحب الموصل الذي بات يهدد المدينة في حالة اصرارهم على الوقوف ضده(١٢٤) ، فانسحب الجيش الصليبي عن محاصرتها(١٢٥) •

وواصل الاتابكيون في الموصل (سيف‌الدين غازي) وفي بلاد الشام (نورالدين محمود) سياستهم في محاربة الصليبيين والوقوف ضد تقدمهم ففي ٥٤٤هـ/١١٤٩م اشتركت قوات الموصل مع غيرها من العساكر الاسلامية في صد الهجوم الذي قام به ريموند صاحب انطاكية على مدينة حلب واعمالها ، حيث هزم المسلمون عسكر الصليبيين في (أنب) وهو حصن من أعمال اعزاز(١٢٦) •

سياسة الاتابكيين تجاه الخطر الصليبي بعد وفاة سيف‌الدين غازي صاحب الموصل في أواخر سنة ٥٤٤هـ/

---

(١٢٠) أبو شامة : كتاب الروضتين ج١ ص١٣٨ ، عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٦٣١-٦٣٢ •

(١٢١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ قسم ٢ ص١٩٧ ، ١٩٨ •

(١٢٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص٨٩ ، سبط ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ص١٨٩ •

(١٢٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٨٩ ، أبو شامة : نفس المرجع السابق ص١٣٨ •

(١٢٤) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص١٣٠ •

(١٢٥) ارنست باركر : الحروب الصليبية (طبعة مصر ١٩٦٠) ترجمة الباز العريني ص٩٦ •

(١٢٦) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص٢٠٥-٢٠٦ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ قسم ٢ ص٢٠١ •

unciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 326-327, 328.

١١٤٩م ، معرفة العلاقات السياسية والعسكرية فيما بينهم فقد كاتب بعض الامراء ومنهم عبدالملك صاحب سنجار نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي صاحب دمشق وحلب لتسليم امارة الموصل وسنجار اليه ليحكمها بدلا من أخيه قطب‌الدين مودود(١٢٧) • وقد تم لنورالدين محمود الاستيلاء على مدينة سنجار وتهيا للزحف نحو الموصل وانفق مع فخرالدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا لمساعدته في ذلك(١٢٨) •

أما قطب‌الدين مودود صاحب الموصل فقد استعد لمواجهة قوات أخيه التي أخذت تهدد امارته(١٢٩) ، وفي اللحظة الاخيرة عقد صلح بينهما ، يبدو انهما وضعا في الحسبان الخطر الصليبي الذي كان يتهددهم بالاضافة الى أطماع السلاجقة في امارتيهما(١٣٠) ، وكان هذا الوفاق ، قد وضع اساسا متينا بين الاخوين للتعاون المشترك في الوقوف ضد الصليبيين في بلاد الشام(١٣١) •

أما في ٥٥٩هـ/١١٦٤م فقد شاركت جيوش كل من قطب‌الدين مودود صاحب الموصل وفخرالدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ونجم‌الدين‌البي صاحب ماردين(١٣٢) بالتصدي للحلف‌الصليبي الذي دعا اليه ، بوهيمند الثالث أمير أنطاكية وريموند الثالث أمير

---

(١٢٧) ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص١٣٩ ، الباهر ص٩٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ٢ ص٢٩٦ ، ابن واصل : مفرج الكردب جـ١ ص١١٨ •

(١٢٨) ابن الاثير : الباهر ص٩٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ٢ ص٢٩٧ •

(١٢٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٩٦ ، ابو شامة : الروضتين جـ١ ص ١٧٣ ، ابن العديم : نفس المرجع السابق ص٢٩٧ ، ابن واصل : نفس المرجع السابق ص١١٩ •

(١٣٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٩٦ •

(١٣١) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٩٦-٩٧ ، أبو شامة : نفس المرجع السابق جـ١ ص١٧٣ •

(١٣٢) ابن الاثير : نفس المرجع ص١٢٢ ، ١٢٣ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ قسم ٢ ص٢٤٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب جـ٢ ص٣١٨ •

طرابلس وقسطنطين كولومان حاكم قيليقية البيزنطي والامير الارمني توروس الثاني(١٣٣) • وقد دارت معركة شديدة بين الجيوش الاسلامية التي كان معظمها من الجزيرة الفراتية وبين الصليبيين الذين كانوا يستهدفون مدينة حارم ، وأسفرت هذه المعركة عن اندحار الصليبيين وتفرقهم(١٣٤) ، كما تعرضت امارة طرابلس الصليبية بعد اسر نورالدين محمود صاحب دمشق لاميرها ريموند الثالث سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م الى حملة عسكرية مشتركة تضم قوات كل من صاحب دمشق وقوات أخيه قطب‌الدين مودود صاحب الموصل حيث اتجهت قواتهما الى الشمال الشرقي من طرابلس ، فاستولت على مدينة عرقة الواقعة الى الشرق من طرابلس ، ثم حاصرا جبله وهي قلعة مشهور ، قرب اللاذقية ، واستوليا على المدن المجاورة مثل العريمة وصافيتا(١٣٥) •

أما في ٥٦٧هـ/١١٧١م فقد انتهك الصليبيون الهدنة التي كانوا قد عقدوها مع نورالدين محمود صاحب دمشق ، باستيلائهم على بضائع التجار المسلمين(١٣٦) لذلك أعد صاحب دمشق العدة لقتالهم ، فاجتمعت الجيوش من الجزيرة الفراتية والشام ، وراحت تتعرض لامارة طرابلس ومدنها وتحدث فيها الخراب والتدمير ، حتى اضطر الصليبيون الى اعادة ما انتهبوه من البضائع واذ عنوا في طلب تجديد الهدنة(١٣٧) •

---

(١٣٣) ابن الاثير : نفس المرجع ص١٢٤ ، عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٦٨٥ •

(١٣٤) ابن الاثير : نفس المرجع ص١٢٤ ، أبوشامة : الروضتين ج٢ ص٣٤١ •
Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 369.

(١٣٥) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص٣٢٧-٣٢٨ ، أبو شامة : الروضتين ج٢ ص٣٧٤ •
Setton: A History of the Crusades, Vol. 1, P. 525.

(١٣٦) ابن الاثير : الباهر ص١٥٤ •
Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 395.

(١٣٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٥٤-١٥٥ ، أبو شامة الروضتين ج٢ ص٥١٦ •
Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 395.

٥ ـ العلاقات بين صلاح‌الدين الايوبي وأمراء الجزيرة الفراتية :

أشار ابن واصل الى ما يفيد بأن صلاح‌الدين الايوبي ، كان يكن شعورا بالكراهية للبيت الاتابكي وقد جاء ذلك على ما يبدو بسبب ما كان يداخل صلاح‌الدين من شعور بعدم جدية الاتابكيين في الوقوف ضد الصليبيين في الشام وبلاد الجزيرة الفراتية «فلو استمرت ولاية هؤلاء القوم ـ وهم الاتابكيون ـ تفرقت الكلمة وطمعت الكفار في البلاد»(١٣٨) لذلك أخذ صلاح‌الدين يطالب في وراثة نورالدين محمود بعد وفاته ، مبررا مطالبته هذه بالعمل على توحيد البلاد والوقوف ضد الصليبيين(١٣٩) .

وقد تم لصلاح‌الدين الايوبي سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م بعد رحيله من مصر في سبعمائة فارس من فرسانه الاشداء ، الاستيلاء على دمشق(١٤٠) ومعظم المدن المجاورة مثل حمص وحماة(١٤١) ، ثم زحفت جيوشه الى حلب(١٤٢) لاحتلالها ولكنه أخفق بالاستيلاء عليها وذلك لان امراءها ، استعانوا بالصليبيين(١١٣) والاسماعيلية(١١٤) ضده .

وكان من نتيجة استيلاء صلاح‌الدين الايوبي على دمشق وحمص وحماة وبعلبك ومحاولاته اخضاع حلب ، قيام سيف‌الدين غازي الثاني صاحب الموصل بجمع العساكر من الموصل وبلاد

---

(١٣٨) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص١٨ .
Grousset: Op. Cit., Vol. 11, P. 621.

(١٣٩) ابن واصل : نفس المرجع السابق ص١٨ .

(١٤٠) ابن شداد : سيرة صلاح‌الدين (مطبعة مصر ١٩٣٤ ـ تحقيق الدكتور جمال‌الدين الشيال) ص٥٠ .

(١٤١) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ قسم٢ ص٣٢٨ .

(١٤٢) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص٤١٨ ، أبو شامة : الروضتين ج٢ ص٦٠٩ .
ابن واصل : نفس المرجع السابق ج٢ ص٢٣ .

(١٤٣) عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٧٤٤ .

الجزيرة واعداد العدة لعبور الفرات والتصدي لمسيرة صلاح الدين الايوبي العسكرية في المنطقة(١٤٥) • ولكن ما ان التى الفريقان حتى هزم جيش الموصل وتقدم صلاح الدين الايوبي نحو حلب فحاصرها(١٤٦) •

غير أنه عقد اتفاقا مع الحلبيين ، فسحب جيوشه طبقا لذلك(١٤٧) • وقد زاد هذا الاتفاق من العداء القائم بين صلاح الدين الايوبي وسيف الدين غازي صاحب الموصل ، مما جعل الاخير يسعى الى تحريض أمراء حلب ضد صلاح الدين الايوبي واخراجه من بلاد الشام(١٤٨) ثم راح يعبيء الجيوش لملاقاة جيش صلاح الدين ، فانضم اليه الامراء نورالدين محمود بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وقطب الدين ايلغازي بن البي صاحب ماردين وأخوه عمادالدين زنكي صاحب سنجار بالاضافة الى الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق(١٤٩) •

أما الحلبيون فقد اتفقوا مع الصليبيين ، وأطلقوا سراح أمرائهم وهم أرناط وجوسلين أمير الرها(١٥٠) •

---

(١٤٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١١ ص٤١٩ ، أبو شامة : نفس المرجع السابق ص٦١٠ •

(١٤٥) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١١ ص٤٢٠ ، ابن واصل : نفس المرجع السابق ج٢ ص٣٠ •

(١٤٦) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١١ ص٤٢٢ •
Grousset: Op. Cit., P. 626.

(١٤٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١١ ص٤٢٢ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص٥١ •

(١٤٨) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٣٣٢ ، أبو شامة : الروضتين ج٢ ص٦٤٧ •

(١٤٩) ابو شامة : نفس المرجع السابق ج٢ ص٦٤٧ ، ابن شداد : نفس المرجع السابق ص٥١ ، سبط ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ج٨ ص٣٣٣ •

(150) Cahen: La Syrie du Nord, P. 416; Runciman: Op. Cit., Vol. 11, P. 408.

وكان يقود الجيوش المتحالفة صاحب الموصل ، حيث التقى بجيش صلاح الدين الايوبي فأوقع هذا الاخير الهزيمة المنكرة بجيوش غرمائه سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م(١٥١) وبذلك أصبح الطريق أمامه يسيرا للمضي الى حلب والاستيلاء عليها فضلا عما يحيط بها من القلاع والمدن مثل «بزاعة» و «منبج» و «قلعة اعزاز»(١٥٢) . ومن النتائج المهمة التي ترتبت على انتصارات صلاح الدين الايوبي، تفكك الحلف المناوىء له وعقد الصلح الذي دخل فيه الملك الصالح صاحب دمشق وسيف الدين غازي صاحب الموصل وصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين .

وبعد وفاة سيف الدين غازي صاحب الموصل في ٥٧٦هـ/١١٨٠م خلفه أخوه عز الدين مسعود(١٥٣) فطلب أمراء عز الدين مسعود ومنهم مجاهد الدين قايماز من صلاح الدين الايوبي تجديد الصلح السابق الذي كان قد عقده مع أبيه سيف الدين غازي ، غير أن صلاح الدين الايوبي أشار عليهم بالرجوع الى الخليفة لتقرير ذلك فقال «ونحن نرى رأينا فيما نعتمده بعد مطالعة الديوان في ذلك»(١٥٤) ويبدو ان الخليفة العباسي أقر حكم أتابكية الموصل الى عز الدين مسعود ، مما لم يدع مجالا لصلاح الدين الايوبي بالاعتراض .

---

(١٥١) ابن شداد : نفس المرجع السابق ، ص٥٢ ، سبط ابن الجوزي : نفس المرجع السابق جـ٨ ص٣٣٤ .

(١٥٢) ابن الاثير : نفس المرجع السابق جـ١١ ص٤٣٠ ، سبط ابن الجوزي : نفس المرجع السابق جـ٨ ص٣٣٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص٣٤ ، ٤٦ .

(١٥٣) ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص٤٦٣ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٢ قسم ٢ ص٣٦٤ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢١٨ .

(١٥٤) محمد تقي الدين عمر : مضمار الحقائق وسر الخلائق (تحقيق الدكتور حسن حبشي القاهرة ١٩٦٨) ص٤٤ .

وفي ٥٧٧هـ/ ١١٨١م ضمت حلب الى أتابكية الموصل بعد وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين(١٥٥) ، ولكن لم يلبث صاحب الموصل أن تنازل عنها في السنة التالية الى عمادالدين زنكي صاحب سنجار، خوفا من تسليم الاخير امارته الى صلاح‌الدين الايوبي(١٥٦)، وكان الاخير يترقب سير الاحداث عن كثب في بلاد الشام والجزيرة الفراتية . ويجد في الاستيلاء على الامارات والمدن وتوحيدها للوقوف بوجه الخطر الصليبي الذي كان يتعاظم في تلك المنطقة(١٥٧) ، ولذلك اغتنم فرصة وفاة الملك الصالح ابن نورالدين محمود وتوجه من مصر الى بلاد الشام ثم قرر السير الى حلب ، كما مهد لاستيلائه على بلاد الشام والموصل وامارات الجزيرة الفراتية ، فأرسل كتابا الى الخليفة العباسي الناصر لدين‌الله، يعلمه بالاخطار المحدقة بالامارات الاسلامية ، تلـك الاخطار المنبعثـة من وجود الصليبيـين في المنطقة(١٥٨) .

ونشط صلاح‌الدين الايوبي ، عندما وقف على ما كان يجري بين عزالدين مسـعود صاحب الموصل والصليبيـين من اتصالات ، مفادها حث صاحب الموصل الصليبيين على قتال صلاح‌الدين الايوبي ومهاجمة الثغور الاسلامية(١٥٩) . وقد انضم مظفرالدين كوكبري

---

(١٥٥) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١١ ص٤٧٣ ، سبط ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ج٨ قسم ٢ ص٣٦٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٠٧ـ١٠٨ .

(١٥٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص٣٠ ، Grousset: Op. Cit., Vol. 11, P. 685.

(١٥٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٤٨٧ ، محمد تقي‌الدين عمر : مضمار الحقائق وسر الخلائق ص٩٦ . Grousset: Op. Cit., P. 715.

(١٥٨) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٤٧٨ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٢ ص٩٥ .

(١٥٩) محمد تقي‌الدين عمر : نفس المرجع السابق ص٩٦ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٢ ص٩٤ـ٩٥ .

صاحب حران الى صلاح الدين الايوبي(١٦٠) · وفي ٥٧٨هـ/١١٨٢م، راحت كتائب صلاح الدين الايوبي تحاصر مدينة حلب ، ثم نزلت جيوشه في البيرة وكان صاحبها شهاب الدين الارتقي مواليا له ، كما انضم الى صلاح الدين الايوبي نور الدين بن قرا أرسلان الارتقي، صاحب حصن كيفا . وتوجه بعد ذلك الى الرها ، فحاصرها ، مما أضطر صـــاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفـــراني الى تسليمها له(١٦١) ، وانتزع مدينة الرقة بالقوة من قطب الدين ينال بن حسان، المنبجي ، كما استولى على اقليم الخابور(١٦٢) ومدينة نصيبين(١٦٣) ، ولم يبق له الا التوجه نحو الموصل واخضاعها للانصراف بتصفية، الامارات الصليبية فسارت جيوشه نحـو المدينة وفرضت الحصار، حولها ، ولكن بدون ان تحقق أية نتيجة(١٦٤) ·

وعلى أثر ذلك أخذ صاحب الموصل يستنجد بالخليفة العباسي، لوقف هجمات صلاح الدين الايوبي على امارته ، فسعى الخليفة الى، عقد صلح بين الطرفين ، ولكن مساعيه فشلت في اقناعهما بعقد هذا الصلح(١٦٥) ، اذ قـــرر صلاح الدين الايوبي الاســـتيلاء على مدينة، سنجار لاضعاف الموصل · وقد استطاعت قواته اقتحامها بعد حصار شديد لها(١٦٦) · لذلك رأى عزالدين مسعود ، ان خير وسيلة لضمان،

---

(١٦٠) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص٥٦-٥٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢ ص١٢٦ ·

(١٦١) ابن واصل : نفس المرجع السابق ص١١٧ ، ابن خلكان : نفس المرجع، السابق ص٩٠ ·

(١٦٢) ابن خلكان : نفس المرجع السابق ص٩٥ ·

(١٦٣) ابن واصل : نفس المرجع السابق ص١٢٨ ، أبوالفداء : المختصر في اخبار البشر جـ٥ ص٨٧ ·

(١٦٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٤٨٥ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢١٨ ·

(١٦٥) ابن خلكان : نفس المرجع السابق جـ٢ ص٩٥ ·

(١٦٦) ابن واصل : نفس المرجع السابق جـ٢ ص١٢٣ ، ابن الاثير : نفس المرجع، السابق جـ١١ ص٤٨٨ ·

سلامة امارته من تهديداه صلاح الدين الايوبي ، هي الاتفاق مع سكمان ظهير الدين بن سكمان القطبي شاه أرمن صاحب خلاط ، وقد استجاب هذا الاخير لدعوة صاحب الموصل بانجاده ، حيث أخذ يهدد صلاح الدين الايوبي الذي لم يعبأ لهذا التهديد(١٦٧) واستمر بالزحف نحو رأس العين فما كان من الحلف المكون من صاحب الموصل وصاحب خلاط وصاحب ماردين وصاحب بدليس وأرزن الا أن تفرق لانهم خافوا من الاشتباك مع قوات صلاح الدين الايوبي ، حيث كانوا يجهلون عددها وعدتها(١٦٨) ٠

وفي ٥٧٨هـ/١١٨٢م تقدم صلاح الدين الايوبي بقواته نحو باقي حصون الجزيرة الفراتية لاخضاعها ، فاستولى على حصن آمد وضمه الى امارة حصن كيفا(١٦٩) ، وفي طريقه نحو حلب التي كان يستهدفها في كل مرة ، اخضع (تل خالد) و (عين تاب) وهما قلعتان تابعتان لامارة حلب(١٧٠) ٠ وفي ٥٧٩هـ/١١٨٣م استولى على حلب التي كانت تشكل أهمية كبيرة لديه(١٧١) ، ثم بدأ يعد العدة للاستيلاء على الموصل ٠ وكان نواب مجاهد الدين قايماز الذي كان يحكم أربل وجزيرة ابن عمر وشهرزور ودقوقا وقلعة عقر الحميدية ، قد أعلنوا طاعتهم الى صلاح الدين الايوبي وذلك لاقدام عزالدين مسعود صاحب الموصل باعتقال مجاهد الدين قايماز وبنتيجة ذلك

---

(١٦٧) ابن الاثير : نفس المرجع ج١١ ص٤٨٨-٤٨٩ ، ابن واصل : نفس المرجع ج٢ ص١٣٢-١٣٣ ٠

(١٦٨) محمد تقي الدين عمر : نفس المرجع ص١١٤ ، ابن الاثير : نفس المرجع ج١١ ص٤٨٩ ٠

(١٧٠) تل خالد : قلعة من نواحي حلب : ياقوت معجم البلدان ج١ ص٤٠٥ ، وعين تاب : قلعة حصينة بين حلب وانطاكية : ياقوت : نفس المرجع السابق ج٤ ص١٧٦ ٠

(١٧١) ابن الاثير : نفس المرجع ج١١ ص٤٩٧ ، ابن واصل : نفس المرجع ج٢ ص١٤٠ ٠

أصبحت كل من اربـل وجزيرة ابن عمر تابعتـين الى صلاح الدين الايوبي(١٧٢) ٠

ولم تثمـر محاولات الخليفــة العباسي في عقد صـلح بين صلاح الدين الايوبي وعزالدين مسعود صاحب الموصل ٠ وبذلك نشط عزالدين مسـعود الى اسـترداد أربل وجزيرة ابن عمـر من قبضة صلاح الدين الايـوبي ، ولدن مظفرالدين كوكبـري صاحب أربل كسر الجيش الذي أرسله عزالدين مسعود بقيادة مجاهدالدين قايماز أحد أمـراء أتابكة الموصل الذي كان قد أطلـق سراحه من السجن(١٧٣) ٠

ويشير ابن الاثير الى ما كان يجري بـين مظفرالدين كوكبري وصلاح الدين الايـوبي من مراسلات يحثه فيها على اخضـاع امارة الموصل الى نفوذه ، فتقدم صلاح الدين الايوبي نحو حران والرها ٥٨١هـ/١١٨٥م وانتزعهمـا من مظفرالدين كوكبـري لتواطئه عليه، ثم توجه نحو رأس العين وواصل مسيرته الى دنيسر، على الرغم من التهديد الذي تلقاه من قلج أرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم بالوقوف ضده في حالة تقدمه نحو الموصل وماردين(١٧٤) ٠

وذكر ابن واصل مضمون الرسالة التي بعث بها صلاح الدين الايوبي للخليفة العباسي مبررا عمله في الاستيلاء على الموصل ، لأن أهلها يخطبـون للسلطان السـلجوقي وينقشون السـكة باسمه ويراسلون الصليبيين ، وانه لم يأت لاجل الازدياد في الملك وانما ردهم الى طاعة الخليفة وقطعهم عن مواصلة العجم(١٧٥) وخاصة في

---

(١٧٢) ابن الاثير : نفس المرجع ج١١ ص٥٠٠ ، ابن واصل : نفس المرجع السابق ج٢ ص١٥٤ ٠

(١٧٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١١ ص٥٠٤ ٠

(١٧٤) ابن الاثير : نفس المرجع ج١١ ص٥١١ ، وانظر أيضا : ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص١٦٥ ٠

(١٧٥) ابن واصل : نفس المرجع السابق ج٢ ص١٦٦ ٠

هذه الفترة التي انتعشت فيها الخلافة العباسية وأخذ يتحسر ظل السلاجقة .

وعلى الرغم من اشتراك عدد من الافراد في جيش صلاح الدين الايوبي لغرض احتلال الموصل ، لكنه عجز عن تحقيق ذلك واضطر الى رفع الحصار عنها للمرة الثانية(١٧٦) .

وعزم صلاح الدين الايوبي في السنة نفسها ٥٨١هـ ، على اخضاع امارة الموصل واقدم على محاولته الثالثة التي كان مصيرها الفشل أيضا مما اضطره الى عقد صلح مع عزالدين مسعود ، أمير الموصل ، حصل صلاح الدين الايوبي بموجبه على ضم أعمال الموصل وشهرزور اليه وقطع الخطبة باسم السلاطين السلاجقة وضرب السكة باسمه(١٧٧) .

وكان من أهم نتائج هذا الاتفاق ان خسرت الموصل كيانها كامارة مستقلة وأصبح أتابك الموصل واحدا من نواب صلاح الدين الايوبي فضعفت الدولة الاتابكية وتقلص ظلها وأوشكت على الزوال حيث انحصرت في رقعة صغيرة من أرض الموصل ، كما تضمن الاتفاق تعهد عزالدين مسعود صاحب الموصل في المشاركة بعساكره وأمواله في الجهاد الذي يتزعمه صلاح الدين الايوبي ضد الصليبيين(١٧٨) فاشتركت القوات الموصلية في معركة طبرية وحطين وفتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ(١٧٩) ، وفي ٥٨٦هـ اشتركت في حصار عكا(١٨٠) .

---

(١٧٦) ابن الاثير : نفس المرجع السابق جـ١١ ص٥١٥ـ٥١٦ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ قسم ٢ ص٣٨٣ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٢ ص٩٥ .

(١٧٧) ابن الاثير : نفس المرجع جـ١١ ص٥١٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص١٧٢ .

(178) Iane Poole: History of Egypt in Middle Ages, "London, 1955", P. 207.

(١٧٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق جـ١١ ص٥٢٤ـ٥٣٨ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص٧٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص١٨٧ـ١٨٨ .

(١٨٠) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص١٢٢ .

وتقدم صاحب الموصل بارسال مجموعة من الاسلحة وكميات من النفط الابيض الى صلاح الدين الايوبي ، كما ارسل جماعة من الحجارين والحفارين للمساهمة في تحصين مدينة بيت المقدس وتعميق خندقها(١٨١) ٠

وبعد وفاة صلاح الدين الايوبي في دمشق سنة ٥٨٩هـ دخلت علاقات الاتابكيين في بلاد الجزيرة الفراتية مع الايوبيين حتى نهاية القرن السادس الهجري في مرحلة جديدة اتسمت باستغلال الاتابكيين للصراع القائم بين خلفاء صلاح الدين الايوبي ، فكانوا يتحالفون مع طرف ضد الآخر ، وقد كاتب عزالدين مسعود سنة ٥٨٩هـ أصحاب الاطراف وامراء المدن بضرورة استرداد ما استولى عليه صلاح الدين الايوبي من اماراتهم وممتلكاتهم في الجزيرة الفراتية(١٨٢) ، غير ان هؤلاء لم يستجيبوا لدعوته لابقائه ضعيفا أمامهم فلا يطمع ببلادهم

على أن عزالدين مسعود ، أخذ يعبيء قواته ويتجه نحو نصيبين وتل موزن لغرض الاستيلاء على مدينة الرها وانتزاعها من الملك العادل أخي صلاح الدين الايوبي(١٨٣) ولكن الطرفين استجابا لعقد الصلح بينهما(١٨٤) ٠ وفي ٥٩٤هـ حاصر الملك العادل مدينة ماردين ، وظل محاصرا لها حتى سنة ٥٩٥هـ حيث استدعي الجيش المصري الذي كان يشارك في الحصار وذلك بعد ان استقر في حكم البلاد المصرية الملك الافضل(١٨٥) الذي يكن لعمه الملك العادل

---

(١٨١) العماد الاصفهاني : الفتح القسى في الفتح القدسى ص٢٣١ـ٣٢ـ٤٠٠ ، ابن الاثير : نفس المرجع ١٢/٧٤ ٠

(١٨٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص١٨٥ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ قسم ٢ ص٤٣٥ ٠

(١٨٣) سبط ابن الجوزي : نفس المرجع السابق ص٤٢٥ ٠

(١٨٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٨٤ ٠

(١٨٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص٤١ ٠

العداء[186] . وقـد أشار ابن الاثير الى تأليب الملك الافضـل لاصحاب الاطراف وامـراء المدن في الجزيرة الفراتيـة ضد الملك العادل وسياسته في المنطقة[187] ولكن على الرغم من ذلك فقد استمر الملك العادل صاحب دمشق في سياسته العسكرية التي كانت ترمي الى الاستيلاء على مزيد من المدن والامارات ، مما اثار عليه الملك الظاهر صـاحب حلب ونورالدين آرسلان شاه صـاحب الموصل وحسام الدين تمـرتاش صاحب ماردين ، فسعوا الى تكـوين حلف لمواجهة اطماعـه في المنطقة ، ولكن عقد الصلح بينهـم في ٥٩٧هـ قضى على الصراع الذي كان وشيك الوقوع بينهم[188] .

أما في الفترة الواقعة بين ٥٩٩ـ٦٠١هـ ، فقد استمر الصراع العسكري بين الملك العادل صاحب دمشق ونورالدين أرسلان شاه صاحب الموصل وقطب الدين محمد صاحب سنجار من جهة ، وبين الامراء الاراتقة بصورة عامة من جهة أخرى ففي ٥٩٩هـ وصلت طلائع جيوش الملك العادل صاحب دمشق يقودها ابنه الملك الاشرف موسى ، لتحاصر ماردين احدى الامارات الارتقية المهمة وانجدتها كتائب من قوات الموصل وسنجار[189] . وبذل الاراتقة جهودا لقطع خط الرجعة على الجيوش المشتركة ، الايوبية والاتابكية ، ولكنهم لم يفلحـوا ، حيث استمر الحصار العسـكري والاقتصادي ، وعلى الرغم من ذلك فان الجيوش المحاصرة لم تصل الى نتيجة حاسمة ، مما دعى الملك الاشرف موسى الى طلب المال لقاء انهاء الحصار ، وتدخل الملك الظاهـر صاحب حلب في أمـر الصلح ، حيث تعهـد صاحب ماردين بدفع مقدار من المال سنويا وأن يضرب السكة باسمه ويخطب

---

(١٨٦) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٩٤ .

(١٨٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج١٢ ص١٤٨ .

(١٨٨) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص١٩٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص ١٢٧ .

(١٨٩) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص١٧٩ .

للايوبيين ببـلاده ، وبعد عقد الصلح تفرقت العسـاكر الى بلادها ورحل الملك الاشرف الى حران(١٩٠) ٠

٦ ـ موقف الاراتقة من الصليبيين :

وقف آراتقـة الجزيرة الفراتيـة الذين كانوا يتركـزون في امارات ثلاث هي امارة ماردين وامارة حصن كيفا وامارة خرتبرت في الفترة الواقعـة بين ٤٩١ـ٥٠٧هـ ، وقفـوا الى جـانب القوى الاسلامية الأخرى في منطقة الجزيـرة والشام ضد الغزو الصليبي الذي كانت تتعرض له هذه المنطقة ، حتى ان الاراتقة خسروا أمام الصليبيين احدى معاقلهم المهمة وهي مدينة سروج ، حيث استولى عليها بلدوين لي بور(١٩١) ٠

أما بعد سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م فقد دخل الاراتقة في حلف مع الصليبيين في حربهم ضد المسلمين واستمر ذلك حتى سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م ، وكان السبب في تحول سياستهم ، يعود الى مهاجمة الامراء السلاجقـة لممتلكات الاراتقة مما جعلهم يؤيدون مـوقف طغتكين صاحب دمشق في مناوئته للسلاجقة والتجائه للصليبيين(١٩٢) ٠

وفي الفترة ما بين ٥١٣ـ٥١٨هـ تبوأ الاراتقة مركز الزعامة في قتـال الصليبيين في الجزيرة الفراتية وشمال الشـام ، حيث تم استيلاء الاراتقة على حلب وتمكنـوا من تسديد الضربات المتتالية للقوى الصليبية المتدفقـة على تلك المنطقة ٠ أما بعـد تصدر عمادالدين زنكي لحركة الجهاد ضد صليبيي الجزيرة الفراتية وبلاد الشام ، فقـد انصرف الاراتقـة عن التصدي لهؤلاء وانهمكـوا في مشكلاتهم وأمورهم الداخلية والدفاع عن ممتلكاتهـم التي كانت

---

(١٩٠) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص١٨٠ ٠

(191) Runciman: Op. Cit., Vol. P. 209.

(١٩٢) ضياءالدين بن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٤٩ـ١٥٦ ٠

تتعرض للهجوم بين حين وآخر من القوى الاسلامية المنافسة لهم ، وقد دام ذلك حتى سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م(١٩٣) .

ومنذ النصف الثاني من القرن السادس الهجري اتجه الاراتقة صوب معاداة الصليبيين واسهموا من جديد في حركة الجهاد ضدهم وخاصة بعد مقتل عمادالدين زنكي ، حيث انقسمت امارته الى امارتين في الموصل وحلب بقيتا ترفعان حركة الجهاد ضد الصليبيين، وقد احتل الاراتقة الجهات الواقعة بينهما .

وكان موقعهم هذا يفرض عليهم الوقوف ضد الصليبيين ، فيذكر ابن القلانسي تحشيد الامراء الاراتقة لتركمان الاطراف وقيادتهم والانتصار الذي حققوه على الجيوش الصليبية بالاشتراك مع قوات نورالدين محمود صاحب دمشق سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م وقد كان للقوى التركمانية تأثيرها الكبير في قتال الصليبيين(١٩٤) ، وفي ٥٥٣هـ/١١٥٨م انجد الاراتقة ، نورالدين محمود ضد الصليبيين ، حيث حقق في هجومه عليهم نصرا حاسما ، فقد أسر فيه بوهمند الثالث أمير انطاكية وريموند الثالث كونت طرابلس وجوسلين الثالث(١٩٥) .

أما في ٥٧٨هـ/١١٨٢م فقد أيد الاراتقة خطوة صلاح الدين الايوبي في مهاجمة الموصل بسبب موالاتها للصليبيين(١٩٦) ، كما

---

(١٩٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ ص١٨٩ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ١٧ أ ـ ١٧ب .

(١٩٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ٢ ص٢٨١ .

(١٩٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٢٩٩ـ٣٠١ـ٣٠٤ .

(١٩٥) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ٢ ص٣١٨ـ٣٢٢ ، ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص١٢٢ـ١٢٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب جـ١ ص١٤٣ـ١٤٥ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ قسم ٢ ص٢٤٦ـ٢٤٨ .

Gibb: The Career of Nur-ad-din, Op. Cit., Vol. 1, 524; Runciman, Op. Cit., Vol. II, P. 369.

(١٩٦) ابو شامة : كتاب الروضتين جـ١ ص٢٥٤ .

استجابت قوات الاراتقة سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م لدعوة صلاح الدين الايوبي في قتال الصليبيين(١٩٧) وفي حصار الصليبيين لمدينة عكا سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م تقدمت القوات الارتقية مع قوات صلاح الدين الايوبي لانقاذ المدينة من الخطر الصليبي(١٩٨) •

واستمر الاراتقة ينجدون الايوبيين في وقوفهم ضد الصليبيين بعد وفاة صلاح الدين الايوبي ، حيث استمر ذلك طيلة السنوات ٥٨٩ـ٦٠٨هـ/١١٩٣ـ١٢١١م(١٩٩) •

---

(١٩٧) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص٤٨ـ٤٩ ، ابن الاثير : الكامل ج١١ ص ٢١٥ •

(١٩٨) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص٧٦ـ٧٧ـ٧٨ ، ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص١٥ـ١٧ ، ابو شامة : كتاب الروضتين ج٢ ص١٤٤ـ١٤٥ •

(٢٠٠) ابن الاثير : الكامل ج١٢ ص٥٣ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ قسم ٢ ص٥٤٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص١٧٢ـ١٧٥ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص١٢٠ـ١٢١ •

الفصـــل الثـــاني

التقاليد والنظم السياســية

مفهوم التقاليد (سلطاتها ومجالاتها ورسومها)

١ ـ التقاليد السياسية :

٢ ـ النظم السياسية ٠

أ ـ الاتابكية ٠

ب ـ الوزارة ٠

جـ ـ الكتابة ٠

د ـ الحجابة ٠

الفصل الثاني

التقاليد والنظم السياسية

مفهوم التقاليد (سلطاتها ومجالاتها ورسومها)

١ ـ التقاليد السياسية :

كان أمراء الجزيرة الفراتية في بداية القرن السادس الهجري يحكمون دويلاتهم واماراتهم كمقطعين (بالفتح) باسم السلاجقة ، حيث يستمدون سلطتهم ونفوذهم من السلطان السلجوقي ، ولا يتولى هؤلاء الأمراء الحكم الا بعد أن يقترن بموافقة السلطان ، وصار لزاما عليهم أن يتقيدوا بواجباتهم تجاه خدمة السلاجقة ٠ وقد أصبح ذلك تقليدا يسير عليه الاتابكة والاراتقة ٠ اما اذا فشل أمير من هؤلاء في تأدية واجباته ، أوجد السلاجقة زميلا آخر منهم سائرا اليه بأمر السلطان يخضع اقليمه ويعيد النظام فيه ، وأحيانا يسير السلطان بنفسه للسيطرة على الموقف اذا تفاقم الخطر، لذلك اجتهد هؤلاء الأمراء قدر طاقتهم للاحتفاظ باماراتهم(١) ٠

---

(١) انظر الدكتور محمد حلمي محمد احمد : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص٢٠٣ ٠

وكان السلاجقة يعهدون للأتابكة بتربيه أبنائهم وتدريبهم على الحيـــاة السياسية ، فيذكر ابن الاثير ، أن تـــولى الأتابك جيوش بك امارة الموصل سننة ٥٠٧هـ لم يتم الا بعد أن تقرر من جهة السلطان السلجوقي محمد ، حيث سير معه ولده الملك المسعود ليربيه(٢) • كمـــا طلب عزالدين مســـعود بن البرســـقي ، ان يوليه السلطان الســـلجوقي سنة ٥٢٠هـ ممـــا كان بيد ابيـــه الذي قتل فأجابه الى ذلك وأقره على ما كان لأبيه من الأعمال وعهد اليه تربية أحد بنيه(٣) • وتولي عمادالدين زنكي الموصل وبعض ديار الجزيرة ونصيبين وما كان بيد البرسقي سنة ٥٢١هـ بعد أن تقدم القاضي بهاءالدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري الى السلطان بتوليته ، فمال السلطان السلجوقي أكثر من غيره الى توليته وعهد اليه بتربية ولديه (ألب أرسلان وفروخ شاه المعروف ب «الخفاجي»)(٤) •

ومن التقاليد التي سار عليها السلاجقة ، انهم اذا عهدوا لأحد بالولاية على امارة أو مدينة من بـــلاد الجزيرة الفراتية ، يعطونه علاة التسليم ويكتب لـــه منشور(٥) ، فلما توفي البرســـقي صاحب الموصل سنة ٥٢٠هـ رأى السلطان محمود أن يقطعها الى عمادالدين زنكي دون غـــيره لمكانته وشجاعته ، وكتب لـــه منشورا بهـــا سنة ٥٢١هـ(٦) •

كمـــا أضيفت الى عمادالدين زنـــكي بعض منـــاطق الجزيرة ومنحه السلطان محمـــود لقب أتابك وأرسل الخليفة اليـــه «العهد والعقد» كما جرت التقاليد(٧) •

---

(٢) ابن الاثير : الباهر ص١٩ـ٢٢ •
(٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٣٢ •
(٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٣٥ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص٣١٥ـ٣١٦ ، جـ٢ ص٧٩ـ٨٠ •
(٥) ابن الاثير : الباهر ص٧٢ •
(٦) ابو شامة : كتاب الروضتين (تحقيق الدكتور محمد حلمي احمد) ص٢٩ ـ ٣٠ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٣ ص٥٠٠ •

وقد أخذ الاتابكيون بهذا التقليد ، بعد أن أخضعوا أغلب امارات الجزيرة • ولم يوضح ابن الاثير ما يتعلق بعلامة التسليم أو ما يكتب في المنشور ، ولكن من المحتمل جدا أن يتضمن المنشور تخويلا غير مطلق لحكم الامارة بالنيابة •

وقد ذكر المؤرخ محمد تقي‌الدين عمر الأيوبي ، وصول رسول مجاهدالدين قايماز يخبر بموت الاتابك سيف‌الدين غازي صاحب الموصل سنة ٥٧٥هـ وجلوس أخيه عزالدين مسعود مكانه «وكان الرسول فخرالدين أبو شجاع بن الدهان البغدادي ومعه نسخة اليمين التي حلف السلطان له بها»(٨) •

واستمر السلاجقة يقرون تولية الاتابكيين في مناصبهم بعد عمادالدين زنكي ، ففي ٥٤١هـ أرسل أمراء عمادالدين زنكي الى «السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف‌الدين غازي» فأقره على البلاد وأرسل له الخلع •

وذكر ابن الأثير ان سيف‌الدين غازي قد لازم خدمة السلطان مسعود أيام أبيه سفرا وحضرا وكان السلطان «يحبه كثيرا ويأنس به ويبسطه ، فلما خوطب في اليمين وتقرير البلاد لم يتوقف»(٩) •

وفي النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، عندما استعادت الخلافة هيبتها بانحسار ظل السلاجقة منذ عهد الخليفة الناصر لدين‌الله العباسي ٥٧٥ـ٦٢٢هـ ، أخذ أصحاب الأطراف والأمراء ، يعترفون بالسيادة الروحية والزمنية للخلافة فيقدمون للخليفة الدعاء في المساجد ويشترون منه ألقابهم ، ويرسلون اليه الهدايا في مختلف المناسبات ، كما كان الأمراء في مخاطباتهم الرسمية

---

(٧) ابو شامة : كتاب الروضتين ص٣٣ ، ٤٢ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جـ٥ ص٢٧١ـ٢٧٥ •

(٨) محمد تقي‌الدين عمر الايوبي : مضمار الحقائق وسر الخلائق ص٤٣ •

(٩) ابن الاثير : الباهر ص٨٦ •

وفيما بينهم يتكلمون عن الخليفة أمير المؤمنين بكل احترام ويعبرون عنه بمولانا . ويضع الواحد منهم نفسه من الخليفة موضع المولى ، وكان أحدهم اذا كتب لآخر افتتح كتابه بالكلام عن الخليفة من نحو «كتابي ٠٠٠ مولانا أمير المؤمنين ، سالم موفور الله على ذلك محمود مشكور»(١٠) وجاء في الرسالة التي وجهها الأتابك عزالدين مسعود بن ارسلان شاه صاحب الموصل الى الخليفة ما يفيد ، بجعل ولائه للخليفة في «القلوب توأم الايمان حتى لا يضمر أحد الا ولاءه وايمانه»(١١) وكتب صلاح الدين الايوبي الى الخليفة الناصر لدين الله عندما اتم تحرير القدس من أيدي الصليبيين قائلا « وما دامت السيوف ناطقة في يد الخادم فالألسنة عنها ناطقة»(١٢) وهذه اشارة الى وضع صلاح الدين الايوبي نفسه بمثابة الخادم يأمره الخليفة فيطيع ٠ كما وضع بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل نفسه من الخليفة موضع العبد(١٣) ، ذلك لأن الخليفة كان يمثل رمزا للمؤسسات الدينية ، ومركزا للوحدة الوطنية للعالم الاسلامي ، فضلا عن تمتعه بالسيادة الروحية العليا ٠

وكان الأتابكة باستئذانهم الخليفة في الأمور السياسية التي كانت تعرض لهم ، انما كانوا يهدفون الى اضفاء صفة الشرعية على حكمهم ٠ ففي ٥٦٦هـ أرسل الأتابك نورالدين محمود رسولا الى الخليفة المستضيء بأمرالله يستأذنه في الاستيلاء على الموصل «وأن يأخذ له أذنا في ذلك ، وأنه متمثل لما يرد عليه منه»(١٤) وبعد الفراغ من الاستيلاء على الموصل اهدى نورالدين محمود ابن أخيه سيف

---

(١٠) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٣ ص٤٠٣ وانظر : آدم متز : الحضارة الاسلامية جـ١ ص٢٠٢ ٠

(١١) ضياءالدين بن الاثير : رسائل ابن الاثير ص٢٤٢ـ٢٤٣ ٠

(١٢) ضياءالدين بن الاثير : نفس المرجع السابق ص٦٠ ٠

(١٤) ابو شامة : كتاب الروضتين (تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد احمد) جـ٢ ص٤٧٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص١٩١ ٠

الدين غازي صاحب الموصل ، خلعة الخليفة المستضيء بامرالله وألبسه اياها(١٥) • وفي ٥٦٨هـ أرسل نورالدين محمود ، القاضي كمال‌الدين الشهرزوري الى الخليفة المستضيء بأمرالله ، يطلب تقليده البلاد التي كانت بيده وهي مصر والشام والجزيرة والموصل ، فوافق الخليفة وأرسل له التقليد بحكم هذه البلاد(١٦) •

ويبدو أن أمراء الجزيرة الفراتية الأتابكيون منهم والاراتقة، حافظوا على تقاليدهم هذه ، في طلب موافقة الخليفة العباسي على حكمهم ، خلال القرن السادس الهجري ، فعند وفاة الأتابك القاهر عزالدين مسعود صاحب الموصل أقر حكم الموصل لابنه نورالدين أرسلان شاه ، وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة وفيه التشريفات لهما(١٧) •

وكان الأراتقة يخطبون باسم الخليفة العباسي والسلاطين السلاجقة ويضربون السكة باسمهم ويعلنون لهم الطاعة والخضوع الاسمي ، هذا فضلا عن وضع قواتهم تحت تصرف السلاجقة ، كما كانوا الى جانب ذلك يدفعون لهم الضرائب النقدية السنوية مثل ما هو سائد في النظام الاقطاعي خلال القرن السادس الهجري(١٨) •

وكان أمراء الاتابكة والاراتقة ، يبادرون الى «تحليف» الاتابك أو الامير الجديد ، كما يحلفون له ، وقد أصبح ذلك تقليدا دائما يسيرون عليه خلال القرن السادس الهجري ، وهو يقابل في وقتنا

---

(١٥) ابن الاثير : الباهر ص١٥٤ ، العيني : عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ج٢١ ص٤٧٠ •

(١٦) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص٣٩٥ •

(١٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١٢ ص١١٨ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢٣١ •

(١٨) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص١٢١ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص١٤٧ •

الحاضر ـ ما ندعـــوه (باليمين الدستورية) التي يؤديهـــا كبار الموظفين كالوزراء ومن سواهم ٠

وقد أشار ابن الاثير الى ذلك بقوله «لما توفي سيفالدين غازي، كان أخوه قطبالدين مودود بالموصل ، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له ونزل بدار المملكة وحلف له الأمراء والأجناد واستقر في الملك»(١٩) ٠

وفي ٥٦٥هـ أحضر قطبالدين مودود صاحب الموصل ، الامراء «واستحلفهم لولده سيفالدين غازي الثاني»(٢٠) ٠ كما أرسل سيف الدين غازي الى سنجار من استحضر اليه شمسالدين بن عبدالملك وهو أحد مماليكه وكان متوليا سنجار اذ ذاك وحلفه على أنه لا يمكن أياه من تسـليم سنجار الى غيره فحلف له(٢١) ، هـــذا فضلا عن أن الاتابكيين كانـوا يجددون العهود لاولياء عهدهم ويأمـرون بأخذ الميثاق على كافة الاولياء من الأجناد والأمراء والاعيان والاماثل والعلماء والافاضل(٢٢)، ويبدو ان هذا التقليد قد شاع فيالاتابكيات الاخرى ، فيشير سبط ابن الجوزي الى «تولى الملك الصالح اسماعيل ابن نورالدين محمود صاحب دمشق فحلف له الامراء والمقدمون(٢٣) ٠

وكان الأتابكيون والاراتقة يستشيرون أمراءهم فيما يعرض لهم من أمور وغالبا ما يأخذون برأيهم أو يرفضونه ، فيذكر ابن الأثير ، ان الاتابـك سيفالدين غازي أراد أن يعهد بالحـكم لابنه معزالدين سنجر شاه (وكان عمره حينئذ اثنتيعشرة سنة) فأشار الأمراء ومجاهدالدين قايمـاز ، وهو أحد أكابر دولته بـأن يجعل الملك بعده في أخيه ، لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل

---

(١٩) ابن الاثير : نفس المرجع ص٩٤٢ ٠
(٢٠) ابن الاثير : نفس المرجع ص١٤٦ ٠
(٢١) ابن الاثير : نفس المرجع ص٩٧ ٠
(٢٢) ابن الاثير : نفس المرجع ص٢٠٢ ٠
(٢٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ قسم ٢ ص٢٠٤ ٠

وقوة النفس وحسن سياسة الملك ، وأن يعطي ابنيه بعض البلاد ففعل ذلك وحلف الناس لاخيه(٢٤) ، وفي ٥٧٩هـ/١١٨٣م أشار الاميران عزالدين محمود زلفدار وشرفالدين أحمد بن أبي الخير وهما من أكابر الامراء على الاتابك عزالدين مسعود صاحب الموصل بالقبض على وزيره مجاهدالدين قايماز والتخلص منه ففعل ، ولكنه عاد فأفرج عنه وخلع عليه وأعاده الى ولاية قلعة الموصل(٢٥) ٠

وفي ٥٧٧هـ/١١٨١م استقدم الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين محمود ، الامراء والاجناد وأوصاهم بتسليم حلب الى ابن عمه عزالدين مسعود بن مودود صاحب الموصل واستحلفهم على ذلك ٠ ولكن الامراء لم يوافقوه وأشاروا عليه بأن يوصى بها لابن عمه عمادالدين زنكي صاحب سنجار ، غير أن الملك الصالح لم يعمل بمشورتهم ، فلما توفي ارسلوا الى عزالدين مسعود يستدعونه لتسليمه حلب(٢٦) ٠

وكان الأتابكيون ينيبون عنهم أكابر أمرائهم في أداء اليمين ويخولونهم عقد معاهدات الصلح واجراء المفاوضات أو الاتصال بالخليفة في بغداد ٠

ففي ٥٧٦هـ/١١٨٠م خول الاتابك عزالدين مسعود صاحب الموصل ، مجاهدالدين قايماز وهو أحد أكابر أمرائه ، الاتصال بصلاحالدين الايوبي ، فأوفد مجاهدالدين قايماز الفقيه أبا شجاع ابن الدهان البغدادي ، وطلب اليه القيام بتجديد الصلح بين عزالدين مسعود وصلاحالدين الايوبي وزوده برسالة منه الى صلاح الدين جاء فيها ما يشير الى شفاعة الخليفة العباسي بتولي عزالدين

---

(٢٤) ابن الاثير : نفس المرجع ص١٨١ ، أنظر ايضا سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ قسم ٢ ص٣٦٤ ٠

(٢٥) ابن الاثير : نفس المرجع ص١٨٤ ٠

(٢٦) ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص٤٧٣ ، ابن شداد : سيرة صلاحالدين ص٥٥ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ قسم ٢ ص٣٦٧ ٠

مسعود بعض بلاد الجزيرة الفراتية ، كما جاء فيها ان الخليفة قد فوض مجاهدالدين قايمــاز ليفعل ما يراه من المصلحــة في هذا الشأن(٢٧) ٠

وفي ٥٩٦هـ وأثناء النزاع الاتابكي الأيوبي(٢٨) حول مناطق الشام والجزيرة الفراتية ، وصــل نورالدين أرسلان شاه صاحب الموصل بقواته الى مدينة رأس العين في محاولة للتصدي لقوات الملك الفائز ابن الملك العادل صاحب دمشق لتخليص بعض المدن والمناطق التي وقعت بحوزة الايوبيين ، فانبرى الملك الفائز يرغب في الصلح فأرسل من معـــه من أكابـــر الامـــراء «يرغبـــون في الصلح ويشيرون به فاقتضت المصلحة اجابتهم الى ما طلبوا ، فصالحهم على ما بأيديهم وضمنوا له أن يحلفوا له الملك العادل وحلفوا له على ذلك فأرسل نورالدين أرســلان شاه الى الملك ، القــرار الذي اتخذ بهذا الشأن وسار مع رسوله أمير كبير من عند ولده الملك الفائز ، فحلف له واتفقا واستقرت القواعد وأمنت البلاد(٢٩) ٠

كما أن الاتابكيين كانوا يستنجدون بالخليفة العباسي ويطلبون تدخله لفض النزاعات التي كانت تنشب بينهم أو تلك التي كانت

---

(٢٧) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ٨ قسم ٢ ص٣٦٥ ٠

(٢٨) يمكن ان نصطلح بذلك على الفترة الواقعة بين ٥٨٧هـ/١١٨٢م حتى نهاية القرن السادس الهجري ، وتبدأ بتحرك قوات صلاح‌الدين الايوبي من مصر متجهة صوب بلاد الشام ، بعد ان بلغه اتصال الاتابك عزالدين مسعود صاحب الموصل بالصليبيين وتحريضـــهم على الوقوف ضد صلاح‌الدين الايوبي ومهاجمة الثغور الاسلامية لاشغاله عن قصد بلاد الاتابكيين ، وقد انضم الى جانب صلاح‌الدين الايوبي مظفـــرالدين كوكبري صاحب اربل وواصل صلاح‌الدين تقدمه نحو مدن الجزيرة الفراتية واستولى على بعضها وهدد امارة الموصل وفرض الحصار حولها ، انظر : محمد تقي‌الدين عمر : مضمار الحقائق وسر الخلائق ص٩٦ـ٢٠١ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٢ ص٩٤ـ٩٥ ، رشيد الجميلي : دولة الاتابكة في الموصل بعد عمادالدين زنكي ص١٣٦ ٠

(٢٩) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص١٩٦ ٠

تتقوم مع غيرهم وخاصة مع صلاح الدين الايوبي ، ففي ٥٧٨هـ ارسل الاتابك عزالدين مسعود صاحب الموصل ، القاضي بهاءالدين ابن شداد الى الخليفة الناصر لدين الله يستنجد به ويطلب تدخله لمنع صلاح الدين الايوبي عن بلاده فأرسل الخليفة الى صدرالدين شيخ الشيوخ وكان آنذاك بصحبة صلاح الدين الايوبي ويشير الخادم وأنضم اليهما القاضي محيي الدين الشهرزوري وأمرهم بالتوسط في الصلح بين الطرفين(٣٠) .

النظم السياسية :

أ ـ الأتابكية :

ظهرت أتابكية الموصل في مطلع القرن السادس الهجري عندما نال عمادالدين زنكي هذا اللقب سنة ٥٢١هـ من قبل السلطان السلجوقي محمود(٣٢) ، وأصبح الامراء الذين حكموا بعده يعرفون باسم الاتابكة ، كذلك ظهر مفهوم سياسي محدد للاتابكية ، اذ كان الاتابكة يحكمون من الناحية الرسمية باسم السلاطين السلاجقة ، وكانوا يظهرون للخلفاء والسلاطين وأصحاب الاطراف ، ان البلاد التي يحكمونها ، «انما هي للملك ألب أرسلان» وانهم نواب فيها ، فكان عمادالدين زنكي اذا أرسل رسولا أو أجاب على رسالة فانما

---

(٣٠) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص٥٠٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١٥٥ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين الايوبي ص٥٧ .

(٣١) جمع أتابك ، لفظ تركي مركب من (أتا) بمعنى (أب) و (بك) بمعنى (أمير) وكلمة أتابك معناها الامير الوالد (ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص٣١٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٧٧٩) وقال القلقشندي : «وليس للاتابك وظيفة ترجع الى حكم وأمر ونهي وغايته رفعة المحل وعلو المقام ، وكان الاتابك يكلف من قبل السلطان الحاكم بالوصاية على واحد أو أكثر من أبنائه الذين لم يبلغوا سن الرشد» صبح الاعشى ج٤ ص١٨ .

(٣٢) أبو شامة : كتاب الروضتين (تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد احمد) ص٣٣،٤٢ .

يقول : قال الملك : «كذا وكذا»(٣٣) ، ذكر ابن الاثير سنة ٥٣٩هـ «ان الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود بن محمد كان عند عمادالدين زنكي وهو أتابكة ومربيه ، وكان يظهر للخلفاء وللسلطان مسعود وأصحاب الاطراف ، ان البلاد التي بيده، انما هي للملك ألب أرسلان وأنه نائبه فيها»(٣٤) .

ولكن السلطة الحقيقية كانت متركزة بيد الاتابك الذي كان يحكم البلاد ، حيث لم يكن لاحد من أبناء السلاطين الذين كانوا يربونهم الاتابكة ، أية سلطة عملية ، بسبب صغر سنهم وعدم استطاعتهم الحكم لضعفهم .

وتمثل النظام الأتابكي في المشرق الاسلامي على عهد السلاجقة بظهور أتابكيات أخرى الى جانب أتابكية الموصل على المسرح السياسي هي :

---

(٣٣) ابن الاثير : الباهر ص٧١ .
(٣٤) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٧١ .
(٣٥) ومؤسسها محمد خوارزم شاه بن نوشتكين ، وكان نوشتكين هذا مقربا لسلاجقة بلاد فارس وقد عين السلطان بركياروق بن ملكشاه ابنه محمد حاكما على اقليم خوارزم ولقب ب (الشـــاه) واستطاع هذا الاخير توسيع اتابكيته فشملت دولة الخطا والعراق العجمي ، وذلك بعد القضاء على آخر سلطة السلاجقة في العراق سنة ٥٩٠هـ . وفي عهد ابنه علاءالدين منكبرتي (٥٩٦ـ٦٢٨هـ) توسعت رقعة اتابكية خوارزم ، فشملت بلاد ما وراء النهر وبعض الاقاليم على المحيط الهندي وغزنة الواقعة غربي نهر السند . وعرفت هذه الاتابكية فيما بعد باسم الدولة الخوارزمية التي سقطت على أيدي المغول بعد مقتل جلال‌الدين منكبرتي في جبال كردستان سنة ٦٢٨هـ (الذهبي : دول الاسلام جـ٢ ص١٠١) .
(٣٦) ومركزها (مرند) احدى مدن اذربيجان . ومؤسسها سقمان القطبي الذي كان مملوكا للحاكم السلجوقي في تلك المناطق ، قطب‌الدين اسماعيل . وقد ضمت اليها مدينة خلاط سنة ٤٩٣هـ . وفي ٦٠٤هـ استولى نجم‌الدين أيوب ابن الملك العادل على هذه الاتابكية .
(ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص١٢٦ـ١٢٧ ، حافظ احمد حمدي : الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي) ص١٠٨ .

أتابكية خوارزم (٤٩٠ــ٢٦٨هـ)(٣٥) وأتابكية أرمينية (٤٦١ــ٦٠٤هـ)(٣٦) وأتابكية اذربيجان (٥٣١ــ٦٢٢هـ)(٣٧) وأتابكية فارس (٥٤٣ــ٦٨٦هـ)(٣٨) وأتابكية دمشق (٤٩٧ــ٥٤٩)(٣٩) وهناك أتابكيات أخرى صغيرة(٤٠) .

ويرجع ظهور هذه الاتابكيات الى النظام الاقطاعي السلجوقي(٤١) .

وأشار ابن الاثير الى اهتمام السلاجقة بمنح الالقاب لهؤلاء الاتابكة الذين كانوا يديرون بلادا واسعة ، مما يدل على علو منزلتهم لدى السلاجقة واعتمادهم المطلق عليهم ، فقد لقب والد

---

(٣٧) وتقع في اقليم أران (أرانية) في شمال اذربيجان ، وكان مؤسسها ايلدكز احد مماليك السلطان السلجوقي مسعود . شملت هذه الاتابكية معظم بلاد اذربيجان وبلاد الجبل وهمدان وأصفهان ، وقد استطاع جلال‌الدين منكبرتي سلطان الدولة الخوارزمية الاستيلاء عليها سنة ٦٢٢هـ (ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص٣٨٨ــ٣٨٩ ، جـ١٢ ص٤٣٦ــ٤٣٧) .

(٣٨) اسسها (سلفر) قائد احدى القبائل التركمانية التي هاجرت الى خراسان وانضمت الى قوات طغرلبك السلجوقي . وفي عهد سنقر بن‌مودود التركماني تم الاستيلاء على اقليم فارس سنة ٥٤٣هـ وعلى كرمان ، ثم اتخذت شيراز عاصمة لهذه الاتابكية . وقد خضعت لجنكيزخان ثم لهولاكو أبان الغزو المغولي لشرق العالم الاسلامي (حافظ حمدي : الشرق الاسلامي ص١٠٩ــ١١٠) .

(٣٩) وتنسب الى ظهيرالدين طغتكين وهو أحد قواد الجيش السلجوقي ومملوك السلطان تتش . وقد استمرت هذه الاتابكية الى سنة ٥٤٩هـ حيث استولى عليها نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي وانتزعها من صاحبها مجيرالدين ابن محمد بن بوري بن طغتكين (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص١٢٤، ابن الاثير : الكامل جـ١١ ص٩٧) .

(٤٠) مثل اتابكية اربل واتابكية جزيرة ابن عمر في بلاد الجزيرة وأتابكية لورستان وأتابكية كرمان في بلاد المشرق .

(٤١) الدكتور محمد حلمي محمد احمد : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص٢٠٣ــ٢٠٤ .

عمادالدين زنكي في عهد السلطان السلجوقي ملكشاه بلقب (قسيم الدولة) اذ «كانت الالقاب حينئذ مصونة لاتعطى الا لمستحقيها»(٤٢) •

وذكر القلقشندي أن أول من تلقب بلقب أتابك(٤٣) هو وزير السلاجقة نظام الملك ، حيث فوضه السلطان ملكشاه بن الب أرسلان ، تدبير المملكة في ٤٦٥ هـ(٤٤) • ونتيجة لتطبيق نظام الملك للاقطاع العسكري(٤٥) ، أخذ الامراء المقطعون الذين هم الأتابكة والاراتقة في الجزيرة الفراتية ، يستقلون باقطاعاتهم ويعلنون انفصالهم بالتدريج عن الدولة السلجوقية ، وصاروا يتخذون الالقاب لانفسهم(٤٦) •

ولكن السلاجقة توسعوا في منح هذا اللقب بحيث أنهم أسبغوه على كبار رجال الدولة وقواد الجيش وبذلك أصبح من ألقاب الشرف في الدولة السلجوقية(٤٧) •

ب ـ الوزارة :

الوزارة مؤسسة سياسية تمثل أعلى المناصب في الدولة السلجوقية على نحو ما كانت عليه أيام العباسيين فكان الوزير يعمل

---

(٤٢) ابن الاثير : الباهر ص٤ •

(٤٣) والاتابكة هم من المماليك الاتراك يجلبون من بلاد القفجاق بواسطة النخاسين الذين كانوا يختطفونهم أحيانا وهم أطفال ويرسلونهم الى أسواق النخاسة المنتشرة في أقاليم الدولة العباسية ، حيث يقبل الخلفاء والامراء على شرائهم ويستخدمونهم في بلاطهم لحسن منظرهم وجمال خلقتهم ويربى بعضهم في قصور السلاطين السلاجقة الوظائف الحكومية ، كما يستخدمون في الجيش السلجوقي نظرا لما عرف عنهم من قوة البدن وتعودهم على النظام البدوي •

(٤٤) القلقشندي : صبح الاعشى جـ١ ص١٦٧ ، جـ٤ ص١٨ •

(٤٥) انظر فصل الاقطاع •

(٤٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٢٨٤ ، الدكتور محمد حلمي محمد احمد : الخلافة والدولة ص٢٠٣ •

(٤٧) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٣٤٣ •

كمستشار وناصح للسلطان فضلا عن اشرافه على جميع مرافق الدولة وشؤونها المختلفة • واقتبس الاتابكة والاراتقة ما طبقه السلاجقة فيما يتعلق بمنصب الوزارة وطبيعته السياسية والادارية وحدود اختصاصاته • وقد زاد هؤلاء اهتمامهم بهذا المنصب حتى غدا يضم صلاحيات وسلطات عملية واسعة ، مما أوجد أساسا لنظام الوزارة الايوبية ـ المملوكية فيما بعد ، فأشار القلقشندي الى ما يفيد بأن جذور النظم الايوبية ـ المملوكية تعود الى العصر الاتابكي في الموصل وحلب ، فيقول «ان الدولة الايوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها في الديار المصرية خالفتها في كثير من ترتيب المملكة ••• وجرت على ما كانت عليه الدولة الاتابكية بالموصل وبلاد الشام»(٤٨)، حيث كان منصب الوزير في الموصل(٤٩) من المناصب المهمة فقد استوزر الاتابك سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي ٥٤١ـ٥٤٤هـ/١١٤٦ـ١١٤٩م جمال الدين بن علي الاصفهاني(٥٠) كما ان خليفته قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي ٥٤٤ـ٥٦٥هـ/١١٤٩ـ١١٦٩م قد استوزره أيضا فأصبح «مشرفا لمملكته كلها فحفظ الدولة»(٥١) • واتخذ الملك الاتابكي سيف الدين غازي الثاني ٥٦٥ـ٥٧٦هـ/١١٦٩ـ١١٨٠م أبا الحسن جلال الدين وزيرا له «ومكنه في ولايته وفوض اليه أمور دولته ، فظهرت منه كفاية وبدا منه معرفة بقواعد الدول وأوضاع الدواوين وتقرير الامور واطلاع على دقائق الحسابات وعلم بصناعة الكتابة الحسابية(٥٢) •

---

(٤٨) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص٥ •
(٤٩) ويسمى (وزير الموصل) ابن الساعي : الجامع المختصر ج٩ ص١٦٦ •
(٥٠) ابن الاثير : الباهر ص٨٦ •
(٥١) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١١٨ـ١١٩ •
(٥٢) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٧٧ •

وأشار ابن الاثير الى طبيعـة منصب الوزير في العهد الاتابكي بقوله : ان الملك القاهر عزالدين مسعود بن نورالدين أرسلان شاه ٦٠٧ـ٦١٥هـ/١٢١٠ـ١٢١٨م كان يسـعى الى الحصول على من يشد أزره بمن يجعله له وزيرا وعلى ما فوض اليه من أعباء المملكة ظهيرا ليكون مدبرا لدولته وناظـرا في مهام مملكته ونائبا عنه في ولاية رعيته(٥٣) ٠

ويبدو أن الصـلاحيات التي كان يمارسها وزيـر الاتابكة ، تشابه في طبيعتها الى حد ما كان يمارسه وزراء خلفاء بني العباس وخاصة المتأخرين منهم(٥٤) ، حيث لم تكن تقتصر على الاشراف على أوضاع الدواوين والنظر في الامور المالية ، بل تجاوزتها الى الامور السياسية والعسكرية ٠ وقد أوضح ابن الفوطي ذلك بقوله :

«ان فخرالدين كان من أعيان أهل الموصل وأكابرها ، وكان مقدما عند بدرالدين لؤلؤ أمير الموصل فاستوزره وفوض أموره اليه واعتمد في جميع مهماته»(٥٥) ٠ ولكن تدل الاشارات على أن الوزير كان يخول النظـر في الامور المالية وخزانة الدولة ، أكثـر من أية صلاحيات أخرى ، فقـد كان الوزير تاج‌الدين محمـد بن نصر يوزع الهبات والعطايا وبيده أموال الرفد والمساعدات المالية(٥٦) ، وربما كانت تتجاوز الى الاشراف على توزيع رواتب الجند والموظفين والقادة العسكريـين ٠ ولذلك أصبح يلزم على الوزيـر أن يكون صاحب كفايـة ومقدرة وعفة(٥٧) ، وأن يكـون من ذوي الاخلاق

---

(٥٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٢٠٣ ٠

(٥٤) انظر حول الوزارة في العصر العباسي الاخير (ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص٣١٩ـ٣٣٩) ٠

(٥٥) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ج٤ قسم٣ ص١٧١ ٠

(٥٦) ابن الاثير : الباهر ص١٧٧ ، محمد بن يوسف الكنجي القرشي : كفاية الطالب في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (طبعة النجف) المقدمة ص٣ ٠

(٥٧) ابن الاثير : الباهر ص١١٨ ٠

العالية والشرف الرفيع ، وأن تتوفر فيه الصرامة ورجاحة العقل والشهامة(٥٨) .

وكان غالبا ما ينوب عن الوزير في الديوان شخص آخر ، يخوله انجاز مهامه لسبب ما ، فقد أشار ياقوت الى أن وزير الاتابكة جلال الدين أبا الحسن علي بن جمال‌الدين الاصفهاني ، قد أناب عنه في ديوان الموصل أبا السعادات المبارك محمد بن محمد بن الاثير(٥٩) .

وورد عن الاتابكة أنهم كانوا يستوزرون ممن شغل وظيفة سابقة في الديوان وأثبت دراية وكفاية فيه ، فقد ندب نورالدين أرسلان شاه ٥٨٩ـ٦٠٧هـ/١١٩٣ـ١٢١٠م الى وزارتـه المبارك ابن محمد بن الاثير الذي كان قبل ذلك قد تولى ديوان الجزيرة ، أي جزيرة ابن عمـــر(٦٠) كما جاء عن الاتابكة أيضا ، انهـــم كانوا يعتمدون بعض الاشخاص من أصحاب العلم والادب والفقه ولهم دراية بعلم الديوان ويجعلونهم بمثابـة المستشارين ولقد أسماهم ابن الفوطي بأنهـم كانوا من المرشحين لتـولي منصب الوزارة(٦١) ولكنهم ليسوا وزراء ، مثل أبي السعادات المبارك ابن الاثير الذي

---

(٥٨) القرشي : كفاية الطالب ص٣ .

(٥٩) ياقوت : معجم الادباء ج٦ ص٢٣٨ .

(٦٠) ابن الساعي : الجامع المختصر ج٩ ص٢٩٩ ، ياقوت : معجم الادباء ج٦ ص٢٣٨ .

(٦١) كان المبارك بن احمد بن المستوفي المؤرخ المشهور المتوفي سنة ٦٣٧هـ قد قصد الموصل وأقام فيها وله راتب يصل اليه من أمير الموصل وكانت له معرفة بعلم الديوان وضبط قوانينه وحسابه ، وقد ولى نظر الديوان في أربل وكانت له خلة شبيهة بالوزارة . ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ج٥ (المنشور في مجلة (Ooriental College Magazine) ـ الهند ـ تصحيح وتعليق الحافظ محمد عبدالقدوس ـ ١٩٤٠ ـ العدد ١ ص٢٦٤) ، وانظر أيضا ياقوت : معجم الادباء ج١ ص١٨٦ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٣ ص٢٩٧ ، السيوطي : بغية الوعاة (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط١) ج١ ص٢٢٧ .

كتب لامراء الموصل وكانوا يحترمونه ويعظمونه ويستشيرونه وكان بمنزلة الوزير الناصح الا انه كان منقطعا الى العلم(٦٢) ٠

ولم يتأيد لنـا استيزاز الاتابك الواحد لعـدد من الوزراء في اختصاصات مختلفة على الرغم من اشغال جمال‌الدين الاصفهاني وزير الاتابك عمادالدين زنكي منصب الوزارة طيلة عهد الاتابك المذكور وأشارت المصادر الى قيام عدد من الوزراء في هذه الفترة مثل الكفرتوثي ٥٢٨ـ٥٣٦هـ/١١٣٣ـ١١٤١م وأبي الرضا بن صدقة ٥٣٦ـ٥٣٨هـ/١١٤١ـ١١٤٣م وأبي الغنائم حبشي ٥٣٨ ـ٥٤١هـ/١١٤٣ـ١١٤٦م ، وقد ذكر ابن خلـكان انه لما اعطى جمال‌الدين الاصفهاني ذلك المنصب كان الوزير يومئذ الكفرتوثي، ولما تولى في الوزارة بعده أبوالرضا بن صدقة «بقي جمال‌الدين على وظائفه»(٦٣) مما يجعلنا نعتقد بأن منصب جمال‌الدين كان ثابتا وصلاحياته عامة شاملة،فيما تكون سلطة الوزير قاصرة وصلاحياته محدودة ، وقد أشار ابن الاثير الى ذلك بأن عمادالدين زنكي جعل جمال‌الدين الاصبهاني الذي هو ليس وزيرا بل «مشرف مملكته كلها وحكمه تحكيما لا مزيد عليه»(٦٤) ٠

ويبدو ان استناد جمال‌الدين الاصبهاني الى قوة عمادالدين زنكي وحبه لـه وثقته به جعله في مركز أقوى من مراكـز الوزراء الذين كانوا يرتابون به ويتحاشون من الاصطدام معه ٠ وقد ألقي

---

(٦٢) اتخذ المماليك وزراء لهم ، كانوا يقومون بمثل هذه المهمة ، فهم بمثابة الاستشاريين ، وقد وصفهم القلقشندي بقوله «انهم ليسوا وزراء وان كان الجاري على السنة العامة اطلاق لفظ الوزير عليهم» صبح الاعشى جـ١ ص ١٨٨ ، وانظر أيضا :

The Encyclopaedia of Islam Art, Badr-al-Din, Lulu, P. 40. (K.P. Zettersteen).

(٦٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٤ ص٢٢٨ ٠

(٦٤) ابن الاثير : الباهر ص١١٨ـ١١٩ ، انظر ايضا ابن خلكان : وفيات الاعيان نفس المرجع السابق جـ٤ ص٢٢٨ ٠

ابن الاثير ضوءا مهما على الصلاحيات العملية التي كان جمال الدين الاصبهاني يمارسها ، حيث (كان له من الكفاية والنظر في صغير الامور وكبيرها والمحاققة فيها ما يدل على تمكنه من الكناية)(٦٥) • كما تشير المصادر الى أن عمادالدين زنكي عود جمال الدين الاصبهاني «في الاشراف على ديوانه وزاد راتبه(٦٦) ومكنه في منصبه»(٦٧) •

واستوزر الاتابكيون بعض الاشخاص ممن قدموا لهم خدمات سياسية تركت تأثيرها في نفس الامير ، يذكر ابن الاثير ، أن سيف الدين غازي الأول كافأ جمال الدين الاصفهاني بجعله وزيرا له وذلك لحسن سياسته وتصرفه في احباط مؤامرة الامير السلجوقي ألب أرسلان(٦٨) ، وخوله صلاحيات واسعة وحكمه وأعطاه عشر دخل بلاده(٦٩) • كما ان هذا الوزير لعب دورا كبيرا أثناء الازمة التي نشأت بين قطب الدين مودود صاحب الموصل وأخيه نورالدين محمود صاحب دمشق حول مدينة سنجار(٧٠) ، حيث استطاع ايجاد حل سياسي للازمة باقرار الصلح بينهما والانصراف معا لمقاومة صليبيي المنطقة •

أما الاراتقة فقد تأثروا هم أيضا بالنظام السلجوقي فيما يتعلق باتخاذ الوزراء وتخويلهم سلطات وصلاحيات واسعة ، وقد أشار الفارقي الى الوزير أبي تمام بن عبدون الذي استوزره ايلغازي

---

(٦٥) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج٤ ص٢٢٨ •
(٦٥) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٨٢ •
(٦٦) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق (مطبعة الموسوعات مصر ١٩٠٠) ص ١٩٢-١٩٣ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٤ ص٢٢٨-٢٢٩ •
(٦٧) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص١٩٢-١٩٣ •
(٦٨) ابن الاثير : الباهر ص٨٤-٨٦ •
(٦٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٩٢ •
(٧٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٩٦-٩٧ ، ابو شامة : كتاب الروضتين تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد احمد ، ج١ ص١٧٣ •

بن ارتق ٤٩٨ـ٥١٨هـ صاحب امارة ماردين(٧١) ، الذي كان على مايبدو يتمتع بمثل هذه السلطات كما استوزر حسام‌الدين تمرتاش سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م صاحب امارة ماردين الوزير عبدالملك الذي استمر في منصبه حتى سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م وقد أشرف على الوقف وقام بمصادرة املاك بعض كبار المسؤولين(٧٢) . ودخل في خدمة حسام‌الدين تمرتاش ، حبشي بن محمد بن حبشي الذي ولاه الوزارة «فبلغ من الدولة مالم يبلغ غيره وتحكم أوفى تحكم»(٧٣) وعندما توجه حبشي بن محمد الى مدينة ميافارقين «عمل هناك حساب أرباب الاعمال والكتاب وسلك بهم أعسف الطرق والخسف والقهر»(٧٤) . ويبدو ان استبداد هذا الوزير وتحكمه ، قد شجعه على حبك مؤامرة ضد حسام‌الدين تمرتاش وذلك باتفاقه سرا مع عمادالدين زنكي سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م لتسليمه مدينة ميافارقين(٧٥) ، أما الوزير ابراهيم بن منقذ الذي ولي الوزارة(٧٦) للاراتقة فقد اعتقله حسام‌الدين تمرتاش صاحب ماردين سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥(٧٧) وذلك لمحاولته استغلال منصبه كسلفه(٧٨) .

وأشار الفارقي الى استيزار حسام‌الدين تمرتاش ، زين‌الدين اسعد بن عبدالخالق سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م الذي اغتيل بعد عام واحد من تسلمه المنصب(٧٩) .

---

(٧١) الفارقي : تاريخ آمد ـ مخطوطة ـ الورقة ١٠٣ أ ـ ١٠٤ أ .
(٧٢) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٠٩ أ ب .
(٧٣) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١١٠ أ .
(٧٤) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١١٠ أ .
(٧٥) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ قسم الجزيرة ـ الورقة ١٠٣ب ـ ١٠٤ آ .
(٧٦) الفارقي : تاريخ آمد ـ الورقة ١٢٤ أ .
(٧٧) الفارقي : نفس المرجع ، الورقة ١٢٥ أ .
(٧٨) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٢٤ أ .
(٧٩) الفارقي : الورقة ١٣٥ ب .

ولم يستوزر حسام الدين تمرتاش بعد ذلك شخصا آخر ، مكتفيا بالاجل مؤيدالدين مشرف الديوان ، حيث «أغناه عن جميع من خدمه»(٨٠) ، ويظهر ان صاحب ماردين أراد أن يتخلص من المشكلات التي كان يجرها عليه معظم وزرائه حيث قرر الاعتماد على بعض كبار موظفيه لانجاز ما كان يقوم به الوزارة من مهمات رسمية(٨١) ٠

كما أن ممارسة الوزراء لصلاحيات وسلطات سياسية وادارية واسعة كتقدير الضرائب وفرضها على أرباب الاعمال والكتاب ومصادرة كبار الموظفين وعزلهم وتوليتهم وترؤس الوفود والمشاركة في تنظيم الدفاع عن المواقع والمدن والحصون التي يتهددها الخطر ، كل ذلك حد من سلطات الامير الارتقي نفسه(٨٢) ٠

جـ ـ الكتابة :

شغل عدد من الاشخاص الواسعي الاطلاع في اللغة والكتابة خلال القرن السادس الهجري مهمة «كتاب الانشاء»(٨٣) أو «كتاب الرسائل» في دواوين المدن والامارات الاتابكية والارتقية ودوائر الدولة فيها في الجزيرة الفراتية ، وذلك كما هو الحال بتولى هذه الوظيفة في دار الخلافة العباسية ٠

وكان ديوان الموصل يضم عددا من كتاب الانشاء في عهد بدرالدين لؤلؤ(٨٤) ، وكان هؤلاء يشغلون وظائفهم يقوم أصحابها

---

(٨٠) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٥ب ـ ١٣٦ أ ٠
(٨١) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٥ أ ـ ١٣٦ أ ٠
(٨٢) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٦ أ ٠
(٨٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان جـ١ ص٤١٢ـ٤١٣ ، الكتبي : فوات الوفيات جـ٢ ص١٩٣ ٠
(٨٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢٨٣ ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ص٣٤٨ ٠

بانشاء الرسائل وتحريرها(٨٥) وذلك على غرار وظيفة كاتب السلة العباسية الذي كان صاحبها يشغل رئاسة كتاب الوزير في أواخر أيام الدولة العباسية(٨٦) • وقد أصبح بيد كاتب الانشاء بديوان الموصل أو دواوين المدن الاخرى أسرار سياسة الامير وخفاياها ولديه الاطلاع الكافي على أحوال الادارة المختلفة • وان أغلب كتاب الانشاء هؤلاء كانوا من الادباء والمتضلعين في اللغة ، فقد كان ضياءالدين بن الاثير كاتبا للانشاء قبل أن يتولى رئاسة ديوان الموصل وكان من طبقة الادباء البارزين في عصره(٨٧) وله مؤلفات عديدة في هذا الباب(٨٨) كما كان ابراهيم بن عبدالرزاق بن أبي بكر ابن رزق الرسعني المعروف بابن المحدث الذي رتب كاتبا للانشاء في ديوان الموصل ، واحدا من أبرز الشعراء في القرن السادس الهجري(٨٩) • ومحيي الدين أبو المحاسن يوسف بن سلامة الهاشمي المعروف بابن زبلاق الكاتب للانشاء في الديوان ، سيدا كبيرا وعالما واسع الاطلاع ومن فضلاء الشعراء المجيدين(٩٠) •

وعلى الرغم من اختصاصات هؤلاء الكتاب التي لا تتعدى كتابة الرسائل واعدادها ، كما تبدو لاول وهلة ، ولكنهم يخولون صلاحيات سياسية على أية حال ، حيث كان يقوم أكثرهم بمهمة السفراء ، أو ما تقابل مهمة المبعوثين السياسيين في الوقت الحاضر ،

---

(٨٥) انظر كتاب «رسائل ابن الاثير» الرسائل التي كتبها نصرالله بن الاثير عن الامراء الاتابكيين وبدرالدين لؤلؤ الى الخلفاء العباسيين والافراد واصحاب الاطراف ص٦٠ فما بعد •

(٨٦) جعفر خصباك : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص٦٨ •

(٨٧) كتاب رسائل ابن الاثير ص٩ •

(٨٨) من أهم مؤلفاته التي صنفت في النقد والبلاغة «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» •

(٨٩) القرشي : الجواهر المضية في طبقات الحنفية جا ص٤١ •

(٩٠) اليونيني : ذيل مرآة الزمان جا ص٥١٤ ، ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي جا (القسم الادبي) ص٨٤ •

فيجرون الاتصالات والمباحثات التي تتعلق بالسياسة الخارجية مع الخلفاء أو الملوك أو السلاطين أو الامراء الآخرين ويمهدون في أحيان كثيرة لانشاء العلاقات السياسية ٠

يذكر ابن الاثير ما كان يقوم به كمال‌الدين أبو الفضل محمد ابن عبدالله بن القاسم الشهرزوري من نشاط في المهمات السياسية التي كان يكلفه بها عمادالدين زنكي حيث يقوم بالاتصال بالخليفة العباسي الراشد بالله أو بالسلطان السلجوقي أو بأمراء المدن وأصحاب الاطراف(٩١) ، كما أمر عمادالدين زنكي مبعوثه هذا وكاتب رسائله بمكاتبة جماعة من أهل مدينة دمشق واستمالتهم واطماعهم في الرغائب والصلات بعد أن أحاطت جنوده بالمدينة وحاصرتها ، ففعل ذلك(٩٢) وأشار اليونيني الى وظيفة كاتب الانشاء عند الاراتقة وتخويله صلاحيات وسلطات سياسية(٩٣) ، واعتمادهم على ما كان يقوم به في نطاق العلاقات الخارجية ٠

د ــ الحجابة :

ظهر نظام الحجابة في عهد الامويين والعباسيين ، وأول من اتخذه من الخلفاء الامويين معاوية بن أبي سفيان بعد تآمر الخوارج عليه ومقتل الخليفة علي بن أبي طالب ، فضلا عن اتخاذه مظهرا من مظاهر الابهة وخوفا على حياتهم وتفريق العامة عن أبوابهم لكي لا ينشغلوا عن النظر في مهمات الدولة(٩٥) ٠

---

(٩١) ابن الاثير : الكامل ج١١ ص١٨ــ١٩ ، الباهر ص٥٤ ٠
(٩٢) ابن الاثير : الباهر ص٥٨ ٠
(٩٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص٤١٢ــ٤١٣ ٠
(٩٤) الحاجب : البواب : انظر : ابن منظور : لسان العرب ج١ ص٢٩٨ ٠
(٩٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٣٣٠ (طبعة مصر ١٩٦٣) ، ابن الاثير : الكامل ج٤ ص٥ ٠

وقد سيطر بعض هؤلاء الحجاب على أمور الدولة وتدخلو في شؤون الحكم كما زاحموا الوزراء في صلاحياتهم . وكان يطلق على الحاجب في العصر السلجوقي اسم «الأمير الحاجب الكبير»(٩٦) وكانت مهمته نقل مطاليب السلطان الى الوزير أو الى غيره من موظفي الدولة لتنفيذها . كما أشار الى ذلك البنداري بقوله «والامير الحاجب الكبير هو الذي يسمع مشافهة السلطان ويؤديها الى الوزير فهو الناهي الآمر»(٩٧) وأخذ الاتابكة في الجزيرة الفراتية هذا المنصب عن السلاجقة وطبقوه في اماراتهم فقد اتخذ عمادالدين زنكي سنة ٥٢١هـ ، صلاحالدين الياغسياني أميرا حاجبا له تقديرا لجهوده التي بذلها لدى السلطان السلجوقي بتوليته امارة الموصل(٩٨) ، وقد اشار ابن الاثير الى صلاحالدين الياغسياني ، كأكبر موظف في دولة عمادالدين زنكي حيث كان رئيسا لديوان لجند ومشرفا على شؤونه ويفصل في أمر الخصومات والمشكلات التي تنشأ بين الجند وموظفي الديوان الآخرين(٩٩) ، ودرج الاتابكة بعد عمادالدين زنكي على اتخاذ الحجاب الذين اقتصرت مهمتهم على ما يتلقونه من أوامر الاتابك وايصالها الى من ينفذها من المسؤولين في الدولة ، فيذكر ابن الاثير ما يشير الى وجودهم وطبيعة عملهم ، ففي عهد الاتابك قطبالدين مودود بن عمادالدين زنكي ، أوضح هذا المؤرخ ان والده نقل الى الاتابك بواسطة حاجبه «أي صاحب قطبالدين مودود» رغبته في اطلاعه على أمور تتصل بتعيينه بوظيفة في جزيرة ابن عمر واستكثاره الراتب الذي قرر له(١٠٠) . ويبدو

---

(٩٦) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ص١٠٧ .

(٩٧) البنداري : نفس المرجع السابق ص١٠٧ .

(٩٨) ابن الاثير : الباهر ص٥٣ .

(٩٩) ابن الاثير : الباهر ص٨٣-٨٤-٨٥ .

(١٠٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٣٩ .

مما ذكره ابن الاثير ان الحجابة استمرت عند الاتابكة ، غير انها كانت مقصورة على تأدية الاعمال التي تتصل بالوظيفة مباشرة(١٠١) ٠

وفي الربع الاخير من القرن السادس الهجري أصبح لمنصب حاجب الاتابكة صلاحيات عسكرية ، اذ انه كان يقوم على مهمة توفير المستجدين من الجند وتجنيدهم وتنسيبهم الى قوادهم وامرائهم ومعاقبة من يعرض منهم عن الخدمة العسكرية(١٠٢) ، فضلا عن ملازمته للامير في تنقلاته أثناء اشتراك الجيش في المعارك العسكرية(١٠٣) ٠ وقد أدرك بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل مدى أهمية الحجاب في التأثير على نتائج الحروب لصالحه فاستكثر منهم بحيث أصبحوا يشكلون اعدادا كبيرة في الجيش ٠

أما حجاب الاراتقة(١٠٤) ، فكانوا يقومون بالاعمال المتعلقة في قضايا التشريفات والوفود وتنظيم شؤون القصر وتلقي المكاتبات والرد عليها(١٠٥) ٠ فيشير الفارقي الى بعض هؤلاء الحجاب ويذكر منهم الحاجب يوسف ينال في عهد الامير الارتقي حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين الذي تولى الحجابة في مدينة ميافارقين سنة ٥٣٥هـ حيث تعرضت هذه المدينة الى اغارات أحد أمراء الاراتقة ، فكان هذا الحاجب «في الولاية فدبر الناس وساس البلد»(١٠٦) كما أشار الى الحاجب أبي بكر الذي ولي (ميافارقين) والحاجب بيرم الذي

---

(١٠١) رشيد الجميلي : دولة الاتابكة في الموصل ص٢٤٤ ٠
(١٠٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص١٩ ، المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ج٢ ص٢١٩ ٠
(١٠٣) ابن العبري : تاريخ الدول السرياني (مجلة المشرق مجلد ٥٠) ص١١ ٠
(١٠٤) الفارقي : تاريخ آمد وميافارقين : (المخطوطة) الورقة ١٣٩ أ ، السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص٣٠-٣١ ٠
(١٠٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج٧ ص٢٦٧-٢٦٩ ، ج٨ ص٢٢٥-٢٢٩ ٠
(١٠٦) الفارقي : تاريخ آمد (مخطوطة) الورقة ١٣٧ أ - ١٣٨أ ٠

وليها مرتين ، ثم الحاجب عبدالكريم بن علي(١٠٧) ٠ وفي ٥٤٣هـ جلس الحاجب بيرم في قصر الامارة مدة(١٠٨) ، وأورد الفارقي أيضا اسم الحاجب يونس الدنيسري الذي ولاه حسام‌الدين تمرتاش على مدينة (دارا) عقب استيلائه عليها عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م(١٠٩) ٠ ويرد في هذا المرجع أسماء عدد من ولاة حسام‌الدين تمرتاش على مدينة ميافارقين ٠

وكان يسبق اسم كل واحد منهم لقب الحاجب(١١٠) ٠ ويذكر الفارقي ان الحاجب يوسف ينال «قد استقل بالولاية حتى وفاة حسام‌الدين تمرتاش» سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م(١١١) ٠

---

(١٠٧) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٨ أ ، ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ـ مخطوطة قسم الجزيرة ـ الورقة ١٠٤ ب ٠

(١٠٨) ابن شداد : نفس المرجع السابق الورقة ١٠٥ أ ٠

(١٠٩) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٢ أ ٠

(١١٠) الفارقي : نفس المرجع السابق الورقة ١٣٧ أ ١٣٨ أ ، ويبدو ان معظم هؤلاء الولاة كانوا يلقبون بالحاجب ، وهذا يشير الى أحد احتمالين : اما أن يكون هؤلاء قد اشغلوا فعلا وظيفة الحجابة للاراتقة قبل توليهم ميافارقين وأنهم ولوا بعدئذ تقديرا لخدمتهم أو أن التقاليد الرسمية كانت تقتضي تسمية كل وال باسم الحاجب ٠

(١١١) الفارقي : تاريخ آمد ، الورقة ١٣٧ أ ـ ١٣٨ أ ٠

الفصل الثالث

النظم العسكرية (الجيش ، الوظائف العسكرية) والشرطة

١ ـ النظم العسكرية :

أ ـ الجيش :

ب ـ الوظائف العسكرية ٠

٢ ـ الشرطة ٠

الفصـل الثـالث

النظم العسكرية (الجيش ، الوظائف العسكرية) والشرطـة

١ ـ النظم العسكرية :

أ ـ الجيش :

كانت الامارات الاتابكية والارتقية في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، تتنافس فيما بينها الى حـد الصراع على توسيع نفـوذها وبسط سيطرتهـا على حساب بعضها البعض ولذلك أصبحت جميعها تستهدف ، أما الدفاع عن نفسها ، وحماية حدودها من أية أخطار محتملة ، تتعرض لها ، وأما توسيع رقعتهـا الى ما وراء الحدود ، وفي كلتا الحالتـين ، لا تستطيع تحقيق أهدافها هذه ، مالم تعد لها جيشا يمكنها الاحتفاظ به على أهبة الاستعداد ٠

ونتيجة لذلـك ، كون أتابكيو الجزيرة الفراتيـة ، الجيوش النظامية القـادرة على الدفـاع عن حدود امارتهـم ، وعلى الايفاء

بالتزاماتهم من الناحية العسكرية أمام السطان السلجوقي الذين كانوا يحكمون باسمه(١) ٠

وأول جيش منظم وقوي في المنطقة ، كان قد سعى الى تكوينه الاتابك عمادالدين زنكي الذي ولاه السلطان السلجوقي محمود بن محمد امارة الموصل سنة ٥٢١هـ ، واستطاع أن يخضع به الامارات والمدن المجاورة ، فضلا عن مقارعته الصليبيين في بلاد الشام والجزيرة الفراتية ٠ وفرض على عمادالدين زنكي ايجاد هذا الجيش ، انشاء ديوان للجند ، يقوم بالاشراف على أمور الجند وتنظيمهم وتوزيع رواتبهم وأعطياتهم بانتظام(٢) ٠ وكان يدير هذا الديوان ، موظف اطلق عليه «أمير حاجب» أوضح القلقشندي صلاحياته بقوله : انه كان «ينصف بين الامراء والجند تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان ، وتارة بمراجعة النائب ، واليه تقديم من يعرض ومن يرد ، وعرض الجند ، وما ناسب ذلك»(٣) ، كما كان يفصل في خصومات الجند واختلافهم في أمور الاقطاع ونحو ذلك(٤) ٠

وعلى الرغم من قلة المعلومات الواردة عن التنظيمات السائدة في جيش عمادالدين زنكي ، ولكن من المرجح أن عمادالدين زنكي اتبع التنظيمات التي نقلها السلاجقة من أوطانهم الاولى بعد أن طوروها(٥) ، باعتبار ان نظمه هي استمرار للنظم السلجوقية(٦) ،

---

(١) انظر : الدكتور محمد حلمي محمد احمد : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص٢٠٣ ٠

(٢) ابن الاثير : الباهر ص٨٣ وانظر : عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص ١٩١ ٠

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص١٩ ٠

(٤) المقريزي المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ج٢ ص٢١٧ ٠

(٥) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص١٤ــ٢٨ ، ١٠ــ٥١ ٠

(٦) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة) ج١ ص٢٣٩/حاشية رقم (١) ٠

كما ان نظم عمادالدين زنكي العسكرية هـذه صارت أساسا للنظم الايوبية والمملوكية(٧) فيما بعد ٠

وكان (الخراسانيون) أهم العناصر التي تكون جيش عمادالدين زنكي وقال عنهم ابن الاثير بأنهم كانوا (يخدمون في الركاب)(٨) أي أنهم ما يشبه الحـرس الخاص المرافق للامير ، حيث يتنقـلون معه حيثما ذهب ، وكانوا يتقاضون رواتب عالية(٩) فضلا عن اشتراكهم في المعارك والحروب التي خاضها الجيش في هذه الفترة(١٠) وأوضح ابن الاثير أيضا ، ان الخراسانيين كانـوا يشكلون في الجيش فرقة مستقلة(١١) ولكن لا يذكر شيئا عن طبيعة تنظيمها ومصدرها وكيف تم تجنيد أفرادها ؟

ويشكل (التركمان) أعدادا كبيرة من الجيش الاتابكي في عهد عمادالدين زنكي وأبنائه بعده ، فيذكر ابن القلانسي ، ان عماد الدين زنكي (كاتب طوائف التركمان باستدعاء لهم للمعونة ـ على فتح امارة الرها الصليبية ـ وأداء فريضـة الجهاد ، فوصل اليه منهم الخلق الكثير ، بحيث احاطوا بها من جميع الجهات وحالوا بينها وبين ما يصل اليها من الميرة والأقوات)(١٢) ٠

ويبدو ان التركمان باعدادهم الضخمة في الجيش الاتابكي(١٣) ، ومرانهم في الحرب وتفننهم في أساليب القتال وشجاعتهم ، يكونون أهم عنصر في هذا الجيش بحيث أصبح لا يستغنى عنهم ٠

---

(٧) القلقشندي : صبح الاعشى ج٤ ص٥ ٠
(٨) ابن الاثير : الباهر ص٨٣ ٠
(٩) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٨٣ ٠
(١٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٨٣ ٠
(١١) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٨٣ ٠
(١٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٢٧٩ ٩
(١٣) ابن منقذ : الاعتبار ص٣١ ، عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص١٩٨ ٠

أما الحلبيون ، فكانوا يؤلفون هم الآخرون قوة عسكرية ، لها تأثيرها الواضح في الجيش ، وقد ظهر ذلك حينما ساهموا في المعارك العديدة التي خاضها الجيش ضد الصليبيين في شمال الشام(١٤) هذا فضلا عن امتلاكهم للخبرات العسكرية ومعرفة بالمسالك والمواضع والاسوار(١٥) .

ويأتي بعد التركمان والحلبيين في الاهمية ، عناصر الاكراد والبدو وتجنيدهم في الجيش ، ويبدو ان الاكراد خاصة ، قد تكاثر عددهم في الجيش الاتابكي بعد عمادالدين زنكي حيث تشير المصادر الى ذلك(١٦) .

ويمكن القول ، ان عناصر التركمان والحلبيين والاكراد ، تمثل في الجيش ، باعتبارها قوات نظامية دائمة الى جانب استخدام المتطوعين الذين يستنفرون ويعبؤون في ظروف الحاجة اليهم أو كمرتزقة لفترة معينة ، يعودون بعدها الى أماكنهم(١٧) لذلك أصبح حجم هذا الجيش غير ثابت مما جعل الاتابكة يفرضون أحيانا التجنيد الاجباري فذكر ابن العديم ان عمادالدين زنكي «كان يلزم أهل حلب بجمع الرجاله للقتال والحصار ، فان كان ذلك في جهاد الكفار ، فقد كان بحلب عليهم ذلك وله الزامهم به»(١٨) .

واتخذت المعسكرات الدائمة والمؤقتة للجيش ، فكان عماد الدين زنكي يقيم الحاميات في كل منطقة يفتحها ، بعد أن يقطع

---

(١٤) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٢ ص٢٦٤-٢٦٨ .
(١٥) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٢٧٩ .
(١٦) رشيدالدين فضل‌الله : جامع التواريخ (ترجمة محمد صادق نشأت ومحمد موسى وفؤاد عبدالمعطي القاهرة) ج٢ قسم ١ ص٢٩٨ .
(١٧) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢٦٦ ، الذهبي : دول الاسلام ج٢ ص١١٣ .
(١٨) بن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب (المخطوطة) ج٨ الورقة ٢١١ .

أراضيها لأمــــراء الحامية وجنودها(١٩) ، واستمر ذلـــك في عهد الاتابكيين خلفاء عمادالدين زنكي ، حيث خصصوا للجيش ميدانا تجري فيه التمرينات والألعاب ، ووضعت للاتابك في مكان بارز من هذا الميـــدان ، مقصورة (جوســق) يشرف منهـــا على العساكر ويستعرضهم(٢٠) .

واستخدمت الجيوش الاتابكية الانواع المعروفة من الاسلحة في الجيوش الاسلامية الاخرى ، فعرفت فيها «الرماح» التي كانت تصنع من «قنـــاة الغاب» وهي نوع من الخشب الطـــري ، ثم يغطي نصلها بالحديـــــد(٢١) ، و«التروس» و«الاقـــواس» و «السيوف» و«الهراوات»(٢٢) ، فضـــلا عن استخدام آلات الحصـــار(٢٣) مثل «المنجنيقات»(٢٤) و«الدبابـــات»(٢٥) و«الابراج»(٢٦) هــذا الى جانب استخدام «الحجـــارة» حيث ترمي على الاعداء وقـــذف الحديد والقدور المليئـــة بالنفط والزرنيخ(٢٧) ، لذلك وجـدت في الجيش فصائل خاصة للحجارين والنقابين المدربين الذين يحدثون الثغرات في الاسوار(٢٨) .

---

(١٩) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ ص٢٤٧ـ٢٤٨ ، جـ١١ ص٣٩ ، الباهر ص١٦ـ٦٩ ، انظر : عمادالدين خليل : عمادالدين زنكي ص٢٠٠ .

(٢٠) ابن الاثير : الباهر ص١٨٦ـ١٨٧ ، انظر : رشيد الجميلي : دولة الاتابكة الموصل بعد عمادالدين زنكي ص٥٥ .

(21) R.G. Smail: Crusading Warfare, P. 75.

(22) Ibid., P. 75.

(٢٣) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص٤٧ .

(٢٤) انظر عن المنجنيقات : وصفها واســتخدامها في الجيوش الاسلامية : علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص٣٥٧ـ٣٥٨ .

(٢٥) وهي آلة متحركة تصنع من الخشب السميك ثم تغلف بالجلود المنقعة في الخل لدفع النار وتركب على عجلات مستديرة ثم تحرك وتجر .

(٢٦) وهي لوحة كبيرة يحملها الجند وفيها ثقوب تنفذ منها الذخيرة من رماح وسهام وقذف النيران والقدور المشتعلة بالنفط والزرنيخ او الحجارة .

(٢٧) انظر : علي ابراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية ص٣٥٧ .

(٢٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٢٧٩ .

وشاع في الجيوش الاتابكية ، منذ عهد عمادالدين زنكي ، استخدام الخيول بأنواعها وأصنافها ، حيث وجدت على نطاق واسع، فكان الفارس يرتدي «الزردية» أو «الكازغند»(٢٩) أي الدرع ، والخوذة ويقاتل بالسيف أو بالدبوس(٣٠) • وقد أشار ابن العديم الى استخدام الخيول في المعارك التي خاضها الجيش الاتابكي ضد الصليبيين والروم سنة ٥٣٢هـ(٣١) •

ويبدو أن قوة الجيش وجبروته في تلك الفترة ، كانت تقاس بعدد الفرسان ومدى شيوع الفروسية فيه ، فكان الاتابكة يكثرون في جيوشهم من الجند المدربين على ركوب الخيل ليواجهوا بهم الاعداء(٣٢) •

أما الجند المشاة ، فكانوا لا يقلون أهمية عن الفرسان ، ويتقدمون العسكر أو يتأخرون عنه ، وكانوا يلبسون «الأقبية التترية»(٣٣) ويضعون فوقها «التكلاوات»(٣٤) ثم يلبسون فوق الجميع ، القباء الاسلامي(٣٥) ، وفي عهد الاتابك ، سيفالدين غازي ، كان الجند يشدون السيوف من جهة اليسار ويضعون

---

(٢٩) ابن منقذ : كتاب الاعتبار ص١٠٠ •

(٣٠) ابن منقذ : نفس المرجع السابق ص٩٨ـ١٤٤ •

(٣١) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج٢ ص٢٦٤ـ٢٦٧ •

(٣٢) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص٢٣٦ ، ٥٩ـ٦٠ ، ٩٧ـ٩٨ ، ٩٩ـ١٠٠ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥٧ •

(٣٣) القباء ، ثوب يلبس فوق الثياب والاقبية والتترية ، ومصدرها بلاد ما وراء النهر وأواسط اسيا •

(٤٣) وهي غطاء يوضع فوق الرأس لتمييزهم عن جنود الاعداء •

(٣٥) وهو ثوب يغطي المقاتل ، عرف عند المسلمين الفاتحين الأوائل وظل تقليدا في الجيوش الاسلامية •

«الصولق»(٣٦) و«الكزلك»(٣٧) من جهة اليمين(٣٨) ·

ويبدو ان ما اتبع في تنظيم الجيش في العهد الاتابكي الذي استغرق فترة القرن السادس الهجري وخاصة ما يتعلق بديوان الجند أو الجيش في العهد الاتابكي الذي استغرق فترة القرن السادس الهجري وخاصة ما يتعلق بديوان الجند أو الجيش أو تنظيماته وعناصره وتقسيماته ومعسكراته وأسلحته ، هو استمرار لما كان عليه آخر عهد الاتابك عمادالدين زنكي صاحب الموصل ، فقد أشار ابن الاثير الى القاعدة المتبعة في ابقاء الجند على ما هم عليه وتحليفهم(٣٩) · غير أن أهم تعديل أجرى في العهد الاتابكي هو ايجاد امراء جدد برتب مختلفة واستكثار الجند(٤٠) ·

واقتبس الاراتقة التنظيمات السلجوقية فيما يتعلق بتكوين الجيش وتنظيمه ووظائفه ومعداته أيضا حيث كان هؤلاء يحكمون باسم السلاطين السلاجقة وقد كان لكل امارة ارتقية جيشها المؤلف من الجند الدائميين (المرتزقة) وهم برتب مختلفة ، ومن المتطوعين(٤١) ، ذكر ابن الاثير ، أن التركمان انضموا الى جيش حسام‌الدين تمرتاش صاحب ماردين سنة ٥٢٣هـ/١١٢٨م باعداد كبيرة حينما استدعوا لمواجهة الخطر الذي كان يتأتى من تهديدات عمادالدين زنكي صاحب الموصل ، فتقاطروا عليه بحشودهم ، وشكلوا جيشا قوامه عشرين ألف مقاتل(٤٢) · وقد قسم هذا

---

(٣٦) كيس يوضع على الجانب الايمن من الحزام ، توضع فيه حاجات السفر من الزاد ·

(٣٧) السكين او الخنجر ·

(٣٨) ابن الاثير : الباهر ص٩٣ ، انظر : الديوەجي : الموصل في العهد الاتابكي ص ٧٢ ·

(٣٩) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص١٢٢ ، ١٣٧ــ١٣٨ ·

(٤٠) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص١٣٨ ·

(٤١) الفارقي : تاريخ آمد (مخطوطة) الورقة ١٢١ أ ·

(٤٢) ابن الاثير : الكامل جـ١٠ ص٢٥٣ ، الباهر ص٣٨ــ٣٩ ·

الجيش الى قسمين رئيسيين يتقدم القسم الاول وهم الرجالة (المشاة) ويليه القسم التاني وهم الفرســان ، ففي ٥٧١هـ/١١٧٥م عقد حلف بين الامراء الاراتقة لمجابهة الصليبيين ، وقد بلغت جيوشهم نحو ستة آلاف فارس بالاضافة الى غيرهم من المحاربين(٤٣) •

ويبــدو أن الأراتقة اســتطاعوا أن يوسعوا قاعــدة جيوشهم ويمدوها بالرجــال والسلاح ، فأكثــروا من الجنـــد النظاميين والمتطوعين(٤٤) ، لكي يصدوا أطماع بعضهم البعض أو ليقفوا ضد عمادالدين زنكي صــاحب الموصل أو لمقارعة القــوى الصليبية في المنطقة •

كان ديــوان الجيش الذي أوجده عمادالدين زنــكي صاحب الموصل ، لتنظيم الجند والاشراف على أمورهم ، يضم مجموعة من الموظفين الذين كلفــوا بادارة شؤونه • ويمثل أمــير حاجب أكبر موظف في الديــوان يشرف على تصريف أمور الديــوان وواجبات موظفيه • ويبدو ان أهم واجب يقوم به هؤلاء الموظفون هو جمع الرواتب(٤٥) من جهاتهــا ومصادرها المتنوعة التي لم يحــددها ابن الاثير ويقومون بتوزيعها على الجند كل ثلاثة أشهر مرة(٤٦) • أما واجباتهم الاخرى فلم توضحها المراجع ، فيما عدا اشارة ابن الاثير الى الديوان الذي كان يقاس بــدواوين السلاطين السلاجقة لكثرة التجمل ونفاذ الامر وعظم الحاشية والخرج ، وكان الانسان اذا قدم عسكره ولــم يكن غريبا «فان كان جنديا اشتمل عليـــه الاجناد

(٤٣) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ج١١ ص١٧٥ •
(٤٤) ابن الاثير : الباهر ص٣٩ •
(٤٥) ويسميها ابن الاثير «الجامكيات» الباهر ص٨٣ـ١٤٩ ، أي الرواتب العامة النقدية التي تعطى للجند • (القلقشندي : صبح الاعشى ج٣ ص٤٥٧) ، انظر ايضا محمد مصطفى زيادة ، حاشية السلوك للمقريزي ج١ ص٥٢/ رقم (٢) •
(٤٦) ابن الاثير : الباهر ٨٣ •

وأضافوه ، وقاموا بما يحتاج أليه لكثرة أموالهم · وان كان القادم صاحب ديوان قصد منزلة الديوان فرأى من توفرهم عليه ونظرهم في صالحه ما يكون كأنه في أهله» «وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العلية والآراء الصائبة والانفس الابية ويوسع عليهم في أرزاقهم فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف(٤٧) ·

وبعد عمادالدين زنكي ، عرفت في الجيش الاتابكي عدة وظائف عسكرية كان لها دور مهم في قيادته وتنظيمه وأهمها هي وظيفة «القائد» الذي يرسم الخطط العسكرية(٤٨) ، ويطلق عليه أحيانا «مقدم الجيش»(٤٩) الذي تماثل صلاحياته ما كان « لمقدم الالف» في جيش المماليك(٥٠) على ما يبدو · ولكن أحيانا جاء مايفيد، ان المقدم يلي القائد في الرتبة حيث يعهد اليه تنفيذ كل ما يرسمه القائد من خطط عسكرية وتقدم العساكر وحمل الشعار والمناداة به والاشتراك فعليا في العمليات العسكرية ويقابل هذا المنصب العسكري في الوقت الحاضر (قائد قوة الميدان) في الجيوش الحديثة·

أما في أواخر العهد الاتابكي في الموصل فقد حصلت تغيرات في طبيعة الوظيفة التي كان يشغلها المقدم ، فأصبح بمثابة أمير المئين

---

(٤٧) ابن الاثير : نفس المرجع السابق ص٨٣ ·

(٤٨) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ـ مخطوطة الجزيرة ـ الورقة ٤٠ أ ، ٥٧ب ، ١١٨ب ·

(٤٩) ابن الاثير : الباهر ص١٦٢ ، الذهبي : تاريخ الاسلام : الورقة ١٢٨ ، دول الاسلام جـ٢ ص١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ·

(٥٠) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٤ ص١٤ـ٢٨ ، المقريزي : الخطط جـ٢ ص٢١٥ ـ٢١٩ ، محمد مصطفى زيادة/حاشية السلوك للمقريزي جـ١ ص٢٣٩/ رقم (١) ·
David Ayalon: Studies on the Structure of the Mamiluk Army
المنشور في مجلة
Bulletin of the School of Oriental and African Studies. Vol. XV. P. 203-227.

في جيش المماليك(٥١) وكان الفـرق بينهما ، ان المقـدم في الجيش الاتابكي يخضع لـه من الجند في بعض الاحيان أضـعاف ما يخضع للثاني(٥٢) ٠

وفيما عـدا القائد والمقدم ظهرت وظيفة عسـكرية أخرى في الجيوش الاتابكية ، هي وظيفة «الحفظة»(٥٣) أو «المستحفظين»(٥٤) حيث اتخـذهم الاتابكيون لحكم الولايـات التابعة لهـم فأودعوهم سلطات عسكرية وزودوهم بقطعات من الجيش ، وأصبحوا بمرور الزمن بمثابـة الحكام العسكريين فيها حيث يتولـون ضبط الامن وتيسير متطلباته ، كما كانوا ينظرون في المصالح العامة ٠ وغالبا ما يعلن المستحفظون تمردهم على السلطة المركزية والاستقلال بالولايات نتيجة لتوسع صلاحياتهم وسلطاتهم ٠

ومن المناصب الاخرى في الجيش الاتابكي وظيفة الحجاب الذين كانوا يختلفون في طبيعة واجباتهم وصلاحياتهم عن أمير حاجب في عهد عمادالدين زنكي حيث كانوا يخضعون الى القادة العسكريين وينفذون أوامرهم فضـلا عن قيامهم بمهمة توفير الجنـد وخاصة المستجدين منهم وأكثارهم(٥٥) ، كما اختصوا بتلقى التعليمات من الاتابك نفسـه ، وقد أكثر منهم الاتابكيون في جيوشـهم فأصبحوا يشكلون أعدادا كبيرة فيه(٥٦) ، وصاروا يقابلون في أقل تقدير من ندعوهـم الآن ب «المرافقين العسكريين» أو ما يطلق عليهـم الآن «ضباط التجنيد» ٠

---

(٥١) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٤ ص١٤ــ١٨ ، المقريزي : الخطط جـ٢ ص٢١٥ــ٢١٩ ٠ David Ayalon: Op. Cit., Vol. XV. P. 203 227.

(٥٢) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٣ ص٤٨٥ ، المقريزي : خطط جـ١ ص١٠ ص ٤٠١ــ٤٠٣ ٠

(٥٣) ابن العبري : تاريخ الدول السرياني ص١٣٣ ٠

(٥٤) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص١٣٨ ٠

(٥٥) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٤ ص١٩ ، المقريزي : خطط جـ٢ ص٢١٩ ٠

(٥٦) ابن العبري : تاريخ الدول السرياني (مجلـة المشرق اللبنانية مجلد ٥٠) ص١١ ٠

٢ ـ الشرطة :

كانت وظيفة صاحب الشرطة في أتابكيات الجزيرة الفراتية والامارات الارتقية ، شديدة القرب من الوظائف العسكرية ، حيث يقوم صاحب الشرطة فيها بالمحافظة على الامن الداخلي ومطاردة اللصوص والمفسدين والمشاغبين ومرتكبي الجرائم وتنفيذ الاحكام(٥٧) ، وهذه الصلاحيات والمهمات ينبغي أن يتوفر لها أشخاص يتمثل فيهم الجانب العسكري لتكون لديهم المقدرة على أدائها وتنفيذها • وكان صاحب الشرطة يسمى : «الشحنة»(٥٨) فقد أشار ابن الاثير الى دوره في حماية المدن والقلاع من حوادث الثورات الداخلية وأعمال الشغب والعصيان والتهديدات الخارجية ، ومن صلاحياته كذلك ، اصدار الاوامر الى الجند بمراقبة الاوضاع الداخلية والمرابطة على الاسوار ، لمنع تسرب الاعداء أو جواسيسهم الى الداخل(٥٩) •

وكان الاتابكيون يكثرون من أصحاب الشرطة ، حتى أصبحوا اعدادا كبيرة فاوكلوا اليهم حماية المدن والقلاع فعملوا على تركز أوضاعها وتيسير متطلبات الأمن فيها(٦٠) •

وكان بقاء الشحنة في المدينة أو القلعة التي آلت الى الاتابكيين عن طريق الحرب أو الصلح ، رهين بانحسار الاخطار التي كانت تهددها سواء أكانت اخطارا داخلية أم خارجية ، فيتلقى الشحنة

---

(٥٧) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص١٤١ـ١٧٦ •

(٥٨) ان الشحنكية هي وظيفة الشحنة وتركيبها ، عربي تركي لان اصلها شحنجية (انظر مقدمة الدكتور مصطفى جواد لكتاب الفتوة لابن المعمار ـ بغداد ـ ١٩٦٠) ص٤٢ـ٤٣ـ٥٩ ، وانظر ايضا : الدكتور محمد مصطفى زيادة/ حاشية السلوك للمقريزي جـ١ ص٣٥/حاشية (١) حيث جاء ان الشحنة هو محافظ المدينة أو نائب الملك أو رئيس الشرطة) •

(٥٩) ابن الاثير : الكامل جـ١٢ ص١٧٦ •

(٦٠) ابن الاثير : نفس المرجع ص١٧٦ •

آمرا من الاتابك بالانسحاب والعودة الى الامارة أو الى الجهات التي يأمره الاتابك بالتوجه اليها ، فتنتهي بذلك مهمة الشحنة(٦١) ٠

ب ــ الوظائف العسكرية :

أما الامــراء الاراتقة ، فقد اتخــذوا لهم في القــرن السادس الهجري ، موظفا تشــابه صلاحياته واختصاصاته مــا كان لرئيس الشرطة في الدول والامارات الاسلامية . وكان له حق الفصل فيما يقع بين العامة من خصومات ، كما كان يقوم بمهام عسكرية ، منها الركوب على رأس فــرق الجيش في المواكب والمناســبات الرسمية ، ويرأس ديــوان الجيش ، بالاضافة الى ممارسته مهمة الدفــاع عن عاصمة الامارة واسوارها وتحصيناتها(٦٢) ، ويبدو ان هذه الوظيفة أشبه بوظيفــة صاحب الشرطة أو رئيس الشرطــة في الامارات الاتابكية في القرن السادس الهجري ٠

أما «والي القلعة» عند الاراتقــة ، فقد أشار القلقشندي الى مهامــه وهي «الاستعلام عن مجددات ولايته من قتــل أو حريق كبير وتنفيذ الاحكام واقامة الحدود وتعقب المفسدين ومثيري الفتن ومدمني الخمــر ومراقبة أبواب المدينة والطواف بأحيــاء التجارة والمال»(٦٣) ان مهمــة هذا الوالي أشــبه بمهمة الشرطــة في الوقت الحاضر ٠ وكان يطلق على والي القلعة لدى الاراتقة اسم «الشحنة» أيضا أي حاكم البلد أو صاحب الشرطة(٦٤) وصلاحياته ، تماثل الى حد ما صلاحيات الشحنة عند الاتابكيين ٠

---

(٦١) ابن الاثير : الباهر ص١٧٥ ٠

(٦٢) القلقشندي : صبح الاعشى جـ٤ ص١٦ ، ١٧ ، المقريزي : خطط جـ٢ ص ص٢١٤ ٠

(٦٣) القلقشندي : نفس المرجع السابق ص٦٠ ٠

(٦٤) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ٢ ص٢٢٠ــ٢٢١ ٠

المصادر والمراجع

١ ـ المصادر :

أ ـ المخطوطات :

١ ـ ابن شداد : عزالدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) ـ الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (قسم الجزيرة) (مخطوطة في مكتبة جامعة اكسفورد رقم)

٢ ـ ابن العديم : كمال‌الدين عمر بن هبةالله (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م) ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ، ٣ مجلدات (نسخة مصورة في دار الكتب المصرية رقم ١٥٦٦) .

٣ ـ العيني : بدرالدين محمود بن أحمد (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م) ـ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (نسخة مصورة في دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤) .

٤ ـ الغياثي : عبدالله بن فتح‌الله البغدادي (حوالي ٨٩٠هـ) ـ ـ التاريخ الغياثي (مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي رقم ٨٨١) .

٥ ـ الفارقي : أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (ت٥٧٢هـ/ ١١٦٧م) .

ـ تاريخ آمـد وميافارقين (مخطوطـة في مكتبة اكسفورد رقم

٦ ـ مؤلف مجهول : من أهل القرن السادس الهجري ـ انسان العيون في مشاهير سـادس القـرون (مخطوطـة في مكتبة الدراسات العليا ـ بغداد رقم ٤٤٨) ٠

٧ ـ ابن الدبيثي : محمد بن سعيد الواسطي (ت٦٣٧هـ/١٢٣٩م) ـ التاريخ المذيل به على تأريخ ابن السمعاني جزءان، (نسخة مصورة غير كاملة في مكتبة الدراسات العليا، كلية الاداب ـ بغداد) ٠

٨ ـ الذهبي : شمس‌الدين أبو عبدالله أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ـ تاريخ الاسلام/ نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي ـ بغداد رقم ٣٠٩ ٠

٩ ـ ابن النجار : محب‌الدين أبـو عبدالله بن محمـود (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) ـ ذيل تاريخ بغداد مدينة السلام (نسخة مصورة في مكتبة كلية الآداب في جامعة بغداد ـ وهو جزء فقط من الاصل) ٠

١٠ ـ مؤلف مجهول : من أهل القرن السـادس الهجري ـ قطعة من كتاب في الجغرافيـة (مخطوط في مكتبـة الدراسات العليا ، بغداد ـ رقم ٣٢٤) ٠

١١ ـ علي بن عيسى : (حـدود ٨٧٣هـ) ـ كتاب عجـائب البلدان والجبـال والاحجار وغـير ذلك كتب فيهـا عبارة (نسخة وحيدة في العالم) ـ مكتبة الدراسات العليا ـ بغداد ـ رقم ١٤ ٠

١٢ ـ ابن سرابيون : (حـوالي ٩٠٠م/٢٨٨هـ) ـ وصف مـا بين النهرين وبغداد (نسخة مصورة محفوظة في المتحف

البريطاني ــ نشرها بالزنكوغراف ، كي لسترانج في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية في انكلترة/عدد اكتوبر ١٨٩٥م) ٠

ب ــ المطبوعة :

١ ــ الازدي : يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم (ت٣٤٤هـ/ ١٩٤٥م) ــ تاريخ الموصل جـ٢ (تحقيق الدكتور علي حبيبة القاهرة١٩٦٧) ٠

٢ ــ ابن أبي أصيبعة : موفق‌الدين أحمد بن القاسم بن خليفة (ت٦٦٨هـ/٢١٦٩م) ٠
ــ عيون الأنباء في طبقات الاطباء (المطبعة الوهبية ١٨٨٢م) ٠

٣ ــ ابن ابي الوفاء : محي‌الدين عبدالقادر محمد بن محمد القرشي الحنفي المصري (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م) ــ الجواهر المضية في طبقات الحنفية (مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ــ حيدرآباد ــ الهند) ٠

٤ ــ ابن الاثير : عزالدين محمد بن محمد بن عبدالكريم (ت٦٣٠هـ /١٢٣٢م) ــ الكامل في التاريخ ، تسعة أجزاء (مطبعة الاستقامة بالقاهرة) ٠
ــ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل (دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٣) ٠

٥ ــ البدليسي : شرف‌خان (في أواخر ١٠٠٥هـ) ٠
ــ شرفنامة ، جزءان ، (ترجمة محمد علي عوني دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة ــ ١٩٥٨م) ٠

٦ ــ البنداري : الفتح بن علي بن محمد الاصفهاني (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) ٠

ـ تاريخ دولة آل سلجوق (من انشاء عمادالدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني (ت٥٩٧) واختصار البنداري ، مطبعة الموسوعات ، مصر ١٩٠٠م) ٠

٧ ـ أبو البقاء الدمشقي : عبدالله بن محمد البدري المصري ٠
ـ نزهة الانام في محاسن الشام (المكتبة العربية القاهرة ـ ١٣٤١م) ٠

٨ ـ البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) ٠
ـ فتوح البلدان (دار النشر للجامعيين ، بيروت ١٩٥٨م) ٠

٩ ـ ابن بطوطة : محمد بن عبدالله بن ابراهيم اللواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ/٣٧٧م) ٠
ـ تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (دار صادر ، بيروت ـ ١٩٦٠م) ٠

١٠ـ برصوم : الاب أفرام ٠
ـ نزهة الاذهان في تاريخ دير الزعفران (المطبعة السريانية ، ماردين سنة ١٩١٧) ٠

١١ـ التطيلي : بنيامين بن يونة التباري الاندلسي ، الرحالة الربي (توفي خلال القرن السادس الهجري) ٠
ـ رحلة بنيامين (ترجمة عزرا حداد ، بغداد ـ ١٩٤٥م) ٠

١٢ـ ابن تغري بردي : ابوالمحاسن جمال الدين يوسف الاتابكي (ت٨٧٤هـ/٤٦٩م) ٠
ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٢ جزءا مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ـ ١٩٣٨م) ٠

١٣ــ الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر البصري (ت٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) ٠
ــ كتاب التبصر بالتجــارة (نشر حســن حسني عبدالوهاب التونسي ، الطبعة الثانية ــ ١٩٣٥م)٠

١٤ــ ابن جبير : محمــد بن أحمد الكناني الانــدلسي (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م) ــ رحلة ابن جبــير (دار صادر ، بيروت ــ ١٩٥٩م) ٠

١٥ــ ابن الجوزي : عبدالرحــمن بن علي بن محمــد بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) ٠
ــ المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، خمسة أجزاء الطبعــة الاولى (مطبعــة دائرة المعــارف الاسلامية حيدراباد الدكن ــ الهند ــ ١٩٥٩م) ٠

١٦ــ الجوهري : اسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ/١٠٠٣م) ٠
ــ تاج اللغة وصحاح العربية ، ٦ أجزاء (تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ، القاهرة ــ ١٣٧٧م) ٠

١٧ــ ابن حجر العسقلاني : احــمد بن علي (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)
ــ الدرر الكامنة في اعلام المائة الثامنة ، ٤ أجزاء (حيدر آباد ١٩٤٥ــ١٩٥٠) ٠

١٨ــ الحسيني : صدرالدين أبو الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر ابن علي (ت٦٢٢هـ/١٢٢٥م) ٠
ــ اخبار الدولــة السلجوقية (المســمى زبدة التواريخ في اخبار الامــراء والملــوك الســلجوقية (تحقيق محمد اقبال ــ لاهور ــ ١٩٣٣) ٠

١٩ــ الحلبي : محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ (ت١٣٧٠هـ)
ــ اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٣ مجلدات (الطبعة الاولى ــ المطبعة العلمية ، حلب ١٩٢٣) ٠

٢٠ـ ابن حوقل : ابوالقاسم النصيبي (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م) .
ـ صورة الارض ، الطبعة الثانية (مطبعة بريل
ـ ليدن ـ ١٩٣٨) .

٢١ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، المنسوب
خطأ لابن الفوطي (تحقيق مصطفى جواد ـ بغداد
ـ ١٣٥١هـ) .

٢٢ـ ابن خرداذبة : أبوالقاسم عبيد بن عبدالله (توفي في حدود
٣٠٠هـ/٩١٢م) .

ـ المسالك والممالك (باعتناء دي غوية (بريل ـ ليدن
١٨٨٩م) .

٢٣ـ ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) .
ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق ٧ أجزاء
١٢٨٤هـ) مطبعة بيروت ، ٦ مجلدات (دار الكتاب
اللبناني ـ ١٩٥٩م) .

ـ مقدمة ابن خلدون (المطبعة الادبية ، بيروت
١٨٧٩م) .

٢٤ـ ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١
هـ/١٢٨٢م) .

ـ وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٦ أجزاء
(تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، القاهرة
١٣٦٧هـ) .

٢٥ـ ابن الدبيثي : ابو عبدالله محمد بن سعيد الواسطي (ت٦٣٧هـ
/١٢٣٩م) .

ـ المختصر المحتاج اليه من تاريخ الحافظ

الذهبي (انتقــاء الحافظ الذهبي ، تحقيــق الدكتور مصطفى جواد ـ بغداد ١٩٥١) ٠

٢٦ـ الدمشقي : أبوالفضل جعفـــر بن علي (حـــوالي ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) ٠
ـ كتاب الاشــارة الى محــاسن التجــارة (مطبعة المؤيد ـ ١٣١٨هـ) ٠

٢٧ـ الذهبي : الحافظ شمس‌الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ٠
ـ دول الاســلام ، جزءان (مطبعة جمعيــة دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد ـ الدكى ١٣٦٤هـ)٠
ـ العبر في خبــر من غبر جـ٥ (تحقيــق الدكتور صلاح‌الدين المنجد ـ الكويت ـ ١٩٦٦) ٠

٢٨ـ الرازي : أبوبكر محمد بن زكريا (ت٣١٣هـ/٩٢٥م) ٠
ـ كتاب الحــاوي في الطب ، ٩ أجــزاء ـ الطبعة الاولى (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن ، الهند ـ ١٩٦٠) ٠

٢٩ـ ابن رجب : زين‌الدين عبدالرحمن بن شهاب‌الدين البغدادي (٧٩٥هـ/١٣٩٢م) ٠
ـ الذيل على طبقات الحنابلة ، جزءان ، تصحيح محمد حامد الفقي (مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٣)٠

٣٠ـ ابن رستة : أبو علي أحمد بن عمر (كان حيا سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م) ٠
ـ الاعلاق النفيسة ، جـ ٧ (ليدن ـ ١٨٩١م) ٠

٣١ـ الرهاوي : المجهول ٠
ـ تاريخ الرهــاوي (باللغة السريانيــة ـ طبع

رحماني ـ ١٩٠٤، ترجمة الاب براهام نصوري)٠

٣٢ـ الروذراوري : أبو شجاع محمد بن الحسين ظهير الدين (ت ٣٧٢هـ/٩٨٢م) ٠

ـ ذيل تجارب الامم (مصر ـ ١٩١٦) ٠

٣٣ـ الزبيدي : محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني الواسطي الحنفي (ت١٢٠٥هـ/١٧٩١م) ٠

ـ تاج العروس من جواهر القاموس (الطبعة الاولى عشرة أجزاء مصر ـ ١٣٠٦هـ) ٠

٣٤ـ ابن الساعي ، ابو طالب علي بن أنجب تاج الدين (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) ٠

ـ الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير (المطبعة السريانية الكاثوليكية ـ بغداد ١٩٣٤) ٠

٣٥ـ سبط ابن الجوزي : شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزاوغلي بن عبدالله البغدادي (ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) ٠

ـ مرآة الزمان (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن ، الهند ١٣٧٠هـ) ٠

٣٦ـ السبكي : ابو نصر عبدالوهاب بن تقي الدين (ت٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) ٠

ـ طبقات الشافعية الكبري ، ٦ أجزاء ، الطبعة الاولى (المطبعة الحسينية ، القاهرة ـ ١٣٢٤هـ) ٠

٣٧ـ ابن سعيد المغربي : على بن موسى (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) ٠

ـ بسط الارض في الطول والعرض (تحقيق الدكتور خوان فرنيط خينيس) ٠

٣٨ـ ابن سينا : الشيخ الرئيس أبـو علي الحسن بن عبـدالله (ت ٤٢٨هـ/١٠٣٦م) ٠
ـ القانـــون في الطب ، ٣ أجـزاء (القاهـــرة ١٢٩٤هـ) ٠

٣٩ـ السيوطي : جلال‌الدين عبدالرحمن بن أبي‌بكر (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م) ٠
ـ تاريخ الخلفـــاء (تحقيق محمـــد محيي‌الدين عبدالحميد ، الطبعـة الثانية ، مطبعة الســعادة ، مصر ـ ١٣٧٨هـ) ٠

٤٠ـ ابن شاكر الكتبي : محمد بن احمد (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) ٠
ـ فوات الوفيـــات ، جزءان (مطبعـة السعادة ، مصر ـ ١٩٥١م) ٠

٤١ـ الشابشتي : أبو محسن علي بن محمد (ت٣٨٨هـ/٩٩٨م) ٠
ـ الديـــارات (تحقيق كوركيس عــواد ، مطبعة المعارف ، بغداد ـ ١٩٥١م) ٠

٤٢ـ أبو شامة : شهاب‌الدين أبو محمـــد عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م) ٠
ـ كتاب الروضـــتين في أخبار الدولتـــين النورية والصلاحية (تحقيق الدكتـــور محمـــد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ـ ١٩٥٦) ٠
ـ تراجم رجـــال القرنين الســـادس والســـابع ، المعروف بالذيـــل على الروضتين ، الطبعـة الاولى ١٩٤٧م ٠

٤٣ـ ابن شاهين الظاهـــري : غرس‌الدين خليـــــل (ت٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) ٠

ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطـرق والمسالك
ـ صححه بولس راويس ، المطبعة الجمهورية ، باريس ١٨٩٤م) ٠

٤٤ـ ابن الشحنة : ابو الوليد محمد (٨٨٣هـ/١٤٧٨م) ٠
ـ روضة المناظر في اخبـار الأوائل والأواخر/ منشور بحاشية الكامل لابن الاثير في الاجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ (دار الطباعة ، القاهرة ـ ١٢٩٠هـ) ٠

٤٥ـ ابن شداد : القاضي بهاءالدين (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م) ٠
ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة ١٩٦٢) ٠
ـ الدار المنتخب في تاريـخ مملكة حلب (المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٩م) ٠

٤٦ـ شيخ الربوة : شمس‌الدين ابو عبدالله بن محمد بن أبي طالب (ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م) ٠
ـ كتـاب نخبة الدهـر في عجائب البـر والبحر (ليبزك ـ ١٩٢٣م) ٠

٤٧ـ ابن الصـابوني : جمـال‌الدين محمـد بن علي (ت٦٨٠هـ/١٢٨١م) ٠
ـ تكملة اكمـال الاكمال (حققه وعلـق عليه الدكتـور مصطفى جواد ، مطبعة المجمـع العلمي العراقي بغداد ـ ١٩٥٧) ٠

٤٨ـ الصابي : أبوالحسن هـلال بن المحسن بن ابراهيم بن هلال (ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م) ٠
ـ رسوم دار الخلافـة (تحقيق ميخائيل عـواد ، مطبعة العاني ـ بغداد ـ ١٩٦٤م) ٠

٤٩ـ الصفدي : صلاح الدين خليل بن ايوب بن ابيك (ت٧٦٤هـ/ ١٢٦٥م) .

ـ الوافي بالوفيات ٤ أجزاء (استانبول ، مطبعة وزارة المعارف ـ النشريات الاسلامية ـ ١٩٤٩م) .

ـ نكت الهميان في نكت العميان (نشرة أحمد زكي بك ـ ١٩١١م) .

٥٠ـ الاصفهاني : أبو عبدالله محمد بن عمادالدين (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) .

ـ الفتح القسي في الفتح القدسي (المانيا ، ورنبرغ ـ ١٨٨٨م) .

ـ تواريخ آل سلجوق (الجزء المشتمل على كتاب زبدة النصرة ونخبة العصرة) اختصار الفتح بن علي البنداري (ت٦٤٣هـ) تحقيق

٥١ـ الاصطخري : ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت٣٤١هـ /٩٥٢م) .

ـ مسالك الممالك (دي غوية ، بريل ، ليدن ـ ١٩٢٧م) .

٥٢ـ ضياء الدين بن الاثير: محمد بن عبدالكريم الجزري (ت٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) .

ـ رسائل ابن الأثير (تحقيق أنيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ـ ١٩٥٩م) .

٥٣ـ ابن الطقطقي: محمد بن طباطبا العلوي (٧٠١هـ/١٣٠١م).

ـ الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية (بيروت ـ ١٩٦٠م) .

٥٤ـ ابن عبدالحق : عبدالمؤمن (ت٧٣٩هـ/١٢٣٨م) ٠
ـ مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، ٣ أجزاء (تحقيق علي البجاوي ، الطبعة الأولى ـ دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة ـ ١٩٥٤م) ٠

٥٥ـ ابن العبري : غريغوريوس ابوالفرج المالطي (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م) ٠
ـ تاريخ مختصر الدول ، الطبعة الثانية (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ـ ١٩٥٨م) ٠
ـ تاريخ الدول السرياني (مجلة المشرق بادارة آباء جامعة القدس ، بيروت ـ ١٩٥٦م) ٠

٥٦ـ ابن العديم : كمال‌الدين عمر بن أحمد بن هبة‌الله (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م) ٠
ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جزءان (تحقيق سامي الدهان ـ دمشق) ٠

٥٧ـ ابن عساكر : ابوالقاسم علي بن الحسن بن هبة‌الله الدمشقي (٥٧١هـ/١١٧٦م) ٠
ـ تبيين كذب المفترى فيما نسب الى الامام أبي الحسن الاشعري (مطبعة توفيق ـ دمشق ١٣٤٧هـ)

٥٨ـ العمري : محمد امين بن خيرالله الخطيب (توفي في القرن الثالث عشر الهجري) ٠
ـ منهل الاولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء جـ١ (تحقيق سعيد الديوهجي ، الموصل ـ ١٩٦٧) ٠

٥٩ـ الفارقي : أحمد بن يوسف بن علي بن الازرق (توفي في نهاية القرن السادس الهجري) ٠

- تاريخ الفارقي (تحقيق الدكتور بدوي عبداللطيف عوض ، القاهرة ١٩٥٩م) ٠

٦٠- العيني : محمود بن محمد المعروف بالبدر العيني (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م) ٠

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (تحقيق هانس آرنست ، دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٢م) ٠

٦١- العمري : ياسين بن خيرالله الخطيب (ت١٢٣٢هـ/١٨١٦م) ٠

- منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء (تحقيق سعيد الديوهجي ، الموصل - ١٩٥٥م) ٠

٦٢- العمري : شهاب‌الدين بن فضل‌الله (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) ٠

- مسالك الابصار في ممالك الامصار جـ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة - ١٩٢٤) ٠

٦٣- أبو الفداء : عمادالدين اسماعيل صاحب حماه (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) ٠

- المختصر في اخبار البشر (دار الكتاب اللبناني بيروت) ٠

- تقويم البلدان (طبعة باريس - ١٨٤٠م) ٠

٦٤- ابن الفرات : ناصرالدين محمد بن عبدالرحيم (ت٩٠٧هـ/١٥٠١م) ٠

- تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ جـ٢ (تحقيق الدكتور حسن محمد الشماع، العراق - ١٩٦٩م) ٠

٦٥- فضل‌الله الهمداني : رشيدالدين (ت٧١٨هـ/١٣١٨م) ٠

- جامع التواريخ مجلد ٢ ، جـ١ ، جـ٢ (ترجمة محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبدالمعطى ، القاهرة) ٠

٦٦ـ ابن الفقيه الهمداني : أبوبكر أحمد بن محمد (ت٣٦٥هـ/ ٨٧٨م) ٠
ـ مختصر كتاب البلدان (ليدن ـ ١٣٠٢هـ) ٠

٦٧ـ ابن الفوطي : كمالالدين عبدالرزاق (٧٢٣هـ/١٣٢٣م) ٠
ـ تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب ج ٤ قسم ١ـ٣ (تحقيق الدكتور مصطفى جواد ١٩٦٢ ـ١٩٦٥م) ، جـ٥ (تصحيح وتعليق الحافظ محمد ابن عبدالقدوس ـ ١٩٤٠م) ٠

٦٨ـ الفيروزآبادي : مجدالدين محمد بن يعقوب (٨١٧هـ/ ١٤١٤م) ٠
ـ القاموس المحيط ، ٤ أجزاء (مطبعة شركة فن الطبع القاهرة ـ ١٩١٣) ٠

٦٩ـ قدامة بن جعفر : أبوالفرج الكاتب البغدادي (٣٣٧هـ/ ١٩٤٨م) ٠
ـ نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ـ باعتناء دى غوية ـ نشر مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة (مطبعة بريل ، ليدن ـ ١٣٠٩هـ) ٠

٧٠ـ القزويني : زكريا بن محمد بن محمود (ت٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) ٠
ـ آثار البلاد واخبار العباد (دار صادر دار بيروت) ٠

٧١ـ القلقشندي : أحمد بن علي بن أبي اليمن القاهري (ت٨٢١هـ /١٤١٨م) ٠
ـ صبح الاعشى في صناعة الانشا ١٤ جزءا (المطبعة الاميرية ـ دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩١٣ـ١٩٢٢) ٠

٧٢ـ ابن القلانسي : أبو يعلى حمزة بن أسد (ت٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) ٠
ـ ذيل تاريخ دمشق ـ باعتناء هـ٠ف٠ آمدروز (مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت) ٠

٧٣ـ القفطي : جمال‌الدين أبوالحسن علي بن يوسف (ت٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) ٠
ـ تاريخ الحكماء (ليبك ١٩٠٣) ٠
ـ تاريخ الحكماء (ليبسك ١٩٠٣) ٠

٧٤ـ ابن قطلوبغا : أبوالعدل زين‌الدين قاسم (ت٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م) ٠
ـ تاج التراجم في طبقات الحنفية (مطبعة العاني بغداد ـ ١٩٦٢) ٠

٧٥ـ ابن كثير : اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)٠
ـ البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ جزءا، مطبعة السعادة ، القاهرة ـ ١٩٣٢م) ٠

٧٦ـ ماري بن سليمان :
ـ اخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل (روما ١٨٩٩م) ٠

٧٧ـ محمد تقي الدين عمر : محمد بن شاهنشاه صاحب حماة (١٧هـ/١٢٢٠٦م) ٠
ـ مضمار الحقائق وسر الخلائق (تحقيق الدكتور حسن حبشي عالم الكتب القاهرة ـ ١٩٦٨م) ٠

٧٨ـ المقدسي البشاري : محمد بن احمد (ت٣٧٥هـ/٩٨٥م) ٠
ـ أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (تحقيق دي غوية ، مطبعة بريل ، ليدن ـ ١٩٠٦م) ٠

٧٩ـ المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) ٠
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٦ أجزاء (تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة (دار الكتب المصرية القاهرة ـ ١٩٣٦م) ٠
ـ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار جزءان (مطبعة بولاق ـ ١٢٩٠هـ) ٠
ـ اغاثة الأمة بكشف الغمة (نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة) ٠

٨٠ـ المسعودي : أبو الحسن علي بن أبي الحسين علي (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) ٠
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر في التاريخ ٩ أجزاء ٠

٨١ـ مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد (ت٣٥٢هـ/٩٦٣م) ٠
ـ تجارب الامم جـ٢ (مصر ـ ١٩١٥م) ٠

٨٢ـ المنذري : زكي الدين أبو محمد عبدالعظيم بن عبدالتوبى (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ٠
ـ التكملة لوفيات النقلة جـ١ (تحقيق بشار عواد معروف ، بغداد ـ ١٩٦٨م) ٠

٨٣ـ ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١/ ١٣١١م) ٠
ـ لسان العرب ـ ١٥ جزءا ، دار صادر دار بيروت ـ بيروت ٠

٨٤ـ ابن منقذ : أسامة الكناني الشيزري (ت٥٨٤هـ/١١٨٨م) ٠
ـ كتاب الاعتبار (تحقيق فيليب حتى (مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة ـ ١٩٣٠) ٠

٨٥ـ ابن المعمار : ابو عبدالله محمـــد بن أبي المكارم البغدادي الحنبلي (ت٦٤٢هـ/١٢٤٤م) ٠

ـ كتاب الفتوة (تحقيق الدكتور مصطفى جواد وزملائه (مطبعة شفيق ، بغداد ـ ١٩٦٠م) ٠

٨٦ـ المجوسي : علي بن العبـــاس (توفي حوالي ســـنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م) ٠

ـ كامـــل الصناعة الطبية ، جـــزءان (المطبعة الكبرى ـ ١٢٩٤هـ) ٠

٨٧ـ ابن المقرب : جمال‌الدين علي العيـــوني الاحسائي الشاعر (ت٦٣١هـ/١٢٣٣م) ٠

ـ ديوان ابن المقرب ، تحقيـــق عبدالفتاح محمد الحلو (ط١٠ القاهرة ـ ١٩٣٦) ٠

٨٨ـ المنشىء النسوي : محمد بن احمد (ت٦٤٧هـ/١٢٤٩م) ٠

ـ سيرة السلطان جلال‌الدين منكبـــرتي (تحقيق حافظ احمـــد حمدي ، مطبعة الاعتمـــاد ، مصر ١٩٥٣م) ٠

٨٨ـ ناصر خسرو : علوي (القرن الخامس الهجري) ٠

ـ سفرنامه (بالفارسية ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٤٥م) ٠

٩٠ـ ابن واصل : جمال‌الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م)

ـ مفرج الكـــروب في اخبار بني أيـــوب (تحقيق الدكتور جمال‌الدين الشيال ـ الجمهورية العربية المتحدة) ٠

٩١ـ ياقوت الحموي : شهاب‌الدين أبـــو عبدالله الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ٠

- معجم البلدان (ليبسك ١٨٦٦ - منشورات مكتبة الاسدي ، طهران) .

٩٣- اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (ت٢٨٤هـ / ٨٩٧م) .

- البلدان (المطبعة الحيدرية ، النجف ١٩١٨) .

٩٣- اليونيني : قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت٧٢٦هـ / ١٣٩٥م) .

- ذيل مرآة الامان ، ٤ أجزاء (الطبعة الاولى ، مطبعة مجلس دائرة المعارف - حيدرآباد ، الهند ١٩٥٤م) .

٢ ـ المراجع الحديثة :

١ ـ آدم متز :

ـ الحضارة الاسلامية في القــرن الرابع الهجري ، الطبعة الثالثة ، ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة ، مطبعة لجنة التـأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧ ٠

٢ ـ أمين ، الدكتور حسين ٠

ـ تاريخ العــراق في العصر الســلجوقي (مطبعــة الارشاد ، بغداد ـ ١٩٦٥م) ٠

٣ ـ بارتبولد ، ف

ـ تاريخ الحضارة الاسلامية (ترجمة حمزة طاهر ـ الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٣) ٠

٤ ـ باركر ، ارنست :

ـ الحروب الصليبية (ترجمة الدكتور الباز العريني مصر ـ ١٩٦٠) ٠

٥ ـ بيلى ، الدكتور احمد :

ـ حياة صلاح الدين الايوبي (المطبعة الرحمانية ، الطبعة الثالثة ، مصر ـ ١٩٢٦) ٠

٦ ـ بابو اسحق ، روفائيل :
ـ أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية ، مطبعة شفيق ، بغداد ـ ١٩٦٠م) ٠
ـ تاريخ نصارى العراق (مطبعة المنصور ، بغداد ١٩٤٨م) ٠
٧ ـ بدري محمد فهد :
ـ العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري (مطبعة الارشاد ، بغداد ـ ١٩٦٧) ٠
ـ تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير (مطبعة الارشاد ، بغداد ـ ١٩٧٣) ٠
٨ ـ جماعة من المستشرقين :
ـ تراث الاسلام ، جزءان ، جـ١ (ألفه جماعة من المستشرقين باشراف السير توماس ارنولد ، عربه وعلق على حواشيه جرجيس فتح الله ، المطبعة العصرية ، الموصل ١٩٥٤) ٠ جـ٢ (ترجمة وتعليق الدكتور زكي محمد حسن ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٣٦)
٩ ـ الجراري ، عبدالله عباس :
ـ تقدم العرب في العلوم والصناعات واستاذيتهم لاوربا (الطبعة الاولى ـ ١٩٦١) ٠
١٠ ـ الحسيني ، الدكتور محمد باقر :
ـ العملة الاسلامية في العهد الاتابكي (مطبعة دار الجاحظ ، بغداد ـ ١٩٦٦) ٠

١١ـ حسن ، الدكتور علي ابراهيم :
ـ تأريخ المماليك البحرية (مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧) .

١٢ـ حلمي ، الدكتور محمد حلمي محمد أحمد :
ـ الخلافة والدولة في العصر العباسي (مكتبة الشباب ، الطبعة الثانية ١٩٧٢) .
ـ الخلافة والدولة في العصر الأموي (دار الطباعة الهنا ، الطبعة الاولى ١٩٦٦) .

١٣ـ خصباك ، الدكتور جعفر حسين :
ـ العراق في عهد المغول الايلخانيين ، الطبعة الاولى، مطبعة العاني ـ بغداد ١٩٦٨) .

١٤ـ الدوري ، الدكتور عبدالعزيز عبدالكريم :
ـ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٤٨) .

ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة (مطبعة السريان ، بغداد ١٩٤٥) .
ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي (دار الطليعة بيروت ـ ١٩٦٩) .

١٥ـ الديوهجي ، سعيد :

ـ الموصل في العهد الاتابكي (مطبعة شفيق ، بغداد ١٩٥٨) .

١٦ـ ديماند ، (م٠س) :
ـ الفنون الاسلامية (ترجمة أحمد محمد عيسى مطبعة دار المعارف ، مصر) .

١٧ـ ريجار كوك :
ـ بغداد مدينـة السلام جـ١ (ترجمـة فؤاد جميل والدكتور مصطفى جواد ، بغداد ـ ١٩٦٢) ٠
١٨ـ رايس ، تامارا تالبوت :
ـ السلاجقة ـ تاريخهم وحضارتهم (ترجمة لطفي الخوري وابراهيم الداقوقي ، مطبعة الارشاد بغداد ١٩٦٨) ٠
١٩ـ الريس ، محمد ضياءالدين :
ـ الخراج في الدولـة الاسلامية (الطبعـة الاولى ، مطبعة نهضة مصر ١٩٥٧) ٠
٢٠ـ السامر ، الدكتور فيصل :
ـ الحمدانيون في الموصـل وحلب ، جزءان (الجزء الاول الحمدانيون في الموصل ، مطبعة الايمان بغداد ١٩٧٠) ٠ (الجزء الثـاني الحمدانيون في حلب ، بغداد ـ ١٩٧٣) ٠
٢١ـ سعداوي ، الدكتور نظير حسان :
ـ التـاريخ المصري الحـربي في عهـد صلاح‌الدين الايوبي (مطبعة لجنة البيان العربي ـ ١٩٥٧) ٠
٢٢ـ زكي ، محمد أمين :
ـ تاريـــخ الدول والامارات الكرديـــة في العهد الاسلامي (باللغة الكردية ترجمة محمد علي عوني ، مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ١٩٤٨) ٠
ـ خلاصة تـاريخ الكرد وكردسـتان ، ط القاهرة ١٩٣٦م ٠

٢٣ــ سرور ، الدكتور محمد جمال‌الدين :
ــ دولة الظاهر بيبرس في مصر (دار الفكر العربي ، ١٩٦٠) .
ــ تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق من عهد نفوذ الاتراك الى منتصف القرن الخامس الهجري (الطبعة الثالثة ، القاهرة ــ ١٩٧٣) .

٢٤ــ رشيد الجميلي :
ــ دولة الاتابكة في الموصل بعد عمادالدين زنكي (الطبعة‌الاولى ، بيروت ١٩٧٠) .

٢٥ــ زامباور ، ادوارد فون :
ــ معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، جزءان (مطبعة جامعة فؤاد الاول ، ترجمة الدكتور زكي محمد حسن وزملائه ــ ١٩٥١) .

٢٦ــ الصائغ ، القس سليمان :
ــ تأريخ الموصل ، جزءان (جـ١ ، المطبعة السلفية ، مصر ــ ١٩٢٣) . (جـ٢ ، المطبعة الكاثوليكية ــ بيروت) .

٢٨ــ العزاوي ، عباس :
ــ التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري . (مطبعة المعارف ، بغداد ــ ١٩٥٣) .

٢٨ــ عباس ، العزاوي :
ــ تاريخ النقود العراقية (بغداد ــ ١٩٥٨) .
ــ تاريخ الضرائب العراقية (بغداد ــ ١٩٥٩) .

٢٩ــ عرنوس ، محمد بن محمود :
ــ تاريخ القضاء في الاسلام (المطبعة المصرية الاهلية الحديثة ، القاهرة) ٠

٣٠ــ عمادالدين خليل :
ــ عمادالدين زنكي (الدار العلمية بيروت ــ ١٩٧١)٠

٣١ــ طرخان ، الدكتور ابراهيم علي :
ــ النظم الاقطاعيــة في الشرق الاوسط في العصور الوسطى (دار الكاتب القاهرة ــ ١٩٦٨) ٠

٣٢ــ عاشور ، الدكتور سعيد عبدالفتاح :
ــ دولة الظاهر بيبرس (سلسلة اعــلام العرب رقم ١٤) ٠
ــ مصر في عصر دولة المماليك البحرية (نشر مكتبة النهضة المصرية) ٠
ــ تاريخ الحركة الصليبية ، جزءان (مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ــ ١٩٢٣) ٠

٣٣ــ العريني ، السيد الباز :
ــ الشرق الاوسط والحروب الصليبية (دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٣) ٠

٣٤ــ فتحي عثمان :
ــ الحدود الاســلامية البيزنطيــة بــين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ٠ (الكتاب الاول ، في الظروف التاريخية والجغرافية ، القاهرة ١٩٦٦)٠

٣٥ــ لسترنج ، كي :
ــ بغداد في عهــــد الخلافة العباسية (ترجمـــــه عن

الانكليزية وعلــق عليه بشير يــوسف فرنسيس (المطبعة العربية ، بغداد ـ ١٩٣٦) .
ـ بلدان الخلافـة الشرقيـة (ترجمة بشـير يوسف فرنسيس وكوركيس عواد ، مطبعة الرابطة بغداد ، ١٩٥٤) .

٣٦ـ محمود ياسين أحمد :
ـ الامارة المروانية في دياربكـر والجزيرة (رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة ، جامعة بغداد ١٩٧٠) .

٣٧ـ مشرفة ، الدكتور عطية :
ـ القضاء في الاسلام (الطبعة الثانية ـ ١٩٦٦) .

٣٨ـ ماجد والبنا ، عبدالمنعم ماجد وعلي البنا :
ـ الاطلس التـاريخي للعالم الاسـلامي في العصور الوسطى (دار الفكر العربي القاهرة ـ ١٩٦٠) .

٣٩ـ محمود المظفر :
ـ أحياء الاراضي الموات (المطبعة العالمية بالقاهرة ، ١٩٧٢) .

٣ ـ أبحاث نشرت في بعض المجلات العربية والأجنبية :

أ ـ المجلات العربية :

١ ـ طه باقر :
ـ دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية (مجلة سومر مجلد ٩ جـ١ / ١٩٥٣) ٠

٢ ـ يوسف غنيمة :
ـ النقود العباسية (مجلة المجمع العراقي مجلد ٤ جـ١/١٩٥٦) ٠
ـ الدينار الاسلامي لملوك الطوائف والمتغلبة على الدولة العباسية (الدينار الاتابكي) ٠

٣ ـ ابراهيم شوكة :
ـ الاصطرلاب ، طرق وأساليب رسمه وصنعته (مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١٩/ ١٩٧٠) ٠
ـ قطعة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق قسم الجزيرة والعراق للشريف الادريسي (تحقيق ابراهيم شوكة) ٠

٤ ـ عبدالعزيز الدوري :
ـ نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية ، (مجلة

المجمع العلمي العراقي ، المجلد العشرون ١٩٧٠) .
ـ نشوء الاصناف والحرف في الاسلام . (مجلة كلية الاداب ـ بغداد ، عدد١/حزيران ١٩٥٩) .

٥ ـ رزوق غنيمه :
ـ صناعات العراق في عهد العباسيين (مجلة غرفة تجارة بغداد سنة ١٩٤١) .

٦ ـ صالح أحمد العلي :
ـ الانسجة في القرنين الاول والثاني (مجلة الابحاث ج٤/كانون الاول ، دار الكتب، بيروت ـ ١٩٦١) .

٧ ـ مصطفى جواد :
ـ الفتوة والفتيان :
(مجلة لغة العرب مجلد ٤ لسنة ١٩٣٠/ بغداد) .
ـ أولية الشرطة وأطوارها وأصنافها عند العرب (مجلة الشرطة والأمن: العدد الاول/شركة الاعظمي للطباعة ـ بغداد) .
ـ الفتوة وأطوارها وأثرها في توحيد العرب والمسلمين (مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد٥/ ١٩٥٨) .

٨ ـ حسين محفوظ علي :
ـ النوروز في الادب العربي (مجلة التراث الشعبي عدد ٨ نيسان ـ بغداد ١٩٦٤) .

٩ ـ ميخائيل عواد :
ـ العروب في العراق (مجلة الرسالة/العدد ٦٣٠/ بغداد) .

ب ـ المجلات الاجنبية :

1. Bulletine of the school of oriental And African studies: vol. (XV.) David Ayalon (studies on the structure of the Mamilup Army.

1. **Barker, E.**

   — The Crusades. (London, 1929).

2. **Baldwin:**

   -- Crusades, Vol., 1, (Philadelphia-1955).

3. **Cahen (Claude):**

   — La Syrie du Nord, à L'Epoque des Croisades, (Paris-1940).

4. **Duggn, A.:**

   — The story of Crusades. (London-1965 .

5. **Gibb: H.H.R.:**

   — The Damascus Chronical of he Crusades. (London-1932).

   -- Zengi and the Fall of Edessa (Setton, Vol. 1,).

6. **Grousset, Rene:**

   — Histoire des roisades et du Royaume de Jèrusalem, 3 vols. (Paris 1934-1936).

7. **Lane-Poole, Stanely:**

— A. History of Egypt in the Middle Ages, (London-1925).
— The Mohammadam Dynasties (Paris-1925).
— Saladin and the Fall of the Kingdom of Jèrusalem, (London-1906).
— The Art of the Saracans in Egypt (London-1886).

8. **Nicholson, Robert, L.:**

— The Growth of the Latin States, (1118-1144).

9. **Runciman, Steven:**

— A History of the Crusades 3 vols. (Cambridge-1957).

10. **Stevenson: W.B.:**

— The Crusaders in the East, (Cambridge-1907).

11. **Migeon (Gaston):**

— Manuel d'art museulman (vol. 11, Paris-1907).
— Les Cuivres Arabes. Gazette Des Beauxarts (1899-1900).

12. **Komorff, Manuel, Editor:**

— The Travels of Marco Polo (The Modern Library, New York).

13. **J.M. Fiey (O.P.):**

— Mossoul Chretienne, vol. XII Collection Recherches, Lainstitut de Lettres Orientales (de Beyrouth, 1959).

— Assyrie Chretienne, vol. XXII. Collection Recherches Lainstitut de Letters Orientales (de Beyrouth, 1965).

14. **Rice, D.S.:**

— The Oldest Dated "Mosul" (Candlestick Burlington Magazine 1949).
— Inaid Brasses from the workshop of Ahmed Al Dhaki Al Mawsili. (1957).

15. **Rice, Tamara, T.:**

— The Sel uks in Asia Minor (London-1961).

16. **Baron, Salo Wittmayer:**

— A Social and Religious History of the Jemes, 2nd Edition 8 vols. (Columbia University Press, New York).

17. **Sassoon, David Solomon:**

— A History of the Jewes in Baghdad (Letchworth,. 1949).

18. **Setton, Kenneth, M.:**

— A History of the Crusades, (vol. 1 Pennsyvania, 195 -1956).

19. **R.G. Smail:**

— Grusading worfare. (Cambridge (1 56).

20. **The Encyclopaedia of Islam:**

— (Art Djrib), (Art Dirar), (Art Dirham), (Art Diwan), r(Art Baddr al-Din-Lulu).

21. **The Encyclopaedia of Islam:**

— S.V. Kourd (by V. Minorosky)....... ....,...,.... ...

22. **Mustawfi of Qazin,:** Hamd-Allah,

— The Geographical part of the Nu hat-Al-Qulub, Translated, by G. Le Strange (Leyden, 1919).